رسالة بأثر رجعي

نبيل رجب

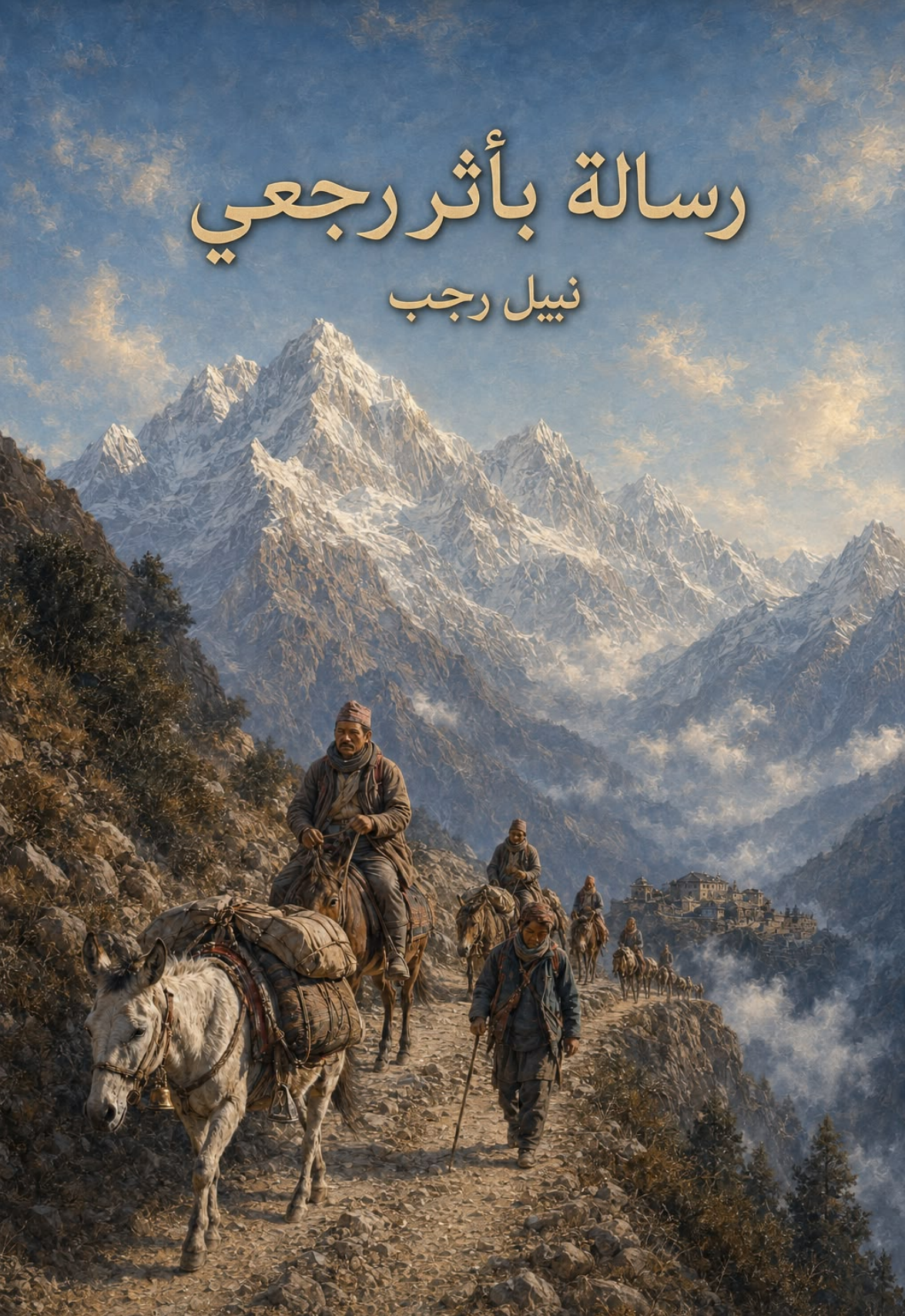

رسالة بأثر رجعي

نبيل رجب

مقدّمة

أنجزت المسودة الأولى لهذا الكتاب في خلوة اضطرارية، وجدتها مكانًا مناسبًا لاسترجاع الذاكرة وتحفيز المشاعر وصناعة الخيال. كان لمرارة الوحدة دورها في إشعال شرارة الكتابة، ولولاها لانشغلت كعادتي في هموم الدنيا وأحداثها التي لا تنتهي.

هي رواية مستوحاة من تجربة شخصيّة وقصّة حقيقيّة عشتها قبل عقود من الزمن، تركت آثارًا كبيرة على حياتي، غير أنّ الأحداث والحوارات المكتوبة هي نسج بين الحقيقة والخيال، منتزعة من بطن الواقع الذي عشته، والتجارب التي خضتها، والثقافة التي أسعى لتعزيزها.

حرّضتني عائلتي على استثمار عزلتي في توثيق شيء من سيرة حياتي، بدلًا من تبديد الوقت في لا شيء؛ لهذا حرصت خلال السنوات الثلاث الأخيرة من تلك الخلوة على الاستفادة بما تيسّر من ظروف وإمكانيّات شحيحة، من أجل تحويل الواقع المؤلم إلى عمل كتابي، يبقى ذكرى مهمّة يطلّع عليها أبناء جيلي والأجيال القادمة.

جعلتني تلك الوحدة أعيش سنواتي على ما أمتلكه في مخزون ذكرياتي، أو ما تُنتجه مخيلتي من تصوّرات وأفكار مرتبطة بمعتقداتي ورؤيتي للحياة، وهي حالة نفسيّة خاصّة يشعر بها كلّ من عاش عزلة طويلة مع نفسه، ساعدتني في تحفيز ذاكرتي لاستحضار الماضي وإنجاز هذه العمل.

ظننت أن تبييض ما سوّدته في خلوتي، واستكمال ما بدأته بعد عودتي سيكون أمرًا سهلًا، لكنّي كنت مخطئًا. الانتهاء من هذا العمل استغرق منّي وقتًا وجهدًا فاق تصوّري بشكل كبير. وجدتُ نفسي واقعًا بين أمرين كلاهما ضروري: الحاجة إلى عزلة جديدة وغياب عن التفاعل الاجتماعي والتواصل البشري الطبيعي، وضرورة قضاء الوقت مع أفراد أسرتي الذين حسبوا الأيام والساعات لعودتي، وتطلّعوا إلى أن أعوّضهم عن سنوات بُعدي عنهم، ولاسيّما ابني آدم وابنتي ملَك، فقد حرمتني خلوتي أن أكون معهما في أجمل سنوات طفولتهما، وصرت أطمح إلى قضاء ما تبقى لي من العمر معهما وزوجتي. لهذا قرّرت الموازنة بينهما قدر الإمكان.

كنت عازمًا على السفر إلى الهند والنيبال؛ لأكون قريبًا من الأماكن التي وقعت فيها الأحداث ويكون وصفي للأشياء

والأمكنة أكثر دقّة، فقد مضى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا على تجربتي، إلّا أنّ مَنْعي من السفر بسبب حكم قضائي حال دون ذلك، ما دفعني لأستعينَ بالبحث عبر الإنترنت وبعض الوثائق والصور القديمة، كذلك التواصل مع الأصدقاء النيباليين والهنود الذين عملوا معي في بعض المؤسّسات الدوليّة، أو صادف أن التقيتهم بعد عودتي، وهو الأمر الذي مكّنني من سدّ هذه الثغرة، ولو لدرجة معقولة.

أشعر اليوم بالندم؛ لأنّني لم أبدأ الكتابة إلّا في وقت متأخر من عمري، رغم تراكم تجاربي التي تحتاج أنْ تُروى أو يُكتب عنها. تقصير أعزوه لسببين: انشغالي بالحياة وأحداثها المتتالية وعملي الحقوقي الذي شغل جلّ وقتي في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، والسبب الثاني أنّني لم أمارس الكتابة إلّا في الأربعين من العمر، حين وجدت نفسي، وبحكم عملي، مُجبرًا على كتابة التقارير الحقوقيّة حول البلدان التي أُغطيها أو أزورها ضمن بعثات تقصّي الحقائق، ومنه بدأتُ مشواري في الكتابة الذي أرجو ألّا يتوقّف.

صرتُ اليوم على قناعة أنّه قد جاء الوقت والمرحلة العمريّة التي ينبغي عليّ أن أبدأ فيها بتوثيق ما عندي، وإفراغ ما لدّي من

مخزون راكمتُه عبر السنين، ونقلِهِ إلى صفحات مقروءة يطّلع عليها الجميع، خاصّة الذين يشاركونني الاهتمامات والقيم نفسها، قبل أن تُدفن معي تحت التراب، أو تمحوها الشيخوخة من الذاكرة.

تطلَّب منّي هذا الكتاب العودة زمنيًا إلى الماضي البعيد، والعيش ذهنيًا في تلك الحقبة القاسية والمظلمة من حياتي. أشعرني ذلك ببعض التوتّرات والانفعالات النفسيّة، رغم كلّ هذا الزمن، خصوصًا أنّني استنتجت عبر الكتابة، مزيدًا من الخيوط والتفاصيل التي كنتُ أجهلها عند حدوثها.

أخيرًا، أودُّ أن أشـدّد على أن هذا العمل، هو المحاولة الأولى لي في الكتابة، أسعى – من خلالها – إلى نقل بعض ما أملك من فكر وتجربة وخيال، راجيًا لمحاولتي هذه النجاح، وأن تكون دافعًا لأعمال أخرى. ومن هذه المنطلق أناشد القرّاء وأصحاب الذوق والحسّ النقدي، لفتي إلى أيّ ملاحظة، أو رأي نقدي أو (تكنيك كتابيّ)، سواء في هذا العمل أو الأعمال المستقبليّة القادمة بإذن الله.

لا يمكن بأي شكل من الأشكال، الاعتماد على معلومات هذه السيرة الروائية، أو الاستدلال بها كمرجعٍ تاريخيٍ، ولا نقلها كحقيقة مطلقة أو وثيقة يُعتد بها قانونيًا، كما أن جميع الأسماء والجهات الأمنية الواردة في هذه الرواية، هي أسماء غير حقيقية، وضعت لخدمة النصّ الروائي.

إهداء

إلى أمي التي لم تسعني الظروف لمعانقتها، إلا على دِكة مغتسل الموتى..

لأسرتي، وأصدقائي، الذين وقفوا معي في أحلك الظروف وأصعبها..

لكل إنسان دافع عن حقوق الإنسان..

لأحـفـادي، وأحبائي الذين أوصيهم أن يكونوا أفـرادًا صالحين، يحملون رسالتي الإنسانية

كلمة شكر

هناك أفراد لا بد من تقديم الشكر والثناء لوقفتهم، والتقدير والعرفان لجهدهم العظيم والإقرار بإسهاماتهم الثرية والمتميزة، في إنجاح مشروعي هذا والذين لولاهم ما ظهر الكتاب بمادته، ولا بهيئته التي أمامكم.

رفيق السجن الأقرب قلبًا ومكانة، مدرس اللغة العربية الأستاذ الأردني خلدون الرشيد. رافق بداية مشواري، وساهم بشكل كبير في مساعدتي، وتصحيح هفواتي وتمكيني لغويًا. أعدّ نفسي محظوظًا أن كنت إلى جواره في تلك الفترة بالذات. كذلك الأستاذة القديرة والزميلة الدائمة ابتهال سلمان التي لم ألجأ لها، إلا لأني من المؤمنين بآرائها وأهمية لمساتها الفنية. كانت لي خير داعم وعون في مراجعة النص وتقديم توصيات فنية، ونصائح ومقترحات أغنت العمل.

والشكر - بلا حدود - لأصدقائي وأفراد عائلتي الذين قدموا دعمهم، ومساندتهم، وملاحظاتهم لي خاصة زوجتي سمية، وأخي رضا اللذين كانا الأكثر إلحاحًا عليّ للكتابة طوال السنوات السابقة وكذلك الصديق الدكتور عبد الواحد كاظم

على مراجعته اللغوية للنص وتقديم مقترحاته المهمة. وأخيراً.. أشكر الكاتبة باسمة القصاب، تكفّلت بمراجعة النص النهائي، أجرت عليه ما أسمته (عمليات الشفط والشدّ)، لتشذيب النصّ من الزوائد، وإعادة تحرير ما لزم. ممتن لكل الأصدقاء، الذين شاركوني بملاحظاتهم وآرائهم، خلال عملي على هذه السيرة الروائية.

1-1
رسالة بأثر رجعي

في شقة صغيرة متفرّعة من بيت عائلتي الكبير في بني جمرة، اعتدت وزوجتي سامية الجلوس في الصالة ظهيرة كل يوم، ثمّة ما ننتظر سماعه بشغف، كوكب الشرق أم كلثوم التي تُذاع أغانيها على قناة الإمارات العربية المتحدة، أتابعها منذ كنت طالبًا في مدرسة الحورة الثانوية. هذه الصالة هي مكان تجمُّع أسرتي المكونة من أربعة أفراد، وهي مكتبي أيضًا ومكان عملي، يشاركنا المكان حاسوبي الذي أعمل عليه طوال الوقت. في المطبخ المفتوح على صالة الجلوس، تعدّ زوجتي وجبة الغداء ليكون جاهزاً قبل عودة ابنينا آدم ومليكة من المدرسة، ما إن يدخلا حتى يستعجلا الغداء.

أبدأ عملي كل صباح بتصفح مواقع الأخبار على الإنترنت، لذلك أهمية في عملي كمدافع عن الحقوق ومستشار في بعض المنظمات الإقليمية والدولية المعنية بحقوق الإنسان، أنتقل بعدها إلى صندوق واردات بريدي الإلكتروني، رسائل زملاء عمل، أو مناشدات من بعض بلدان المنطقة الجغرافية

التي أتابع شؤونها (الشرق الأوسط وشمال أفريقيا). أغلب تلك المناشدات تأتي من أفراد أو جماعات محلية تتعرّض لانتهاكات في الحقوق، تطالبنا بالتحرّك العاجل من أجل وقفها، بالطرق المشروعة التي نعمل عليها في منظماتنا.

ظهيرة ذلك اليوم الصيفي الغريب من شهر مايو عام 2016، وبينما كوكب الشرق أم كلثوم تغني (فكروني)، كنتُ منهمكًا في تصفح الرسائل في صندوق الواردات واحدة تلو الأخرى، لفتتني رسالة عنوانها: «أبحث عن رفيق». لم أتمكن من التعرف على المُرسل مباشرة. لا أعرف لماذا وجدت نفسي أتخطى الرسائل التي سبقتها وأنقر عليها بالذات. مررت على أسطرها الخمسة الأولى فشعرت بقشعريرة تسري في جسدي، ووجدتني أردّد: «يا إلهي، لا أصدق ما تراه عيني».

كانت مفاجأة غير متوقعة أحيتْ عندي مشاعر متضاربة، وأعـادت ذكريات قديمة ما زالت محفورة في ذاكرتي رغم مـرور ثلاثة عقود من الزمن. وجـدت نفسي أبتسم منبهرًا، وراحت ذاكرتي تستحضر الحكاية من أعماق ذاكرتي وعقلي الباطن، تلك التي أخفيتها عن الجميع طيلة هذه السنوات بمن فيهم زوجتي وأولادي. أردت تجاوز تلك التجربة المريرة

التي عشتها وامتدت بين عدة دول، كذلك أحداثها الخطيرة التي كادت أن تودي بحياتي في مرحلة ما، لكن رغم ويلاتها وصعوباتها وعذاباتها الجسدية والنفسية، شكلتْ لي تجربة ثرية تعلمت منها الكثير، بل أثّرت في بناء شخصيّتي وتكوين هويتّي كمهتمّ وناشط في حقوق الإنسان.

وقفت زوجتي سامية مشدوهة أمام ذهولي، في اللحظة التي دخل فيها آدم ومليكة عائدَين من المدرسة، حامِلاً كل منهما حقيبته فوق ظهره، تبادلا النظرات وهما يشاهدان جمودي أمام الحاسوب ودهشة والدتهما وهي تسألني: «ما الخطب يا نادر؟! ما الذي أثار استغرابك بهذه الصورة؟!». لم التفت إليها أو أسمع ما قالته، بقيت تائهًا في قراءة الرسالة وأنا أردّد العبارة ذاتها: لا أصدق. كأني في عالم آخر لا أشعر بمن حولي. اشتعلَ فضول ولديّ اللذَيْن وقفَا مذهولَيْن، فيما زوجتي تعيد سؤالها:

«شغلتنا معك يا عزيزي، صَمتك أثار فضولي نحو الرسالة ومضمونها، أخبرني ممن هي؟ ولم كلّ هذه الدهشة»؟!. قفز ابني آدم ضامًّا صوته الى أمه:

«نعم يا أبي، على الأقل اقرأها على مسامعنا، جميعنا متلهفون لسماع ما تحويه، بمن فينا مليكة، أليس كذلك؟». قال

ذلك محاولاً كسب صوت أخته التي أجابت بلا تردد: «نعم أرجوك يا أبي».

أخذ الجميع أماكنهم على الأريكة التي تفصل بين الصالة والمطبخ، جلس الثلاثة والحماس يقفز من أعينهم. رحت أنظر إليهم حائرًا أسأل نفسي ما عساي أقول؟ كيف أصارحهم بأمر أخفيتهُ كل هذه السنوات الطويلة.

قلت: «في الحقيقة، هذه رسالة مهمة جدًا بالنسبة لي، وقد فكّت عندي لغزًا كان يحيرني منذ زمن طويل، أغلقت فصلاً هامًا في حياتي كنت أنتظر أن أضع له نهاية. وهي حكاية كتمتها عن الجميع حتى الأقربين من عائلتي، لكن ليتكم تدركون حجم سعادتي الآن وأنا أمرُّ على تلك السطور التي وضعتُ لها نهاية سعيدة».

توقعت ما يدور في خلدهم من تساؤل، فقلت: »نعم لم أطلعكم على هذه القصة مراعاةً لمشاعركم، ولكيلا تشعروا في وقت من الأوقات أنني تحت تهديد أو خطر يزرع عندكم حالة من القلق على حياتي، وهو ما لا أريد تحميلكم إيّاه». أضفتُ: «على أية حال، لن تفهموا شيئًا من هذه الرسالة لو قرأتُها لكم وستبدو عادية، إلى أن تعرفوا الأحداث التي سبقتها وتفاصيلها

وسياقاتها التاريخية. وهي حكاية حدثت قبل ثلاثة عقود من الزمان، أي إنها سبقت اقتراني بوالدتكم».

قالت زوجتي مشجّعة: «أرى في تعابير وجهك أنها أحداث مهمة ومشوقة، ويفترض أنها بعد كل هذا الوقت غير مقلقة».

قلت: «نعم كانت تجربة غنية ومهمة بتفاصيلها، تركت أثرًا بالغًا في مجريات حياتي وصناعة شخصيتي. الأكيد أني لم ولن أنسى مرارة تلك التجربة وصعوبتها، وأخشى ألّا تنسوها أنتم أيضًا متى سمعتموها». كانت الوجوه حولي تزداد حماسًا مع كل كلمة أنطق بها.

«هذا يجعلنا أكثر لهفةً وشوقًا لسماع قصتك يا أبي، اليوم وليس غدًا». قال آدم قبل أن تضيف مليكة: «نحن جالسون معك ولن نتحرك حتى تبدأ الحديث عن قصتك، وإنْ تأخر الوقت إلى منتصف الليل، ما دامتْ أمي ستوفر لنا الطعام والمقرمشات؟»

ابتسمت زوجتي: بكل تأكيد..

وهكذا وجدت نفسي أروي لهم قصتي، منذ اليوم الذي سافرت فيه إلى الهند.

2
الرحيل عن الوطن

إنه منتصف يونيو 1983، في الثامنة عشر من عمري، أغـادر بلدي من أجـل إكمال مشواري التعليمي. اتخذت قراري بدراسة العلومَ السياسية في جامعة بونا الهندية. عارض والداي هذا التخصص أول الأمر، قالا بأنه سيجلب لي الكثير من المتاعب في حياتي، خصوصًا أننا في بلاد لا يُسمح فيها بالعمل السياسي، لكن إصراري جعلهما يخضعان.

أتذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله وأحداثه. أكثر أيام عامي حزنًا وكآبة. رأيت دموع أمي تنهمر على خديها المحمرّين، تبكيني بحرارة وهي تقبض على كفيّ بقوة. لم تكن قادرة على تقبّل فكرة غيابي عنها للمرة الأولى، ولا استيعاب فراقي الطويل، وهي التي طالما ذكّرتني بتفضيلها إيـاي على بقية إخوتي برضاعتي حولَين كاملين. توسلتني ألّا أطيل الغياب، ولا أقطع التواصل معها وأفراد أسرتي، وأن أعود كلما سنحت لي الفرصة، أو في أقرب إجازة دراسية. أمنيات ورغبات ومشاعر تبادلتها معها، لكن لن تكون الأمور بتلك السهولة.

في صالة المغادرين في المطار وقفتُ أنصت لكلام قلبها المتهدّج حبًا، ونصائحها بالاهتمام بالدراسة والعودة بالشهادة الجامعية. الحصول على الشهادة الجامعية حلم بالنسبة لأمي، بل هو التحصيل الأقل الذي يمكنها قبوله لأبنائها، أرادت لنا أن نحقق ما حُرمت منه عندما أُخرِجَتْ من المدرسة قسرًا وهي في الصف الثالث الابتدائي لتزويجها، كانت تقاليد المجتمع المحافظ آنذاك تَحُول دون إكمال الفتاة تعليمها، تنتقص من حقوقها وتُقيد حريتها، تغيّر ذلك تدريجيًا مع الزمن الذي حمل وعياً آخر للمجتمع.

وقفت أمي تكرّر تحذيراتها بعبارات ظلت عالقة في ذهني لسنوات، خصوصًا تحذيرها لي من الانـزلاق في تعاطي المخدرات والمُسكرات. لم أعتد أنا الشاب الخجول القادم من أسـرة ومجتمع محافظَيْن أن أسمع مثل هذه النصائح. اعتادت أمي أن تودعني بنصائحها في كل مرة أخرج من البيت، لكن هذه المرة اختلفت توصياتها، كذلك حالتها النفسية. كررت عليّ أهمية الاحتفاظَ بوثائقي وجواز سفري في مكان آمن، محذّرة إياي من فقدانها: «إذا أضعت جواز سفرك سوف لن تتمكن من العودة لنا». كانت فكرة سائدة عند كثيرين حينها.

أوصتني كذلك بالمحافظة على النظافة، سيما أنني ذاهب إلى بلد فقير تنتشر فيه الأمراض والأوبئة بشكل كبير. النظافة عند والدتي موضوع يصل إلى حدّ الهوس، وهو إرث توارثناه منها أنا وإخوتي، ولو بدرجات متفاوتة، أما تحذيرها الأخير فهو الابتعاد عن بنات الليل والهوى المنتشرات في تلك المنطقة.

لم أكن أعرف شيئًا عن بومباي العاصمة التجارية لجمهورية الهند، قبل أن يقصدها والدي في رحلة علاجية. كانت الخدمات العلاجية والمنشآت الصحية في البحرين آنذاك متواضعة، ثم زيارته لها مرة أخرى من أجل استقدام بعض العمالة لمؤسسة مقاولاته الصغيرة، أنشأها عقب تقاعده من عمله الحكومي في إدارة الزراعة، وبسبب رخص الأيدي العاملة الهندية، اعتمدت عليها جميع مؤسسات الإنشاءات والشركات الكبرى في البحرين بشكل رئيسي.

أيضًا تعرّفت إليها – بومباي – من خلال ما سمعته وقرأته من قصص أجدادي وتجارتهم الرائجة في بيع اللؤلؤ البحريني قبل أكثر من قرن من الزمان. على جدار بيتنا عُلقت صورة جدي الرابع، اُلتقطت له في أحد محلات بيع اللؤلؤ بشارع محمد

علي الشهير في مدينة بومبي عام 1902. وبشكل عام فإن بومباي هي المركز التجاري الأكبر والأقرب إلى منطقة الخليج وتجارها منذ عدة قرون. هاجر إليها أحد إخوة جدي الرابع عبدالله الفرج، اسمه إبراهيم. جاءت هجرته نتيجة خلافات سياسية مع حكومة البلاد إبّان حكم الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر، كان رجلاً ثريًا، وهناك أنشأ حيًا كاملًا عاش فيه حتى وفاته، ولا زال ذلك الحي يحمل اسمه (ميدان إبراهيم) حتى يومنا هذا.

بحزن كبير تعانقنا أمي وأنا وتوادعنا، ثم ودّعت أبي وإخوتي وأخواتي، غاب عن وداعي ثلاثة من إخوتي كانوا قد سبقوني بمواصلة تعليمهم الجامعي بين مدينتي البصرة وبغداد في العراق، وأخيرًا ودّعت أصدقائي المقربين وزملاء الدراسة الذين تكبَّدوا عناء الحضور إلى المطار.

ببطء شديد جررت قدمَيَّ مبتعدًا تخنقني عبرة الفراق، لقد حان وقت فراقي عن أسرتي وأمي التي كانت مُدرستي وأقرب الناس إلى قلبي، كذلك أبي الكادح الذي كافح طوال حياته كي ننعم أنا وإخوتي بحياة كريمة، ورغم المصاعب المادية التي واجهته، ظلّ يعمل منذ الصباح الباكر حتى ساعات الليل

المتأخرة، ليسد حاجات أسرته المكونة من ثلاثة عشر فردًا.

وفيما كنت أعبر نحو الطائرة، أيقنت أني أنهيت فصلاً من حياتي، لأدخل تجربة جديدة. عليّ أن أحتمل العيش في المهجر وفراق كل ما أحببته منذ صباي. أسئلة كثيرة كانت تجول في رأسي لحظتها: هل سأكون قادرًا على هذه القفزة الاجتماعية الكبيرة التي أُقدم عليها؟ هل أستطيع تحمّل ألم فراق عائلتي وأصحابي؟ كيف سأعيش في بلد يختلف ثقافته وتقاليده؟! لكنه قراري الذي اتخذته بقناعة تامة وإرادة ذاتية، لم يجبرني عليه أحد، وأي تراجع في تلك اللحظات الأخيرة لم يعد مقبولًا ولا واردًا. عليّ المضي إلى الأمام ولا مكان للتراجع أو النظر إلى الخلف، بل خوض التجربة والعودة بشهادتي الجامعية محققًا طموحي وحُلم أمي.

من فوق سلم الطائرة التابعة للخطوط الجوية الهندية، لوّحت بيدي مودّعًا أسرتي وأصدقائي الواقفين على سطح مبنى المطار. أخذت مكاني في الطائرة على أحد المقاعد الخلفية، ومن النافذة رحت أخطف نظراتي الأخيرة لأرض الوطن، أسترجع شريط ذكريات طفولتي وشقاوتي في مدرسة الرشيد الابتدائية في فريق الحطب، ثم مدرسة أبو بكر الصديق

الإعدادية في المخارقة، ثم مدرسة الحورة الثانوية ومن بعدها مدرسة الشيخ عبد العزيز الثانوية، كنت خلالها شابًا مفعمًا بالحيوية، وبالأنشطة المتأثرة بأحداث العالم السياسية.

تعلمت القليل من اللغة الهندية من السيدة رفيقة چاودري العاملة في منزلنا، القادمة من شبه القارة الهندية قبل تفككها إلى دول في منتصف القرن العشرين. أقضي معها معظم أوقات طفولتي في منتصف سبعينيات القرن الماضي، تجبرني على السهر إلى وقت متأخر من الليل، وتشغلني بالأحاديث معها لتقاوم النعاس، كي تتمكن من إنجاز عملها الإضافي في تطريز حواشي العباءات والملابس التي تأتي بها نساء الجيران. مهارتها العالية في التطريز أكسبتها شهرة بين نساء الحي، ووفّرت لها دخلاً إضافيًا إلى جانب راتبها الشهري الذي تتقاضاه من والدي. هذه الأحاديث الليلية ساعدتني كثيرًا في تعلم اللغة الهندية.

اكتسبت كذلك شيئًا من اللغة والثقافة الهندية عبر اختلاطي بالعمال في مؤسسة والدي. كان حريصًا أن نعمل أنا وإخوتي في المؤسسة خلال الإجازة الصيفية، لا من أجل المال بل من أجل صناعة رجال أشداء. أما الأفلام الهندية فكان لها حصتها

الكبيرة من مشاهدات البحرينيين في التلفاز والسينما آنذاك، حتى صار الكثير منا يفهم اللغة الهندية، وإن بدرجات متفاوتة.

ستكون محطتي الأولى، في هذه الرحلة، مدينة بومباي (سُميت مومباي في السنوات اللاحقة)، ثم سأنتقل لاحقًا إلى مدينة بونا، أو بوني كما يسميها آخرون، سأقضي فيها سنوات دراستي الجامعية. لا أعرف عنها غير معلومات قليلة وتوصيات أخبرني بها بدر صديقي في المدرسة، حاول إقناعي بالانضمام إليه في الجامعة نفسها، والمدينة التي سبقني إليها، يلجأ إليها الطلبة من أبناء العائلات ذوي الدخل المتوسط من البحرين وغيرها، بسبب تعدد جامعاتها ورخص معيشتها وحيوية الحياة الاجتماعية فيها وبساطتها، كما هو حال أغلب مدن الهند التعليمية، ولو بتفاوت.

ارتفعت الطائرة تدريجيًا. عيناي تحاولان ألا تفوّتا المشاهد العُلوية الجميلة من بلدي، أحاول أن أخزّنها في ملء عيني، حتى تلاشت شيئًا فشيئًا، وصرنا نحلق بين سماء وبحر، وبارتفاع أربعين ألف قدم تقريبًا. ما إن أعلن قبطان الطائرة إمكانية فكّ أحزمة المقاعد، حتى أخذ المسافرون يتحركون بأريحية ودبّت الحياة في الطائرة، تحوّل انتباهي إلى ركاب الطائرة، كانت

متابعتهم أشبه بمشاهدة فيلم سينمائي حيّ، أغلبهم من العمالة الهندية في البحرين، أو من دول الخليج الأخرى، عائدين إلى بلادهم، في إجازاتهم السنوية، أو نهاية الخدمة.

يُستقدم هـؤلاء العمال الهنود الفقراء للقيام بالأعمال الشاقة ذات المردود المادي البسيط في الخليج. يمكن لأي أحد التعرف إليهم عبر سمات البؤس والتعب البارزة على وجوههم، حتى مع ارتداء أغلبهم ملابس جديدة ذات ألوان زاهية احتفاءً بلقاء الأحبة عند العودة. كنت طفلاً في بداية سبعينيات القرن المنصرم عندما ارتفعت مداخيل النفط، لتزداد المشاريع التنموية ومشاريع البنية التحتية في البلاد، ما دفع الشركات البحرينية لاستقطاب الكثير من العمالة الآسيوية، على غرار معظم دول الخليج.

خرج أفراد طاقم الضيافة من مقصورة الطائرة يجرّون أمامهم العربات المتحركة، وجبة العشاء، المرطبات والمشروبات الروحية. عيون الركاب تلاحق المضيفات وتحدّق فيهن بحرارة الشوق والوله. بعضهم ينتظر دوره لتناول شيء من الطعام الذي لا يحصل عليه إلا في الطائرة، آخرون متعطشون لاحتساء المشروبات الروحية قبل أن يصُدم أغلبهم عندما

علموا أنها ليست مجانية. حمدت ربي أنها كذلك وإلا سيصير الوضع أكثر مأساوية مما بدا عليه الأمر لاحقًا. وبسبب قربي من مراحيض المقصورة، كان عليّ تحمل الركاب الذين شربوا حتى الثمالة، طابور طويل من المترنّحين بأصواتهم العالية، أبـواب الحمامات تُفتح وتُغلق بشكل مزعج، إضافة إلى أصوات خزانات مياه المراحيض التي لم تتوقف، واستمرت تزأر كالأسد في حركة إيقاعية مُنفّرة!

بينما استقرت حركة الطائرة في الجو، راح بعض الركاب يتجولون في ممراتها، حاملين علب الجعة في يد، والسيجارة في اليد الأخرى، منشغلين مع بعضهم البعض في نقاشات كتلك التي تدور خارج حانات منتصف الليل، بعضهم الآخر راح يتحرش بالمضيفات، انهالت عليهنّ الطلبات والأوامر، إلى جانب عبارات التغزل وكلمات الإعجاب، بل منهم من راح يردد أغاني الغزل الهندي وهم يترنحون من شدة السكر، غير مدركين ما يجري حولهم ولا أنظار الناس إليهم. تعاطفت مع المضيفات، بَـدَون معتادات على ذلك الوضع، شدتني المشاهد المضحكة حينًا والمقلقة أحيانًا أخرى، مضيت أرصد كل تفاصيلها وأكتنزها في مخيلتي، لعلي أرويها ذات يوم

لزملائي أو أفراد أسرتي، فهي مشاهد طريفة وساخرة لا نراها عادة في حياتنا اليومية.

لم أكن معتادًا على السفر قبل ذلك، ولم يتعدَ مجموع مرات سفري رحلتين، إحداهما لزيارة أختي وأخي اللذين يدرسان في جمهورية العراق، والأخرى سياحية إلى جزيرة قبرص مصطحبًا أخويّ الأصغر سنًا. كلتا الرحلتين كانتا مع مسافرين عاديين من مختلف الطبقات الاجتماعية والفئات العمرية والعرقية، ولم تكن شبيهة بهذه الرحلة التي يغلب على مسافريها العمالُ من الطبقات الفقيرة والفئات الشبابية أو متوسطي العمر.

أكثر ما استهواني سماعه في تلك الرحلة هو صوت آلة السيتار، والطبلة الهندية في المعزوفات الكلاسيكية على يد الموسيقار المشهور (رفي شنكر)، استمع الركاب بموسيقاه عبر سماعات الأذن الموجودة في الطائرة. صرت من متابعي موسيقى هذا الفنان منذ تلك الرحلة.

هناك مشاهد تمر علينا وتطبع أثرها في الذاكرة، وبصورةٍ ما تبقيها عالقة في الأذهان إلى الأبد، خصوصًا تلك القفزات الكبيرة التي نقوم بها عند المنعطفات المهمة من حياتنا. ظلت

ذكرى رحلتي الأولى إلى الهند عالقة في ذهني، بما فيها وجبة العشاء الساخنة التي كنت متلهفًا لتناولها، كانت تعني الكثير لنا نحن المسافرين آنذاك، فلم يكن الناس حينها يألفون تناول الطعام خارج البيوت. ولن أنسى قائمة الطعام الهندية الأولى في حياتي على متن تلك الرحلة، ووجبة العشاء التي احتوت الـ(دجاج مكاني) والخبز المحمص بالزبدة، كذلك طبق الأُرز البرياني وحلويات البوري التي أنهيت بها وجبتي. انشغل الجميع بتناول الطعام حتى مُلئت البطون وأُنهكت الكروش وعم الصمت المكان، عدا طنين محرك الطائرة.

دخل المسافرون في سبات عميق وأمسوا كالغائبين عن الوعي، وبتُّ لا أسمع شيئًا إلا ترانيم الشخير الصادرة عن تلك الأفواه المُشرَعة على مصاريعها، أبقتني مستيقظًا أتابع كل لحظة وحدث، منشغلًا بالتفكير في كل شيء مضى، والتخطيط لكل شيء قادم.

أعدّ الدقائق منذ إقلاع الطائرة، ثلاث ساعات مضت ببطء شديد. بدأت أشعر بمطبات هوائية ارتجّ لها جسم الطائرة، أخذت تزداد بشكل تدريجي حتى استيقظ أغلب الركاب النائمين، عدا قلة أثقل رأسهم الشراب. دبّ الخوف في

نفوس الركاب بمن فيهم كاتب هذه السطور وشعرت بالفزع، خصوصًا عندما عاينت القلق نفسه على وجوه طاقم الطائرة الذين سارعوا بجمع كل شيء على الطاولات، وطلبوا من الجميع البقاء في مقاعدهم وشد الأحزمة، وهو ما كرره قبطان الطائرة بين الفينة والأخرى عبر مكبّر الصوت. تسمّر الجميع في مقاعدهم واجمين، تبعهم طاقم الطائرة على المقاعد المقابلة للركاب. يعلن القبطان بعض المعلومات الجديدة المقلقة:

«سيداتي سادتي.. أعتذر على الإزعاج، نواجه عواصف شديدة وسحبًا كثيفة محملة بالأمطار والعواصف الرعدية، هبوطنا في مطار بومباي غير ممكن في ظل هذه الأوضاع القاهرة، لذا سنبقى محلقين حول المدينة لبعض الوقت حتى تهدأ ويُؤذن لنا الهبوط بسلام».

استمر تحليقنا ساعة إضافية، كأنها دهرًا كاملًا من الرعب، تقلبت الطائرة وتقلبت معها بطون الركاب، حتى تقيأ بعضهم كل ما تناوله. مضى على لحظة إقلاعنا قرابة أربع ساعات قبل أن تهدأ الاهتزازات من جسد الطائرة، وقبل أن تعود للتحليق في خط مستقيم من جديد، تنفس الركاب الصعداء، وراحوا

يأملون النزول في مدينة بومباي، لكن قبطان الطائرة أطل بصوته مرة أخرى مفاجئًا الجميع:

«سيداتي سادتي.. ها هي المطبات الهوائية قد هدأت، والجو بات أصفى كما ترون، مع ابتعادنا عن المنطقة التي يُفترض أن نهبط فيها، لكننا سنهبط بعد نصف ساعة تقريبًا في مطار مدينة حيدر آباد عوضًا عن مدينة بومبي، وسنبقى في مقاعدنا؛ لأنه لا يوجد في المطار أيٌّ من العاملين في هذا الوقت المتأخر من الليل، فالمطار داخلي وغير مهيأ لاستقبال الرحلات الدولية. ثم سنعاود وجهتنا إلى مدينة بومبي متى ما تحسنت الأجواء وتلقينا إشارة العودة». حمدتُ ربي على كل حال مما قد يكون أسوأ، رغم أني رأيت أنها بداية غير موفقة أو فأل غير طيب لمرحلة حياتي الجديدة.

3
مدينة الأبواق التي لا تنام

بعد رحلة مضنية استغرقت أكثر من عشر ساعات وصلنا بومباي، العاصمة التجارية للهند، ومقصد تجار اللؤلؤ من البحرين ودول الخليج، والمدينة الساهرة التي لا يختلف ليلها عن نهارها.

قرابة قرنين من الزمان، وحتى سبعينيات القرن الماضي، كانت شؤون المشيخات الخليجية تدار من بومباي، تحديدًا شركة الهند الشرقية، الواجهة الاستعمارية للدولة البهية، كون دول الخليج محميات تابعة للتاج البريطاني حينها.

هي أيضاً مصنع السينما الهندية التي تسمّرنا أمامها صغارًا وكبارًا، تضم أغلب شركات الإنتاج السينمائي، ويقيم فيها معظم المشاهير الفنانين الهنود، فهي محطة لكل الباحثين عن فرصة في صناعة الأفلام.

أنهيتُ إجراءات الوصول المعقدة في المطار بعد عناء. عليك أن تُلقي بعض (الأنواط) لموظفي الجوازات والجمارك، ليسارعوا في تخليص أوراقك، غير ذلك، سيكون

عليك الوقوف في طوابير طويلة لا تتحرك. هكذا جرت العادة، حتى مع العمال الهنود القادمين من الخليج، يتم استغلالهم وإجبارهم على دفع الرشاوى والتعامل معهم كخليجيين.

ساهم الخليجيون بشكل أو آخر، في إرساء هذه الممارسات غير المشروعة، تعوّدوا أن يدفعوا رشاوى من أجل تخليص أمورهم سريعًا، سهّل ذلك أن العملة الهندية رخيصة مقارنة بالعملة الخليجية. خلال سنوات إقامتي في الهند، اكتشفتُ حجم تفشي الرشوة والفساد المالي والإداري في المؤسسات الحكومية آنذاك، بات ذلك جزءًا من الثقافة العامة في المجتمع، وصار علينا التعايش معه.

خرجت من المطار وأنا أتلفّت حولي لتسجيل انطباعي الأول عن المكان. كان في استقبالي روائح كريهة، ورياح ثقيلة محملة بالرطوبة، وملوثات أدخنة مصانع، عوادم سيارات، ومتسولون، هم أول المستقبلين عادة، وآخر المودعين لكل زائر للمدينة.

عند باب المطار، اصطف طابور طويل من سيارات الأجرة، ينتظر بعضهم لأكثر من يومين حتى يأتي دوره، وقفتُ عند أولهم، قلت له أني بحاجة لمن يُقلُّني إلى فندق أقضي فيه

ليلتي الوحيدة قبل أن أغادر إلى بونا في اليوم التالي. لا معرفة عندي بالمكان ولا معارف. استشرت سائق السيارة حول المكان، استقبل استفساري باهتمام واضح، قال إنه سيأخذني إلى أفضل الأماكن التي يرتادها العرب والخليجيون من أجل السياحة أو العلاج، كانت بومباي وجهة رائجة للعلاج حينها.

تمَّ الاتفاقُ على الأجرة بعد قليل من الجدل والمساومة، عبّر السائق خلالها عن نفسه بهزّ رأسه، هي لغة إيمائية يتوافق عليها الجميع في الهند بمختلف عرقياتهم وثقافتهم.

انطلقت سيارة الأجرة في شوارع المدينة المكتظة والمزدحمة، رحت أعاين كل ما أراه، لا أفوّت شيئًا. مدينة مزدحمة بكل شيء، حتى الحيوانات المنتشرة في طرقاتها وأزقتها. الضجيج يهيمن على الشارع وكل مكان، سائقو السيارات أدمنوا إطلاقَ أبواق سياراتهم، ليس بالضرورة أن يكون هناك سببٌ، تعوّد الناس على ذلك، حتى صاروا لا يسمعون ولا يلتفتون. لم تعد الأبواق أصوات تنبيه.

في الشارع رأيت نوعين من السيارات، كلاهما مصنوعتين في الهند، طراز واحد وشكل واحد فقط، دون فرق بين طراز جديد وقديم. تتزاحم السيارات ويتجاوز بعضها بعضًا بصورة

فوضوية، لا قوانين سير ولا انضباط مرور. لا يعرف التعامل معها سوى سائقي سيارات الأجرة المحليين الذين يحتقرون النظام المروري، ويتجاهلون شرطتها. يشكل هؤلاء حوالي ثمانين بالمائة من السيارات التي تملأ شوارع المدينة.

أُلفة غريبة بين الناس والفوضى والاختناقات المرورية، الضوضاء سيمفونية يومية، وجدت ذلك غريبًا في البداية، لكن تعودت لاحقًا. تعبر الناس الشوارع دون أن تعبأ بالسيارات المنفلتة في كل اتجاه. أما الأبقار (المقدّسة) فهي مقدّمة على الجميع، لها الحظوة في السير في وسط الشارع، وفي الاستلقاء في المكان الـذي تختاره، مستغلة قدسيتها عند الأغلبية الهندوسية، تعدّ احترامها ركنًا أساسيًا من ديانتها.

سمعت لاحقًا الكثير من القصص، كيف تسببت الأبقار في العديد من حوادث السير في المدن الهندية، كذلك النزاعات الطائفية بين الأقلية المسلمة التي تتناول لحومها، والأغلبية الهندوسية التي تقدسها وتحرّم ذبحها. وكيف أن الكثير من الهنود من ذوي الديانات الأخرى، يرون أن هذه الأبقار ثروة حيوانية وغذائية مُهدرة، كان من الممكن الاستفادة منها.

شقّت السيارة طريقها في شوارع الأحياء الفقيرة، بيوت

وأكواخ صغيرة ولصيقة ببعضها البعض، معظمها تم تشييده بشكل عشوائي وبطريقة غير مشروعة، يقطنها فقراء ومعدمون قادمون من خارج المدينة، أكثرها مبنيٌّ من مخلفات المدينة من أحجار وصفائح معدنية أو كارتونية وغيرها، وجدت بعض هذه البيوت، غارقة برمتها في مياه المستنقعات العفنة التي خلّفتها الأمطار، أو المصانع، ومع انعدام شبكة الصرف الصحي أصبحت مرتعًا للحشرات والحيوانات الضالة. كان لافتًا وجود جبال من القمامة والفضلات الضارة حول تلك، تتخلص منها المدينة، فيتلقفها هـؤلاء، علهم يجدون فيها مصدر غذاء أو رزق.

هالني رؤية أسر كاملة، ينام أفرادها في العراء والطرقات، أو يحتمون تحت شرفات البيوت ومظلات الدكاكين، أو خلف المباني السكنية مُتلحفين بجدرانها، يقيم بعضهم في أنابيب ضخمة معدة للصرف الصحي، رُكنتْ على جوانب الطريق منتظرة دورها في الاستخدام، فحوّلها هؤلاء إلى مأوى مؤقت لهم.

معظم بيوت هذه الأحياء لا تضم مراحيض ولا حمامات، حوّل ذلك الطرقات إلى مراحيض مفتوحة. في طريقي إلى

الفندق شاهدت بعض الرجال جالسين القرفصاء متقابلين، يتغوطون بأريحية، منخرطين في أحاديث مع بعضهم بعضًا. وفي كل مرة أزور المدينة أرى مثل ذلك المنظر لأطفال ورجال يقضون حاجاتهم وهم يتأملون المارّة بلا حرج، ودون أن يتعرضوا إلى أي نوع من العتب.

تقززت كثيرًا من تلك المشاهد، قبل أن أعتد عليها لاحقًا، ولم تعد تلفت نظري، حتى وجدت نفسي - وفي أكثر من مرة - أدوس ذلك القرف خطأً. وأظنّ أن جميع الطلبة الأجانب لهم تجارب مثيلة.

الأكيد الذي عرفته منذ خروجي من المطار أن هذه المدينة لا تشبه ما نشاهده في الأفلام الهندية، تذكرت عبارة صديقي بدر الذي عرف ما سأراه وما سأشعر به، فقال من أجل شد عزمي وتشجيعي: «لا تُصدم من المشاهد التي ستستقبلك خارج المطار؛ لأن الهند أجمل مما ستراه هناك».

في المحصلة رأيت عالمًا فقيرًا مسحوقًا لم أعتقد بوجوده في عالمنا وزماننا المعاصر، ولم يسبق لي رؤيته في الأفلام الهندية التي لم تعكس الواقع.

في طريقنا إلى الفندق تجاوزنا أحياء البائسين تلك، مرورًا

بحي (بندرا)، وهي منطقة أكثر حداثة وتنظيمًا، شُيدت بيوتها من الخرسانة الإسمنتية والحديد. أغلبها يتكوّن من طابقين، والبعض أربعة أو خمسة، بها مجموعة من الشقق السكنية. من الواضح أن الأبيض هو لون هذه البيوت، قبل أن يتحول بفعل الزمن والتلوث إلى رمادي أو ملطخ بالزيوت السوداء. أخبرني سائق السيارة أن في هذا الجزء من المدينة، يقيم الأغنياء وكبار التجار والممثّلون والمنخرطون في عالم الأفلام وصناعة السينما، وأن هذه المدينة تعدّ هوليوود القارة الآسيوية.

الانتقال بالسيارة من الأحياء الفقيرة إلى الغنية، يُظهر التفاوت الطبقي الفاقع. ثـراء فاحش مقابل فقر مدقع. عرفت ذلك بصورة أوسع أثناء دراستي الجامعية. الديانة الهندوسية السائدة في الهند والنيبال، تقسّم أفرادها إلى شرائح طبقية واجتماعية متفاوتة. وعلى الأساس ذاته قسم المستعمر البريطاني المجتمع الهندي بين 1860 – 1920، منح الوظائف العليا لأبناء الطبقات العليا. تغيّر الوضع بعد 1920 إثر احتجاجات واضطرابات دفعت لإصلاح الوضع، وتطبيق برامج التمييز الإيجابي، ومكّن أبناء الطبقات الدنيا من الحصول الوظائف الرسمية، وهو النظام الذي يُعمل به حتى اليوم.

ها نحن أخيرًا نصل إلى وجهتنا في الشارع الكبير أو گراندرود، حيث الفندق الموعود. أعلن السائق نهاية مهمته بهزتين من رأسه وابتسامة قرأتُ فيها بعض الغدر والخبث.

كان الفندق من أسوأ وأقذر الأماكن التي شاهدتها على الإطلاق، لا يبدو أنه يختلف كثيرًا - في مستوى النظافة - عن بيوت الصفيح التي مررت بها، سوى أنه مبنيّ من طابوق وأسمنت عفا عليه الزمن، تقطنه جنسيات متعددة من الرجال، وجدت بعضهم ينتقلون بين الغرف شبه عراة.

قبل أن أُبدي رأيي بالمكان وأعبّر عن قبولي أو عدمه، كان السائق قد سلمني بأمتعتي إلى صاحب النُزل كمن يبيع رهينة، مقابل عمولة تلقاها أمام ناظري. وجدتني أمام مقايضة أنا سلعتها الرئيسية، نظرت إلى الاثنين بدهشة، قبل أن يختفي صاحب سيارة الأجرة، ويلوذ مُوليًا بعد أن تسلّم أجرته مني أيضًا.

لم يبقَ لي خيار غير أن أقبل الأمر الواقع، قضيت ليلتي الوحيدة في فندق (مهراشترا ستار). ومهاراشترا هي ولاية هندية، عاصمتها بومباي، تقع فيها مدينة بونا التي سأدرس فيها، وهي ثالث أكبر ولاية من حيث مساحة الأرض، والثانية من حيث عدد السكان.

كان الوقت ظهرًا عندما وصلت الفندق، شعرت أن المنطقة المحيطة بالفندق مريبة بعض الشيء. هادئة نسبيًا، الشوارع شبه خالية، أبواب الدكاكين مؤصدة، أو خالية إلا من كراسي مركونة داخلها وخارجها. لم أستوعب ذلك الهدوء إلا مساءً، بعد أن استيقظت من قيلولتي، وخرجت باحثًا عن مطعم أجد فيه ما يسدّ جوعي، لأتفاجأ بالمنطقة وقد بعثت فيها الحياة، وأي حياة؟ اكتظت بالناس والسيارات وعربات الباعة المتجولين والموسيقى الصاخبة والأغاني تصدح من الدكاكين والبيوت المحيطة.

امتلأ الشارع بنساء الليل المتبرجات، راقصات غيبت الأصباغ والمساحيق ملامح وجوههنّ، يكشفن من مفاتنهنّ أكثر مما يخفين، يتبخترن أمام الرجال الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ليشبعوا غرائزهم. أعين شرهة متفرِّسة محدّقة. سكارى يقفون أمام الدكاكين التي تَعرض النساء وكأنهم أمام شاشات عرض سينمائية، يترنحون ملوّحين بأيديهم مع إيقاعات الأغاني لجذب انتباه المومسات، والباحثات عن المال.

عرفتُ لاحقاً أن الفقر وراء ممارسة كثير من الفتيات للبغاء،

لإعالة أسرهن، بعضهنّ أُقسِرْنَ على ذلك بعد اختطافهنّ على أيدي تجّار البشر، أو بيعهنّ من قبل أسرهن الفقيرة. فتيات من أصول مختلفة. تشكل النيباليات (من مملكة النيبال القريبة للهند) نسبة كبيرة من هذه السوق، يرغب الرجال فيهن لبياض بشرتهن.

المرة الأولى التي أكون فيها أمام هذه المشاهد وبهذا القرب. لم يسبق لي رؤيتها في بلادي التي مَنعتْ العمل في البغاء بشكل رسمي منذ كنت طفلًا. رحتُ أتمشى في طرقات ذلك الحي، بشيء من الخشية والحذر، لاحقني بعضهم وهو يقدم لي قوائم النساء والمخدرات وكل المحرمات التي تلتها عليّ أمي محذّرة.

عاينتُ بتأمّل وجوه النساء المصفوفات، ضحكات مصطنعة خالية من الروح والمشاعر، وجوه ملطخة بالمساحيق والألوان، أشبه بأشباح أو لوحات رُسمت بغير حرفية، ألوان مبعثرة أفسدت جمالها الطبيعي. وقفت النساء أمام الدكاكين يلوحن بحركات تتعمّد الإثارة، لجذب الباحثين عن لحظات سعادة مؤقتة وعلاقة سريعة. بينهن فتيات أقرب إلى السلالة المغولية والصينية.

ورغم رقصهن مع إيقاعات الموسيقى وهن يتظاهرن بالفرح والسعادة أمام الناس، أحسست من وجوه بعضهن أنها تُخفي حالة من الحزن والبؤس ما لم أستوعبه، ولم أعرف قصتها إلا في رحلة الأحداث الخطيرة التي واجهتها بعد أكثر من عام، وعلى بُعد آلاف الأميال من المكان.

هكذا قضيت ليلتي الأولـى في مدينة بومباي في حيّ المومسات في گراندرود، وهو الاسم الذي انتقل إلى البحرين عبر العاملين الهنود الذين كانوا يخدمون المستعمر البريطاني قبل قرنين من الزمن، وأُطلق على حيّ المومسات هناك مع بعض التغييرات التي فرضتها اللغة والثقافة ليصبح گراندول، إلا أن هذه المهنة المخالفة لعادات المجتمع ودينه تم منعها قبل سنوات من سفري إلى الهند.

حزمت أمتعتي مع طلوع خيط الصباح، لأغادر هذا المكان الموبوء الغريب على عمري وهدفي. تسللتُ خارج الفندق بهدوء خشية أن يلمحني متطفل من بقايا الليل، ممن يلاحقون كل غريب محاولين بيعه الحشيش أو المخدرات، ولا يمكن التخلص منه بسهولة.

زرت مدينة بومباي عدة مرات لاحقاً، أقوم بذلك لحاجةٍ

ما وعلى مضض أو مُجبرًا، لاستقبال زائر أو مريض قادم من البحرين للعلاج. يكون عادة مُحمَّلًا بملابس وأطعمة مرسلة من أسرتي، أو أستقبل طالبًا جديدًا، أحرص أن أكون أول المستقبلين للقادمين من أصدقائي، كي لا يمر أحدهم بتجربتي في گراندرود.

بعد ستة أشهر من وصولي الهند قام أخي الأكبر رضا بزيارتي للاطمئنان عليّ وسير دراستي في مدينة بونا، إلا أنه ألغى زيارته في اليوم التالي وفرّ راجعًا إلى البلاد، دون أن يزور المدينة التي أعيش فيها. حاولت إقناعه بالمكوث معي بضعة أيام، لكن ملاحقات المتسولين ومستوى النظافة دفعه لمغادرة الهند سريعًا، رغم أنني أعتقد أن رأيه وقراره سوف يختلفان لو زار مدينة بونا.

اعتدت ملاحقة المتسولين لي، وكذلك المتطفلين نساءً وأطفالًا ومسنين وهم ينحدرون من طبقات اجتماعية دنيا، مثل طبقة (شودر) أو طبقة المنبوذين التي تضعها العقيدة الهندوسية في أدنى طبقات المجتمع، على نقيض طبقة البراهمة النبيلة التي تملك المال والسلطة.

4
بونا بين أوشو والشمطاء

تبعد مدينة بونا عن بومباي ثلاثمائة كيلومتر، أكثر ارتفاعًا، وأقل في عدد السكان، والضجيج، والتلوث، وازدحام سيارات الأجرة، والمصانع، يفسر ذلك محافظة جدران مبانيها على ألوانها الأصلية، ولطافة أجوائها معظم أوقات السنة، ومحلًا لاستقطاب العاملين في المدن الأخرى.

استمتعت بشبكة المواصلات في بونا، تعد شريانًا مهمًا لجميع الطلبة، عربات بعجلات ثلاث، يسميها أهل البلاد (روكشا)، وفي بلدان آسيوية أخرى (توك توك)، تستوعب راكبين أو ثلاثة، لا أبواب فيها، أشعر عند ركوبها أني أحلق في الهواء الطلق، لكن ليس في موسم الأمطار حين أعود مبللاً بالكامل.

تستخدم (روكشا) بديلاً عن سيارات الأجرة، لسرعة حركتها في الأزقة والأماكن الضيقة، وقدرتها على التعامل مع شتى الظروف. لا تعمل سيارات الأجرة العادية داخل هذه المدينة، خُصصت للسفر خارجها فقط. لاحقًا اشتريت دراجة نارية، واستعضت بها عن جميع المواصلات الأخرى.

وصلت بونا في النصف الثاني من يونيو 1983، أقمت في البداية مع بعض الزملاء البحرينيين في منطقة خضراء جميلة تسمى كوريگون بـارك، تعد الأرقى في المدينة، منزل كبير يفصله خمسة بيوت عن مقر الأشرم، وهو مكان للتأمل، وبيت للفيلسوف الهندي (جندرا موهان جين)، المعروف بالمعلم أوشو، مؤسس طائفة الرجنيش الدينية وزعيمها الروحي.

في هذا البيت كانت لي فرصة التعرف على بعض أفكار هذا الرجل، وعلى كثيرين من مريديه الأجانب الذين يرتدون ملابس برتقالية فضفاضة، يحجّون إليه من دول غربية مختلفة، لحضور الاجتماعات الدورية، والاستماع إلى محاضراته المسجلة، والمشاركة في جلسات التأمل الروحانية الخاصة.

تجري الجلسات بشكل جماعي على أنغام موسيقى صوفية، تعزفها فرقة خاصة بالطائفة. ورغم شهرة (أوشو) في الهند والعالم الغربي فإن سمعته بين أغلب الناس في المدينة لم تكن جيدة، هناك نفور واشمئزاز وصل إلى حد الخصومة، تحولت لاعتداءات واشتباكات. يزعم خصومه أنه يشجع الناس على الإباحية الجنسية وتعاطي المخدرات، كان واضحًا انتشارها بين مريديه وحول المنطقة التي أقطنها، وهو سبب انتقالي من هناك لاحقًا.

شكا (أوشو) تعرضه لمضايقات، تقف وراءها جماعات دينية أجبرته على مغادرة البلاد، والإقامة في ولاية أوريغون بالولايات المتحدة الأمريكية لسنوات طويلة، لكنه عاد إلى مقره بعد تخرجي من الجامعة وعودتي إلى البحرين.

يقطن غالبية أصدقائي الطلبة في مجمعات سكنية، يتكون كل منها من عدة مبانٍ من دورين أو ثلاثة، محاطة بأسوار تضفي عليها شيئًا من الخصوصية. مالكو الشقق السكنية في هذه المجمعات من ذوي الخلفيات الدينية والإثنية نفسها، من مستويات اقتصادية متوسطة. يفضل الطلبة المجمعات على البيوت المعزولة، لأنها توفّر أجواءً آمنة يتولى مسؤوليتها اتحاد ملَّاك هذه المباني، وحياة اجتماعية ثرية غير متوافرة في مكان آخر، يعتبرها الطلاب بديلاً ملائماً للأحياء السكنية والاجتماعية في بلداننا العربية.

بونا مدينة طلابية بامتياز، تضم الكثير من الجامعات الصغيرة، تنضوي معظمها تحت جامعتها المركزية، يلتحق بها الطلبة من كل أرجاء الهند، إلى جانب القادمين عادة من دول آسيوية وأفريقية متوسطة الحال أو فقيرة، وذلك لرخص تكاليف المعيشة والدراسة الجامعية، الأمر الذي جعلها

والمدن الجامعية الأخرى تستقطب طلبة من دول أفريقية مثل: السودان والصومال وأثيوبيا وكينيا ونيجيريا، وكذلك من دول شرق أوسطية مثل: إيران وفلسطين والبحرين، واليمن والأردن.

لا يوجد بين الطلبة أي من مواطني دول الخليج الغنية، عدا البحرينيين الذين لا تسمح ظروفهم الاقتصادية الالتحاق بالجامعات الأوروبية أو الأمريكية، أسوة بطلبة تلك الدول المبتعثين من قبل حكوماتهم الغنية بالنفط.

لم يكن تواصلي مع الأهـل في البحرين يسيرًا، تعرفة المكالمات الدولية عالية، خصوصًا لأمثالي من الطلبة الذين لا تتجاوز ميزانيتهم الشهرية ثلاثة آلاف روبية هندية أو مائة دينار، ونخشى أن تستنزفها المكالمات، عوضًا عن عدم وجود هواتف في معظم البيوت الهندية التي نقطنها، تقتصر على الأغنياء والمرفّهين البعيدين عن دائرة محيطنا الاجتماعي.

يعتمد الطلبة على هاتف عمومي في دائرة البريد الحكومي، يوجد إلى جانب صناديق البريد قرب محطة القطار الرئيسية في المدينة. نحضر قبل ثـلاث ساعات لحجز المكالمة، يُسمح لكل منا ثلاث دقائق فقط، نكاد لا نسمع صوت الطرف

المقابل بسبب فوضى الأصوات وتداخلها مع خطوط الهواتف الأخرى وصراخ المتصلين في الكبائن الأخرى، تصل تكلفتها إلى خمس وعشرين روبية هندية، ولولا اشتياقي لسماع صوت أمي وأبي ما تكبدت هذا العناء والخسائر المادية. أميل إلى كتابة الرسائل بخط يدي وإرسالها بريديًا، تستغرق قرابة شهر لتصل.

تركت سكني في منطقة كوريگون بارك في أكتوبر 1983، لم أبقَ طويلًا بعد أن تحول البيت إلى مركز لتجمع الشباب، الذين يدفعهم فضولهم للتعرف على أفراد طائفة أوشو أو رجنيش أو سنياسيس، خصوصًا الفتيات الفاتنات، راح هؤلاء الطلبة يدعونهنّ أحيانًا إلى بيتي. لم أجد الأجواء تلائم الحياة الطلابية ولا شاب في الثامنة عشر من العمر مثلي. كذلك فإن إيجارات المنازل في تلك المنطقة، ارتفعت وتضاعفت في فترة قياسية، بسبب الإقبال الشديد على منطقة الأشرم التي يزورها الناس من كل مكان، إلى جانب العروض السخية التي يغدقها القادمون الأثرياء على ملاك البيوت. كل ذلك جعلني أبحث عن سكن آخر.

انتقلتُ إلى مبنى جبلي معزول يقع في حي يُسمى شادول

بابا، يقع على الضفة الأخرى من نهر موثا، وهي منطقة بعيدة عن وسط المدينة، أكثر هدوءًا واستقرارًا من كوريگون بارك. كان مبنى جميلاً، محاطاً بأشجار ونباتات باسقة تغطي جدرانه، ويقع على هضبة جبلية شاهقة، تطل على المدينة، وعلى نهر موثا الذي يقسم المدينة إلى شطرين، يربط بينهما عدد من الجسور الحديثة والقديمة، وكان أقربها للمبنى الذي أقيم فيه جسر يارودا.

يقع المبنى بعيدًا عن وسط المدينة وحيّها التجاري المزدحم، الأماكن التي يفضلها الطلاب عادة، لهذا فإن إيجار الغرفة أقل بكثير من وسط المدينة. أدفع أربعمائة روبية شهريًا. رغم ذلك كانت غرفتي هي الأكثر جمالًا وهـدوءًا مقارنة بأصدقائي، بشرفتها المطلّة على النهر والمدينة كلها والمناظر الخلابة.

يتكوّن المبنى من طابقين، في الطابق الثاني ثلاث غرف، أقمت في واحدة منها. الشرفة مشتركة بين غرفتي والغرفة المجاورة التي لا يسكنها أحد، أجلس صباحًا منتشيًا وأنا أحتسي كوبًا من الشاي، أشاهد النهر يفيض بالكثير من الجمال، والنساء مجتمعات على ضفافه يشمّرن سواعدهن لغسل الملابس، ثم ينشرنها على حبل الغسيل لتتراقص بألوانها

الزاهية وأشكالها الجميلة، ثم أعاين الصيادين وهم يرمون شباكهم في النهر ويسحبونها حاملة بعض الأسماك الصغيرة، يتم بيعها على المارة مباشرة في الوقت والمكان عينه.

أستمتع في المساء بمشاهدة السماء الصافية، وميض النجوم البراقة، أضواء المدينة من بعيد، انعكاس الأضواء على مياه النهر، هدوء وسكينة تامة، يتخللها خرير المياه وهي تصبُّ من أعلى الدّكة الخرسانية التي تعترض النهر، شيدت للحفاظ على منسوب المياه في النهر لمقاومة الجفاف.

في موسم الأمطار، أراقب كيف يرتفع منسوب الماء في النهر وتزداد سرعته، يجرف معه الرمال الطينية ويدفعها من أعالي الجبال، فتتحول مياهه إلى اللون الأحمر، غير أن منسوب المياه ينخفض مع نهاية العام حين تتباطأ سرعتها تدريجيًا، تعود لطبيعتها مع تضاؤل هطول الأمطار.

أما في موسم الجفاف، فيتباطأ جريان النهر، تركد المياه وتستحيل إلى مستنقعات خضراء، تتجمع النباتات البحرية والطحالب على سطحه، تصير مرتعًا للحشرات والبعوض، تتأذى منها القرى والبيوت على ضفافه. تصير حياتي صعبة في هذا الموسم، لا يمكنني النوم دون شِباك النوم أو الناموسية.

في الغرفة المجاورة يقطن طالب ماجستير سوداني اسمه سليمان، وهو ذو شخصية مرحة. أستأنس بحضوره وأستمتع بأحاديثه، تميّزه بساطته وعفوية سلوكه وابتسامته التي لا تفارقه، أعتقد أن لذلك علاقة بتعاطيه الحشيش، أخبرني أنه لا يرتاح إلا حين يأخذ نَفَسًا من غليون الحشيش بعد كل يوم دراسي طويل.

يجعلني سليمان أضحك كثيرًا، خصوصًا عندما أرى احمرار عينيه حين يكثر من تعاطيه الحشيش نهاية الأسبوع. يجلس أحيانًا بغليونه في الحديقة بين الأشجار العالية بصحبة كلب حراسة المبنى. الكلب من فصيلة الـ(بولدوغ) واسمه (الفانزو). ويبدو أن الكلب هو الآخر راح يستمتع باستنشاق الدخان الذي ينفخه سليمان في وجهه، حتى شككت من رفقته الدائمة له أنه ربما أدمن الحشيش كصاحبه.

أصطحبُ سليمان أحيانًا على دراجتي النارية من وإلى كلية واديا، أستمتع برحلتي معه وأستمع لحكاياته وأحداث حياته، وعائلته في السودان أو مغامراته الغرامية مع الفتيات الكثيرات، التي تنتهي دائمًا بالفشل، بسبب شكوك الفتيات حول نواياه.

أما الغرفة الثالثة في الـدَّور نفسه والمجاورة لغرفتي،

والمقابلة لغرفة سليمان السوداني فكانت خالية مهجورة منذ عدة أشهر، قبل انتقالي إلى هناك، وهذا ما جعلني المستفيد الوحيد من الشرفة المشتركة بين الغرفتين، صارت مكانًا أجمع فيه أصدقائي مرة أو مرتين في الأسبوع.

في الدور الأرضي تقطن ثلاث طالبات من جمهورية كينيا، يدرسن معي في الجامعة نفسها، أُقِلُّ إحداهن معي إلى الكلية على دراجتي النارية، متى توافقت أوقات حصصنا الدراسية. أساهم مع هؤلاء الطالبات، وأشترك معهن محاصصةً، في فطور مشترك كل صباح توفيرًا للمال، ورغبة في تناول ما تصنعه أيديهن من طعام البيوت، ولو لوجبة الإفطار فقط وذلك لسهولة وسرعة إعداده. وكبقية الطلبة الأجانب أرتادُ المطاعم لتناول وجبتي الغداء والعشاء بسعر معقول، لا يتجاوز العشر روبيات، غير أن الأسعار ارتفعت تدريجيًا حتى وصلت إلى الضعف في السنة الأخيرة من دراستي.

أتحول من المطاعم إلى عربات الباعة المتجولين، نهاية كل شهر، بعد أن تنضب جيوب مصروفي، كما تتحول أطباق طعامي إلى الأطباق التقليدية المشهورة عند هؤلاء الباعة، مثل: مسالا دوسا وباني بوري وغيرها مما هو مألوف من أطعمة الشوارع.

أحيانًا أخرى ألجأ إلى مطعم (أبو الصراصير)، مشهور في أوساط الطلبة البحرينيين عندما تكون جيوبهم خاوية، لرخص أطباقه، تعادل نصف ما أنفقه في المطاعم التي نرتادها عادة.

أطلقنا على هذا المكان اسم «أبو الصراصير»؛ لغياب معايير النظافة فيه، كذلك انتشار الحشرات في أروقته، وتجوّل الفئران بأريحية بين المطبخ والمكان المخصص لتناول الطعام، يبقى أن أسعار هذا المطعم الرخيصة تستحق منا التضحية وتحمل العواقب. الغريب أنني لم أعرف اسم هذا المطعم الحقيقي، إلى أنْ غادرت البلاد بعد تخرجي من الجامعة، وبقي موصومًا بذلك الاسم حتى بعد تحديثه.

فئة كبيرة من رفاقي الطلبة لا يرتادون المطاعم إلا نادرًا توفيرًا للمال، يتناولون طعامهم في المنزل معتمدين على العاملة التي تتقاضى حوالي مائتين روبية شهريًا، تتضمن توفير المواد الغذائية من خضروات ولحوم وغيرها من الاحتياجات، وتحضير وجبتي الغذاء والعشاء، وتنظيف الملابس والمكان. وهو أسلوب اقتصادي يتبعه الكثير من الطلبة، لكنه لا يمنحهم الأجواء الاجتماعية الحميمية في لقاء الأصدقاء والتفاعل معهم، وهو المتنفس الذي توفره المطاعم والمقاهي التي نرتادها، ثم نتسكع أمام أبوابها.

تسكن في الطابق الأول من المبنى العجوز الشمطاء، أو هكذا أطلقتُ عليها وعرّفتها لأصدقائي، وهي مدام (فريدا سوناوالا) مالكة المبنى، تشبه إلى حد كبير الشخصية الكرتونية زيتونة زوجة البحار باباي، لكن بشعر أبيض. تعدّ الشخصية الأكثر إزعاجًا في المبنى وفي حياتي آنذاك، معروفة ببخلها الشديد وجشعها لجني المال وابتزاز قاطني مبناها، كذلك طلباتها المتكررة دون مقابل أو تقدير.

انفصل زوجها عنها، فرّ هاربًا منذ عدة سنوات بسبب مشاكلها التي لا تتوقف، بعد أن أدرك استحالة إصلاحها، وهي أم لطفلين أرسلتهما إلى مدرسة داخلية بعيدة في منطقة بنجگني، يعودان خلال الإجازة السنوية.

تصطادني العجوز وزميلي سليمان متى ما أرادت، خصوصًا حين أتأخر عن دفع إيجار الغرفة نهاية الشهر، يحصل ذلك جرّاء تأخر تسلّمي للحوالة المالية التي يرسلها والدي. تقف كالساحرة العجوز التي تطير على مكنستها، وتراها في كل مكان، تنتظرني أحيانًا حتى منتصف الليل، تتخفّى وراء الأشجار، تمد لي يدها حالما تلمحني قادمًا من بعيد، تفرك أصابعها كمن يعدّ النقود في إشارة مفادها أعطني نقودي عاجلًا، لا مجال للانتظار أكثر، تُرفق الإشارة بتهديداتها المتكررة:

«ادفـع ما عليك وإلا قطعت عنك الماء والكهرباء، أو طردتك من الغرفة». تهديدات نفذتها غالبًا مع قاطني المبنى دون اكتراث، إذا تأخر أحدهم في دفع مستحقاتها، اضطرني ذلك أحياناً للعمل عندها مراسلًا، أو تنفيذ طلباتها ومساعدتها في شراء مستلزمات بيتها من أجل إرضائها.

عندما تعترضني أحيانًا على سلّم المبنى، أتمنى أحيانًا لو أملك شجاعة دفعها من أعلى السلم، أو أن أُطبق على عنقها، لتخليص نفسي وقاطني المبنى من جشعها الذي لا يطاق، في الحقيقة كنت أنتقم منها بطريقتي الخاصة دون أن أخبر أحدًا. دأبت العجوز تطلب مني أن أُقِلَّها على دراجتي النارية إلى المدينة؛ لأن بخلها الشديد يمنعها أن تستقل عربة روكشا وتدفع شيئًا من جيبها. كنت أتقصّدُ أن أسلك بها طرقًا وعرة غير مُعبَّدة، تلك التي تكثر فيها المطبات والحفريات، أجعلها تتطاير في الهواء كقطعة قماش وهي متشبّثة بي، أحيان أُخرى أستخدم المكابح بشكل متكرر وحـاد دون سبب، وكلما طلبت مني تخفيف السرعة قمت بزيادتها أو الانعطاف الحاد هنا وهناك، مستمتعًا برؤيتها ترفرف خلفي كالعلم في الهواء والخوفُ مسيطرًا عليها.

تبدأ محاضرات الجامعة الثامنة صباحًا، وتنتهي عند الثالثة عصرًا، إلا أن معظم حصصي تنتهي قبل الواحدة ظهرًا، أبقى في المقهى أو المكتبة، أراجع دروسي مع زملائي الهنود في الصف. من بين عشرات الطلبة البحرينيين في مدينة بونا، كنت الوحيد في تخصص العلوم السياسية، جعل هذا تفاعلي الدراسي مع زملائي الهنود الذين يشاركونني التخصص، أكثر منه مع الطلبة البحرينيين.

بينما أهمُّ بالخروج من المبنى ذات يوم، استوقفتني مالكة المبنى على الدرج، وفاجأتني بوجه مبتسم ونفس منشرحة على غير العادة وهي تقول:

«ها أنت ذا يا صديقي وأنا أبحث عنك منذ يوم أمس، حتى قررت أن أنتظر خروجك اليوم». نظرتُ إليها مستغربًا ابتسامتها الكريهة التي لم أتعود عليها. قلت: «لكنني أعطيتك الإيجار في وقته». قلت ذلك مُستبقًا ما كنت أعتقد بأنها تعترضني من أجله، أجابت:

«أعلم، ليس هذا موضوعنا، ولا أخشاك على الإطلاق وإلا قطعت الكهرباء عنك، ورميت أغراضك خارجًا. وددت أن أخبرك أن عائلة غربيّة قد شغلت الغرفة المجاورة إليك منذ

أيام، تعلم أنني سعيدة بذلك؛ لأن هذه الغرفة بقيت شاغرة فترة طويلة دون أن تدرّ عليَ المال، وتخفف أعباء مصاريف المبنى أليس كذلك؟». رددتُ عليها مجاملًا:

«نعم! أنا سعيد لك وبأن يكون لي جار، لكن ما علاقتي بذلك؟

أجابت: «قلت أخبرك بذلك، فأنت تشترك معهم في شرفة واحدة، عليك التخفيف من تجمعات أصحابك هناك، سيكون الوضع غير مناسب للعائلة». أزعجني تعليقها، رددتُ متسائلًا:

«وهل شكوني إليك؟»

أجابت: «لا على الإطلاق، إنما ارتأيت أن أنبهك قبل أن أعطيهم مفتاح الشرفة، لتنسقوا فيما بينكم بشأن الحدود التي على الجميع الحفاظ عليها».

«نعم فهمت، وأرجو ألا تكون عائلة مزعجة؛ لأن ذلك سيكون أمرًا سيئًا لمن هجر المدينة هربًا من ضوضائها، سعيًا للهدوء والسكينة، ولا يمكنني تصور حدوث خلاف ذلك».

«إنهم أسـرة صغيرة من زوجين وطفلة، ولا يبدو أنهم مزعجون بل أنـاس طيبون». هـززت رأسـي مؤكدًا وصول الرسالة، واستعدادي لمواءمة وضعي مع القادمين الجدد.

5
ماريا سالادينو

مرت أيام على عودتي من مدينة بومباي، دون أن أرى مدام فريدا أو النزلاء الجدد، حتى صباح ذلك اليوم في الأسبوع الأول من يناير 1984. غـارقٌ في نوم عميق حين سمعت طرقًا على باب غرفتي عدة مرات، وصوت امرأة تتحدث مع شخص آخر. أدركت من طبيعة الطرق أنه ليس من أصدقائي الذين تعودت على فوضى قدومهم، ولا غزوة من غزوات الشمطاء التي تختلقها كلما جاءت تطلب مني شيئًا. قفزت من فراشي، وارتديت ما يستر من الملابس، ثم مشطت شعري المنكوش، ورطبت وجهي المتورم من النوم، وفتحت الباب. وجدت في انتظاري امرأة جميلة شقراء في بداية العشرينيات من العمر، على وجهها بعض آثار النمش، بدا واضحًا أنها من إحدى الدول الأوروبية. خلفها وقفت طفلة صغيرة، في الرابعة أو الخامسة من العمر، تطل باستحياء لتخطف صورة لي. رحبتُ بهما مبتسمًا وعلى وجهي علامات سؤال، عرّفت سريعًا بنفسها:

«صباح الخير سيد نادر. أنا جارتك في الغرفة المجاورة، أعتذر على إزعاجك في هذا الوقت، لم أتصور أن تكون نائمًا، وإلا ما كنت قد طرقت الباب، على أي حال يمكنني العودة لاحقًا». استعجلتها بردي قبل أن تكمل اعتذارها:

«لا أبدًا سيدتي. لا داعي للاعتذار ولا الانسحاب، سعيد أن أيقظتني، خصوصًا أنني تأخرت على فحص الدم الإجباري الذي فُرض علينا نحن الطلبة الأجانب. لكن أخبريني كيف عرفتِ اسمي؟».

«عرفت أن اسمك نادر الفرج من خلال صاحبة المبنى، جئت أتعرف إليك وأعرفك بنفسي، ما دمنا أصبحنا جيرانًا وسنبقى كذلك لفترة، نقطن في الغرفة المجاورة منذ بضعة أيام، ولم يتسنَ لنا لقاؤك طوال الأيام الفائتة». أضافت مُعرِّفةً نفسها:

«أنا ماريا سالادينو، من جزيرة صقلية الإيطالية، أعيش منذ سنوات مع زوجي الأمريكي في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا شك أنه يرغب بالتعرف عليك أيضًا، إلا أنه الآن في عمله حيث يكون معظم الأوقات». بادلتها الترحيب نفسه معربًا عن سعادتي بوجودهم إلى جواري، دعوتها وطفلتها إلى داخل

الغرفة، وأنا أستفسر عن الطفلة التي كانت تختبئ خلفها خجلًا مني كما يبدو:

«ابنتي أليكس، هي التي استعجلتني، وألحت عليّ أن أطرق بابك وأتعرف إليك، بعد أن لمحتكَ ليلة أمس جالسًا في الشرفة مع أصدقائك». لوّحت لها بيدي فراحت تبادلني التحية باستحياء، وهي تحاول الاختباء وراء والدتها. قلت مرحبًا:

«أهلا بك يا أليكس، سعيد أن تكون لي جارة جميلة مثلك».

جلستْ على الكرسي تُعاين المكان المتواضع، عرّفتها بنفسي ودراستي الجامعية، ونبذة عن كل ما يتعلق بي مُتغربًا في الهند، ثم سألتها:

«منذ متى وأنتم هنا في الهند؟ وماذا تفعلون في هذه البلاد؟ لا تبدون من جماعة أوشو القادمين للأشرم كمعظم الغربيين في هذه المدينة».

«لا. لا. لسنا من تلك الجماعة على الإطـلاق، لكننا موجودون في الهند منذ عام أو أكثر، نتنقل من مدينة لأخرى بسبب مهام زوجي (بول) التطوعية. حتى وصلنا إلى محطتنا في هذه المدينة الجميلة والأخيرة».

«وما هو عملكم سيدتي؟».

«زوجي مهندس مُعتمد، لكنه يعمل بشكل تطوعي مع إحدى المؤسسات الأمريكية غير الربحية والرائدة في أنشطتها الخيرية، يشرف حاليًا على مشاريع إسكانية، تتضمن تشييد مساكن ملائمة لإيواء الفقراء الذين يفترشون الشوارع، كذلك تدريب العاملين لدى المؤسسات المحلية، وتهيئتهم من أجل استلام زمام الأمور، بعد مغادرتنا الهند».

أُعجبت بعملهم الذي لم أسمع به من قبل، ووجدت فيه عملًا إنسانيًا نبيلًا لا يقوم به إلا عظماء يستحقون منا كل التقدير والثناء، خصوصًا أن هؤلاء تركوا وطنهم وجاؤوا من أجل خدمة هذه المجتمعات الفقيرة، عبرت لها عن ذلك، قبل أن أسألها إنْ كانت هي أيضًا تعمل في المجال نفسه، أجابت:

«أنا وأليكس مرافقتان دائمتان ومزعجتان لپول. نستمتع بتنقلاتنا معه، تعرفنا إلى الكثير من هذه البلدان والمجتمعات والثقافات والديانات المتعددة، كذلك الأماكن الترفيهية، والسياحية، لا نفوت فرصة زيارتها، لكن إلى جانب مرافقتي زوجي كنت أعمل مدرسة موسيقى في الولايات المتحدة قبل قدومي إلى هذه البلاد، وهنا أحاول عمل أي نشاط ممكن في الأماكن التي نقيم فيها».

أضافت: «بدءًا من الغد سأشرع في تدريب الجوقة الموسيقية والإنشادية التابعة للكنيسة الرئيسية وسط المدينة، وسأقوم بتدريبهم بشكل تطوعي، على الصوتيات وبعض الآلات الموسيقية كالبيانو والأروغين. كما سأعزف على البيانو يومين من كل أسبوع في بهو فندق الماسة الزرقاء القريب من الجسر المقابل لكلية البنات، لا من أجل المال، بل لملء وقت فراغ الغربة».

«عمل ممتع، ليتني أمتلك الوقت والمال لأتعلّم الموسيقى، أعشق الاستماع إليها، وطالما أحببتها منذ كنت صغيرًا وتمنيت إتقانها»، ثم قلت مازحًا: «لكن لنرَ كيف ستدربيني على الموسيقي بعد أن أصبحنا جيراناً».

«لا مشكلة على الإطلاق وسأكون سعيدة بتدريبك متى ما أردت ذلك».

«شكرا لك سيدتي. كانت دعابة، ينصبّ اهتمامي الآن على دراستي الجامعية فقط، أطمح إلى تحقيق النجاح من أجل أمي. مؤكد أن وجودكم في الجوار والتفاعل معي، سيساعدني على إتقان التحدث والمخاطبة باللغة الإنجليزية التي أنا في أشد الحاجة إليها».

«سنكون على استعداد، بل سعداء بمساعدتك في دراستك، وما عليك إلا أن تطرق بابنا، وكذلك ستفعل ابنتي التي ستزعجك طوال الوقت، وهي تدعوك للعشاء العائلي معنا في الشرفة المشتركة. أليس كذلك أليكس؟». قالت ذلك وهي تنظر لابنتها التي ردت وهي تطل من وراء ظهر أمها خجلًا:

«نعم سيد نادر أرجو أن تشاركنا»، قلت:

«ما دامت الدعوة صادرة منك يا أليكس فيصعب عليّ رفضها». استأذنت السيدة بالعودة إلى غرفتها قائلة:

«إذن واصل نومك الآن ولا شك أن لنا لقاءات قادمة كثيرة».

«بل سأذهب لفحص الدم الإجباري، كي لا أطرد من البلاد».

«أنا ذاهبة غدًا أيضًا مع أليكس، فلماذا لا نذهب معًا؟».

«اتفقنا! نذهب غداً معًا»

شعرت بالارتياح وكأني أعرفهما منذ زمن، سعدت بالجيرة الجديدة، سيساعدني ذلك بلا شك في تحسين لغتي الإنجليزية، وهو تحدٍّ كبير أمامي آنذاك. كان على الطلبة الأجانب اجتياز امتحان اللغة الإنجليزية للمستوى الجامعي شرطًا رئيسيًا للقبول. تم العمل بهذا الشرط في العام نفسه الذي التحقت فيه

بالجامعة. كان امتحانًا مقلقًا لي؛ لأنني لست واثقًا من قدرتي على النجاح.

التحقت بصفوف لدراسة اللغة الإنجليزية المكثفة، مستفيدًا من وجودي قبل بدء العام الدراسي الجديد.

ذهبت أول الأمر إلى السيدة (داس) طالبًا منها الانضمام إلى دروسها التي تقدمها في منزلها، وهي معلمة مسيحية معروفة في أوساط الطلبة البحرينيين بمدينة بونا. لكنها اعتذرت مني بسبب كثرة عدد الطلاب لديها، ولكيلا تردني خائبًا أخذتني إلى منزل جارتها السيدة (مهير)، وهي معلمة زرادشتية مبتدئة امتدحتها كثيرًا. التحقت بها اليوم التالي، كنت أول طالب أجنبي تدرّسه، أصبحنا فيما بعد أصدقاء لسنوات طويلة. تجاوزتُ امتحان القبول بفضل جدارتها وقدرتها العالية على التدريس، أصبح اسمها معروفًا عند الطلبة، واضطرت لقبول المزيد من الطلبة. كانت مدرسة مخلصة ومتفانية في عملها وحريصة ألّا أغادر منزلها – كل يوم – حتى تتأكد من استيعابي كل شيء درسته عندها.

في صباح اليوم التالي تناولت وجبة الإفطار في غرفة الطالبات الكينيات مع ماريا وطفلتها، بعد أن عرفتهن ببعضهن،

ثمّ خرجنا إلى ميدان جواهر لآل نهرو، المكان الذي ستُؤخذ فيه عينات الدم من أجل الفحص. طوابير طويلة من الأجانب خصوصًا الطلبة، ينتظرون أدوارهـم للتأكد من خلوهم من مرض الإيدز. ذلك المرض الخطير الذي بات الشغل الشاغل للصحافة والرأي العام المحلي، خصوصًا بعد اكتشاف حالات في الهند، تسبب في إثارة الخوف عند الحكومة وأفراد المجتمع من انتشاره السريع بين الفئات الأقل فقرًا.

لا أعلم لماذا اعتقد المسؤولون الهنود أننا نحن الأجانب من جلب هذا المرض من الخارج أو أننا المسؤولون عنه. في الحقيقة وجدتُ أن الوقوف في تلك الطوابير الطويلة من الطلبة الأفارقة والآسيويين وبعض الغربيين المقيمين مهينٌ لنا أمام السكّان المحليين، صرنا محلًا للازدراء والسخرية، ولولا حاجتي لتلك الشهادة الصحية لضمان إقامتي ما وقفت في هذه الطوابير العنصرية.

توطدت علاقتي مع أسرة ماريا سالادينو، نتشارك الأكل والشرب معًا كأسرة واحدة، صارت الشرفة بابنا المشترك، تولّى السيد پول تدريسي متى ما طلبت منه ذلك. نخطط أنا وماريا لبرامج اجتماعية ورحلات ترفيهية إلى الحدائق والمتنزهات

ودور السينما، ينضم إلينا أحيانًا بعض الطلبة البحرينيين أو العاملين المتطوعين مع السيد پول وأفراد أسرهم.

نسافر بدراجاتنا النارية إلى مناطق بعيدة، أو قرى باردة على سفح الجبال، مثل قريتا (بنجگني) و(مهابلشور)، أرفع مناطق ولاية مهراشترا، تجذبان الكثير من السياح من داخل الهند وخارجها.

في هذه المناطق الجبلية نستمتع بملامسة الغيوم، نمرّ من خلالها وفوقها، ثم نتأمل جمالها عندما تكون أسفلنا. نتحمّم تحت الشلالات المنحدرة من الجبال الشاهقة. تزيد أعدادها وقوة اندفاعها في مواسم الأمطار. نأكل التوت الذي تشتهر بزراعته المناطق الجبلية الباردة، نتناوله بأنواعه المختلفة طريًا من المزارعين أنفسهم، ومن عربات الباعة على جانبي الطريق، نشتري مربّى التوت.

تسحرنا مناظر الوديان العميقة على جانبي الطريق، نمرّ عليها بدراجاتنا النارية، نكاد لا نرى البيوت والناس لفرط ارتفاعنا عنها، وانخفاضها عنا، يبهرنا جمال الهضاب والسهول والطبيعة الخضراء. نمكث يومين أو أكثر في بيوت القرويين التي حوّلت نزلاً للمسافرين والمارين.

أقمت ذات مرّة في نُزل تملكه أسرة من أصول فارسية تعتنق الديانة البهائية، أحببت المكان، وجدت الكثير من الفنادق الصغيرة في منطقة (بنجگني) الجبلية مملوكة لعائلات بهائية فرت من إيران منذ أكثر من قرن من الزمان، بسبب الاضطهاد الديني ضدها.

ذهبنا إلى قرية (لوناڤلا)، تتوسط الطريق بين بومباي وبونا، معروفة بجمال طبيعتها وحسن أجوائها ونقاء هوائها، ما جعلها مكانًا لتصوير الأفلام المشهورة التي شاهدناها على مدى سنوات طويلة في السينما الهندية، ومكانًا يفر إليه سكان المدن الكبيرة الباحثون عن الهدوء والسكينة وجمال الطبيعة، والنقاء.

الأنشطة الترفيهية والاجتماعية تعني الكثير لنا نحن الطلبة المغتربين المنهمكين في الدراسة، وطّدت علاقاتنا ببعضنا بعضًا وأسرة السيدة ماريا. خلاف هذه البرامج ليس هناك سوى التسكّع في المقاهي والطرقات، وهو ما يقوم به معظم الطلبة، بمن فيهم أنا قبل أن تصير هذه الأسرة جزءًا من حياتي اليومية.

يبقى أن هناك قسمًا آخر من الطلبة البحرينيين، أعضاء اتحاد طلبة البحرين في الخارج، لديهم برامجهم الثقافية والاجتماعية الخاصّة. كانت الحركات اليسارية المعارضة

تهيمن على اتحادات الطلبة في الجامعات العربية حتى نهاية السبعينات، قبل أن يسيطر التيار الديني السياسي، تشكّل عقب الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، صار هو الأوسع انتشارًا والأكثر نفوذًا بين الحركات المعارضة في المنطقة العربية إبان فترة الثمانينيات والتسعينيات، فيما انحسر تدريجيًا نفوذ التيارات السياسية اليسارية والعلمانية.

تأسس الفرع الهندي من اتحاد الطلبة البحرينيين عام 1972، كان يضم حوالي ثلث طلبة الهند قبل أن يغلق أبوابه بسبب تضاؤل عدد أعضائه وشح خزانته وانحسار شعبيته، حدث ذلك إثر انهيار مرجعياته الأيديولوجية في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية.

ينظّم الاتحاد لأعضائه فعاليات ثقافية واجتماعية ورحلات ترفيهية وحفلات موسيقية في مناسبات وطنية مختلفة، وفي مقره الخاص يتسكّع الطلبة الأعضاء ويقومون ببرامج تشغل فراغهم. كل هـذه الامتيازات لا نملكها نحن الطلبة غير الحزبيين، وغير المنتسبين لأي من الجماعات السياسية.

غالبية الطلبة خارج الاتحاد من القوى المحافظة المتأثرة بالثورة الإسلامية في إيـران، العلاقة بينهم وطلبة الاتحاد

فاترة بسبب الخلافات الفكرية والسياسية. الاستقطابات الحزبية والتجاذبات السياسية تتحوّل عند بعض الطلبة من غير البحرينيين إلى اشتباكات بالأيدي، لم يكن الطلبة البحرينيون بعيدين عن هذه الأجـواء المشحونة، لكن لم تصل لدرجة العنف.

أقضي معظم وقتي مع ماريا وطفلتها أليكس، السيد پول منشغل في عمله معظم الوقت، قد أمضي الوقت معه إذا كانت ماريا منشغلة بدروس الجوقة الإنشائية في الكنيسة أو بعملها في الفندق، وعندما ينشغل الاثنان، أخرج مع الطفلة للتنزه وتناول الطعام في المطاعم التي اعتدنا عليها.

مررت بمواقف طريفة وأحداث ساخرة لا يمكن إغفالها أو نسيانها، أكثرها طرافة قصة الكلب الملّقب بالعبقري، صار حديث الرفاق والأصدقاء لشهور طويلة. ذات إجازة، قررتُ وصديقي رازق الذهاب إلى مدينة الملاهي المتنقلة، تحطّ في مدينتا مرة كل بضع سنوات، تنصُبُ خيامها ومعداتها وتنظِّمُ أسواقها وألعابها، قريبًا من أحد الأحياء الفقيرة. ذهبنا برفقة ماريا وطفلتها أليكس للعب والاستمتاع بمشاهدة العروض المسلية والألعاب البهلوانية والنارية.

أمام إلحاح أليكس دخلنا إحدى خيم المهرجان المزدحمة. كتب على البوابة (الكلب العبقري). كلب مُلبَّد قذر أجرب هزيل الجسد، يمشي مطأطئًا رأسه، منكسًا ذيله الذي يخفيه بين ردفيه، وهي من علامات الخنوع عند الكلاب.

بدا لي أنه مريض أو لم يحصل على غذاء كافٍ منذ زمن طويل، جحظت عيناه وهي تبحث كل صوب عما يمكن أن يلتقطه من طعام، أو مكان يُؤْويه من الفوضى العارمة المحيطة به، جاء معظم الحضور من تلك الأحياء الفقيرة جاعلين منه أضحوكة ومحلًا للسخرية، تعاطفتُ مع ضعفه ونويت رمي بعض الطعام له قبل أن أرجع وأغير رأيي.

بدأ العرض بمقدمة خطابية تبجّحية ألقاها صاحب الكلب، الذي لا يبدو أفضل حالًا من كلبه، عرّف الجمهور به:

«سيداتي سادتي. أرحب بكم وأقدّم لكم عرض العبقري الذي يفوق الإنسان وعظماء التاريخ في ذكائه وفطنته». التفت الجميع نحو الكلب العبقري، وارتفع التصفيق الحماسي ممزوجًا بصراخ المتفرجين الذين ملأوا الخيمة. تلاه العرض حين راح المدرب يأمر كلبه القيام ببعض الاستعراضات الفنية التي تبرز ذكاءه. أخرج الكلب خارج الخيمة، ثم طلب من أحد

المتفرجين خلع ساعته، وأعطاها آخر بين الجمهور طالبًا منه إخفاءها في جيبه. ثم نادى الكلب للدخول وقال له:

«أيها العبقري. أريد منك أن تثبت للناس ذكاءك بالبحث عن الشخص الـذي أخفى ساعة هـذا الرجل، وأن تعيدها لصاحبها الأصلي». قال ذلك وهو يشير إلى الرجل صاحب الساعة. عندها تحرك الكلب، وقام بالدوران حول الجمهور دورتين، من دون أن يلتفت إلى وجوههم، لكنه فاجأ الجميع بتوقفه أمام الشخص الذي أخفى الساعة، ومن ثمّ قام بالنباح عليه حتى قبض على الساعة بفمه، وأعطاها صاحبها الحقيقي. انبهر الجمهور وعلا التشجيع والتصفيق لذكاء الكلب، الذي لا يبدو عليه الذكاء على الإطلاق، وواضح أن هناك خدعة في الأمر. تتابعت عروض الكلب الشائقة، والجميع ينظر بذهول واستمتاع، حتى وصلنا الفقرة الأخيرة ليحدث ما لم يكن في الحسبان، طلب المدرب من الكلب أن يأتيه بأقل المتفرجين استحمامًا وأكثرهم قـذارة. قلت في نفسي، ليس ذكـاء من الكلب أن يفعل ذلك، كثير من الحضور جـاؤوا من مناطق فقيرة معدمة، ملابسهم مهترئة لا ملامح لها، تراكم عليها الوسخ طبقات وغيّر لونها. كل ذلك جعل أعداد المرشحين

كثيرة، المتوقع أنه سيختار أسوأها. راح العبقري يدور ببطء حول المتجمهرين في حلقة دائرية، باحثًا عن سيئ الحظ الذي تعاطفتُ معه قبل أن يتم اختياره، لمعرفتي بما سيواجهه من سخرية وإهانة، والأكيد أن الضحية سيتذكر ذلك اليوم طوال حياته، ويلعن حظه، والساعة التي قرر فيها المجيء إلى هذا العرض.

استمر العبقري في البحث، وكأنه ينقب عن الذهب والألماس مرورًا بالمتفرجين، والكل يحبس أنفاسه خوفًا من أن يقع عليه الاختيار، ويكون الهدف والضحية. لكن الكلب العبقري فاجأ الجميع باختياره الذي لم يكن متوقعًا، تركني في حالة من الذهول والصدمة حين قرر التوقف أمامي، موحيًا للجميع بأنني الشخص المطلوب، أو الفرد الأقل استحمامًا ونظافة من بين الواقفين، في الوقت الـذي كنت فيه أكثر الحاضرين اهتمامًا بمظهري ولبسي ونظافتي. حاولت مرارًا ركله بقدمي ودفعه؛ كي يتحرك من أمامي، ويذهب ليبحث عن مرشح آخر، لكنه بدا مصممًا في قرارة نفسه على جعلي أضحوكة للمتفرجين، خصوصًا بعد أن قضم سروالي، محاولًا سحبي لوسط حلقة الجمهور من أجل تأكيد موقفه بأنني

الشخص المطلوب، بينما أنا أتصبب عرقًا من حجم الإحراج الذي أوقعني فيه.

في تلك اللحظات راح صديقي رازق يصفق للكلب، ويتراقص مستمتعًا بالحال الذي صرت إليه، وراحت ماريا وطفلتها أليكس تنظران لي باشمئزاز مصطنع، وهما تضحكان ممسكتين أنفهما، بما يوحي بأنهما تشمّان روائح صادرة مني، وكأن جميع من جئت معهم كانوا متواطئين مع الكلب الأجرب ومدربه لإحراجي!

خرجت مسرعًا من الخيمة محاولًا الهروب من هذا الموقف المحرج، والجمهور يلاحقني بنظراته وتعليقاته الساخرة، فضلاً عن معاكسات ماريا وتعليقات طفلتها أليكس الساخرة من هذا الموقف الذي ظلت تلاحقني ذاكرته السيئة سنواتٍ طويلة.

بقيت لأيام أشتُم ذلك الكلب الأجرب الذي جعل مني مهزلة للجمهور. حاولتُ وزملائي تفسير سبب اختيار هذا الكلب لي من دون غيري! وضعنا الكثير من الاحتمالات والتصورات، غير أن جميعها لم يمحُ من ذاكرتي هذا اليوم الأسود، والإهانة الأكبر التي تعرضت لها.

6
العشاء الأخير

مطعم (جورج) من أكثر المطاعم التي أرتادها في مدينة بونا، وبدرجة أقل مطعم (النيل الأزرق)، يتساويان من حيث الدرجة ومستوى الرواد الاجتماعي، كلاهما يُعدّان من المطاعم الشهيرة عند أبناء الطبقة المتوسطة في المدينة، وهما مملوكان لهنود من أصول فارسية، تجار إيرانيون قدموا إلى الهند منذ زمن طويل، تعود أصول معظمهم إلى مدينة يزد الإيرانية. يشكل هؤلاء جالية غنية في ولاية مهراشترا الهندية، يملكون أفضل المطاعم وأكثرها شهرة في مدينتي بونا وبومباي. لدي أصدقاء كثيرون منهم.

منذ أسابيعي الأولى في بونا، ترددت على هذين المطعمين، أطلب أطباق الطعام نفسها كل يوم. لا أعرف طبيعة الأطعمة في المطاعم الأخرى ولا أسعارها، حتى بت محل سخرية الطلبة الآخرين. أطباقي المعهودة هي الأرز البرياني، وسلطة الروب بالخيار (ريتا)، مع قرصين من الرغيف الهندي المحمص (نان)، والكولا الهندية المعروفة باسم (ثمزأب). أكررها لا

رغبة فيها، بل لأنها الوحيدة التي أعرفها رغم مرور أشهر على وجودي هناك.

مضت على علاقتي بـ ماريا وعائلتها أكثر من خمسة أشهر. دعاني السيد پول للعشاء في مطعم جورج دون إخباري ما السبب، وصلتُ أولًا ثم ماريا وأليكس، قالت إن پول ذهب لشراء بعض الحاجيات المهمة. كنت متأكداً أنَّ هناك سببًا للدعوة، فهو من النوع الذي ينام ويصحو مبكرًا، ولا يتناول طعامه خارج منزله، إلا إذا كانت هناك مناسبة أو دعوة خاصة.

وصل بعد ربع ساعة حاملًا كيسًا أحمر بمقبض صوفي أسود، على جانب ورود بارزة متعددة الألوان، ركضتْ أليكس لاستقبال والدها وهو يتقدّم نحونا. أخذ كرسيه، وهو ينظر لي مبتسمًا، ويقول:

«لا بد أنكم قد قضيتم وقتًا ممتعًا يوم أمس الأول في مدينة الملاهي. سمعت عن الموقف المحرج والمضحك الذي تعرضتَ له، وحقيقة تمنيت لو كنت معكم».

«نعم سيد پول. كان يومًا أسود في حياتي ولا أود أن أتذكره».

ضحك: «أعلم، لكن تأكد أنه بقدر ما هي تجربة محرجة إلا أنها واحدة من المواقف الطريفة التي لا تُمحى من الذاكرة،

سترويها يومًا ما لأبنائك ورفاقك». كان پول معه حق، فقد صارت تلك من طرائف حياتي التي أرويها كلما جاءت ذكرى دراستي الجامعية. أضاف ممازحًا: «وما يجعل حظّك أكثر سُوءًا، مرافقتك شاهدتين ثرثارتين جعلا منك قصة حديثهما طوال الوقت، وكأنهما ترويان قصة فيلم كوميدي لا تملَّان منه».

علّقت ماريا مُداعبةً: «لسنا وحدنا بل انقلب عليه صديقه رازق أيضًا. عليك أن ترى كيف تغيرت ألوان نادر وملامحه خجلًا، وتصبب عرقًا رغم أن الجميع يعلم أن الموقف برمته مقلب بهدف السخرية والمرح». قلت ضاحكًا بعد ترحيبي بالسيد پول:

«تجربة مضحكة ومحرجة لم تخطر ببالي، لكن عليّ الآن نسيان الأمر والحديث عن الحاضر الأهم، وهو ماذا سنتناول من عشاء هذه الليلة؟ أريد أن أملأ بطني لأنسى جريمة ذاك العبقري». ضحك الجميع. طلبنا العشاء، وفي الأثناء همس پول في أذن زوجته مناولاً إياها الكيس وهما ينظران لي مبتسمين دون أن أفهم السبب.

بادرت أليكس: «هل هذه الهدية لي يا أبي؟ مؤكد أنها ليست

لماما؛ لأن اليوم ليس عيد ميلادها، ولا عيد زواجكما». أجبت مُلاطفًا وكأني أدافع عن أبيها: «تستحقين كل شيء يا أليكس وكذلك أمك، يستطيع والدك أن يعبّر عن حبّه لزوجته في كل وقت. يبقى علينا أن نعرف إنْ كانت الهدية لها أم لا؟!». هنا تدخلت ماريا مخاطبة زوجها:

«عليك يا پول أن تطلعنا جمعيًا على سبب دعوتك هذه». التزمنا الصمت، واتجهتْ الأنظار نحو پول الـذي بادلني النظرات مبتسمًا، وهو يقول:

«أود أولًا أن أشكر قبولك دعوتنا، وددنا أن نعبر لك عن امتناننا لما قدمته لنا طوال فترة وجودنا في هذه المدينة، نقدر صدقك وصداقتك ومساعدتك لنا جميعًا، خصوصًا زوجتي وطفلتي اللتين تُكنان كل الحب والتقدير لك وأخلاقك، تركت فينا أثرًا طيبًا، وشعور بأننا أسرة متماسكة واحدة. تعلمنا منك الكثير حتى صرنا نشعر أننا نعرف بعضنا بعضًا منذ زمن طويل، بل نجد أنك قد أثريت حياتنا بعاداتك وتقاليدك وثقافتك، وكذلك لغتك العربية، لم نكن نعرف عنها شيئًا قبل لقائنا بك، الأكيد أنك لا تعلم قدر التأثير الإيجابي الذي صنعته فينا»

ثم رفع الكيس نحوي قائلاً: «قبل أن أبدأ الشق الثاني والمهم

من حديثي، أردت أنا وماريا وأليكس تقديم هدية بسيطة تذكرنا بها». تدخلت أليكس قبل أن أقوم بالرد: «أه. يعني أن الهدية ليست لي ولا لأمي، لكني سعيدة من أجلك على أي حال لأنني أحبك أيضًا».

أحرجتني كل تلك العبارات الإطرائية، رددت باستحياء شديد: «لا أدرى ماذا عليّ أن أقول، لم أتعود سماع كل هذا الكلام الطيب، ولا أرى نفسي مستحقًا له، فأنا من يشعر بالامتنان لجهودكم التطوعية خدمة لهذه المناطق الفقيرة، واهتمامكم بي، شعرت أني في وطني وبين عائلتي، تعلمت منكم الكثير، ثقافتكم وتقاليدكم ومعتقداتكم الدينية. وبفضلكم صرت أتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة جيدة».

أخرجتها الكيس، هدية مغلّفة بورق أزرق مطّعم بنجوم رمادية اللون مكتوب عليها Thank you. فتحتها فإذا بها مجموعة إطـارات خشبية جميلة تحمل صورنا جميعًا في مناسبات مختلفة. أبهجتني كثيراً، قلت ممتناً: «شكرًا لكم على العشاء والهدية القيمة بمعانيها وذكرياتها».

ماريا: «عليك أن تعلم أيضًا أننا تعلمنا منك الكثير». أضافت مُداعبة: «حتى إننا عرفنا كيف تصنع قهوتك العربية، رغم أنك

لا تقدم لنا منها سوى قطرات لا تكاد تُرى في قعر الفنجان حرصًا على ألّا تنتهي».

قلت ضاحكًا: «لا عليك سأزيد الكمية في المرات القادمة، لكن هذه طريقتنا في احتسائها». ثم سألتُ پول عما يعنيه بقوله الشق الثاني من الحديث. أجاب:

«الأمر المهم الذي وددنا إطلاعك عليه أن مهمتنا هنا قد انتهت، وجاء القرار أن نسافر إلى مملكة النيبال. طلبت منا المؤسسة المغادرة خلال أسبوع لنؤسس عملًا جديدًا هناك».

تلقيت الخبر كمن سكب عليه ماءً باردًا، لم أعلّق، سألتْ أليكس التي لا يبدو أنها مُطلعة على الأمر: «وأين مملكة النيبال يا أبي؟»، كررتُ السؤال نفسه لأني لا أعرف عنها شيئًا، وكنت أظنها جزءًا من الهند. أوضح پول:

«مملكة شبه مغلقة ومحاصرة، تحدها الهند من جانب، والصين من الجانب الآخر، يمكننا الوصول إليها عن طريق البر، إلا أن ذلك يستغرق وقتًا طويلًا، كما أنه درب متعب، ولذلك سنسافر إلى هناك جوًا عبر مطار بومباي».

أضـاف وهو يرى الصدمة واضحة على ملامحي: «هي خطوة صعبة علينا جميعًا بعد أن اعتدنا على بعضنا البعض

والحياة هنا، لكن هكذا جرت الأمور في السنوات الماضية. ننتقل من بلد لآخر مثل البدو الرحل من أجل العمل الإنساني».

بقيت واجمًا وأنا أسمع ما لم أهيّئ نفسي له، كانوا بمثابة عائلة كاملة ملأتْ فراغًا اجتماعيًا وعاطفيًا خلّفه بُعدي عن أسرتي. رحت أنظر إلى الجميع وأنا صامت كالأخرس لا أعلم ما أقول وقد ظهر عليّ التشتت والحزن. قالت ماريا: «أنت تعلم أنني الأكثر حزنًا بهذا القرار، كنتُ الأقرب إليك، وأقضي معظم أوقاتي في صحبتك، كما أن بدايتنا في النيبال ستكون صعبة مع انشغال پول الدائم في عمله، لكننا سنبقى على تواصل مستمر، ولعلنا نلتقي مجددًا في مكان ما من هذا العالم».

ظلّ لساني مربوطًا لدقائق، لكن كان لا بد لي أن أستجمع نفسي وأدعم قرارهم مهما كان مخالفًا أهوائي: «نعم هذا خبر صادم جدًا، لم أتوقع أن يحدث بهذه السرعة، سيترك رحيلكم فراغًا كبيرًا في حياتي، وسيشعرني بالوحدة والغربة مجددًا. لا أجد ما أقوله، لكني أتمنى لكم رحلة موفقة وتجربة ثرية بالإنجاز كما أنتم دائمًا».

طمأنني پول أننا سنبقى على تواصل، فيما راحت أليكس تعبّر عن انزعاجها ومفاجأتها بالقرار: «لو كان الأمر لي لبقيت

معك، وما تركتك وحيدًا هنا، وعليك أن تزورنا هناك وتبقى معنا».

حاولت ماريا تلطيف الأجـواء قائلة: «كلامك صحيح يا أليكس، خصوصًا أنه سيجد أسرة وبيتًا ينتظره وناسًا مشتاقين له باستمرار هناك في النيبال».

قلت: «لا أعرف شيئًا عن تلك البلاد ولم أسمع بها، ولن يكون مناسبًا السفر خلال فترة الدراسة التي تغرّبت من أجلها».

بول: «لدينا متسع من الوقت لنناقش ذلك، خصوصًا أننا لا نعلم حتى الآن كم سنبقى وفي أي مدينة سنمكث. دعونا نستمتع بتناول طعامنا الآن».

مرت الأيام التالية سريعًا، انشغلت معهم بالإعداد للسفر، ساعدتهم على إنهاء جميع التزاماتهم ومعاملاتهم في المدينة، ساعدت ماريا في جمع أمتعتها، وشحن بعضها برًا إلى مملكة النيبال أو بحرًا إلى عنوانهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

مرت الأيام كالبرق وجاءت اللحظة التي كرهتها. الثلاثاء منتصف مايو 1984، تاريخ مغادرتهم البلاد. في محطة القطار الرئيسية رحت والسيد پول نتعاون في حمل حقائب السفر، ونضعها في مقصورة الدرجة الاقتصادية بقطار (دكن كوين)

الذي ينطلق إلى بومباي بشكل يومي عند السابعة صباحًا، ويعود بعد الخامسة عصرًا بقليل.

على منصة القطار، وقفنا نتبادل الكلمات الأخيرة، ونسترجع ذكرياتنا الجميلة، وكإخوة يكبروننني سنًا رحت أستمع لنصائحهما وتوجيهاتهما حول حياتي ودراستي وكل أموري الاجتماعية، وكأنهما يرددان النصائح نفسها التي طالما كررتها أمي على مسامعي حتى لحظاتي الأخيرة قبل سفري. تعاهدنا أن نتواصل باستمرار ونسعى أن نلتقي مرة أخرى متى ما توافرت الفرصة والظروف. تعانقنا وتبادلنا آخر كلمات الود والحب، قبل أن تتشبّث أليكس بملابسي باكية وهي تطلب من والديها البقاء. عانقتها طويلًا وقبلت رأسها قائلًا:

«أنا متأكد أننا سنلتقي يومًا ما يا صديقتي، أعدك أن أسعى لذلك». تطبطب ماريا على طفلتها محاولة تهدئتها، والدموع تنهمر من عينيها، أمسكتها من يدها وسارت معها بهدوء نحو بوابة مقصورة القطار. دخلوا جميعًا ولزموا مقاعدهم. صاحت صفارة القطار للمرة الأخيرة معلنة بدء انطلاق الرحلة، بينما ماريا وزوجها وطفلتهما يلوحون لي بإشارات الوداع، والقبلات الطائرة. تدريجيًا زاد القطار من سرعته حتى غاب عن نظري.

أدرت ظهري عائدًا للمنزل الذي سيصبح منذ هذه اللحظة خاليًا من الحياة. كرهت هذه المحطّة لكثرة ما ودّعت فيها من أصدقاء. عدت متعبًا إلى البيت مثقل الـرأس لا أعرف كيف سأمكث فيه وقد غدا كئيبًا موحشًا، بعد أن شهد حياة مفعمة بالنشاط والحب. تضاعف عندي وقع الفراق، أهلي والأصدقاء والوطن.

إنها عجلة الحياة تمضي إلى الأمام، نتعرف على أصدقاء يكونون جزءًا من حياتنا، ثم يختفون فجأة، يمضون في طريقهم، ويأتي غيرهم ليملأ فراغهم، لتبدأ دورة حياة اجتماعية جديدة. مثل قطار يسير دون توقف، عدا محطات يغادر فيها ركاب ويحل مكانهم آخرون، ثم يكمل طريقه دون اكتراث بمن صعد أو نزل. هكذا تمضي الحياة نحو المستقبل ولا تعود للماضي.

علمتني سنواتي اللاحقة وتجاربي أنْ أنظر إلى الأمام دائمًا، ولا أنتحب على الماضي أو آسف عليه، بل أُراكِـم تجارب الماضي كي أنطلق بها نحو المستقبل. مهما شكلت هذه الظروف عبئًا نفسيًا واجتماعيًا، إلا أنها محطات كانت سببًا في نضج عقلي ورشد أفعالي، وما كنت لأحظى بكل هذه التجارب لو مكثت مكاني، وتقوقعت في روتين مجتمعي، سالكًا دورة

الحياة نفسها التي عشتها منذ طفولتي. السفر مدرسة أخرى من مدارس الحياة.

لفترة غير قصيرة بعد رحيل أسرة ماريا سالادينو، ظللت أشعر بوحدة خانقة، لم أتمكن من التعامل معها سريعًا، لكني قررت تجاوزها، فَعّلت زياراتي لأصدقائي مرة أخرى وبرامجي مع زملاء الجامعة، وصرت أتسكع في المقاهي التي يتجمع فيها الطلبة بعد الانتهاء من يومنا الدراسي في كلية واديا، عسى أن نحظى بنظرة فتاة أو ابتسامة بريئة خاطفة من إحدى المارات أو الجالسات، لننسج حولها الروايات والقصص الرومانسية التي نتخيل أنفسنا أبطالها. كما أعدت إحياء السهرات النقاشية السياسية والثقافية في شرفة غرفتي المطلة على النهر، وعادت الجلسات التي تستمر حتى بزوغ شمس الصباح في عطل نهاية الأسبوع والإجازات الرسمية، ومع الوقت انضمّ إلينا المزيد من الشباب المهتمين.

أكملت عامًا كاملًا في الهند، هي أطول فترة قضيتها خارج وطني، أشعر بالفقد الشديد لعائلتي، قررت العودة إلى البحرين لقضاء بضع أيام. في رسالة خطية أبلغتُ أسرتي بذلك، وصرت أعدّ نفسي لذلك اليوم، وأتطلع لرحلة العودة بكل اشتياق.

أثناء ذلك، سمعت عن رحلة نظمتها مجموعة من الطلبة الهنود والأجانب، وهي رحلة جماعية إلى ولايـة كشمير، استهوتني الفكرة كثيرًا ووجدتها رائعة، خصوصًا أني سمعت أن هذه المنطقة المتنازع عليها، والمنقسمة بين الهند وباكستان تعدّ واحدة من أجمل مناطق الهند، بجبالها الشاهقة، وأنهارها المنحدرة من الجبال، وبحيرتها الكبيرة التي تضم الفنادق العائمة.

عدلت عن فكرة العودة إلى البحرين، وقررت المشاركة في رحلة هذه الولاية التي كانت الدافع وراء عدة حروب دموية بين الهند وباكستان. رأيت أنها فرصة مهمة قد لا تتكرر. أخبرت عائلتي في اتصال هاتفي عن تغيير خطتي، وطلبت من والدي دعمًا ماليًا إضافيًا يُقدر بخمسة آلاف روبية لتغطية تكاليف الرحلة والسكن مدة أسبوعين، ورحت أتوسل طالبًا موافقته على تحقيق حلمي في الذهاب إلى هذه الرحلة.

جاءت الموافقة بعد أسبوعين على مضض، ومع رسائل تشير لاستياء أسرتي من قـراري، رأوا أن إلغاء رحلتي إلى البحرين رسالة سلبية تبين عدم اشتياقي لرؤيتهم، وهذا خلاف ما كنت أشعر به بالتأكيد. وعدتهم بالعودة في أقرب فرصة ممكنة بعد زيارتي ولاية كشمير.

لكن ما حدث بعد ذلك أن رحلة كشمير أُلغيت. تصاعدت الاضطرابات بين القوات الهندية والمتظاهرين الكشميريين، كانوا قد خرجوا احتجاجًا على إعـدام أحد قادة الحركات القومية الكشميرية، نزل أنصاره في مواجهة الجيش ووقع بينهم قتلى كثيرون.

منذ استقلال الهند وضمّ جزء من كشمير إليها ناضل أبناء هذه المنطقة من أجل الاستقلال. ظلت هذه المنطقة سببًا لمناوشات وحروب مع الجارة باكستان التي تدعم حركات التمرد في كشمير، راح ضحيتها الكثير. تحدثتْ المنظمات الدولية بما فيها منظمة الأمم المتحدة عن الانتهاكات التي تجري على أيدي القوات الهندية في هذه المنطقة، وضحاياها من أبنائها المطالبين بالانفصال عن الهند. وعلى الرغم من أن هذه القضية الساخنة كانت تُدرّس ضمن مقررات العلوم السياسية، لكن ما ندرسه تعكس وجهة نظر الجانب الهندي فقط. قاد هذا التصعيد إلى إلغاء الرحلة المعدّة من قِبل رفاق الجامعة.

إلغاء هذه الرحلة، لم يحمل أكثر من تغيير وجهة السفر بالنسبة لي، وصلتني رسالة من ماريا بعد شهرين ونصف من رحيلهم، أعادت توجيه بوصلة رحلتي.

7
إعادة توجيه الرحلة

«عزيزي نادر، أكتب هذه الرسالة على عجالة، وعسى أن تصلك وأنت بصحة وعافية. وددتُ أن أطلعك أننا وصلنا مملكة النيبال بيسر وسلام. تبدو بلادًا جميلة رغم فقرها. أراضٍ وعرة، جبال شاهقة، بحيرات متجمدة، وأنهار جميلة.

تضم هذه البلاد أقدم المعابد الهندوسية والبوذية في العالم، يمتد تاريخها لمئات السنين قبل ميلاد المسيح. الناس هنا بسطاء طيبون بصورة لا تتوقعها. يحترمون الغرباء والسياح القادمين من دول أوروبا. لكن يحزنني أنَّ نسبة الفقراء المرتفعة كما هو الحال في الهند، الوضع المعيشي سيئ جدًا في ظل غياب بيوت ملائمة تُؤْوي الفقراء، هم الشريحة الأكبر في البلاد. يدخل ذلك في صلب نشاط زوجي والدافع وراء انتقالنا لهذه البلاد كما تعلم، هو على قناعة أننا قادرون على التغيير للأفضل، ولو بصورة طفيفة.

ارتبط برنامجه بزيارات، ورحلات طويلة لمختلف قرى البلاد ومناطقها الفقيرة التي يوجد بعضها في أماكن نائية،

لا تصل إليها شبكات المواصلات. وهناك ثلاثة أفراد من المؤسسة نفسها يقومون على مساعدته في عمله، بعد أن وصلوا مع أسرهم بعدنا مباشرة. اليوم نحن نعيش معهم في مبنى واحد وسط العاصمة كاتمندو، أضفى وجودهم معنا حياة اجتماعية نشطة، وأمسى بيتنا مدرسة أطفال حتى بتنا لا نرى طفلتنا أليكس المنشغلة عنا طوال الوقت، كثر أصدقاؤها، وبرامجها، وأنشطتها المتنوعة، ودروسها الخاصة أيضًا. رغم كل ذلك، فإنها لم تنسكَ وتسأل عنك دائمًا وتتحدث عنك لدى أصدقائها الجدد، وتسأل متى ستحقق لها حلمها بزيارة النيبال. عليّ أن أعترف أن انشغالها مع الأصحاب الجدد وفّر لي مزيدًا من وقت الفراغ لإشغال نفسي أيضًا.

حصلتُ على وظيفة مدرسة لغات في مدرسة أجنبية خاصة في الفترة الصباحية، ثلاثة أيام في الأسبوع فقط. ألتقي الكثير من الأطفال من جنسيات مختلفة، وأغلبهم أطفال دبلوماسيين أجانب يعملون في النيبال. الأهم من ذلك أنني أعمل جزئيًا عازفة على البيانو في بهو فندق (هملايا شيراتون)، وهناك ألتقي عددًا من الزوار الأجانب القادمين للتجارة والسياحة أيضًا.

أحوالنا مستقرة لا ينقصها إلا وجودك بيننا، نذكرك في كل مناسبة، وليتك تعلم كم نحن تواقون لمعرفة أخبارك، وكيف جرت الأيام معك بعد مغادرتنا الهند، كما أرجو أن تُطلعنا على أحوالك في رسالة أو اتصالك على الهاتف المدون أسفل الرسالة.

ألح عليّ (بـول) الاستعجال بمراسلتك لطمأنتك على أحوالنا، ولأوجّه لك الدعوة لزيارتنا في أقرب فرصة ممكنة، على أن تمكث معنا أسبوعًا أو أسبوعين كي نجدد أيامنا الجميلة التي قضيناها معًا. وها هي أليكس تدعوك لتكون معها في غرفتها، وليس في أي مكان آخر، ولا بد أن هذا سيخفف عليك عبء مصاريف السكن. هذا لو قررت زيارتنا حقًا.

أخيرًا أجدد أشواقي لرؤيتك وتمنياتي أن تحقق حلمنا بزيارة عائلتك الثانية التي تتطلع للقائك. انتبه لنفسك واجتهد في دراستك.

ابعث تحياتنا لأسرتك في البحرين والأصدقاء كافة في بونا».

ماريا سالادينو

هاتف: 251521

أسعدتني كثيرًا الرسالة القادمة من كاتماندو، هيّجت ذكرياتي وأشعلتْ شوقي لأصحابي، ووجدت أن فكرة زيارتهم لأيام، ستكون فرصة سياحية أيضًا، أتعرف فيها إلى تلك المملكة التي لا أعرف عنها شيئًا.

هكذا حوّلت اهتمامي، وحضّرت نفسي لوجهتي الجديدة، خصوصًا أن تكاليف السفر باتت متوافرة، بعد أن أرسلها والدي، وظلّوا على اعتقادهم السابق أنني سأتوجه في نزهة إلى ولاية كشمير الهندية. لم أرَ حينها داعيًا لإبلاغهم بالترتيبات الجديدة؛ لأنهم لم يسمعوا بهذه المملكة على أي حال، وكذلك لخشيتي أن يرفضوا سفري خارج الهند، لم يكن من الدارج في بلدي ولا عند أسرتي أن يقوم شاب في مثل عمري بالسفر وحيدًا في رحلة سياحية إلى مكان وبلد غير الذي يدرس فيه.

لكنني أقرّ اليوم، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا أن إخفائي حقيقة سفري إلى مملكة النيبال عن أهلي وأصدقائي كان أكبر خطيئةٍ اقترفتها في حياتي، وتضليلٍ ندمت عليه كثيرًا، ودفعت ضريبته وتمنيت لو لم أفعل ذلك، إلّا أن ندمي المتأخر لم يكن مجديًا، بعد أن ضاقت بي السبل ورأيت الموت بعيني!

بدأت بتحضير نفسي للسفر، وتغيير خططي السابقة كلها،

ومواءمة برامجي مع الرؤية الجديدة بالتوجه إلى عاصمة مملكة النيبال، والتحرك بشكل مستعجل قبل أن تنتهي إجازة الجامعة أو تمر مرورًا سريعًا، خصوصًا أنني قررت أن أسافر برًا، متنقلًا بين قطار وحافلة حفاظًا على ما أملكه من ميزانية محدودة لا تغطي التكلفة جوًا. غير أن السفر برًا له سلبيات، يعني إهدار أيام مهمة سأقضيها في الطريق متنقلًا من مكان إلى آخر حتى أبلغ وجهتي النهائية. ولن يبقى لي من الوقت، في ضيافة أصدقائي عدا أسبوعين في أفضل الأحوال، أما الثالث فسأقضيه في الطريق ذهابًا وإيابا. كان هذا كل ما تستطيع ميزانيتي توفيره من رفاهية السفر، لهذا اتخذت قرارات تقشفية مهمّة فتركتُ ارتياد المطاعم، واعتمدت على الشراء من عربات الباعة المتجولين في الشوارع، ومحطات القطار، والحافلات في سبيل تحقيق هدفي بما هو متاح من مال.

مررت على أصدقائي المقربين رازق وعبدول وماهر كي أودعهم وأستدين منهم بعض المال قبل السفر، طلبت منهم متابعة إجراءاتي الرسمية في الجامعة كالتسجيل وغيره أثناء غيابي، كما أطلعتهم بنية تأجيل عودتي إلى البحرين، حتى نهاية العام، لكن أيضًا، لم أخبرهم بتغيير وجهة سفري، ولا

حقيقة أنني مسافر وحدي كي لا أشغلهم بشأني، وهي الخطيئة التي دفعت ثمنها فيما بعد.

تواصلتُ هاتفيًا مع والدي وأسرتي في البحرين، لتوديعهم قبل أن أبدأ رحلتي البرية إلى النيبال. كما أخبرت العجوز الشمطاء صاحبة المبنى برحلتي لكيلا تذهب شكوكها إلى الاعتقاد بهروبي عن دفع الإيجار، كما هي أفكارها السلبية حول الناس دائمًا، أو مَن يشغلون الغرف في مبناها. تلك التي طالما أدخلتها في نزاعات مستمرة مع النزلاء.

في يوم السفر استيقظتُ باكرًا، حزمت أمتعتي، بعد أن كنزت الشنطة التي أحملها على ظهري بالملابس ومواد التنظيف ولحاف يقيني البرد أثناء الطريق، كذلك جهاز المذياع والتسجيل وبعض أشرطة الفنانين الغربيين الذين كنت مغرمًا بهم، منذ كنت طالبًا في المدرسة، من أمثال: الأسطورة بوب مارلي، وفرقة آبا أو بوني إم، اللتين اشتهرتا بداية الثمانينيات، وغيرهم ممن صاحبتني أصواتهم طوال الطريق.

كنت أتابع خلال المذياع محطة هيئة الإذاعة البريطانية، وآخر أخبار العالم، تتقدمها الحرب المستعرة بين إيران والعراق، التي استمرت لثمان سنوات، وأدت لخسائر بشرية

واقتصادية كبيرة، كذلك تداعيات الغزو الإسرائيلي على لبنان الذي انتهى بانسحاب مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، ومغادرتهم لبنان إلى تونس، وبقاء القوات الإسرائيلية في شريط حدودي جنوب لبنان. والأهم بالنسبة لي الأخبار القادمة من داخل الهند، وتشغل الرأي العام حينها، وهي تداعيات الهجوم العسكري الذي قادته حكومة أنديرا غاندي على المعبد الذهبي التابع لأبناء الطائفة السيخية، بعدما تحصنت مجموعة كبيرة من المتمردين السيخ داخله مطالبين بإحياء حلمهم في دولة (كالستان) بولاية (البنجاب)، وهو الصراع الذي دام سنوات، وانتهى بهزيمة المطالبين بالانفصال ولكن بعد سقوط الكثير من الضحايا بين طرفي الصراع.

حملت حقيبتي فوق ظهري، وقبل أن ألتحق بالقطار، تناولت إفطاري مع صديقي الهندي مشتاق في مطعم (الألماسة) بناء على دعوته. يقع المطعم في شارع جواهر لآل نهرو جنب محل الأثاث الذي تملكه أسرته. ثم اشتريت من عربات الباعة المتجولين بعض الطعام مؤونة للطريق الطويل، وفي محطة القطار وقفتُ على المنصة نفسها التي ودّعت فيها أصحابي قبل أكثر من شهرين، أسافر لهم اليوم.

صاحت الصفارة معلنة تحرك القطار في رحلة تستغرق أربع ساعات تقريبًا، حتى نصل إلى محطة فكتوريا، الأكبر والأكثر ازدحامًا في مدينة بومباي، ومنها تنطلق القطارات إلى جميع أنحاء الهند. المحطة أشبه بتحفة هندسية، شيدت عام 1898 إبّان الحكم البريطاني لشبه القارة الهندية. أطلق عليها اسم الملكة فيكتوريا؛ لأنه تم تتويجها ملكة، واعتلت العرش في اليوم نفسه الذي افتتحت فيه هذه المحطة.

يُعدّ السفر بالقطار بين المدن الهندية الحل الأفضل، مقارنة بالحافلات المتهالكة الحمراء المعروفة، وهي من إنتاج مصانع تاتا الهندية، يسافر عليها معظم الفقراء وذوي الدخل المحدود. قضيت الساعات الأربع نائمًا.

في المحطة المزدحمة بالمسافرين سألت عن أسهل السبل إلى النيبال. فهي تشترك مع الهند في أكثر من ثلاثين نقطة عبور حدودية، وكـان التحدي هو البحث عن أقـرب نقطة حدودية، وأيسرها. بعد الاطلاع على خريطة البلدين، وحركة المواصلات، واستشارة عاملي السكك والخطوط الحديدية، وجدتُ أن أفضل معبر حدودي هو الموجود على مشارف مدينة بتنا، وحتى أصل هناك يتحتم عليّ المرور بعدة مدن

وقرى، وقضاء أيام بلياليها، أستقل فيها عددًا من القطارات والحافلات.

من بومباي انطلقتُ إلى مدينة لكناو في الرحلة الأطول، تجاوزتْ خمسًا وعشرين ساعة. قطار مكون من خمسين عربة، بينها واحدة فقط مُكيفة. يعدّ ذلك تطورًا في تاريخ القطارات الهندية التي لم تكن قد عرفت التكييف بعد. تجاوزتُ تقشفي وسافرت في هذه المقصورة، لم يكن فـارق السعر كبيرًا. طمعت برحلة مريحة أتمكن فيها من النوم متجنبًا ضوضاء القطار، وأصـوات القطارات العابرة في الاتجاه المعاكس، وصوت صفاراتها التحذيرية المدوية، والأصوات الناتجة عن احتكاك العجلات بسكة القطار في إيقاعات منتظمة. أبعدتني المقصورة المكيفة المؤصدة النوافذ والأبواب عن كل تلك الفوضى العارمة، لكن لا مفر من الروائح المزعجة التي يُطلقها فائضو البطون أحيانًا.

ها قد غادرت ولاية (مهراشترا) لأول مرة منذ مجيئي الهند، قاصدًا مدينة (لكناو) أو مدينة النواب كما أطلق عليها سلاطين المغول، وتُعرف اليوم بمدينة الثقافات المتعددة، وهي مسقط رأس الإلهين راما وكرشنا، ومن المدن التاريخية في تراثها

البوذي، والهندوسي، وكذلك المغولي الإسلامي. تضم بعض المدارس والجامعات الإسلامية، التي درس فيها الكثير من الرموز الدينية المعروفة في الهند وخارجه، ويشكل المسلمون أكثر من ربع سكان الولاية التي تمتاز بتعددها الثقافي.

أهم ما كنتُ أحلم بمشاهدته في الساعات القلائل التي سأقضيها في مدينة لكناو، هو مسجد الجامع الكبير، طالما سمعت عنه في سياق الحديث عن تاريخ الهند إبان حقبة حكم النواب المغول. زرت هذا الصرح التاريخي الذي شيّد في القرن الخامس عشر على يد السلطان أحمد شاه المدفون في المسجد نفسه، بني كله من الحجر الرملي، ويعدّ أحد أجمل مساجد الهند، يقف على مائتين وستين عمودًا، ويضم خمسة عشر قبةً نُحتت بأجمل المنحوتات الفنية، ومَزج بين العمارة الإسلامية والهندوسية.

قضيت يومًا رائعًا في باحة المسجد، متأملاً المكان والناس، متأثرًا بروحانية المكان، أنصت لأدعية الداعين، ومناجاة المناجين، حاملًا في يدي كأسًا معدنيًا أحتسي به شاي الكرك، يوفره القائمون على المسجد مع الرغيف، للفقراء وعابري الطريق.

قبل منتصف الليل، وفي زاوية خارج الجامع، انضممت إلى حلقة من المتصوفة، ينشدون ويتراقصون ويصفقون حتى ساعات الفجر الأولى، يرددون كلمات وترانيم عربية بلكنة فارسية جذبتني، بقيت معهم إلى طلوع الفجر أتفاعل وأتمايل مثلهم على إيقاعات الأناشيد. عرفت من الأشعار التي أنشدوها أبياتًا للشاعر أبي عبد الله بن الحسين الحلاج الذي عاش في القرن التاسع الهجري. وفيها يقول:

«والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحُبك مقـرون بأنـفاسـي

ولا جلـستُ إلى قـوم أحـدثهم

إلا وأنت حـديثي بين جـلاسي

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبي بين وسـواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيـالًا منك في الكـاسِ

ولـو قـدرت على الإتيـان جئتكم

سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراسِ

ويا فتى الحي إنْ غنيت لي طربًا
فغنني واسِفًا من قلبك القاسي
ما لي وللناس كم يلحونني سفهًا
ديني لنفسي ودين الناس للناسِ»

صباحًا، أخذت مكاني على كرسي القطار الذي انطلق مغادرًا لكناو نحو وجهتي التالية، أعاين من النافذة معالم المدينة التي بدت تختفي تدريجيًا عن ناظريَّ، وأنا أردد آخر تلك الأبيات التي استهوتني في حلقة المتصوفة:

«ديني لنفسي، ودين الناس للناسِ».

أما الجزء الثالث من رحلتي الذي عليّ إنجازه، فهو المرور عبر ثاني أكبر مدن الهند، ومركزها الاقتصادي والسياسي، العاصمة (نيودلهي) أو دلهي الجديدة التي سماها العرب والفرس دهلي. حكم منها سلاطين المغول ديار الهند وأجزاءها في القرون الغابرة، حتى صارت محل استقطاب كافة الهنود بمختلف ثقافاتهم وتقاليدهم، وعقائدهم المتنوعة، ما جعل منها مدينة متعددة الأعراق، وجامعة لثقافات الهند، ومركزًا سياسيًا.

حتى الوصول إلى العاصمة دلهي كان عليّ قضاء أكثر

من ثلاث عشرة ساعة في القطار. أخذ التعب مني مأخذه، كل ساعة أمضيها في الطريق أدرك بصورة أوضح تعقيدات وصعوبات السفر برًا، خصوصًا بين بلدين لا يوجد بينهما رابط بري مباشر، ولا شبكة مواصلات سهلة كما في دول العالم الأخرى، وربما عدم خبرتي قادتني إلى تعقيد غير ضروري في خريطة سيري.

التزمتُ في رحلتي بوصيَّتين اثنتين، طالما رددها أصدقائي عـليّ. الأولـى هـي الـحـذر مـن اللصوص فـي المحطات والقطارات؛ لذا قمت بوضع نقودي تحت ملابسي الداخلية التي أرتديها. وبقدر ما سبب لي ذلك من إزعاج فقد ضمن لي الوصول إلى محطتي النهائية محتفظًا بنقودي. أما الوصية الأخرى فهي ألّا أُقدم على شراء شيء إلا ولدي فكة نقود تغطي السلعة المراد شراؤها بالضبط؛ لأن بعض باعة القطارات لا يُرجعون المتبقي من المال إذا تسلموا نقودًا تفوق سعر السلعة بذرائع مختلفة. حصل لي ذلك في إحدى المحطات، توقف القطار لخمس دقائق فقط، قررت أن أنزل سريعًا لأروي عطشي بكأس من عصير البطيخ البارد، لكن البائع الذي يعلم أن لحظة تحرك القطار ستكون بعد خمس دقائق، راح يتصنع الانشغال

مع الزبائن الآخرين، عوضًا عن أن يرجع لي التسع روبيات المتبقية من نوط العشر روبيات الذي سلمته إياه. رحت أصرخ عليه كي يعيد لي الباقي، وهو يطلب مني التمهل والانتظار، أو يتجاهل طلباتي إلى أن تحرك القطار، ووجدت نفسي مُجبرًا على تركه واللحاق بالقطار. كنت في حالة من الغضب حتى أخذت الكأس الزجاجي الذي أشرب منه، كذلك كأسًا آخر فوق عربة البائع، إلى داخل القطار ثم تركتهما هناك، وهو أقل رد انتقامي يمكنني فعله حينها.

كانت جدتي معصومة قد علمتني منذ طفولتي ألّا أتنازل عن حقي بسهولة، ولا أترك من يسلب حقي يستمتع به، عليّ التنغيص عليه قدر الإمكان في حال استحالة استرداده، وأن أجعله يدفع ضريبة تفوق الغنيمة التي كسبها. وهو ما كانت تفعله بي وإخوتي حين نسرق بعض علب البسكويت التي تخفيها تحت سريرها أثناء نومها، ما إن تلتفت إلينا ونحن نتسلل تحت سريرها، حتى تسحب عكّازها وتلقمنا وجبة من الضرب تجعلنا نفرّ هاربين متألمين، توقفنا بعدها عن تلك الممارسة، بعد أن استوعبنا أن ضريبة العكّاز وألمه، تفوق غنيمة البسكويت. يجب أن تكون الغنيمة أكبر من الضريبة،

وإلا لا فائدة منها. سأتعلّم هذا الدرس بصورة أعمق في رحلتي القادمة تلك.

التفت مع الوقت، من خلال الرحلات الكثيرة التي قضيتها في القطارات، تغيّر لغات المسافرين وأشكالهم بشكل كبير، فكلما توقف القطار في مكان أو ولاية، اختلفت لغات الركّاب الجدد وطبيعة ملابسهم. أدركت حينها أني لا أعرف إلا القليل عن هذه البلاد وثقافاتها، بل اكتشفت أن الكثير من الهنود أنفسهم لا يتحدثون اللغة الهندية، وهي اللغة الرسمية لبلدهم، بل أغلبهم يتحدثون بلغات ولاياتهم المحلية الخاصة، وهي التي تدرس في مدارسهم، ما جعل الهندية لغة ثانية، يعتبرها البعض في الولايات الهندية لغة أجنبية.

عرفت أن هناك اثنين وعشرين لغة رسمية محلية، وأكثر من سبعمائة لغة غير رسمية. فأهل ولاية مهراشترا يتحدثون المهراتية، وگجرات يتحدثون الگوجراتية، وأهل ولاية بيهار يتحدثون البيهارية، أما في كيرلا فيتحدثون الملیالم، وفي مدراس يتحدثون التميل، وفي حيدر أباد يتحدثون الأردو وكذلك التلگو، وفي البنجاب يتحدثون البنجابية، وفي كلكتا يتحدثون البنغالية، وغيرها.

المفارقة أن الهند، تلك البلد الفقيرة اقتصاديًا، تعدّ من أكثر دول العالم ثراءً في تعدديتها العرقية والإثنية والثقافية والدينية واللغوية. تعلّمت منها الكثير، وكسبت معلومات غنية عن ثقافاتها من خلال المسافرين الذين أصادفهم في طريقي، أو كلما زرت مدنها، وتنقلت في شبكة مواصلاتها.

تخليت عن القطار في العاصمة نيودلهي، وركبت حافلة متوجهًا إلى مدينة (پتنا)، آخر محطة لي داخل الهند. استغرقت الرحلة نهارًا آخر مليئًا بالتعب، سياقة سريعة فوق طرق معبّدة بالحفر، منعطفات حادة، أتربة تقتحم نوافذ الحافلات ودخان عـوادم الشاحنات، لا مهرب منها ما دامت النوافذ مفتوحة للتهوية والتنفس. استخدام مفرط للمكابح. بشكل عام يدمن السواق الهنود على كبس المكابح، والتزمير بالأبواق.

هكذا مضيت نحو محطّتي الأخيرة في الهند، مدينة (بتنا) عاصمة ولاية بيهار المجاورة لمملكة النيبال، تحاذي نهر الغانج المقدس الذي يتدفّق من جبال الهملايا، وتقع غالبية مدن الإمبراطوريات القديمة في الهند على ضفافه، وقد سُميَ أحد آلهة الهندوس باسم النهر نظرًا لقدسيته. المدينة غنية بآثار دينية بوذية وهندوسية مثل تمثال (بوذا گايا). يعدّها أبناء طائفة

السيخ مدينة مقدسة إذ وُلد فيها المعلم العاشر لطائفتهم. كل هذه العناصر جعلت المدينة مزدحمة بالحجاج والسواح، من مختلف الطوائف الهندية القادمة من كل مكان، أو هكذا بدا لي وسط المدينة في الليلة التي أقمت فيها هناك، ورحت أزور معالمها التراثية والدينية.

في الصباح الباكر تركت النُزل الذي قضيت فيه ليلتي، مستقلًا دراجة روكشا الهوائية ذات الثلاث عجلات، قاصدًا نقطة العبور الحدودية إلى النيبال، ومكتب الجوازات، على الجانب الهندي من الحدود من أجل إنهاء إجراءات السفر والعبور إلى الجانب النيبالي.

وصلت إلى النقطة الحدودية بعد دقائق، وبينما الناس يعبرون الحدود مشيًا، أو على دراجات روكشا البشرية (ذات عجلتين فقط يجرها الرجال)، لفتني عبور المغادرين والقادمين دون إبراز جوازات سفرهم أو ختمها، بل لم يبدُ أنهم يحملون جوازاتٍ أصلًا، كما لم يكن هناك من يعترضهم أو يسألهم عنها، ولا يوجد ما يوحي بأنها منطقة عبور بين بلدين!

دخلت مكتب الجوازات الذي يشبه دكان بيع المواد الغذائية. على طاولة مغبرّة دفاتر كبيرة الحجم قديمة ومهترئة.

يجلس رجل خمسيني خلف طاولة خشبية وهو يحتسي الشاي، ويسحب نَفَسًا من سيجارة (بي دي) المعروفة في أوساط الفقراء وأبناء الريف، يراقب من مكانه الخارجين والداخلين عن بعد. عرفتُ أنه موظف الجوازات وواحد من اثنين يتناوبان على المكتب كل اثنتي عشرة ساعة في هذه النقطة الحدودية، ويعمل على تسجيل المسافرين في هذا الدفتر العملاق الذي وضعه أمامه، وراح ينقل منه بعض المعلومات إلى دفتر آخر يكبره حجمًا.

حالما رآني مقبلًا مدّ يده، أعطيته الجواز مباشرة دون كلمة من أي منا. قام بتسجيل معلومات الجواز الخاص بي في دفتره، ومن ثم ختمهُ، وأعاده لي، ليواصل مهمته في احتساء الشاي، وتدخين السيجارة ذات الرائحة اللافتة والمختلفة عن السجائر العادية. سألته قبل أن أغادر المكتب:

«ما سر عبور هؤلاء الناس بين البلدين دون ختم الجوازات؟»

رد بعد نَفس عميق من سيجارته: «الزوار من كلا البلدين يا صاحبي لا يحتاجون إلى تسجيل وختم، يمكنهم العبور في أي وقت، هذا المكتب للأجانب فقط».

«وهل تصادف الكثير من الأجانب هنا؟»

«الأجانب الذين يستخدمون هذا المعبر البري قليلون. يفضل الغالبية منهم السفر جوًا، بما أن لديهم من الإمكانيات المادية».

قطعتُ آخر خطواتي في الأراضي الهندية، ومنها دخلت المنطقة الحرة الواقعة بين البلدين، مسافة قصيرة لا يملكها أحد، لا تتعدى كيلومتر واحد، لم أر حركة لسيارات أو حافلات تنتقل بين الحدود. ينتقل الناس على الدراجات الهوائية ذات الثلاث عجلات، أو روكشا ذات العجلتين التي تُجر على الظهور، وتحل أرجل أصحاب العربات محل العجلة الأمامية. وهي الوسيلة الوحيدة المتاحة لنقل المسافرين وأمتعتهم في المنطقة الفاصلة بين البلدين.

ركبتُ واحدة من تلك الدراجات، وواصلت الطريق وأنا أعاين المنطقة التي بدت جميلة بطبيعتها وارتفاعها. شعور غريب تملكني وأنا أمرّ على أرض محايدة لا تخضع لإرادة أو سلطة أي حكومة مركزية. شعرت أن الناس الذين يعيشون معتمدين على أنفسهم في تلك المناطق دون حكومات، هم أسعد الناس وأكثرهم حرية وسلامًا.

خلال الطريق، راح صاحب الدراجة يشكو لي حاله وعمله

المرهق وحياته البائسة التي تجبره على العمل الشاق طوال اليوم. يدوس مقود دراجته التي أصابتها الشيخوخة، ويصارع كي تمضي بنا إلى الأمام، ولو ببطء. كنت في الحقيقة سأصل في وقت أقل لو نزلت عن العربة ومشيت راجلًا، لكن لم أفعل تجنبًا لإحراجه، وقد نجح في استمالة قلبي، ودفعي لتكريمه بورقة نقدية خالية من الأصفار.

بعد جهد وتعب شديدين دخلت مملكة النيبال. البلاد ذات الجغرافيات والتضاريس المتنوعة، والمحاصرة حدوديًا بين الهند والصين. ركبت حافلة إلى العاصمة (كاتمندو)، في رحلة استغرقت أكثر من عشر ساعات مُجهدة، لكنها كانت الأخيرة في رحلتي الطويلة. قضيت ساعاتي الأولى في الحافلة معاينًا كل ما يمر على ناظريَ من مناظر جميلة، مُستعيدًا ما أخبرتني به ماريا في رسالتها عن هذه البلاد. غفوت مساء، ودخلت في سبات عميق لا يزعجه سوى طنين محرك الحافلة وصراعه وهو يصعد المرتفعات، أو يسير على الطرقات الوعرة، كذلك شخير بعض المسافرين الذي لم أجد سبيلًا لتفاديه غير اللحاق بهم.

8
في بلاد الهملايا

الأسبوع الثالث من أغسطس 1984.

أيقظني سائق الحافلة من نومي العميق في منتصف الليل، أخبرني أننا وصلنا. ها أنا أخيرًا أصل (كاتماندو) العاصمة، أو مدينة المعابد والتراث العالمي الواقعة على ارتفاع ألف وأربعمائة متر عن سطح البحر.

حطت قدماي أرض العاصمة في منطقة قريبة من الحي الذي سأقيم فيه، أتلفت يمنة ويسرى في ظلام حالك والبرد شديد، طرق خالية، وأنوار خافتة صادرة من مصابيح معلقة بأسلاكها على واجهات بيوت، أو أبواب دكاكين مغلقة. يشير الضوء الخافت داخل بعض الدكاكين أن هناك من يقيم فيها.

لم أرَ ما اعتدته في مدن الهند من صفوف سيارات الأجرة خارج المحطات وفي الطرقات، بل بضع سيارات أجنبية مركونة أو مارة هنا وهناك، ولم أصادف حشودًا بشرية، ولا متسولين يلاحقون زوار المدينة، أو متطفلين يزعجونني بعروضهم من الممنوعات والمحرمات، لا يبدو على المدينة

بأنها ساهرة، أو مدينة ليال حمراء، بل مدينة هادئة، هكذا بدت لي عند وصولي منتصف الليل.

كان أول ما لمحته أمامي في المدينة بقعة بيضاء عالية، كأنها سحابة كبيرة لافتة من السماء، وسريعًا ما اتضح لي أنها قمة جبل مجاور للعاصمة مكسوّة بالجليد. بدا المشهد جميلا لم يسبق لي رؤيته في حياتي، وأنا القادم من صحراء الخليج القاحلة، والتضاريس المسطحة، والأجواء الحارة معظم أيام السنة.

استغربت خلو الشوارع إلا من بعض المارة السكارى أو المنتشين، أو المتسكعين في مجموعات مشكلة من ثلاثة أو أربعة محتمين من البرد حول براميل تشتعل فيها النيران. توقفتُ عند إحدى تلك المجموعات، وسألت بلغة ممزوجة بين الإنجليزية والهندية عن مكان النزل الذي سأقيم فيه، اسمه (كونتيبور إيفرست). وقبل أن يجيب أي منهم عن سؤالي دعاني أكبرهم سنًا كي أنضم إليهم وأحتسي كوبًا من الشاي، كان يسخّن فوق البرميل المشتعل. لبيتُ الدعوة وانضممت لمجلسهم الليلي، وجدتهم مجموعة مرحة من رجال متوسطي الأعمار والكبار، لا يبدو أنهم يشكلون أي خطر. وفي الحقيقة

كنت متشوقًا للحديث والتفاعل الآدمي، بعد أيام من الوحدة المريرة وصمت الطريق، اعتبرتها فرصة لأتعرف إلى البلاد، وحياة الناس في هذه البقعة من العالم.

أخرجتُ من جيبي قصاصة ورقة مكتوب عليها اسم الفندق وقدمتها للسيد راج، وهو الرجل الأكبر سنًا، والأقل أسنانًا بينهم. وبعد أن أخذ نَفَسا عميقًا من غليونه الفخاري الأحمر، التفت لي وهو يشير بيده إلى منطقة بدت قريبة من المكان قائلًا:

«هنا في منطقة تاميل بعد المنعطف الثاني الذي أمامنا»

تعدّ منطقة تاميل الحي السياحي الذي يقطنه معظم السواح القادمين غالبًا من العالم الغربي، والحي الذي اشتهر عند الأجانب بصورة أكبر منذ عهد الهيبيين المتمردين على قيم وعادات المجتمع. قدِموا إلى هذه المنطقة، وصارت مركزًا لهم في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. كما أنها المحطة التي يتجمع فيها القادمون الجدد للسياحة، وتسلق الجبال، ومنها يغادرون، وفيها يتبادلون التجارب والخبرات، ويتعرفون على المرافقين والمرشدين السياحيين.

يفضل السياح الشباب الإقامة في هذه المنطقة لفنادقها الرخيصة، ومستوى المعيشة المنخفض، كما يمكن الحصول

على الحشيش والمواد المخدرة بسهولة وبثمن بخس.

كنت مستمتعًا بصحبة هؤلاء المتحلقين حول البرميل المشتعل، بعد المشقة والسفر، سألتهم عن عملهم وسبب جلوسهم في الطريق في هذا الوقت المتأخر من الليل. بادر راج قائلًا:

«نتجمع هنا كي نرصد القادمين الجدد من متسلقي الجبال والسواح، هم زبائننا المفترضون. نقوم بالتنسيق لهم وترتيب المرشدين والمرافقين لرحلاتهم السياحية، مقابل مردود مادي نتلقاه من المرشدين الذين يسافرون مع الزائرين، ويبقون في رفقتهم أيامًا وأسابيع حتى يغادروا البلاد».

أضاف: «لقد غادرتنا أمس مجموعة من المغامرين الأمريكيين من متسلقي الجبال، بعد أن انتهت رحلتهم التي استمرت أكثر من شهر، واليوم جئنا هنا ننتظر مجموعات جديدة كي نشغل أنفسنا بها لأيام وأسابيع قادمة، وهكذا تجري دورة حياتنا، نحن رجال (الگوركا) المتقاعدون، والعاملون في هذا الحقل».

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن رجال الگوركا، لكن لم تعنِ لي شيئًا حينها. وعلى قدر ما بدا راج فقيرًا إلا أنه

تحدث بثقة وبدرجة واضحة من الثقافة التي يحملها، لا نجدها عادة عند الفقراء المنشغلين بالبحث عن قوت عيشهم، بل لفت نظري بصورة أكبر حديثه باللغة الإنجليزية، بدرجة لا يتقنها غالبًا إلا المتعلمون من الناس، سألته عن السرّ في ذلك. أجاب:

«أغلب المرشدين يتحدثون واحدة أو أكثر من اللغات الأجنبية، وبدرجات إتقان مختلفة، اكتسبنا ذلك من تفاعلنا الدائم مع الأجانب، نقضي معهم أوقات تفوق ما نقضيه مع أسرنا وأطفالنا، وهكذا ترى مجموعة من المرشدين يتحدثون الإنجليزية مثلًا، وآخرين الإيطالية أو الفرنسية أو غيرها، ولهذا سترى أن كل واحد من الجالسين يتقن لغة أو أكثر، وتخصص في العمل مع الزوار الذين يتحدث لغتهم».

سألتهم عن لغتهم التي يتحدثون بها فردَّ الرجل قائلًا: «لغتنا الرسمية هي النيبالية، يتحدث بها أغلب سكان البلاد تقريبًا، مع وجود الكثير من اللغات المحلية المنتشرة، يصل عددها لمائة لغة، تختلف طبيعتها، وعدد متحدثيها إلا أن أغلب الناس في البلاد يفهمون ويتحدثون اللغة الهندية التي تشترك مع النيبالية في الكثير من الأحـرف والمصطلحات، أي أننا والهنود،

نستطيع قراءة وفهم ما يكتبه الآخر، ورغم أن معرفتنا باللغة الهندية ليست مطلقة كالهنود، فإننا نفهمها ونتحدث بها أيضًا».

عندها رحت أتحدث معهم باللغة الهندية، أثار ذلك استغرابهم، علّق راج: «حديثك باللغة الهندية أمر لافت وغير شائع بين السياح الأجانب من الجنسيات الغربية، لكن الناس يحترمون الهندية ويتحدثون بها». وكان ذلك حقيقة لاحظتها في الأيام اللاحقة، ومن خلال تفاعل الناس معي في الحديث بكل أريحية.

مع مرور الأيام القادمة، عرفتُ أن أبناء هذه البلاد ودودون بشكل كبير، يستمتعون بلقاء الأجانب والتفاعل معهم، كما أن أغلبهم شخصيات اجتماعية تحب مساعدة غيرها، وكانت تلك الحلقة حول البرميل نموذج يبين بساطة هذا الشعب. وبقدر ما كنتُ متشوقًا إلى سماع المزيد عن هذه البلاد، ومجتمعاتها، إلا أنني كنت أشعر بالتعب، وحاجتي الماسة للراحة، لذا ودعتهم وسرت في طريقي إلى الفندق الواقع في أحد أزقة حي تاميل، حاملًا حقيبتي على ظهري، ومتخفيًا عن هجمات الكلاب الضالة التي بدا أغلبها هزيلًا من الجوع، خانعًا عاجزًا عن المبادرة والهجوم.

وجوه الناس في النيبال إما شبيهة بالناس من ذوي السلالة المغولية القريبة من أهل التبت في الصين، أو شبيهة بالسلالة الهندية، بدا بعضهم خليطًا بين السلالتين، وأقرب هيئةً إلى السكان الأصليين في القارتين الأمريكيتين.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا عندما دخلتُ النزل. عاينت أروقته وزواياه كي أتعرف إلى المكان، وجدت أنه لا يختلف كثيرًا عن ملاجئ إيواء المشردين في القرون الوسطى. مبنى عتيق متهالك يتكون من سبع غرف نوم صغيرة، ثلاث منها في الطابق الأرضي، وأربع في الطابق العلوي، تطل جميعها على فناء مفتوح على الطريق. ومن الجانب الآخر يقع المبنى الصغير المجاور الذي يقيم فيه صاحب المكان وزوجته، وهو المكان الذي يُدار منه النُزل، وتُقدم منه الخدمات للمقيمين، وطعام الإفطار المشمول في تعرفة الغرفة.

ولكون الفناء مفتوحًا على الطريق، يمكنني الدخول والخروج من الغرفة من دون عناء المرور على أي مكتب للاستقبال، وكان عليّ طرق باب بيت صاحب النزل متى ما احتجت للتواصل مع إدارة المكان. يدير أعماله من مقر إقامته مع زوجته العجوز التي لم أرها تتحرك أو تنهض من الفراش طوال فترة إقامتي معهم.

بهدوء تام أخـذت منه مفتاح الغرفة، متجنبًا إصـدار أي صوت يُقلق مضجع زوجته أو النزلاء، وتوجهت إلى الغرفة سريعًا، لأرمي بنفسي على الفراش دون أن أخلع ملابسي التي صارت سوادًا جراء أوساخ الطريق، ولا جواربي المتعفنة التي لفحتني رائحتها بعد أن نزعت الحذاء، وكادت أن تخنقني، غبت في سبات عميق، لا يزعجه إلا عرير الصراصير، وطنين البعوض الحائم حول وجهي، والباحث عن موضع يحط فيه ركابه ليتزود من دمي. استمتع البعوض بدمي طوال الأيام التي أقمت بها في هذا النزل، ناهيك عن اللسعات المؤذية من بقية الحشرات، حتى طبعت آثارها كالنمش على وجهي، وجسمي كله، مُحيلة نومي ولحظات راحتي، في بعض الليالي، إلى جحيم لا يطاق!

استيقظتُ من النوم في وقت متأخر على وقع طرق الباب، كان صاحب النزل يقوم بمهامه اليومية في توصيل طعام الإفطار إلى الغرف، وقد تأخر في تقديمه لي، حتى ذلك الوقت لإعطائي مزيدًا من الوقت للنوم براحة.

أخـذت صينية الإفـطـار بعجلة، دون أن أنظر إلـى وجه الرجل أو أنطق بكلمة واحدة، ثم عاودت إغلاق الباب وأنا

شبه غائب عن الوعي، وضعت الطعام على الطاولة، وفتحتُ ستارة النافذة المثقلة بالغبار، ليدخل نور الصباح الذي أزعج صراصير الغرفة المستمتعة ببيئتها وبيَاتها، فدفعها ذلك النور إلى الفرار من أرجاء الغرفة، والعودة إلى أوكارها في أنابيب الصرف الصحي. رحت ألتقط الميت منها، وأرفعها من شواربها بأطراف أصابعي. كان من الواضح أن بعضها ميتٌ منذ أيام، لكني لم أنتبه لذلك عند دخولي الغرفة فجرًا.

نزلت بعد الإفطار لأتعرف إلى المكان، كان عليّ إما أن أدفع تكاليف الغرفة لأيام ثلاثة مقدمًا، أو أضع جواز سفري عند صاحب النزل كضمان لعملية الدفع لاحقًا، وهو إجراء يُعمل به في جميع الفنادق. لكنني قررت العمل بوصية أمي ألّا أترك جواز سفري عند أحد، والاعتناء بهذه الوثيقة المهمة، وإلا سأُحرم من العودة إلى وطني، كما كانت تعتقد أمي دائمًا. لم أعطِ صاحب الفندق الجواز بل أخفيته أسفل الفراش الذي أنام عليه، ودفعت لصاحب النزل مقدم الأيام الثلاثة.

بعد إتمام الإجراءات، والتسجيل في دفتر القادمين ذهبتُ أتمشى خارج النزل، وأعاين كيف تبدو المنطقة المحيطة في ضوء النهار، فُتحت الدكاكين وجلس أصحابها داخلها،

أنشطتها تتراوح بين بيع الملابس، والمواد الغذائية، أو بيع وتأجير الملابس، والأحذية، والمعدات المطلوبة لدى متسلقي الجبال. بعضهم يعمل على توفير الأفراد المرافقين والمرشدين والمعاونين للمجموعات السياحية، من أجل تنسيق رحلاتهم في أرجاء البلاد، حسبما أخبرني السيد راج ومجموعته.

وقف صاحب النزل خارجًا بعد أن أنهى إجراءات تسجيلي، وراح يتبادل الحديث مع مجموعة من أصدقائه الذين اعتمروا القبعات النيبالية المزركشة بنقوشها وألوانها. ألقيتُ التحية وتبادلت الحديث معهم بما أتقنته من لغة هندية، بدا واضحًا أنها استهوتهم كثيرًا. وجدتهم رجالًا بسطاء طيبين، لا تفارقهم الابتسامة. صرتُ أحييهم كل صباح، وأقضي بعض الوقت معهم في تبادل الأحاديث الاجتماعية والسياسية عن بلداننا.

كانوا مهتمين بما يحصل في الهند، خصوصًا أخبار أعمال العنف الدموية بين جماعات السيخ الانفصالية من جهة، والقوات الهندية من جهة أخرى، الصراع الذي شغل محطات الإذاعة والتلفزيون، بعد الهجوم الدموي الذي شنته القوات الهندية على المعبد الذهبي قبل بضعة أسابيع.

عدت أدراجي للنزل بعد جولة قصيرة، وطلبت من صاحب

النزل منحي فرصة كي أجري مكالمة هاتفية من مكتبه، على أن أسدد تكاليفها مع فاتورة الغرفة. أعطيته رقم ماريا ليديره بنفسه حفاظًا على جهاز الهاتف الذي يتعامل معه برفق وتأن، حينها لم يكن وجود الهواتف منتشرًا. وكمن يرسم بأصبعه لوحة فنية تحتاج إلى دقة وتركيز أدار رقم ماريا.

سمعت صوت ماريا للمرة الأولى منذ سفرهم، ويبدو أنها تنتظر الاتصال منذ الصباح: «مرحبًا. مرحبًا من المتكلم؟».

«مرحبًا ماريا. أنا نادر. ها أنذا قد وصلت أخيرًا. أي أنني وفيت بالعهد الذي قطعته للسيدة الصغيرة».

«آه أخيرًا؟! يا له من خبر سار. كم أنا سعيدة بذلك، لا أكاد أصدق أننا سنلتقي ثانية، وبعد أقل من ثلاثة أشهر من فراقنا!».

«كيف تجري الأمور معكم؟ وكيف أحوال أليكس والسيد پول؟»

«نجلس أمام الهاتف في انتظار وصولك منذ ليلة أمس، نتطلع إلى لقائك على أحر من الجمر، كذلك رفاقنا الذين سمعوا عنك كثيرًا».

«أتطلع للقائكم في أسرع وقت، لكن أعتذر عن الإقامة في بيتكم، وجودي في النزل يجعلني أتحرك بأريحية أكثر ومن

دون حرج أو تكلف، سيما أنكم لستم وحدكم في البيت».

«ما هذا القرار؟! بل نريدك أن تقضي جلّ وقتك معنا، وها هي أليكس توظّب غرفتها لاستقبالك منذ اللحظة التي عرفت فيها بقدومك، لكن هذا خيارك، وأنت أعلم بما هو أفضل لك. المهم الآن أخبرني عنوانك، ومتى عليّ أن أقلك إلى هنا».

طلبت من صاحب النزل أن يدل ماريا على المكان والطريق الأفضل للوصول إليه، ثم قلت مازحًا قبل إنهاء المكالمة: «النزل الذي أقيم فيه متواضع، وأفضل من معسكرات الاعتقال في الحرب العالمية الثانية». «أفهم كيف تفكر يا نادر، ويستحيل أن تقيم في فندق أفضل منه، لكن الأهم هو راحتك وقناعتك بالمكان».

أنهيت مكالمتي، ثم خرجت في انتظارهم مع صاحب النزل. سألته في الأثناء:

«سيدي. لاحظت منذ نزولي من الحافلة ليلة أمس عدم وجود الرجال المتطفلين ممن يلاحقني في الطرقات، أو يعرض عليّ شراء المخدرات، أو قضاء وقت مع فتيات الليل، بعكس ما هو شائع في مدينة بومباي، توقعت أن أرى شيئًا من هذا القبيل في كاتمندو»

«هنا أيضًا ينتشر باعة الحشيش والمخدرات في كل مكان، تجدهم جالسين على الأرصفة، لكنهم لا يزعجون المارة أو يلاحقونهم. نبتة الحشيش رائجة بين زوار البلاد الغربيين، أما تجارة البغاء فهي غير مشروعة في هذه البلاد، والقوانين صارمة في تحريمها، ومن يبحث عن المومسات لا يأتي إلى النيبال عادة، ولا يحزننا ذلك؛ لأننا نبحث عن الزوار الحقيقيين القادمين للاستمتاع بالطبيعة، وحب المغامرة، وتسلق الجبال، كما هم معظم الزوار».

أكمل: «النساء اللاتي يرغبن في العمل كمومسات يرحلن عادة إلى الهند التي تبيح ذلك، وهناك تستحوذ النيباليات على جزء كبير من تلك السوق، ففي مدينة بومباي وحدها تشكل النيباليات ربع العاملات في تجارة الجنس، لكن ما يُؤلم أن منهن مَن يُدفعن قسرًا إلى هذا العمل خلاف إرادتهن، حتى صارت هناك سوق رائجة للاتجار غير المشروع بالنساء بين البلدين الجارين».

«ذلك أمر مزعج كثيرًا. لكن كيف يحصل ذلك؟»

«عادةً ما يستغل بعض المجرمين فقر الناس في المناطق البعيدة، وعرض الوظائف الوهمية على الفتيات الصغيرات

والمراهقات، ويَعِدونهنّ كذبًا بالحصول على وظائف في التمثيل أو العمل في الفنادق والمصانع، أو غيرها من الوظائف المحترمة التي لا يرفضها أحد. وأحيانًا أخرى يتم اختطافهنَّ من قراهن، أو شراؤهن بثمن بخس من أسرهن المسحوقة فقرًا وهن طفلات صغيرات، لكن ينتهي بهن الحال بائعات هوى، يجبرن عند وصولهنّ إلى الهند على هذه الأعمال في ظل غياب الحيلة والسبل للخلاص».

«تلك جرائم فظيعة، لا يمكن للعقل تصور حدوثها في عالم اليوم».

وفي خضم حديثي تذكرت بومباي وفندق (مهراشترا ستار) في گراند رود أو حي المومسات هناك. قلت: «رأيت مثل هؤلاء منذ ليلتي الأولى في بومباي قبل أكثر من عام، أدركت من أشكالهن أنهن لم يكنّ من الهنديات، لكن لم أعرف حينها أن بعضهن مجبرات، أو يعملن خلاف رغبتهن. أتذكر البؤس وجمود المشاعر على وجوه بعضهن، حتى لو حاولن إظهار غير ذلك من خلال توزيع الابتسامات المصطنعة على العابرين، لكن تلك الابتسامات كانت تخفي حزنًا لم تستطِع المساحيق محوه».

شعرت بمأساة حقيقة. لم أتخيل أن يصل الفقر ببعض العوائل إلى درجة تبيع فيها أطفالها. سألته: «لماذا لا تكتفي سوق البغاء في الهند بما لديها من النساء المحليات؟!». رد مبتسمًا:

«يقال إن الطلب على الفتيات النيباليات أكثر، والزبائن يرغبون فيهن بصورة أكبر، نظرًا لجمالهن الذي يفوق الهنديات السمراوات، وهي عوامل جذب زادت من شعبيتهن في أوساط الزبائن، لكنها في الوقت نفسه جلبت لهنّ المتاعب، وجعلتهنّ محل اضطهاد من منافساتهن المحليات، اللاتي يخسرن الزبائن لصالح النيباليات».

انتهى حديثنا وكلي استياءٌ مما أدركته من حقائق مؤلمة، في دقائق معدودات، بيّنت أن في عالمنا ظلمًا كبيرًا لكن القليل مَنْ يعلم به. وصلت ماريا لأخذي إلى بيتهم.

قضيت اليوم الأول كاملًا في صحبة أسرة ماريا سالادينو، ورفاقهم الجدد، كان شعورًا جميلًا أن ألتقي الأصحاب في لقاءٍ جدد علاقتنا، واستعدنا ذكريات الماضي الجميل. حدثتهم عن تجربة سفري برًا وما تخللها من مشاهد وقصص، وأطلعتهم على كل ما جرى منذ مغادرتهم الهند.

تعرفت إلى أصدقائهم المتطوعين في العمل مع السيد پول، ورأيت أنهم أناس طيبون، يحملون الكثير من القيم الإنسانية التي أحترمها كثيرًا. عرّفتني أليكس على أصحابها الجدد من أطفال الأسر التي تقيم معهم في المكان نفسه، تفعل ذلك بدرجة عالية من السعادة والانتشاء بسبب وجودي. في حين انشغل السيد پول بطهي طعام الغداء.

منذ اليوم الثاني بدأت برنامجي السياحي، تضمّ المدينة الكثير من الأماكن التاريخية والتراثية التي زرتها. ترافقني ماريا في بعض جولاتي وأحيانًا پول وطفلتهما، بحسب وقت كل منهما، وفي أحيان أخرى ينضم لي بعض أصدقائهم.

زرت في الأيـام الأولـى الكثير من الآثـار الهندوسية والبوذية، يمكن الوصول لأغلبها مشيًا على الأقدام لقربها من بعضها بعضًا. كما زرت قبة ستوبا البوذية، ومعبد سواي أمبهوناث، ودير كوبان، ومعبد باشوباتيناث، ومنطقة محارق الموتى، وميدان هانومان دوكا، ومناطق أخرى. جميعها تبين قوة الديانتين الهندوسية والبوذية الراسخة في تاريخ وحاضر تلك المجتمعات. كما زرت المتاحف والأسـواق، وحديقة الحيوانات التي قضيت فيها نهارًا كاملًا، متجولًا بين الحيوانات المختلفة، بدت أغلبيتها نحيلة بسبب سوء التغذية.

9
الشاب والشيخ العربي

جلستُ على الأريكة المقابلة لمكتب الاستقبال في بهو فندق هملايا شيراتون، مستمتعًا أتابع معزوفات موسيقية جميلة، تعزفها ماريا سلادينو على البيانو، واحدة تلو الأخرى. عزفتْ أغنية غرباء في الليل (Strangers In The Night) التي أحبّ الاستماع لها كثيرًا، وأفضّلها على كل المعزوفات، مأخوذة من الأغنية الشهيرة لفرانك سيناترا قبل مولدي بزمن طويل.

جلست مستمعًا مستمتعًا، أعـاين الـزوار الداخلين والخارجين للمكان الضاجّ بالنشاط، والسواح ورجال الأعمال الأجانب والزائرين لصالات القمار. لا تتوقف مصاعد الفندق الأربعة عن النزول والطلوع. تسمح قوانين مملكة النيبال بعمل الكازينوهات، وألعاب القمار في فنادق الخمس النجوم، بخلاف البلدين الكبيرين المجاورين لها أي الهند والصين. وتعدّانه جريمة يعاقب عليها القانون، كما دول الخليج. لكن لا يُسمح بدخول صالات القمار في النيبال إلا للأجانب،

ويُمنع عنها المواطنون المحليون؛ لذا أصبح المواطنون الهنود هم الزبائن الرئيسيون في هذه الصالات التي تجذب الكثير من السائحين. كما يُمنع التعامل بالروبية النيبالية داخل هذه الصالات، بل يُشترط التعامل بالعملة الصعبة أي بالدولار أو الروبية الهندية التي تفوق قيمتها العملة المحلية، بما نسبته خمسون في المائة. ربما تعد النيبال هي الدولة الوحيدة في العالم التي تعدّ الروبية الهندية عملة صعبة، وهذا يبين كم أن البلاد فقيرة، وعملتها ضعيفة مثل اقتصادها، لكنّ هناك أثرًا اقتصاديًا وتجاريًا كبيرًا للهند، على جارتها الأصغر.

وسط هذا الحراك الذي يشكله الأثرياء، ورجال الأعمال، ويشغلون به بهو الفندق أخذتُ مكاني بينهم، كأنني واحد منهم، لا يوجد سببٌ لأي زائر للاعتقاد خلاف ذلك. على طاولتي رحت أحتسي الشاي، وأتناول قطعة من الكعك، عرفت لاحقًا أن ثمنها مع إبريق الشاي ضعف ما أدفعه من إيجار يومي لغرفتي. لكن اعتبرتها تجربة رفّهت بها عن نفسي قليلًا، ولا أعتقد بأنني سأكررها مرة أخرى، وإلا قُصم ظهرُ ميزانيتي، واستُنفدت خلال يومين أو ثلاثة فقط. ولولا رغبتي في الاستماع لعزف ماريا على البيانو في الفندق، ما وَطِئْتُ هذا المكان على الإطلاق.

ها هي تجلس مقابل آلة البيانو غارقة بإحساسها تتمايل بجسمها مع المقطوعات التي تعزفها لزوار الفندق، منذ الساعة الرابعة عصرًا، حتى تنتهي في الساعة السابعة والنصف مساءً، وهو برنامج يتكرر أربعة أيام في الأسبوع. لمحتني جالسًا فحيّتني من بعيد بابتسامة عريضة. سنخرج معًا بعد أن تنتهي لننضم إلى الأصدقاء في أحد المطاعم الشعبية بمنطقة التأميل.

أثناء ذلك لمحت سيارة فارهة، ضخمة الحجم فخمة المظهر، كسيارات الملوك ورؤساء الدول، تقف عند بوابة الفندق، التفت الجميع لمشاهدتها، لم أتصور أن أرى مثلها في هذا البلد الفقير. خرج منها سائق يرتدي ملابس نيبالية تقليدية، سروال وقميص، ويعتمر القبعة التقليدية، ويحمل في خاصرته خنجرًا يسمى كوكري. وهو سلاح تقليدي يشبه المنجل المعطوف، يرتبط بالتراث والتقاليد النيبالية منذ العهد القديم. عُرف في الأساطير النيبالية أن كوكري لا يعود إلى غمده، من دون إراقة دم، مما جعل منه أداة تثير الرعب عند الخصوم والأعداء، ولم أكن أعلم ساعتها أني سأشهد ذلك الرعب بنفسي قريبًا.

وقف سائق السيارة النيبالي للحظات مستقيم الجسم، ينظر

هنا وهناك أمام الباب الخلفي للسيارة، قبل أن يبادر بفتحه بتأنٍ، وكأنه قد تلقى الأمر بذلك، أو علم باستعداد الجالس للخروج. كانت المفاجأة أن ترجّل رجل عربي، في منتصف الأربعينيات من العمر، وسيم الوجه، طويل القامة، أطلق لحية خفيفة أسفل ذقنه، ما نطلق عليه في البحرين بـ (السكسوكة). وكان اللافت ارتداء هذا الضيف اللباسَ العربي الخليجي التقليدي، الثوب الأبيض والشماغ المخطط بالأبيض والأحمر، والعقال الأسـود. ولـولا تلك الملابس العربية ما عرفت أنـه عربي خليجي، قادم من المنطقة نفسها التي جئت منها.

تقدم الرجل نحو بوابة الفندق ببطء، يتلفت يمنة ويسرى مبتسمًا للجميع، يعاين وجوه من حوله كغريب تائه في المدينة، أو قادم جديد خائف من المتطفلين، كما كنتُ في يومي الأول في بومباي. راح سائق السيارة يمشي خلفه حاملًا حقيبته الدبلوماسية، تلاحقهما الأعين بفضول، لا بد أنه ثري صاحب مكانة. أما أنا فقد كنتُ مستغربًا لرؤية رجل عربي في هذه البلاد المغلقة التي لا يعرفها أغلب العرب والخليجيين، وهو ما أثار فضولي، ودفعني لأبادر نحوه قبل أن يصل مكتب الاستقبال في الفندق.

انتبه لي، وراح ينظر لي بعلامات استفهام واضحة على وجهه، ربما خشية أن أكون من أولئك المتطفلين، لكني بادرت بالترحيب به باللغة العربية سريعًا؛ لتبديد خوفه: «السلام عليكم سيدي. أهلا وسهلًا بك في مملكة النيبال». رد عليّ سريعًا، وعلامات الدهشة والاطمئنان بادية على وجهه:

«عليك السلام يا بنيّ من أي بلد أنت؟ وماذا تفعل في هذه البلاد؟ لم أتوقع أن أرى شابًا عربيًا في مثل عمرك؟!».

عرفته بنفسي ودراستي وسبب وجودي في النيبال، وسبب وجـودي في الفندق مشيرًا إلى ماريا وهي تعزف، ثم قلت مُرحبًا: «لم أتوقع لقاء رجل خليجي في هذه البلاد». رد معرّفًا نفسه بنبرة فيها ذات أنفة: «أنا الشيخ حمد القحطاني من المملكة العربية السعودية».

«من الغريب رؤية شيخ عربي في هذه البلاد، لهذا يُحدق الناس بك مستغربين، سيما أنك ترتدي ملابس لا أعتقد أنهم رأوها إلاّ في أفلام السينما». استفسرت: «هل أنت شيخ من أسرة حاكمة سيدي؟ أم أنك من شيوخ الدين؟»

«بل شيخ قحطاني، من قبيلة بني قحطان المعروفة في شبه الجزيرة العربية، والقريبة من الأسر الحاكمة في دول الخليج،

أستغرب أنك لا تعرفها». نظرت إليه معبرًا عن جهلي بما يتحدث عنه، فأنا قادم من أسرة عربية حضرية عريقة، لكنها ليست قبيلة. لم ينتظر تعليقي بل واصل مسترسلًا:

«بنو قحطان قبيلة عربية قديمة متمركزة وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها، من المهم أن تعرف يا بنيّ أنها من أكبر القبائل العربية العريقة المنبت والشريفة النسب». ثم أضاف: «أما سياسيًا فقد تمكنّا من حكم الكثير من الأراضي، وغرس جذورنا، وأصولنا في شبه الجزيرة العربية حتى قامت الدولة السعودية، أصبحنا بعدها تحت سيادة ابن سعود، وجزءًا أساسيًا من النسيج والمكون السعودي». دعوته للجلوس لنواصل حديثنا، في حين كانت الأنظار تلاحقه حتى شعرت أني بتّ بسببه محل اهتمام الواقفين أيضًا:

«وماذا يفعل شيخ قحطاني في هذه البلاد الفقيرة؟».

«نعم. هذا ما وددت الحديث لك عنه قبل أن تستبقني بسؤالك، فأنا شيخ في بلدي، وعند قبيلتي، لكن لا علاقة للمشيخة بزيارتي هذه البلاد، أنا هنا بصفتي رجل أعمال، أملك مجموعة (الأبعاد) للمقاولات، وهي واحدة من أكبر الشركات الخليجية، تضم بين مجموعتها عدة مؤسسات قائمة

على مشاريع كبرى في السعودية، وبعض دول الخليج العربية، مثل: الكويت، وقطر، والإمارات العربية المتحدة. ولدينا فيها مشاريع إنشائية كبيرة مثل تشييد الجسور العلوية، والطرق السريعة، ومحطات توليد الكهرباء. أي أني في زيارة عمل إلى هذه البلاد».

أنهى عبارته، ثم قام قائلًا: «هيا نتناول العشاء معًا، ونواصل حديثنا على مائدة العشاء».

«كل الشكر لك سيدي، لكني مدعو الليلة على العشاء في مكان آخر، وأنتظر زميلتي عازفة البيانو لنذهب معًا، لكن أذكرك بأن عليك تسجيل دخولك الفندق، قبل ذهابك العشاء».

«أنا مقيم في الفندق منذ يومين، وكنت قادمًا للتو من جولة حول المدينة». عاود جلوسه مرة أخرى، وطلب من النادل أن يأتينا بإبريق آخر من الشاي، وواصل حديثه. في الأثناء كانت ماريا انتهت من عملها والتحقت بنا، عرفتهما إلى بعضهما. استقبلته ماريا بابتسامة وكلمات ترحيبية مقتضبة، راح بدوره يرحب بها بلغته العربية المطعّمة ببعض الكلمات الإنجليزية، من الواضح أنها كانت كل مخزونه من اللغة:

«فرصة طيبة للتعرف إليك مدام ماريا، واعذريني إنْ كنتُ

لا أتقن الإنجليزية مثل صديقك نادر، لكنني أحاول دائمًا ولو بكلمات مُكسرة، كما أنني لا أتقن اللغة النيبالية، ولا الهندية التي يتحدث بها أغلب الناس هنا، ولا أي لغة غير لغة الآباء والأجداد».

أكملت حديثي معه وأسئلتي. قال: «إنها زيارتي الأولى لمملكة النيبال، ولا أعتقد أني أنوي تكرارها، وجدت تعقيدات لا أستطيع التعامل معها، بسبب عدم إتقاني اللغة الإنجليزية، ولا الهندية». أكمل: «في الأسابيع الأخيرة رست علينا مناقصات كبيرة لتشييد بعض الجسور العلوية، والطرق السريعة التي تربط مدن المملكة العربية السعودية ومحافظاتها. جاءت وفرة هذه المشاريع فجأة بسبب طفرة أسعار النفط، وزيادة مداخيل دول الخليج، خدمنا هذا كثيرًا. أوجدت الحكومة لنا الكثير من مشاريع البنية التحتية، كبقية الدول النفطية في الخليج، ولكن تلك المشاريع تتطلب مضاعفة قوانا من الأيدي العاملة الآسيوية، وهذا سبب زيارتي الخائبة لهذه البلاد». هنا تحدثت ماريا مستفسرة منه:

«ولماذا أسميتها خائبة؟ ما المشكلة؟».

«لأنني وجدت صعوبة في التواصل مع الوسطاء، ومكاتب

استقدام العمالة، نظرًا لأنني لا أتقن لغتهم، ولا الإنجليزية، أو الهندية التي يتحدثها أغلبهم، كما لم أجد عندهم من يتحدث العربية، أو يترجمها كما في مدن الهند التي لم أواجه فيها أيًا من هذه الصعوبات». ثم ختم كلامه قائلًا: «سأرى كيف أتدبر أمري في اليومين القادمين، وإلا عُدت أدراجي إلى السعودية».

هي المرة الأولى التي أسمع عن استقدام عمالة نيبالية إلى دول الخليج، ولم أرَ رجلًا نيباليًا في البحرين. سألت: «لكن لماذا لم تواصل استقدام العمالة، من الدول المعتادة كالهند وباكستان؟».

«هناك توجه حكومي جديد يدفع نحو تنويع مصادر العمالة المهاجرة في السعودية، كي لا تطغى جنسية معينة على جميع العمالة الأجنبية، ومن ثم تُشكل أغلبيتها خطرًا مستقبليًا على نسيج البلاد الديموغرافي، وهذا ما دفعني لأزور هذه البلاد، لكن يبدو أني سأعود إلى بلدي خائبًا بسبب مأزق اللغة، وربما أبعث شخصًا آخر كي يقوم بالمهمة، أو أحاول أن أجد مواطنًا عربيًا، في هذه البلاد يمكنه مساعدتي، مقابل مردود مادي». وجدت في حديثه تلميحًا حول طلب المساعدة مني، ولو أنه ساقها بشكل غير مباشر، أبديت اعتذاري:

«سأكون سعيدًا بمساعدتك لو كنتُ باقيًا فترة أطول، لكن للأسف الشديد سأغادر البلاد خلال الأيام القليلة القادمة، أنا على يقين بأنك ستجد من يقوم بهذه المهمة. هناك أقلية مسلمة تشكل أربعة في المائة من سكان هذه البلاد، وبعض أبناء هذه الأقلية تعلموا العلوم الدينية في جامعات عربية منها المملكة العربية السعودية، وصاروا يتقنون اللغة العربية، ولا بد أنك ستجد بينهم من يساعدك، مقابل مردود مادي بسيط». وأضفت: «لكن هي مسؤولية شركائك الذين تتعامل معهم هنا، كان عليهم توفير المترجمين لمساعدتك ومساعدة أنفسهم».

هنا سألني الشيخ: «لماذا لا تقيم هنا في هذا الفندق كي نستأنس بصحبة بعضنا بعضًا، نحن العربيان في هذه البلاد؟».

«أنا أقيم في نزل متواضع في حي تاميل وسط المدينة، ما أدفعه ليوم واحد هناك يعادل ما سأدفعه لإبريق الشاي في هذا المكان، ولولا عمل السيدة ماريا هنا ما مررت على هذا المكان على الإطلاق، ولا حتى على مواقف سياراته».

قلت عبارتي الأخيرة في محاولة ذكية مني، للتنصل من دفع فاتورة إبريق الشاي، وهو النصر الذي حققته لاحقًا.

أمعن النظر إليَّ لدقائق، وهو مشغول البال بالتفكير بشيء

ما، قبل أن يفاجئني بمقترحه: «اسمع اقتراحي يا بني، ولعل فيه خيرًا لك ولي، وهو أن تنتقل معي إلى الفندق الذي نحن فيه الآن، وتعمل على مساعدتي في إنجاز أعمالي، وإتمام مهامي، ومسؤولياتي في هذه البلاد، وتشارك في لقاءاتي واجتماعاتي كمترجم ومساعد، على أن أتحمل دفع تكاليف جهودك، وكل عمل تنجزه من أجلي، كما سأتكفل بتكاليف الإقامة والطعام، وكل احتياجاتك في هذا الفندق، ولا أرى حرجًا في ذلك على الإطلاق فأنا بمثابة أبيك في هذا البلاد البعيدة عن أوطاننا، وأرى أن من واجبي مساعدتك بعيدًا عن أي شيء آخر».

ثم أضاف عبارة تحفيزية أخرى لدفعي إلى قبول عرضه، قائلًا: «كما أرى أن انتقالك معي سيجعلك قريبًا من السيدة ماريا، بحيث تستمتع بموسيقاها. أليس كذلك يا ماريا؟». قال ذلك وهو ينظر إليها، منتظرًا موافقتها على عرضه. ابتسمت مجاملة. إلا أنني أجبت:

«أُقدِّر لك هذا العرض السخي المعبر عن كرمك الأصيل، لكنني أفضل البقاء في مكاني في الأحياء التي يقطنها سكان البلاد؛ لأني أستمتع هناك بالتعرف إلى البلاد والناس، كذلك السائحين من المستوى الاجتماعي والاقتصادي نفسه، النزل

الذي أقيم فيه يعد المكان الملائم لي كطالب متوسط الحال، عليه أن يعيش حياة متواضعة حسب إمكاناته المادية، لا مرفهًا حسب إمكانيات الآخرين. لكن رغم ذلك فإنه لا مانع عندي من العمل معك، ومساعدتك خلال الأيام المتبقية لي في هذه البلاد، سأكون سعيدًا بالقيام بذلك». هنا تحدثت ماريا مبررة موقفي من مكان الإقامة:

«نحن أيضًا عرضنا عليه أن يقيم معنا في البيت، ويوفر ماله، لكنه فضل الخصوصية، والإقامة بين السكان المحليين، وفي أحيائهم للتعرف إلى عاداتهم، وثقافاتهم عوضًا عن البقاء مع أفراد يلتقيهم في كل مكان». رد الشيخ على ماريا:

«أعلم أنه شاب طيب، وذو أخلاق رفيعة، وهو ما قرأته في سلوكه منذ اللحظة التي عرفني بنفسه عند بوابة الفندق، هذا هو دافعي وراء العرض السريع الذي قدمته له، والنابع من ثقتي بشخصه». انتقل للجانب العملي، محاولًا توظيف الأيام المتبقية لي قائلًا:

«على أية حال، قل لي يا بنيّ إنْ كان بالإمكان أن نلتقي يوم غد، هناك مجموعة من أصحاب الوكالات، ومكاتب الاستقدام الذين سيكونون هنا، وكنت في الحقيقة أنوي إلغاء

هذا الاجتماع لولا حديثنا الذي أجريناه، وأعطاني شيئًا من الأمل، ووجدت أنه من الجيد أن أحاول مرة أخرى، عسى أن نصل معهم لتفاهم يُحقق ما جئت من أجله، كما أن موافقتك على الحضور ستساهم في تيسير الاجتماع، وربما تفتح لي الطريق للاستفادة منك في الأيام المتبقية قبل مغادرتك البلاد، وهكذا ستكون المصلحة متبادلة».

«لا مشكلة لدي طالما سيكون الاجتماع بعد الغداء، فلدينا زيارة لمتحف المدينة صباحًا».

هنا وقفت ماريا متهيئة لنغادر معًا: «إذن هيا بنا، ادفع فاتورتك كي لا نتأخر على الأصدقاء في المطعم، وسيكون لديكما متسع من الوقت للحديث غدًا».

«نعم علينا اللحاق بالأصدقاء، وها أنذا سأطلب الفاتورة». قلت ذلك واقفًا، ومتصنعًا بعض الحركات، وكأنني أحاول إخراج محفظتي، لكنني في الحقيقة كنت أنظر إليه مترقبًا مبادرته للتعامل مع تلك الفاتورة نيابة عني، وهو ما حصل بعد مشاهد تمثيلية بسيطة قمت بها لتصوير نفسي وكأنني مستميت من أجل دفعها بنفسي، لكنه حسم الموضوع قائلًا:

«لا عليك من الفاتورة، ستحسب ضمن تكلفة إقامتي بشكل تلقائي». شعرت بانفراجة أزاحت همًّا عن كاهلي. وقبل أن

نغادر المكان راح يعيد تذكيري بالاجتماع: «احرص على ألّا تتأخر عني يوم غد».

تركنا الفندق مسرعين، ومستغربين من هذا الشيخ العربي الذي جاء وحيدًا من دون دراية بالبلاد، ولا ترتيب مسبق أو تنسيق مع هؤلاء الذين يريد العمل معهم. وقد توافقت رؤانا أنه لا بد أن يكونَ رجلًا بسيطًا رغم ثرائه. وقد علقت ماريا على هيئته وشكله قائلة:

«يرتدي ملابس غريبة! لم أرَ مثلها في حياتي قبل ذلك، عدا في بعض أفلام السينما حين تُعرض الشخصيات العربية، وغالبًا بشكل سلبي، لكن هل ترتدي مثلها في بلدك؟».

«هذا هو اللباس الشعبي التقليدي الدارج في دول الخليج العربية، البحرينيون أقل التزامًا به نسبياً بسبب تأثرهم بالثقافات والشعوب الأخرى، خصوصًا تلك التي استوطنت بلادنا في فترة من فترات التاريخ بسبب موقعها الاستراتيجي، مثل: البرتغالية، والفارسية، والبريطانية، كذلك الهنود الذين يعملون هناك منذ مئات السنين، أما أنا فلم أرتد هذه الملابس في حياتي، لكن والدي يرتديها بعد أن ينتهي من العمل، كذلك أيام العطل الرسمية».

«وكم تبعد بلاد هذا الشيخ عن البحرين؟».

«بلدانا قريبان جدًا من بعضهما بعضًا، وقريبًا سيتم افتتاح جسر بحري يربط بيننا، وهو مشروع ضخم، جاري العمل عليه منذ منتصف عام 1981». وفيما يخص عرض الشيخ القحطاني أبدت ماريا وجهة نظرها قائلة:

«أقترح عليك أن تعمل على مساعدته في الأيام المتبقية لك هنا، مقابل بعض المردود المادي التشجيعي».

«أعتقد بأن عليّ أن أفكر في الأمر هذه الليلة، الموضوع برمته كان مفاجئًا لي، ولا أعلم كيف سأتصرف حياله، خصوصًا أنني أخشى تأخر عودتي إلى الهند، وتأثير ذلك على دراستي، وكذلك قلق أصدقائي الذين ينتظرون عودتي، وأسرتي التي تتوقع اتصالي بها من الهند، أخبرت الجميع أن رحلتي لن تتجاوز أسبوعين».

«عليك التفكير في الموضوع، ووضع جميع الاحتمالات».

«لننتظر اليوم، ونرى كيف ستسير الأمور غدًا، لعلها تتيسر أو يجد الشيخ القحطاني ما يبحث عنه ويحل معضلته، وإلّا سأنظر في إمكانية بقائي لأيام أخرى احترامًا لسنه، وصعوبة رد طلبه، وربما أيضًا لاكتساب خبرة عملية». أكملت عبارتي، وكنا قد وصلنا المطعم الذي سنتجمع فيه على مأدبة العشاء، بدعوة من السيد پول وأصحابه العاملين معه.

10
بين الوسطاء والفقراء

وصلت إلى الفندق في الموعد المحدد، كان الشيخ القحطاني ينتظر وصولي والقلق بادٍ على وجهه. يجلس في إحدى زوايا بهو الفندق، مستمعًا لأحاديث محتدمة بين مجموعة من الرجال، عرفت أنهم تجار نيباليين أو رجال أعمال من خلال ملابسهم التقليدية الجديدة، والقبعات التي اعتمروها، وجيوب خناجرهم المزخرفة، والمرصعة بالأحجار التي تزين خصور بعضهم.

جلسوا في حلقة دائرية تحيط بالشيخ حتى كاد أن يختفي بينهم لولا ملابسه العربية التي تميزه عنهم. كان منشغلًا معهم، وعينه تتلفت وتراقب الداخل والخارج من بوابة الفندق، وحالما لمحني قادمًا من البوابة انفرجت أساريره، وبدت عليه السعادة، وراح يلوح لي بيده مبتسمًا، وهو يناديني بصوت عالٍ حتى التفت إليَّ جميع الجالسين معه، كذلك بعض زوار الفندق الذين تصادف وجودهم هناك.

ظهر واضحًا من نظرات رفاقه الجالسين معه، وابتساماتهم

الترحيبية أنهم ينتظرون وصولي. سرعان ما انضممت إلى حلقة الاجتماع بناءً على دعوته، وترحيبه العلني بوصولي، ورحت أحيي الجالسين بمصافحتهم جميعًا، مُعرّفًا باسمي دون تفصيل كما طلب مني الشيخ الذي همس لي قائلًا:

«لا حاجة لإعطائهم أي معلومات هم في غير حاجة إليها، اسمك فقط، حتى نعرفهم بصورة أفضل»، وهو ما عملته دون مناقشة. وقد بادلوني الترحيب معرفين بأنفسهم واحدًا تلو الآخر، وكانوا أصحاب وكالات ومدراء مكاتب استقدام العمالة، أو وسطاء يقومون بالمهام نفسها دون مكاتب رسمية. جاؤوا ليعرّفوا بمؤسساتهم، وأعمالهم، والخدمات التي يقدمونها والمتعلقة بتوفير الأيدي العاملة النيبالية المدربة، وغير المدربة للشركات، والمؤسسات الإنشائية، والأمنية حول العالم.

خلال الحديث عرفتُ أن أغلبهم لم يسبق له العمل مع أي دولة خليجية، وهي المرة الأولى التي يلتقون فيها رجلَ أعمال قادمًا من المملكة العربية السعودية، كان واضحًا أنهم يتصارعون من أجل فهم الشيخ الذي لا يتقن أي لغة يمكنهم التفاهم بها معه. علمت منهم أنها ستكون المرة الأولى التي

تبعث فيها مكاتبهم عمالة نيبالية إلى السعودية، ودول الخليج إنْ تم الاتفاق. وفي خضم ذلك، أخذني الشيخ القحطاني جانبًا قائلًا:

«اسمع يا بنيّ، أرجو ألّا تطلعهم بأننا قد تعرّفنا إلى بعضنا بعضًا يوم أمس فقط، ولا تخبرهم أنك طالبٌ تدرس في الهند، أو أنك جئت لزيارة أصحابك في هذه البلاد؛ لأنني أخبرتهم بأنك تدير أعمالي هنا وتنسقها وأننا جئنا معًا من السعودية»

أثار ذلك استغرابي، وانزعاجي، ولم أرَ سببًا يدعوه لفعل ذلك، إذ لم يمر يومٌ واحد منذ أن تعارفنا. قلت:

«لا أعلم لماذا عليك زعم ذلك، خصوصًا أننا لا نعرف بعضنا بعضًا بصورة كاملة، حتى الآن. ألا تخشى أن أقوم باستغلالك مثلًا، أو أن أستغل اللقب الجديد الذي منحتني إياه؟ إنك بهذا تمنحني تفويضًا مفتوحًا مع مَنْ سيكون شركاؤك منهم في المشروع الذي أتيت من أجله». لكنه بدا غير مكترث بقولي. أجاب:

«أنت شاب نظيف غير مؤذٍ، وأعلم أنك لن تستغل ذلك، ولا هو سلوكك، بل إنك ذو خصال حميدة رأيتها منذ اليوم الأول». ثم أضاف مبررًا مزاعمه، قائلًا: «لقد زعمت ذلك تجنبًا

للإحراج، كي لا أبدو ساذجًا بقدومي هذه البلاد وحيدًا دون مساعدٍ أو عوين، أو أكون عرضة لاستغلالهم لي، كما عليك ألّا تنسى أن إبـرازك بهذه الصورة سيعطيك قوة ومصداقية وكذلك ثقة أصحاب الأعمال، وربما يفتح عليك باب الرزق، وهو ما سيخدمني أيضًا».

انزعجت بادئ الأمر من إعطائي صفة ومنصبًا لا أمتلكه، لكن معاملتي كمدير أو رجل أعمال وأنا في هذا العمر المبكر استهوتني تدريجيًا في الأيام اللاحقة، أصبحت محلًا للاهتمام وملاحقة أنظار رجـال الأعمال ومسؤولي الفندق، كذلك العمال. رأيـت كيف تُفتح لي أبـواب المكاتب والفنادق، وتقلّني السيارات الفارهة، وتستقبلني الجموع بترحيبها الحار، وتودعني بابتساماتها العريضة حتى صار أصحاب الوكالات يتدافعون من أجل الحصول على موعد للاجتماع بي، وكدت أصدق أنني واحد من رجال الأعمال الحقيقيين، لولا عودتي ليلًا إلى كونتيبور إيفرست أو روضة الصراصير التي أعيش فيها.

كان واضحًا منذ الساعات الأولى ضخامة مشروع الشيخ القحطاني، بما يفوق قدرة هذه المؤسسات العمالية. لذلك

اتفق مع أصحاب الوكالات أن ينسّقوا مع بعضهم البعض، وأن يلجؤوا إلى الصحف المحلية لنشر إعلانات تلك الفرص، والشواغر الوظيفية المتاحة في السعودية، في حين يهتم آخرون بمتابعة موضوع الاختبارات الشخصية، والفحوصات للمتقدمين، والتأكد من استيفائهم الشروط المطلوبة.

أنهينا الاجتماع بعد ثلاث ساعات من النقاشات المتواصلة، على أن نلتقي في اجتماعات لاحقة بمكاتب أصحاب العمل للتأكد من انسيابية الأعمال، ومتابعة ما تم إنجازه من مهام. بعد أن غادر الجميع تنهد الشيخ القحطاني، وكأنّ همًّا أُزيح عن كاهله، احتضنني وهو يقول: «خيرًا فعلت يا بنيّ، وشكرًا لك على جهودك التي أنقذتني، فلولاك ما تيسرت الأمور بهذه السهولة والأريحية. إن ما حققته اليوم يعد إنجازًا كبيرًا». شعرت بالسعادة لسماع هذا المدح، والتقدير لعملي، وأجبته قائلًا:

«لا شكر على واجب سيدي. هذه مسؤولية أخذتها وعليّ تحملها خصوصًا أنك وحيد في بلد غربة، وكنت أتمنى البقاء معك حتى تنتهي مهمتك في هذه البلاد، لولا أن دراستي تحتم عليّ العودة خلال ثلاثة أيام».

«دعنا لا نستعجل الأمور يا بني، فلا بد أن يكون لكل معضلة حل، وتأكد بأنني حريص أيضًا ألّا تفوتك دراستك. لكن لدي اقتراحًا سيسهل عودتك، ويسهل عليّ مهمتي وهو أن تبقى معي عشرة أيام أخرى، وتلغي عودتك المقررة بعد ثلاثة أيام، مقابل عرضي الذي سبق وقدمته لك مع بعض التعديلات الطفيفة، وهو أن أتحمل تكاليف عودتك جوًا إلى مدينتك وعلى درجة رجال الأعمال، هذا سيوفر لك ثلاثة أو أربعة أيام إضافية كنت ستخسرها لو سافرت برًا، كما أنه سيريحك من المعاناة والتعب الملازمَيْن لهذا النوع من السفر، وسأضمن لك مكافأة سخية عن كل ساعة تقضيها في العمل معي، لكن الأمر الأهم هو أن تفرّغ غرفتك في ذاك النزل وتنتقل معي إلى هذا الفندق، سأتكفل بجميع مصروفاتك، خصوصًا أن ذلك المكان لا يليق بك وأنت من أسرة عريقة». أبهرني الشيخ بكرمه، واهتمامه بترتيب شؤوني، وبدا لي عرضه هذه المرة أكثر واقعية وقبولًا حتى بدأت التعاطي معه بعد إضافة بعض التعديلات الطفيفة:

«آه .. يا له من عرض سخي ويدل على كرم النفس. أشكرك يا شيخ على كل حال، وأقدر لك هذا، وأعدك أن أعيد النظر في تاريخ عودتي، والبقاء أيامًا إضافية، لكن يصعب عليّ قبول

أي أموال نظير مساعدتي، ولا أعتقد أن أسرتي ستقبل بذلك لو سمعتْ به، كما أنني لن أتمكن من الانتقال إلى هذا الفندق، ولا أرغب في أن أعوِّد نفسي على هذه الحياة المُرفَّهة، فأنا فرد بسيط أعيش حياة متواضعة، وأريد أن أكون دائمًا كذلك. إلا أنني سأترك لك تكاليف الغرفة في كونتيبور إيفرست للأيام الإضافية التي سأقضيها من أجلك، سيما أن ميزانيتي ستكون قد استُنفدت ولا تتحمل المزيد من الأعباء، كما أقدر عرضك بشراء تذكرة سفر للعودة، وهي فكرة جيدة ستقلل وقت السفر، لكن الأفضل أن تكون على الدرجة الاقتصادية للأسباب السالفة نفسها». أتممت قولي ملاطفًا: «أما إذا انتهى بي الحال، وصرت رجل أعمال أو مديرًا بإحدى شركاتك في المستقبل، عندها سأقبل كل عروضك السخية بالسفر على درجة رجال الأعمال، لكن ليس الآن وأنا لازلت طالبًا عليّ أن أعيش حياة طلابية بسيطة توائم ظروفي».

«هـذا يعني أننا من حيث المبدأ توافقنا على الخطوط العريضة التي أهمها تأجيل عودتك بضعة أيام، أما التفاصيل الأخرى فتبقى سهلة وسنتعامل معها في حينها». بدا الشيخ سعيدًا بهذا التوافق السريع، وهو ما يفسر دعوته السريعة:

«اسمح لي يا ولدي أن أدعوك وأصدقاءك على عشاء ليلة الغد، كي نتعرف إلى بعضنا البعض بصورة أكبر، وخصوصًا ماريا وزوجها، وكل من تحب أن تدعوه معك».

«لماذا التكلّف يا شيخ؟ لا داعي لتبذير أموالك أو وقتك على أمور غير مهمة، خصوصًا أنك لا تعرف بقية الأصدقاء، عدا أنك التقيت ماريا للتو، كما أن المطاعم في هذا الفندق باهظة الثمن، ولا أنصحك بدعوتنا لأي منها، وأنا سأقوم بخدمتك على أي حال دون هذه الحفاوة التي لست في حاجة للقيام بها».

«لا تبذير ولا شيء، أنا رجل ثري وأريد التعرف إلى الناس، خصوصًا أصدقاءك القادمين من كل أنحاء العالم، ولا أخفيك أنني أرغب في الاطلاع على الأعمال الخيرية التي يقومون بها، لعلّي أقدم دعمًا ماليًا من أجل تشجيعهم على هذا العمل الإنساني». هنا علقت ماريا التي انضمّت لنا مستغلة وقت استراحتها:

«أنا متأكدة أن أغلب الأصدقاء سيكونون سعداء لتلبية الدعوة والتعرف إليك». ثم التفتت نحوي، وراحت تمازحني: «ها قد أصبحت رجل أعمال بعد هذا الاجتماع، وأخشى أن

تصبح فاحش الثراء بصورة تنسيك رفاقك، أو لا تكاد تتعرف إلينا لاحقًا». ردّ عليها الشيخ القحطاني مُطريًا جهودي:

«بكل تأكيد. لقد نجح في أول اجتماع، وبعيدًا عن أي مجاملات عزيزتي ماريا. هل تصدقي أنني وجدت في صديقك الشاب هذا سمات رجل الأعمال الحقيقي، استطاع إدارة الاجتماع بجدارة وحرفية عاليتين، تفوقان عمره وتجاربه». أجبته وأنا أخفي السعادة التي تغمرني:

«شكرًا لك سيدي على هذا الإطراء والتشجيع، والأكيد أنني سأتعلم منك المزيد من الخبرات والتجارب، ومن الناس الذين سنلتقيهم في الأيام القادمة». ثم اختتمت بعبارة لا بد من قولها: «أتمنى يا شيخ ألا يشغل عملك جلّ وقتي، ويبعدني عن أصدقائي الذين جئت من أجلهم».

«لا عليك، لن تبتعد عنهم على الإطلاق، بل سأنظم لكم نزهة لن تنسوها طوال حياتكم». بـادرتْ ماريا التي بدت متحمسة لعملي معه، مُبدية سعادتها بهذا الاقتراح: «لا بد أنها ستكون نزهة ممتعة، وعلينا عدم تفويتها يا نادر».

«سأطلعكم بالتفاصيل متى تم الانتهاء من الترتيبات التي أعمل عليها». صعد الشيخ القحطاني إلى غرفته في الطابق

الخامس، وعادت ماريا إلى كرسيها لمواصلة عزفها، وجلستُ أخطط للأيام القادمة التي عليّ أن أكون فيها فاعلًا مع الشيخ، وحاضرًا في جميع اجتماعاته.

جرت الأمور سريعًا دون أن يسعني الوقت لأفكر جيدًا فيما يحدث معي، لكنني كنت سعيدًا لاضطلاعي بدور إنساني مهم في مساعدة الشيخ، ومساعدة العمال المستفيدين في الوقت عينه. وبناء على الاتفاق الذي تم بيننا بدأتُ العمل بشكل جاد مشاركًا في الاجتماعات التي يحضرها الشيخ القحطاني، وأصحاب الوكالات، والوسطاء كمترجم في هذه الاجتماعات تارة، أو مُيسِّر ومنظم فيها تارة أخرى، وتدريجيًا تطور هذا الدور حتى وجدت نفسي أتولى مزيدًا من المهام والمسؤوليات.

أحطت بمعظم ما يطلبه الشيخ القحطاني من: العمالة، ونوعيتها، وتخصصاتها، وشروطها، كذلك الرواتب، والحوافز، والعلاوات، وأجور نهاية الخدمة التي ستوفرها مؤسساته للعمال، وكانت عروضًا مشجعة بشدة، تعرفتُ أيضاً إلى طبيعة المشاريع الضخمة المؤمل إنجازها من قبل مؤسسات الشيخ، أطلعني وأصحاب الوكالات على نسخ من بعض خرائط مشاريعه الضخمة، والاتفاقيات التي أُبرمت مع

الجهات الرسمية، وصور لمشاريع يتم إنجازها، وهي التي تستدعي استقدام عددٍ كبير من العمالة.

أطلعنا كذلك على القوانين والإجراءات المعمول بها في بلاده السعودية، والتي كان مهتمًا بالالتزام بها والاختيار وفقها، أصرّ مثلاً أن يكون بينهم مجموعة من العمال المسلمين، يخصصون للمشاريع التي يتم إنجازها في المناطق التي يمنع فيها دخول غير المسلمين كالمدينة المنورة أو مكة المكرمة، أو لبناء المساجد التي يحرم على غير المسلمين بناؤها هناك. وحرصًا على أن تكون هناك نسبة محددة للعمالة المسلمة بين الذين سيغادرون إلى السعودية. ترددنا أنا والشيخ القحطاني على المسجد الكشميري وسط العاصمة كاتماندو أكثر من مرة، وتعرفنا إلى وجهاء الأقلية المسلمة.

كان الشيخ في حاجة لأكثر من خمسة آلاف فردٍ من العمالة النيبالية كدفعة أولية للمشاريع القائمة، على أن تتبعها دفعات لاحقة بداية كل مشروع جديد. تتطلب هذه المشاريعُ مختصين من مهندسين مدنيين ومعماريين وميكانيكيين وكهربائيين، كذلك حرفيين مهرة من سباكين وبنائين ونجارين، إلى جانب العمالة غير الماهرة التي تقوم بالأعمال الشاقة التي لا يعمل

فيها عادة مواطنو الدول المستقبلة. هذه الفئة الأخيرة تشكل ثلاثة أرباع العدد المطلوب، وهم الأسهل في الحصول عليهم مقارنة مع أصحاب التخصصات.

كان على المتقدم أن يكون مُستوفيًا الشروط التي تشمل النجاح في المقابلة، واختبار التخصص، والفحص الطبي، واللياقة البدنية، والأهلية العقلية. أما الأمر الأصعب في تلك الشروط فهو الشق المالي، يدفع العامل مبلغًا من المال كضمان مالي، يغطي قيمة تذكرة السفر ذهابًا وإيابًا إلى السعودية، كذلك مصروفات التأشيرة، والإجراءات الرسمية في النيبال أو السعودية، على أن يتم إعادة هذا المال للعامل مرة أخرى بعد مرور ثلاثة أشهر من وصوله إلى السعودية.

وجدت أن هذا الشرط هو الأصعب والأكثر تعقيدًا أمام هؤلاء العمال المنحدرين غالبًا من أسر ومناطق فقيرة جدًا، وقد شرح لي الشيخ القحطاني هذا الأمر لاحقًا قائلًا:

«هذا الضمان المالي مهم للتأكد من ألّا يغادر معنا إلا الجادون، الباحثون عن عمل، والعارفون أن مدة بقائهم ستكون عامين وليس أقل، بعضهم يقرر العودة بعد أيام أو أسابيع من وصولهم هناك، ونحن لا يمكن أن نتحمل تكاليف قراراتهم

الخاطئة، بل هم المسؤولون عنها، لكن عليهم أن يتأكدوا أن هذا الضمان المالي سيعود لهم مع راتب الشهر الثالث».

قمت طوال الأيام التالية بدوري في إطلاع الجميع من عمال، ووسطاء على هذه الشروط والمعلومات التي عليهم استيفاؤها، كما نقلتُ بأمانة جميع التساؤلات والاستفسارات المطروحة من قبلهم أو إليهم.

سريعًا ما تجاوزتُ دوري في الترجمة لأقوم بإبداء الآراء، ووضع المقترحات، ورئاسة الاجتماعات، وحل الخلافات حتى راح الجميع يضع لي اعتبارًا، ويكنّ لي الاحترام. وكان العمال ووكلاؤهم يرون بوضوح كيف أسعى بأمانة وإخلاص من أجل مساعدتهم، وتسهيل أمورهم، كنت أجد متعة في خدمة العمال الفقراء، وسعادة حين أرى على وجوههم علامات التقدير والرضا تجاهي بما يريح ضميري.

كما كنت أسمع منهم وأهاليهم ورفاقهم ووجهاء مجتمعاتهم المحلية كلمات الامتنان والثناء، تحفزني لعمل المزيد، شعرت بقيمة إنسانية عالية للتو أتعرف إليها، وتستحق المزيد من التضحية، ومضاعفة الجهد والسعي لتحقيق حلم أكبر عدد من هؤلاء المسحوقين القادمين من واحدة من أكثر

دول العالم فقرًا، تضم نسبة بطالة عالية بين قواها القادرة على العمل، كما أن مدخول الفرد فيها يعد الأقل في القارة الآسيوية. كنت أشعر بالغبطة وأنا أرى الابتسامات على وجوه الفقراء الفرحين بقرب تحقيق حلمهم، والحصول على العمل الذي سيكفل لهم العيش الكريم، والذي طالما انتظروه.

وجدتُ نفسي منغمسًا في أعمال الشيخ القحطاني، وغارقًا في شؤونه التي يحيلها لي بغير انتظام، أو تنتقل لي بشكل تلقائي، وأحيانًا أحضر اجتماعاته نيابة عنه، حتى راح الجميع يعاملني كمديرٍ لأعماله، يمكنني تلبية احتياجات المترددين عليه أكثر منه شخصيًا؛ نظرًا لصعوبة التواصل معه، وكثرة زائريه، واجتماعاته.

بعد أيام من لقائنا الأول مع أصحاب الوكالات بدأنا بإجراء لقاءات منفردة معهم، ومع العاملين ضمن مكاتبهم، وفرق عملهم، لمتابعة آخر مستجدات كل مكتب على حدة. ومنهم من قام بزيارتنا في الفندق الذي يقيم فيه الشيخ القحطاني، لبعد مكاتبهم التي تقع خارج المدينة، وآخرون بادرنا بزيارة مكاتبهم في نطاق المدينة، تجري أغلب المقابلات مع العمال الطامحين للسفر، والقادمين من جميع أنحاء البلاد سعيًا وراء الحلم، وفرصة العمل في الخليج.

ونتيجة للإعلانات التي نُشرت في الصحف المحلية، وتم تداولها، اكتظت مكاتب الاستقدام بالعمال، اصطفوا خارجًا في طوابير طويلة، حتى قضى بعضهم أكثر من يومين ينتظر دوره مفترشًا العراء. قدِم أغلبهم من مناطق بعيدة، أو قرى نائية لا تصلها شبكة المواصلات، في بلاد تشكل الجبال أكثر من 60 ٪ من مساحتها. كانوا يأتون مُتخطين تضاريس شاقة، وطرقًا متعبة غير معبدة، بل سار بعضهم لساعات وأيام راجلين، أو على ظهور البغال للوصول إلى المدينة، أو ليصلوا أقرب نقطة، يمكنهم أن يصعدوا منها حافلة لمواصلة دربهم إلى العاصمة.

عند كل وكالة استقدام زرناها وجدنا التجمعات خارج أبوابها، اصطف رجال يمكن رؤية الفقر وقسوة الحياة على وجوههم وهيئاتهم. يلاحقوني بنظراتهم وفي عيونهم ألف سؤال حول مستقبلهم، دون أن تفارق الابتسامة وجوههم.

راح بعضهم يتوسل، ويطلب مساعدتي في تحقيق الحلم، ونيل الوظيفة، أو إسقاط شرط الضمان المالي الأصعب لمن لا يملك شيئًا. حاولت أن أساعدهم بشتى الطرق في حدود إمكاناتي، عدا الشق المالي الذي لا أستطيع عمل شيء تجاهه. وآخر يحمل في يده كيسًا قماشيًا، أو جلديًا متواضعًا يضع فيها

أوراقه، وجواز سفره، أو ما جمعه من أموال من أجل استيفاء متطلبات السفر.

عرفت أن بعضهم قد باع كل ما يملك من: بيت، أو أرض زراعية، أو حيوانات من أجل توفير المال. يذهب جزء منه كضمان لـدى شركة الشيخ القحطاني، وهـو المبلغ الذي يُفترض أن يرجع للعامل بعد ثلاثة شهور من سفره، والجزء الآخر هو الأتعاب المجحفة والثقيلة التي يفرضها أصحاب الوكالات، والوسطاء على الفقراء الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى دفعها مقابل تطلعهم إلى العمل، والحياة الكريمة التي يسعون إليها، بل إن بعض هؤلاء العمال اقترضوا الأموال من المرابحين والإقطاعيين في مناطقهم مقابل ضمان كل ما يملكونه من أراض، وبيوت، وبشروط ظالمة، وفوائد كبيرة تفوق بأضعاف المبلغ المستدان في أغلب الأحيان.

عرفت لاحقًا أن الأمـوال المستدانة تجعلهم شبه عبيد لدائنيهم، أو تحت رحمة أولئك الجشعين الذين يكنزون الأموال، ويضاعفونها على حساب الفقراء. سمعت عن حالات عديدة، وقصص مرعبة ينفطر لها القلب أقدم أصحابها على الانتحار، أو حرق أنفسهم نتيجة ضغوط الدائنين، وصعوبة

سداد أموالهم، كما تعرض آخرون للاختطاف، أو القتل، والإخفاء القسري نتيجة العجز عن تسديد الديون، وفوائدها المجحفة. أعباء مادية كبيرة لا يتصورها العقل، يتحملها هؤلاء العمال الفقراء وعوائلهم، تذهب غالبًا لجيوب الوسطاء الذين يغرونهم بوظائف غير حقيقية، أو رواتب عالية يتبين لهم لاحقًا عدم صحتها، أو يكتشفون أنهم قد تعرضوا لعمليات نصب واحتيال!

أطلعني الشيخ القحطاني على تجاربه السابقة، في بقية الدول الآسيوية المصدرة للعمالة، وأخبرني عن الغش والابتزاز الذي يتعرض له العمال الفقراء من قبل الوسطاء، وأصحاب المكاتب، وهو الدارج في هذه الدول. وأخبرني كيف يقوم الوسطاء باستغلال البسطاء، وبيعهم وظائف وهمية، والوعود برواتب مجزية، وفرض العمولات الكبيرة مقابل خدماتهم غير القانونية، ومن ثمّ يختفون فجأة بعد حصولهم على الأموال، وهو الفخ الذي يسعى جاهدًا على ألّا يقع فيه العمال في كل مرة يعمل فيها على استقدام مجموعة منهم.

صرت أقضي أوقات ما بعد العمل في الحديث مع هؤلاء العمال سعيًا نحو معرفتهم عن قرب مثلما كنت أفعل مع

العمال الهنود الذين كنت أعمل معهم في مؤسسة والدي. في كل يوم كنت أتعلم شيئًا جديدًا، وحقائق أجهلها حول ما تمر به العمالة المهاجرة من ظروف قاسية، حتى تصل إلى وجهتها النهائية في الدول المستقبلة.

كنت أستمع لأحاديثهم، وكل ما يحيط بحياتهم، ومجتمعاتهم الريفية المحلية، وجدت أنهم يملكون من مقومات الطبيعة، ما يمكن معه الاعتماد على أنفسهم بصورة أكبر، خصوصًا في توفير الغذاء الذي يمكنهم زراعته لو كانت لديهم إدارات محلية قادرة، ومتمكنة، أو بنية تحتية يُعتمد عليها، ويمكنها أن تجعل منهم مجتمعًا زراعيًا منتجًا من الطراز الأول، حيث إنهم يمتلكون ثروات طبيعية من: المياه، والأراضي، والتربة الزراعية، التي نفتقدها في دول الخليج الصحراوية الحارة التي تعتمد على النفط الذي سينضب في يوم من الأيام.

رحت أتحدث إلى هؤلاء الفقراء عن بلادي البحرين، وكيف هي الحياة فيها، وكذلك بقية دول الخليج، والظروف الحياتية، ليست بالسهولة التي يعتقدونها، حذرتهم من الطقس الحار الذي عليهم الاستعداد له، على خلاف أجوائهم المعتدلة، أو

شديدة البرودة. جالستهم في كل فرصة وجدتها لأكون معهم متحدثًا، أو مستمعًا لقضاياهم، ومستمتعًا في الوقت نفسه بمعرفة كيف تمضي حياتهم، وتعيش مجتمعاتهم.

قبلت دعوة أحدهم، وزرت بيته خارج المدينة، كان مشيدًا مما تخلفه الطبيعة الربانية من أحجار جبلية، وطين النهر الأحمر، وقش الخيزران، وبقايا ألواح الصفيح المعدنية. رأيت في بيوتهم حالة من البؤس الحقيقي الذي قرأت عنه في كتب الأولين، أو رأيته في الأفلام الحزينة. رغم ذلك رأيت في هؤلاء الفقراء السمات الطيبة، والأخلاق الحميدة كالصدق، والأمانة، والطيبة التي وجدتها متأصِّلة في تلك المجتمعات التي لم تلوثها المدينة أو المدنية بأمراضها الاجتماعية. كانوا يحترمون الناس، والغرباء، ويـودون الخير لغيرهم، ولا يترددون في مساعدة الآخرين بكل وفاء وإخلاص متى ما طُلب منهم ذلك.

أعجبت بهم كثيرًا حين وجدتهم يتقاسمون طعامهم البسيط في طوابير الانتظار خارج وكـالات التوظيف، وهي أطعمة متواضعة جاؤوا بها معهم من القرية، في أواني معدنية صغيرة، أو أكياس من الخيش. يتناولون طعامهم جلوسًا على قارعة الطرق، أو فوق دِكك المحلات المجاورة وهم منخرطين في حواراتهم.

اصطحبني الشيخ القحطاني إلى لقاءاته، واجتماعاته مع الوسطاء، وأصحاب وكالات التوظيف، وفي بعض المرات كان يذهب مرافقًا سائقه الذي تعلم الكثير عن اجتماعاتنا حتى صار يحل مكاني أحيانًا، يمنحني ذلك بعض الوقت لأخذ فسحة. أستغلها في زيارة أسرة ماريا وبقية الأصدقاء وتناول الطعام معهم، أو أخرج للتنزه السريع مع الطفلة أليكس التي أستمتع بصحبتها وبراءتها. حب الأطفال سمة لا زلتُ أتمتع بها حتى اليوم، ويشاركني فيها الشيخ نفسه.

دعاني ذات ليلة لانتظاره بغرفته في الفندق، بينما يقوم بأداء الصلاة التي يظهر أنه مواظب عليها. انبهرت لرؤية غرفته الواسعة، والراقية، كانت في الجناح الملكي حسب تصنيفات غرف الفندق وتطل على بركة السباحة، وواجهة الفندق، والشارع العمومي، وموقف السيارات الأمامي. تحوي مميزات لا تجدها إلا في الفلل الراقية وغرف القصور، من حيث السعة والأرائك الفخمة، كذلك الحمام الذي يضم حوضًا يفوق حجمه جميع الأحواض التي رأيتها في حياتي!

في خضم معاينتي الدقيقة للغرفة ومحتوياتها، لفت نظري صورتان معلقتان على خزانة الملابس، واحدة منها كانت لامرأة ترتدي عباءة سوداء، لا يظهر منها إلا محيط وجهها،

وصورة أخرى لطفلين. سألته مستفسرًا:

«هل هؤلاء أسرتك في السعودية؟»

«نعم فهذه زوجتي وأم طفليّ الصغيرين خلود وراشد، أصطحب صورهم معي، في كل مكان أسافر إليه، ولا أستطيع فراقهم طويلًا».

«لماذا لم تأتِ بهم معك إلى النيبال فتكون فرصة يتعرفون فيها إلى البلاد، ومعالمها، وفي الوقت نفسه يبقون إلى قربك؟».

«الأطفال مشغولون في مدارسهم، ولا يمكنني التفريط في تعليمهم، وبسبب ذلك لا تستطيع أمهم تركهم أيضًا، ولا أنا سأقبل».

«الله يحفظكم لبعضكم بعضًا، ويجعل لنا فرصة لقائهم يومًا ما في السعودية أو أي مكان آخر». كان تأثره واضحًا عندما تحدث عن أطفاله، وهكذا وجدته في كل مرة يأتي بسيرتهم.

كان اليوم الرابع لعملي مع الشيخ هو الأكثر إبهارًا على الإطلاق، إنه يوم النزهة التي وعدني بها الشيخ مع ماريا، لم نكن نعرف شيئًا عن برنامجها، منذ الساعة الخامسة صباحاً، أخذنا أحد المشرفين السياحيين إلى المطار لنُفاجأ بمروحية تنتظرنا على المدرج، وفيها جلس قائدها الذي عرّفنا إليه

المشرف. صعدنا المروحية، ونحن نشعر بهول المفاجأة التي لم نُعِدَّ لها أنفسنا جيدًا، ورحنا نسمع تعليمات قائد المروحية حول إجراءات السلامة وتوجيهاته. كانت واحدة من أجمل تجارب حياتي، حتى لا أكاد أصدق أنني قمت بها في يوم من الأيام، وبقت تراودني إلى اليوم كالحلم أو الخيال الجميل.

أقلعت المروحية القديمة بعد أن شددنا الأحزمة، ارتفعنا تدريجيًا حتى صرنا نشاهد المدينة من علو شاهق. نحلق بين الجبال العملاقة التي تشكل جزءًا يسيرًا من جبال الهملايا الممتدة إلى عدة دول، لم أر لها مثيلًا في حياتي. لم أتصور يومًا أنني سأشاهد رسم الطبيعة من هذا الارتفاع، لوحة بديعة بخطوطها وألوانها، وأراضيها بين جبلية وزراعية وسهلية، كذلك الأنهار والبحيرات. أبهرتني القمم مكسوة ببياض الجليد، والبحيرات المتجمدة، والشلالات الناتجة عن ذوبان الثلوج، والقنوات المائية التي تجري منحدرة من أعالي الجبال بشكل متعرج، وكأنها تحوك الجبال في خطوط متعرجة، مثلما يفعل خيط الحِياكة بالقماش.

حلقنا فوق المناطق الريفية والقروية النائية، البيوت بألوانها المبهجة، الأصفر والبني

والبرتقالي والأحمر وغيرها، الحزام الأخضر المحيط بها، يُنبئ باعتمادها على الزراعة بشكل أساسيّ.

من الصعب الوصول إلى معظم التجمعات السكانية عن طريق شبكة المواصلات البرية التقليدية، بسبب وعورة طرقها الجبلية، أو انعدام الطرق والشوارع المعبدة. لذلك يسافر إليها الناس إما سيرًا على الأقدام، أو على ظهور الحيوانات كالبغال والخيول وغيرها.

ها نحن الآن نحلّق فوق إحدى قواعد جبل إيفرست، واحدة من معسكرات التجمع التي ينطلق منهما المتسلقون لقمة الجبل. الثانية في إقليم التبت في الصين الشعبية. إيفرست هو الجبل الأكثر ارتفاعًا في العالم، أكثر من سبعة عشر ألف قدم عن سطح البحر. يمكث المتسلقون عادة أيامًا وأسابيع في هذه المعسكرات قبل الانطلاق في رحلتهم إلى أعلى الجبل، وذلك للتعود على المناطق المرتفعة، وما يترتب عليها من تقلبات واضطرابات جسمية ونفسية وصعوبات في التنفس بسبب نقص الأكسجين، وازدياد وتيرة دقات القلب، وهي تداعيات تصبح خطيرة أحيانًا إلى درجة الفشل في مواصلة دربهم للوصول إلى قمة الجبل.

هبطنا بالمروحية في منطقة (لوكلا) لتناول إفطار الصباح، وهي إحـدى مناطق الهملايا الريفية التي يرتادها الشباب الأجانب المحبون للمغامرة وتسلق الجبال. جلسنا هناك نشرب الشاي في أحد المقاهي التي تستقبل السواح المغامرين، وتوفر لهم الإقامة لليلة واحدة أو ليلتين قبل أن يواصلوا دربهم صعودًا أو هبوطًا.

يوجد في هذه المنطقة مـدرج طيران قد يكون الأقصر والأضيق في العالم، ما يجعله الأخطر. جلسنا في منطقة لوكلا مع بعض السكان المحليين، أحاط بنا الأطفال وهم يضحكون، كما يفعلون مع كل الفرق الأجنبية الزائرة للمكان. اغتنمت الفرصة لزيارة بعض المعابد البوذية والهندوسية المزيّنة بأعلام وأقمشة ملونة، موجودة بكثرة في هذه المنطقة الجبلية. التقطتُ صورًا للمناظر الخلابة التي لا أعتقد أني سأحظى بفرصة مشاهدتها مرة أخرى في حياتي. رحلة فريدة بقيت أتحدث عنها لسنوات. شعرت بامتنان كبير للشيخ القحطاني الذي نظم هذه الرحلة وموّلها، رغم أنه تخلّف عن الانضمام إليها بسبب خوفه الارتفاعات، أو التحليق في مروحية متهالكة في أكثر المناطق خطورةً في العالم.

11
العربيان وحديث المدينة

الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر 1984، مر أسبوع منذ بـدأت العمل مع الشيخ، توجهت مساء إلى فندق هملايا شيراتون تلبية لدعوة عشاء وُجهت للشيخ وأصدقائه من قبل مالكي إحدى الوكالات العمالية، تقديرًا للعلاقة الجديدة معه وسعيًا لنيل ودّه وبعض أعماله.

حرصت أن أتواجد هناك قبل ساعة ونصف من الموعد، مستبقاً بقية المدعوين كي أقضي بعض الوقت مع الشيخ قبل وصولهم، وكي يتسنى لي أن أعرف الحضور ببعضهم بمجرد وصولهم إلى الفندق، قبل أن أقودهم إلى المطعم، خصوصًا أن أغلب القادمين سيكونون زملاء ماريا والسيد پول.

اجتزت بوابة الفندق نحو مكتب الاستقبال وسط ردهة الفندق، كي أتصل بغرفة الشيخ وأخبره بوصولي المبكر، وإذا بموظف الاستقبال يناديني هامسًا، ملوِّحا بيده كي يلفت انتباهي بحذرٍ دون إثارة انتباه الآخرين:

«سيدي، هناك رجلان يبدوان مهمان وفي مهمة رسمية،

ينتظرانكما منذ بضع ساعات، يستفسران عن رفيقك الشيخ بشكل خاص، إلا أنه أخبرنا سابقًا ألّا نطلع أحدًا غيرك على مكانه، وها هما جالسان في انتظار أي منكما». قال ذلك وهو يشير لي بيده نحو رجلين يرتديان ملابس نيبالية رسمية. كانا ينظران لي. قبل أن أتوجه لهما سألت الموظف:

«هل تعرف مَن هذان الرجلان؟ أو إنْ سبق أن التقيت بأي منهما؟»

«كلا يا سيدي، لكن يبدو أنهما مسؤولان حكوميان أو جاءا من إحدى مؤسسات الدولة في مهمة رسمية».

ذهبت إليهما مُعرِّفاً بنفسي كأحد مساعدي الشيخ، وعرّفا بنفسيهما كمسؤولَيْن كبيرَيْن يعملان في وزارة العمل النيبالية، يشغل أحدهما مدير مكتب وزير العمل، والآخر منصب وكيل وزارة العمل. أخبراني أنهما جاءا مبتعثين من وزير العمل لمقابلة الشيخ الذي سمع الجميع بوجوده في النيبال، وفرص العمل التي يطرحها في السوق العمالية، ويقدمها للعمالة النيبالية حتى صارت حديث الساعة والمدينة والصحف المحلية. وأنهما يأملان ترتيب لقاء عمل بين الشيخ القحطاني ووزير العمل النيبالي. قال مدير مكتب الوزير:

«منذ عدة أيام ونحن نحاول الوصول للشيخ القحطاني دون جدوى، حتى طلب منا معالي الوزير زيارتكم في الفندق لترتيب لقاء عمل بينكم ومعاليه».

«أعتذر لكما، أؤكد أننا لم نعلم باتصالاتكما، والأكيد أن الشيخ القحطاني لا علم له بمحاولتكما لقاءه، وإلّا لما تردد في ذلك على الإطلاق، أعدكما أن أُوصل رسالتكما في أسرع وقت ممكن. لكن هل يمكن أن تطلعاني على المزيد من التفاصيل، والغرض من لقاء الشيخ؟»، رد وكيل الوزارة:

«في الواقع، بلغ معالي وزير العمل خبر زيارتكم المملكة من خلال ما نشرته الصحف المحلية، حول الأعداد الكبيرة من العمالة النيبالية التي تنوون إرسالها للعمل في السعودية، وبما أن شؤون العمل والعمال في المهجر من مهام واختصاص معاليه، فإنه مهتم كثيرًا بتسهيل عملكم في البلاد خدمة لجميع الأطراف. لهذا ندعوكم لزيارة مكتبه في أقرب فرصة ممكنة، كما أن معاليه لا يمانع الحضور هنا شخصيًا، إنْ كنتم تُفضلون ذلك؛ فهو مهتم كثيرًا بنجاح مهمتكم وتوفير الدعم الذي تحتاجونه»

«بل يسعدنا ويشرفنا ذلك، وأنا متأكد أن الشيخ سيرتب للقاء

معاليه في أسرع وقت ممكن. يؤسفني ألّا يكون الشيخ معنا في هذه اللحظة، وإلّا انتهينا من تحديد الموعد في أقرب فرصة، لكن أعدكما بالرجوع صباح الغد بموعد اللقاء». واصلنا تبادل الأحاديث الودية، وحدثتهما عن مشاريع الشيخ، ومتطلباته العمالية، وجميع المعلومات المتعلقة بعمل مؤسسات الشيخ في النيبال، قبل أن نودع بعضنا ويغادرا.

كان هذا لقائي الأول بمسؤولين حكوميين بهذا المستوى الرفيع. شعرت بأنني تعاملت معهم بقدر من المهنية التي تتطلبها اللقاءات الرسمية. وفي الحقيقة استهوتني وأشعلت حماسي فكرة لقاء مسؤول كبير بدرجة وزير العمل، وهي أكبر شخصية حكومية رسمية قد ألتقيها في حياتي، وتشكل إضافة مهمة ستُكتب ضمن رِزم تجاربي وخبراتي.

كان واضحًا أن خبر وجود الشيخ في النيبال، وأعداد العمالة المزمع إرسالها للسعودية انتشر كالنار في الهشيم في عموم البلاد، حتى صرنا أنا والشيخ القحطاني كالمشاهير، وكبار الشخصيات التي يتطلع الناس والمسؤولون للقائها ونيل حظوتها في معاملة تجارية، أو عقد عمل وغيره. بات الجميع يتعامل معي كرجل أعمال من الدرجة الأولى، غير مدركين

أنني أعود ليلًا إلى كونتيبور إفرست، غير أنني وجدت في ذلك الاهتمام متعة وتجربة، ولم يكن في وسعي رؤية كيف كان كل ذلك يلتف حول عنقي كالحبل!

بعد مغادرة الرجلين الفندق عدت إلى موظف الاستقبال لأعـرف أين الشيخ القحطاني الـذي لم أرَ له أثـرًا، فاجأني الموظف حين قال:

«رفيقك موجود في كازينو الفندق، وقد طلب منا عدم إطـلاع أي زائـر بمكانه عـداك». لم أكـن أعـرف أن الشيخ القحطاني يلعب القمار، بدا لي رجلًا متديناً ومحافظًا على التقاليد البدوية. أخبرني لاحقًا أنه يقضي ساعة أو اثنتين في الكازينو كل ليلة ليخفف من ضغوط النهار، ويتجنب لقاءات الليل وزيارات بعضهم من دون موعد سابق. فقد صار العمال يتوافدون على الفندق في جميع الأوقات من أجل التواصل المباشر مع الشيخ، متجاوزين الوسطاء، ووكالات الاستقدام والتوظيف، يقومون بذلك للتهرب من دفع عمولاتهم الثقيلة التي لا يحتملوها.

تقبل الشيخ القحطاني اللقاءات المباشرة مع العمال بمساعدة سائقه الخاص رغم انشغالاته، وهي أمور يُفترض

أن تُترك لصغار الموظفين في مكاتب الاستقدام. لكنه يرى في العمل المباشر سبيلًا نحو الانتهاء السريع من إتمام مهامه التي قدم من أجلها، كذلك لتخفيف أعباء العمال الفقراء بما قد يصل إلى النصف، وجدت في ذلك عملًا إنسانيًا يستحق الإشادة، خصوصًا أن الشيخ يبذل جهدًا من أجله.

حالما اقتربت من بوابة الكازينو، فتح لي حارسان الباب، استقبلاني بابتسامة وانحناءة ظهر، ربما اعتقدا أني سأكون فريسة جديدة. في الكازينو يخسر الجميع أموالهم عدا أصحاب الصالة. تلفّتُّ باحثًا عن صاحبي، لكن عتمة المكان وكثافة دخان السجائر جعلا الرؤية متدنية جدًا، والتنفس صعبًا، وجدت المكان مكتظًا بالمقامرين وأغلبهم من الهنود الأثرياء. يمسك كل واحد منهم بسيجارة في يد والمشروب في اليد الأخرى، يتمايلون على أنغام الموسيقى والسكر، يُقدم الخمر في صالات القمار مجانًا، تشجيعًا وجذبًا للمزيد من الزبائن الذين ينفقون الكثير من الأموال على لعب القمار.

يلعب بعضهم على الآلات، مُراهنًا على تشابه الأرقام والرموز، آخرون يتجمعون حول طاولات تضم الألعاب المختلفة، مشغولون بالورق، وحجر النرد والفيشات الملونة،

وغيرها من أدوات اللعب. كان جليًّا أن منهم مَنْ أكثر الشراب حتى صار لا يعي ما يفعله، وآخر يكاد أن يبكي، أو يلطم حزنًا على الحظ العاثر والخسارة الموجعة.

كانت لعبة العجلة الصغيرة، أو «الروليت» كما يسميها الفرنسيون، هي الأشهر في المكان، استقطبت العدد الأكبر من رواد تلك الليلة، هي ذاتها التي طالما رأيتها في أفلام السينما تدور حول نفسها. لا نرى مثل هذا المشهد في البحرين، تعدّه عملًا مخالفًا للقانون وتحرّمه الشريعة الإسلامية، لكن في سنوات لاحقة وجدت القمار يُلعب في بعض البيوت بشكل سري.

كان لافتًا وجود الشيخ القحطاني بملابسه العربية متصدرًا المشهد، منشغلًا في اللعب على طاولة الروليت، ومعه مجموعة من الرجال المتحلقين حول الطاولة نفسها، لوّح لي بيده ما إنْ لمحني مقبلًا نحوه، وصاح بصوت مرتفع:

«هيا يا نادر. تعال هنا وجرب حظك. ربما تكون أكثر توفيقًا مني، فأنا تعيس دائمًا وغير محظوظ، لم أربح شيئًا كعهدي طوال حياتي، وقد ضاعت مني الكثير من الفرص على هذه الطاولة الليلة».

«أنا لا أعرف هذه الألعاب، ولم يسبق لي أن لعبتها ولا رغبة لدي تجاه المقامرة ولا مال أبذّره». قبل أن أنهي عبارتي دفع بعض الأقراص الدائرية الملونة (الفيشات) تجاهي. تستخدم عوضًا عن الأموال النقدية المعدنية أو الورقية، ويمثل كل لون مبلغاً معينًا من المال، تستبدل عند الخروج في مكتب الصرافة، تستعمل خشية جرائم السطو والغش في صالات القمار، في كل مكان حول العالم.

كرر الشيخ طلبه: «لا تهتم يا بني، ولا تكترث بالمال ما دمت معي، فأنا أحمل ما يكفي لتلعب، وتستمتع بوقتك حتى الصباح، اغتنم الفرصة وجرّب حظك معنا».

انضممت إليهم تحت إلحاحه، راهنت على بعض الأرقام كما فعلوا، وقمت بلعب القمار لأول مرة في حياتي. دفع النادل العجلة الدائرية لتدور حول نفسها بسرعة كبيرة كمروحة الغرفة، أثناء ذلك رمى النادل حجر النرد وسط الحلقة الدائرية لترتطم أولًا، ثم تتدحرج في الاتجاه المعاكس، ثم بدأت العجلة تخفف سرعتها تدريجيًا، حتى توقفت عند إحدى خانات الأرقام الملونة بلونين، ليُعرف مَن هو الفائز والخاسر.

شد انتباهي حركة المشرفين على الطاولات الأخرى،

يقومون بعملهم بشكل متقن وسريع تستعصي متابعته أو استيعاب ما ستؤول إليه النهاية. انشغلت أتابع حركاتهم الآلية السريعة، مُستمتعًا بسلاستها، وتبادل أدوار الرابحين والخاسرين من فرد إلى آخر، ولم أعِ أني ربحت الدور إلا بعد سماع صراخ الواقفين حولي وتصفيقهم، كذلك الشيخ القحطاني الذي طبطب على كتفي قائلًا:

«ها هو حظك يزدهر حتى صرت أفضل مني في أول مرة تلعب فيها، وربحت من المال أكثر مما خسرته أنا في ليلتين متتاليتين». سرحت بأفكاري غير مستوعب أنني قد كسبت هذا القدر من المال في أول محاولةٍ ألعب فيها القمار في حياتي، وكانت آخرها أيضًا.

لملمتُ ما كسبته من (فيشات) كالأم تحتضن طفلها خوفًا من فقدانه، وهممت في عجلةٍ إلى مكتب الصرافة، رافضًا الرضوخ لكل الإغراءات من أجل تكرار اللعب بما كسبته من مال، كنت على يقين بأنني سأخسر كل ما كسبته لو واصلت اللعب، وأنها عملية استدراج سقط فيها الكثيرون، وخسروا كل ما يملكون، بل سمعت عن تحول بعضهم إلى متسولين بسبب الإدمان على لعب القمار. لهذا قررت التوقف والاحتفاظ بما لدي من غنائم

يبدو أنها ستمنحني حياةً مترفة، لأكثر من عام دراسي. فررت من تلك الفوضى العارمة، منتشيًا بالفوز العظيم، حاملًا ربطات الأنواط النقدية التي جنيتها، وبينما كنت والشيخ في طريقنا خارج صالة القمار بارك لي قائلًا:

«مبارك لك الفوز الذي لم يتوقعه أحد، خصوصًا في أول زيارة للمكان، وكذلك أول لعبة تشترك فيها، لكن عليك أن تستمتع بما لديك من مال بعد عودتك الهند».

«لكنها بالعملة المحلية سيدي. كيف التصرف في ذلك؟».

«نعم هذا مبلغ كبير بالعملة المحلية، ولا يمكنك إخراجه من البلاد كما تعلم، لكنني سأقوم باستبداله لك إلى الدولار، واستعمل هذا المال في المدفوعات المحلية مثل حساب هذا الفندق أو المشتريات، والنفقات الأخرى في النيبال». كنت أعرف أن ما قاله بشأن الخروج بالعملة المحلية صحيحًا، لذلك ناولته الرزم النقدية، وأنا أحلم أن لدي ما يكفيني من الأموال لعام أو أكثر، حتى أني بدأت أضع الخطط لكيفية صرفها بعد عودتي، والعيش في رغد.

بعد خروجنا من الصالة أخبرت الشيخ عن طلب وزير العمل مقابلته، مبديًا رأيي المشجّع لهذا اللقاء. بدا الشيخ مُستغربًا

ومرتابًا، لم يكن مرتاحًا للقاء بقدر ما اهتمّ بسماع تفاصيل ما دار بيني وبينهما، وإنْ كانا سيعودان في وقت قريب، ولم يبدِ أي حماس. بعد قليل من الصمت رد مُغمغمًا:

«دع عنك هذا الموضوع الذي لن يؤخر أو يقدم في عملنا شيئًا، سأتابع ذلك بنفسي مع مكتب الوزير بعد أن أتأكد أنهم لن يعطلوا أعمالنا بإجراءاتهم البيروقراطية من أجل أن نضخّ لهم الرشاوى». طلب مني أن أعطيه أسماء الزائرين، وأرقام التواصل معهم. كانت ردة فعله باردة ومُحبطة بعد أن كنت أتطلع بشغف للقاء الوزير والمسؤولين في هذه البلاد. تركت له الموضوع بعدها إلا أنني رحت أذكره بضرورة اللقاء بين فينة وأخرى.

انشغلت بعدها بعشاء تلك الليلة، أعجب أصحابي بالشيخ وكرمه، رغم صعوبة تفاعلهم اللغوي معه، خرجوا بانطباع إيجابي عنه، خصوصًا أنه وعد بدعم مؤسستهم بمنحة مالية، بعد عودته البلاد، وكان واضحًا إعجابه بأعمالهم الإنسانية.

لم يكن المبلغ المالي الذي حصلت عليه في صالة القمار هو الوحيد الذي جنيته جراء علاقتي بالشيخ القحطاني، بعد الانتهاء من مأدبة العشاء استوقفني أحد أصحاب وكالات

الاستقدام، وهو من حصلت مؤسسته على حصة الأسد من العقود العمالية مع شركات الشيخ القحطاني، ونال القسط الأوفر من أموال وعمولات العمال. وفاجأني حين ناولني كيسًا مكتنزًا بالأوراق النقدية قائلًا:

«هذه هدية من مؤسستنا تقديرًا لجهودك في تيسير الأمور مع الشيخ، حصلنا على مقدار جيد من عقود العمل، والأرباح المترتبة على ذلك، وهذا ما كان ليحصل لولا مساعدتك، وعليه وجدناك تستحق التكريم، ولو بشيء بسيط كهذه الهدية المتواضعة.» لم أرَ سببًا مقنعًا لاستلام المكافأة، فرفضت:

«شكرًا لك سيدي، لكني لم أفعل شيئًا خاصًا لك أستحق عليه المكافأة، بل هو جهدك. لا أرى داعيًا لمكافأتي». في الواقع، كان سبب رفضي هو ما عرفت من الظلم والاستغلال الذي يتعرّض له الفقراء بواسطة هذه الوكالات، وأن ما سيعطى لي هو من عُصارة تعب الفقراء. بقيت مصرًا على رفض استلام الهدية رغم استمرار إلحاح الوسيط، حتّى تدخل الشيخ القحطاني قائلاً:

«رفضك للهدية غير لائق. لا هو من عادات هذه البلاد، ولا هو من عاداتنا العربية، ورسول الله يقول: «تهادوا تحابّوا».

رأيت أنه لا مفر من قبولها، أخذتها على مضض احترامًا لمنزلة الشيخ وعمره، وما إنْ خرجت من المكتب حتى أعطيت الشيخ الكيس دون أن أفتحه، أخذه مني قائلًا:

«هذه هديتك ولا يجوز أن تعطيني إياها، لكن سآخذها منك؛ لأنك لن تستطيع الخروج بها بالعملة المحلية، سأستبدلها لك بالدولار الأمريكي لتتمكن من الخروج بسهولة». كان كل ما أردت فعله في تلك اللحظات، هو التخلص من ذلك المال الذي لم يشعرني بالراحة على الإطلاق، ولم أر سببًا مقنعًا لأخذه.

12
هل بتنا في خطر؟

يعجّ بهو الفندق بالزائرين القادمين للقاء الشيخ من كل مكان، يزدادون يومًا وراء يوم. كلّ له أجندته ودوافعه وأسبابه المعروفة والمخفية. بينهم تجار، ورجال أعمال حقيقيون يطمحون لمشاريع مشتركة مع الشيخ، وآخرون محتالون أرادوا استغلال وجود هذا الثري في بلدهم، من أجل كسب بعض الأموال غير المشروعة بشكل أو آخر.

رأيت أحدهم يعرض صورًا لما يزعم أنه تاجٌ ملكيٌّ مرصعٌ بالأحجار والمجوهرات الثمينة، يعرضه للبيع بثمن يقل بكثير عن قيمته الحقيقية، آخر يحاول بيع سيْفٍ أثري مزيّن بنقوش فنية يرجع لملوك التبت في القرون الوسطى. لم أصدق معظم هؤلاء التجار الذين كانت وجوه بعضهم ونظراتهم، أو تصرفاتهم تثير الشك والريبة، وعدم الراحة، وتوحي بأنهم محتالون أو تجار غير حقيقيين. كما لم أصدق أن المقتنيات الأثرية التي يعرضونها، والمجوهرات الثمينة حقيقية، قد تكون غير موجودة أصلًا إلا في تلك الصور التي يعرضونها. أكاد

أجزم أن معظم هؤلاء مجموعة من المحتالين، أو المتاجرين بالممنوعات.

حذَّرَنا موظفو الفندق من الغرباء، والتجار المتطفلين، وكذلك فعل رفاقي من العاملين مع السيد پول، خصوصًا أن الشيخ بدا مستهترًا بإجراءات أمنه وسلامته، غير مبالٍ بالنصائح أو مكترثٍ لها. وقد راح يقابل كل مَن جاء لزيارته، وبصورة فوضوية أدت إلى إلغاء بعض الاجتماعات المهمة التي كانت مُعدَّة سلفًا. وكان أكثر ما يثير انزعاجي هو تباهي الشيخ بالثراء في بلد ذي غالبية سكانية فقيرة، راح يدعو كثيرًا من أصحاب الأعمال ممن يتعرف إليهم إلى موائد الطعام، وبشكل يومي في مطاعم الفندق، يحضر مرتديًا ملابسه الخليجية التي تُظهر هويته، مُعززًا بذلك الصورة النمطية للثري العربي في الأفلام الغربية التي دأبتْ على ربطه بعوالم البذخ، والنفط، والنساء.

بعد مرور أسبوعين على عملي مع الشيخ، أبدت لي إدارة الفندق انزعاجها من تجمع طوابير العمال في الخارج من أجل تقديم طلباتهم، حتى تحولت مواقف السيارات الأمامية إلى ما يشبه مخيم لاجئين. طلب مني مدير الفندق أن أنصح الشيخ باستئجار واحدة من صالات الفندق من أجل إنجاز أعماله

وإجراء المقابلات، عوضًا عن فوضى الخارج وازدحام بهو الداخل، وما يتسبب به من إعاقة حركة قاطني الفندق.

كنت أشعر بالانزعاج أيضًا كلما قدمت إلى الفندق، ورأيت الفوضى التي يُحدثها تجمهر هؤلاء وملاحقتي لمساعدتهم. عبرت للشيخ عن انزعاجي وإدارة الفندق، وطلبت منه أن يحيل عمله إلى المكاتب المتخصصة التي عليه أن يتعاقد معها بنفسه، أو يستعين بموظفي الفندق وصالاته، لكنه راح يكرر:

«أنا أحاول التخفيف عن أعباء هؤلاء الفقراء، وأجنّبهم سطوة أصحاب وكالات التوظيف. كذلك أحاول الإسراع بإنهاء عملي والعودة للبلاد»، وهو تبرير مقنع إذا نظرنا للأمر من جانب إنساني، كذلك ما يتعلق بمحاولته الانتهاء سريعًا. يلتقي كل واحد منهم على حدة، وينهي إجراءاتهم بسرعة وسلاسة يفوقان ما تقوم به الوكالات من إجراءات طويلة، ومعقدة أحيانًا.

اقتنعت بادئ الأمر، لكن ساورني القلق بعد بضعة أيام، مع ازدياد أعداد الزائرين، واكتظاظ صالات وأروقة الفندق، حتى صارت عندي صعوبة في متابعة ما يجري، أو معرفة كيف تجري الأمور في خضم ذلك كله، مع عيون المتطفلين

التي تلاحقنا. أحسست بأني غارق في الفوضى، غير قادر على السيطرة على الشيخ الذي تسبب في كل ذلك من جهة، ولا القادمين للقائه من جهة أخرى.

بدأ الإحساس بالخطر يتعاظم عندي، عندما أنهيت متابعاتي ذات ليلة في وقت متأخر، هممت بالخروج نحو نزلي، فلمحت سيارة صغيرة حمراء اللون في الممر المجاور للفندق، بها رجلان غريبان أخذا ينظران لي بطريقة أثارت انتباهي، وكانا يشيحان بنظرهما كلما طالعت نحوهما. تأكدت أني مستهدف حين راحا يتبعان سيارة الأجرة التي ركبتها عائدًا إلى النزل. أثار الأمر في نفسي شيئًا من الخوف والرهبة. سعيت إلى تضليلهما، نزلت من السيارة قبل الوصول للنزل، ولجأت إلى أحد المطاعم المفتوحة، ومن هناك جلست أراقبهما حتى اختفيا. عندها خرجت سريعًا سالكًا بعض الممرات والطرق الالتفافية الطويلة حتى عدت متسللًا إلى النزل، ودثّرت نفسي مرعوبًا.

لم أتمكن من النوم ليلتها، ولم يكن لدي تفسير لما حدث، كانت ليلة مخيفة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، شعرت بأن هناك أمرًا خطيرًا ينتظرني، ويهدد حياتي في الأيام القادمة.

صباح اليوم التالي وقبل أن أغادر النزل نحو فندق الشيخ، اتصلت هاتفيًا بماريا وأخبرتها وبول بما حدث معي، صدم الاثنان وطلبا مني ترك غرفتي فورًا والانتقال للإقامة معهما. وعدتهما بذلك فور دفعي متأخرات الغرفة عن الأيام الإضافية. لم يكن لدي ما يغطّي تلك المستحقات، وقد وعدني الشيخ بالتكفل بتكاليف إقامتي الإضافية. كما أن لي معه الكثير من الأموال سواء تلك التي فزت بها في صالة القمار، أو الهدية التي منحتني إياها إحدى المؤسسات، وعدني تسليمي إياها بالدولار.

الحقيقة أنني لم أعد أملك المال للإنفاق على نفسي، بعد أن نضبت جيوبي بسبب تجاوزي المدّة التي خطّطتُ لقضائها في النيبال. ورغم الضائقة المالية التي كنت أعاني منها، فإنني أشعر بالخجل من البوح بذلك إلى الشيخ، أو أن أطلب منه بعض المال لحل معضلتي، وسيكون من المحرج أن أطلب من ماريا، وأنا أعلم أن زوجها يعمل متطوعًا، وبمكافأة متواضعة بالكاد يعتاشون منها، كما أنها لا تحصل على ما يكفيها من المال جراء أعمالها المؤقتة بين الفندق والمدرسة.

ظهر اليوم الثاني تحدثت إلى الشيخ حول ما رصدته في

الليلة السابقة، وخشيتي مما تُخفيه هذه الملاحقات الغامضة، والخوف من الاستهداف أو الاعتداء، عندما أكون عائدًا في المساء. وقد صُدمت حين أطلعني الشيخ أنه قد رصد الأمر نفسه عدة مرات، وأنه يواجه الأمر نفسه في كل مرة يخطو فيها إلى خارج الفندق، وأنه بات شبه متأكد أن هناك من يلاحقه لسبب لا يعلمه، خمّن أنه محاولة للسرقة. الأمر الذي دفعه على حمل القليل من المال، وتجنب المقتنيات الثمينة عند خروجه، والخروج بصحبة سائقه أو بعض أصحاب المكاتب.

لكنه في الوقت نفسه قلل من شأن ذلك، قائلًا إنه يصادف ملاحقات مشابهة في العواصم الآسيوية الأخرى، في كل مرة يقوم بزيارتها حتى إن محفظته سُرقت في مدينة بومباي قبل ثلاثة أعوام، دون أن يعرف سارقها. اقترحت عليه أن نتعامل مع الأمر بجدية، وإبلاغ الشرطة لحماية أنفسنا، لكنه رفض الفكرة قائلًا:

«ربما يجلب لنا مقترحك هذا بعض المتاعب، أو يلفت إلينا الأنظار أكثر. ستكون هناك حراسة ورقابة وتحقيقات نحن في غنىً عنها، لكن يبقى علينا الحذر عندما نخرج من أماكن إقامتنا. هناك الكثير من اللصوص الذين يعتقدون أننا نحمل

المال معنا، وهذا يحصل في كل الـدول الفقيرة». استهانة الشيخ القحطاني بالأمر أثارت انزعاجي، ورأيتها تعبر عن حالة من الجهل، لكنني لا أملك غير الانصياع له احترامًا لعمره، ومنزلته.

13
اللقاء الأخير

الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر، أكملت في مملكة النيبال قرابة شهر. جلست باكرًا أتناول طعام الفطور في غرفتي، مشغول البال بالأحداث السريعة التي مررت بها، منذ تعرفت إلى الشيخ القحطاني، وما آلت إليه من ملاحقات مجهولة لكلينا. شعرت بالقلق والحيرة، والانزعاج لبقائي طوال هذه الفترة التي لم أخطط لها. شعرت بالحنين لحياتي الطلابية وافتقدت أصدقائي في الهند. رأيت حينها ضرورة الاستعجال في العودة، والسفر جوًا.

بينما أنا منشغل البال في كل تلك الأمور، وإذ بظرف بريدي يُدفع من أسفل باب الغرفة. تناولته سريعًا لأقرأ ما فيه: «السيد نادر الفرج. نود لفت نظركم أن المستحقات المالية المتأخرة لغرفتكم، تجاوزت الحد المسموح به، وبات من الضروري دفع المتأخرات كلها في أسرع وقت ممكن. نشكر إقامتك معنا. المدير».

وضعت الفاتورة في جيب قميصي لأطلع الشيخ القحطاني

عليها، لعلها تسهل الأمر في مطالبته بما وعد به، وحل أزمتي المالية، وتسوية حساب النزل الذي صار يضغط عليّ نفسيًا، وهي الظروف التي لا يعلم بها. سحبتُ منشفتي نحو الحمام لأستحم سريعًا، ثم أذهب لمقابلة الشيخ القحطاني. فجأة سمعت طرقًا على باب الغرفة بصورة متواصلة ومزعجة. انتابني الخوف. لا أحد يعرف مكان إقامتي عدا ماريا التي لن تزورني دون اتفاق مسبق، ولم أكن أترقب أحدًا في ذلك الوقت من الصباح. فتحت الباب بحذر وبطء شديدين حتى تفاجأت برؤية الشيخ القحطاني واقفًا أمامي بهيئته وملابسه العربية، إلا أنه كان يخفي نصف وجهه بشماغه! وبدا لي من نبرة صوته، ودخوله المستعجل الغرفة أنه مرتبك أو خائف من شيء، خصوصًا بعد أن أماط الشماغ عن وجهه.

رحبت به في غرفتي، وكذلك فعل هو بكلمات مقتضبة وهو يتلفت خلفه. أثارت الزيارة غير المتوقعة استغرابي. كنت حريصًا طوال الوقت أن لا يرى الشيخ مكان إقامتي المتواضع، فيكون ذلك سببًا للضغط عليّ للانتقال معه.

سألته سريعًا: «ما بالك تبدو مرتبكًا وتتلفت خلفك؟»

«أعتذر عن هذه الزيارة المفاجئة، لكن هناك بعض الأعمال

الهامة، ومهام أحتاج أن تنجزها سريعًا بما لا يتجاوز يوم غد». ثم أضاف: «بينما كنت قادمًا إلى هنا أحسست بمن يتبع سيارتي مرّة أخرى، الأمر بات مقلقًا»، ثم سألني والحيرة بادية على وجهه:

«هل تعتقد أن هناك ما يشكل خطرًا على حياتي؟» عبارة كانت كافية لتثير مخاوفي وتدفعني لأقفز من مكاني، وأفتح الباب كي أطل خارجًا، لعلي أرى أحدًا من هؤلاء، لكني لم أجد شيئًا.

أضاف الشيخ موضّحاً: « ليسوا هنا. نجحت مع سائق السيارة في الإفلات منهم ببعض المناورات. دخلنا أزقة داخلية لا يعرفها غير سائق سيارتي، اختبأنا حتى تجاوزوا النزل، ثم دخلنا بعد أن تأكدنا من ابتعادهم، لكن علينا أن نكون حذرين بعد الآن».

أبديت له رأيي قائلًا: «هذا ما كنت أخشاه منذ البداية يا سيدي. وسبب تحذيراتي التي لم تُعرها اهتمامًا، حتى تطور الأمر إلى هذه الدرجة، علينا إبلاغ الجهات الأمنية بكل ذلك، بل أرى أنه قد جاء الوقت لتعيد التفكير في التواصل مع مكتب وزير العمل، أو لقاء الوزير نفسه، وإطلاعه على الأمر، لم

يعد هناك منطق في تجاهل دعوته حتى الآن رغم أهميتها». وأضفت محذرًا: «نحن غرباء في هذا البلد، وليس لأي من بلدينا سفارة، أو مكتب تمثيلي يمكننا اللجوء إليه في حال تعرضنا لأي مشكلة أو تهديد. لا أحد سيعلم عنا شيئًا في حال تعرضنا لمكروه بمن فيهم أهالينا».

«لنتريث يومًا أو يومين قبل أن نبلغ الشرطة، عسى أن يتكشف لنا مزيد من الحقائق، وكذلك سنبلغ مكتب الوزير الذي أنوي زيارته معك خلال الأيام القادمة، لكن على أي حال علينا أن نأخذ الحيطة والحذر، ونبلغ بعضنا عن أي مستجدات جديدة قد تحصل ونقيّم الوضع في حينها». وأنهى حديثه بدعوتي للمقهى قائلًا:

«هيا نخرج من هنا، ونواصل الحديث في أي مقهى خارج منطقة الهيبيين هذه التي لا تطاق، لدي ما أقوله بخصوص العمل الذي شارفنا على إنجازه، كما أن علينا تسوية الحسابات ودفع مستحقاتك وما أدين لك به عندي». سعدت أنه ذكر ما كنت أنوي إطلاعه به:

«بالتأكيد سيدي، فأنا جاهز للخروج معك، لكن أرجو أن تمنحني دقائق كي أستحم وأغير ملابس نومي». أنهيت حمامي

سريعًا، وما إن خرجت حتى وجدته مستلقيًا على الفراش، غاطًّا في نوم عميق، مغطيًا وجهه كلَّهُ بالشماغ. أشفقت عليه، لا بد أنه بدأ يشعر بتعب الأيام الماضية نتيجة الجهد الذي يبذله مع العمال، والوسطاء، وكذلك أصحاب الوكالات.

خرجنا مشيًا على الأقدام، بحثًا عن مقهى نشرب فيه بعض الشاي، قلت له حول زيارته نزلي: «في الحقيقة لم أكن أنوي إطلاعك على مكان إقامتي المتواضع؛ لأنه لا يليق بمنزلتك، لكن ها أنت ذا عرفت كيف أعيش حياتي، وأين أقيم».

«لا أرى في نزلك عيب يا بني، وهكذا هم الطلبة المغتربون في كل مكان من العالم. المهم أن كلينا لديه المكان الذي يُؤويه عند النوم، ويعيش حياته بالطريقة التي يريدها، وغير ذلك ليس مهمًا على الإطلاق».

«نعم سيدي. لقد سعدت بوجودك في نزلي على أي حال، وتعرفك إلى مكان جديد في هذه المدينة».

في المقهى أطلعني على آخر مستجدات أعماله التي أنجزها، بما فيها تلك التي حصلت، ولم أحضر اجتماعاتها، وأوشكتْ على النهاية. ثم أحال لي مهمة التواصل مع مكاتب السفريات، وشركات الطيران، للبحث عن أفضل العروض

والأسعار لنقل المئات من العمالة النيبالية إلى السعودية، على أن يحسم الخيار المحدد بعد دراسة العروض والأسعار المختلفة التي سأجمعها وأقدمها له. وعدته أن أباشر العمل حال انتهاء لقائنا في ذلك المقهى. اغتنمتُ فرصة وجودنا معًا، وحديثه عن السفر، وانتهاء مهامه في النيبال وسلمته فاتورة المتأخرات لغرفتي، وذكَّرته بتذكرة سفر العودة إلى الهند جوًا.

«نعم. هذا ما أنا عازم على إنهائه عند لقائنا عصر يوم الغد إن شاء الله. سأسوي جميع الحسابات الأخرى الخاصة بك، والتي تتضمن الغرفة، ومصروفاتك كلَّها، وكل ما وعدتك به من مكافأة وغيره. كما لا تنسى أنه سيكون معك بضع مئات من الدولارات التي حولتها لك من العملة المحلية».

افترقنا خارج المقهى على أن نلتقي عصر اليوم التالي، حاملًا نتائج جولتي في مكاتب السفر. كنت سعيدًا بسماع خبر إنجازي مسؤولياتي، وأن رحلتي شارفت على النهاية. كذلك بتأكيد الشيخ حسم الأمور المالية التي صارت كالقيد في رقبتي، إلى جانب التكفل بتذكرة العودة. وكل ما كان يهمني الآن هو العودة سريعًا إلى دراستي. فقد سئمت البقاء، وأصبت بشيء من الإحباط بسبب فوضى العمل مع الشيخ، وقد تضاعفتْ عندي مرارة البعد عن الوطن، والأصدقاء، خصوصًا أنني لم

أعد أرى ماريا وبقية الأصدقاء نتيجة انشغالي الدائم مع الشيخ الذي استغرق جلّ وقتي.

شرعت في مهمتي بالبحث في مكاتب السفريات، وشركات الطيران عن أفضل الأسعار، وأسهلها سفرًا، حاملًا معي جميع الاستفسارات التي طلبها الشيخ القحطاني، إلا أنني شعرت بشيء من الإحباط حين وجدت أن بعض من قابلتهم في هذه المكاتب لم يأخذني على محمل الجد، نظرًا لحجم ما كنت أستفسر عنه مقابل صغر سني، وبساطة مظهري، وقلة تجربتي الواضحة في طريقة أسئلتي. فضّل أغلبهم التواصل المباشر مع صاحب الشأن مباشرة، أو مَن ينوب عنه من أصحاب الوكالات النيبالية المسجلة، والعاملة معه عوضًا عن التعامل معي. لكنني بعد تلك الزيارات الاستقصائية السريعة تمكنت من جمع معلومات أستطيع تقديمها عند لقائي الشيخ.

وجدت أن أفضل العروض لدى شركة الطيران الهندي، قد تكون الوحيدة القادرة على أن تُقِلَّ المسافرين من العاصمة النيبالية كاتمندو إلى دول الخليج، ولكن عبر رحلات غير مباشرة عن طريق العاصمة الهندية نيودلهي؛ وذلك لعدم وجود أي خطوط مباشرة مع السعودية، أو أيٍّ من دول الخليج الأخرى.

14
بين الرؤية والخيال

ذهبت إلى فندق هملايا شيراتون مساء اليوم التالي، متأخرًا قليلاً عن الموعد الذي اتفقت عليه مع الشيخ القحطاني، حاملًا في جعبتي عروضًا وأفكارًا جمعتها خلال زياراتي السريعة لشركات الطيران. كنت على قناعة بأنني سأنال تقدير الشيخ ورضاه لما قمت به من عمل رغم التعقيدات، وتلكؤ أغلب أصحاب المكاتب في أخذ استفساراتي على محمل الجد.

وصلت أمام الفندق فوجدته كباقي الأيام الأخيرة، مجموعة صغيرة من الرجال عند المدخل، وموقف السيارات، وبعض أصحاب الأعمال في البهو. وقبل الدخول إلى الفندق توقفت قليلًا في ساحة مواقف السيارات لأعاين نافذة غرفة الشيخ، كانت أضواؤها مطفأة، والنافذة مؤصدة، ما يعني أنه ما زال نائمًا في قيلولته ظهرًا، ويجب عليّ عدم الاستعجال في إيقاظه، فقد سبق وأخبرني قبل بضعة أيام، وهو يشير إلى نافذة غرفته من حيث أقف:

«إنْ وجدت الغرفة مظلمة، والنافذة مؤصدة فاعلم أنني

غاطٌّ في نومي، وعليك عدم إيقاظي، ولك أن تتصل بغرفتي متى ما استيقظت فقط، وعلامة ذلك مصابيح الغرفة المُضاءة، والنافذة المفتوحة.»

أتذكر تنبيهاته تلك في كل مرة أزوره في الفندق، لكني استغربت أن يكون نائمًا حتى هذا الوقت المتأخر من المغرب، وخصوصًا أننا قد تواعدنا أن نلتقي الساعة الخامسة عصرًا، وهو الموعد الذي جئت متأخرًا عليه أكثر من ساعة، حرصت على المرور على أكبر عدد ممكن من مكاتب طيران إلى الساعات الأخيرة.

دخلت إلى الفندق، وجلست أنتظر في البهو حتى يستيقظ من نومه، وينزل البهو. مرّت أكثر من ساعتين دون أن يظهر. خرجت إلى مواقف السيارات مرة أخرى. عاينت نافذة الغرفة. لا تزال مظلمة على غير العادة!

ذهبت إلى مكتب الاستقبال مستفسرًا إنْ كان الشيخ خرج من الفندق قبل وصولي، لكن الموظف أبلغني قائلًا:

«لا بد أن يكون في غرفته، أو في مكان ما داخل الفندق؛ لأن مفتاح الغرفة ما يزال في حوزته، وإلَّا لكان قد سلَّم المفتاح إلى مكتب الاستعلامات». يُمنع نزلاء الفنادق من الاحتفاظ

بمفاتيح غرفهم عند خروجهم من الفندق، ويُطلب منهم إبقاؤها في مكتب الاستعلامات، وهو إجراء معمول به في كل فنادق العالم، لكنه تغير تدريجيًا مع التطور التكنولوجي في السنوات اللاحقة.

اتصلت بغرفة الشيخ، لا أحد يردّ. كررت المحاولة عدة مرات حتى تأخر الوقت وشارفتْ الساعة على الحادية عشرة مساءً، دون أي إشارة منه. عُدت أدراجي إلى نُزلي والقلق والحيرة يساوراني على سلامة الشيخ وصحته، ما السرّ في عدم خروجه من غرفته وعدم ردّه على الاتصالات؟ أمسيت خائفًا أن يكون قد تعرض لمكروه أو ما يهدّد حياته من قِبل هؤلاء الذين كنا عُرضةً لملاحقاتهم في الأيام الأخيرة.

عدت إلى هملايا شيراتون صباح اليوم التالي، داعيًا الله أن يكون مختلفًا عن الليلة التي سبقته، وأن ألتقي الشيخ وأطمئن عليه. كانت الغرفة مظلمة أيضاً. أعدت الاتصال بغرفته ودقات قلبي تتسارع، لكن لم يرفع السماعة أحد. توجهت لموظف الاستقبال مرة أخرى، حاملًا التساؤلات نفسها، ومتلقيًا الردود نفسها.

شاهدت سائق الشيخ القحطاني في بهو الفندق في حالة من

الترقب والخوف، كان الشيخ قد منحه مؤخرًا إجازة لمدة يومين لزيارة أسرته خارج العاصمة. بحثت في أروقة الفندق وكل مرفق من مرافقه، سألت العاملين، وضيوف الفندق إنْ كانوا قد رأوا الشيخ. غير أني لم أتلقَّ أي جواب يحل اللغز. توجهت إلى بعض العمال الذين كانوا ينتظرون الشيخ مستفسرًا إنْ كان قد التقى أيٌّ منهم أثناء غيابي، أو كان وجودهم هنا بناءً على اتفاق أو موعد مسبق معه. تحدث الجميع معي في الوقت نفسه بكثير من الأقوال والأحاديث التي ليس من ضمنها ما يحل لغز غياب الشيخ. زادت خشيتي على الرجل، وعلى نفسي أيضًا.

صرتُ أتنقل داخل الفندق وخارجه وعيون موظفي الفندق تلاحقني، يدرك هؤلاء ما يشغل بالي، وهو السؤال نفسه الذي يراود الجميع. استمر الحال حتى مساء ذلك اليوم فأقفلتُ عائدًا إلى نزلي برأس مثقل بالهموم والخوف، متخيلًا جميع الاحتمالات الممكنة، دون أن أعرف ما عليّ فعله مع هذا الوضع الغريب، أو في حال حدث الأسوأ.

عدت إلى نُزلي كونتيبور إيفرست مكتئبًا مهمومًا ألقيت بنفسي على فراش الغرفة الموحشة دون أن أخلع ملابسي. تعتريني رجفة تهز أطرافي وجسدي كلّه، ولا أعلم إنْ كانت

بسبب البرد والجوع والتعب أم الخوف من المصير المجهول، أو كليهما معًا. غابت الحيلة، وعظمت الحيرة حتى رمتْ بتأثيرها على صحتي النفسية، وأمسيت أغمغم بكلمات وعبارات لا معنى لها، عدا أنها مؤشر سلبي لِتردِّي وضعي النفسي.

أسئلة كثيرة تشغل بالي دون أن أجد لها تفسيرًا أو جوابًا: أين اختفى الشيخ، والرفيق؟ هل يعقل أنه ما يزال في غرفته؟! أو يكون قد تعرض لعملية اختطاف؟ تساؤلات تكاد تتحول لكوابيس تُنهك مخيلتي، وتتجاوز قدرتي على تحملها.

في خضم تلك الأوضاع الغامضة، والحالة المادية التي أمسيت عليها، وجدت أنه من المهم أن أفكر بمصيري العائم مع كل تلك التعقيدات، وكيفية النجاة بنفسي. قفزت في ذهني فكرة الفرار من البلاد خلسة، وبأي شكل من الأشكال تجنبًا لأي تداعيات أو تبعات يمكن أن تؤذيني، أو أن أكون عُرضة لأي استهداف يمكن أن يقف وراءهُ هؤلاء المجهولون الذين كانوا يلاحقوننا طوال الأيام الماضية. يُنبئني حدسي أن لهم علاقة بغياب الشيخ.

بـدأت أفكر بجدية، وأخطط لعملية الفرار من النيبال.

وضعت تفاصيلها في مخيلتي وحـددتُ زمن الانطلاق أن يكون منتصف الليلة القادمة، في حال لم يتضح لي مصير الشيخ القحطاني، وأتأكد من سلامته بنفسي.

وجدت نفسي ولأول مرة أشعر بالضياع وفقدان الأمل، كنت في أمس الحاجة لمؤازرة أسرتي التي أحتاج إليها في تلك اللحظات العصيبة التي لم أعهدها. خنقتني العبرة ورحت أنتحب، وأذرف الدموع حتى ابتلّت وسادتي.

طفت بخيالي على أفـراد أسرتي فـردًا فـردًا، متمنيًا لو أستطيع إطلاعهم بالضيق الذي أمر به، أو أن يعود الزمن قليلًا وأخبرهم بالحقيقة التي أخفيتها عنهم حول سفري ووجودي في هذه البلاد. كانت عيناي مفتوحتان تقاومان النوم، بين النوم واليقظة، أو الوعي واللاوعي، أو الحلم والحقيقة رأيت ما لم أتوقعه على الإطلاق. رأيت أمي قادمة لتودّعني، وهي تمسح دموعها حزنًا على حالي. لم تكن تودعني في المطار إنما خلف قضبان حديدية، محاطة بأسلاك شائكة. لا يستطيع أحدنا ملامسة الآخر أو احتضانه، رغم أنني كنت في أمسّ الحاجة إليها.

خلف أمي وقف بقية أفراد أسرتي وهم يذرفون الدموع.

وكـان أبي الوحيد الـذي يُهدئ من روع أمـي، وهي تحاول مد يدها من بين القضبان كي تلامس يدي، دون أن تستطيع. كأن جميع أفراد أسرتي جاؤوا لوداعي الأخير، قبل أن أذهب إلى عالم مجهول. دون أن يتقبل أي منا حقيقة ذلك الفراق، والمصير الغامض. لفتني تكرار أمي لوصاياها ذاتها التي طالما أوصتني بها قبل السفر، بدت مختلفة هذه المرة في نبرتها، وطريقة إلقائها من الطلب والرجاء إلى صيغة العتب واللوم! كانت تعاتبني على مخالفة ما أوصتني به قبل سفري. لن أنسى تلك الرؤية، ولا اللحظات التي تحدثت لي أمي فيها قائلة:

«لماذا فعلت ذلك بنفسك يا ولدي؟ لقد أوصيتك لكنك لم تصغِ إلى وصاياىَ، وناشدتك ألا تخاطر بنفسك، لكنك فعلت حَين سافرت دون علمنا، وطلبتُ منك أن تُودِعَ جواز سفرك في مكان آمن، لكنك تجاهلت طلبي، وها أنت تواجه تبعات خطاياك بصورة تعذبني. صرت أخشى على حياتك في هذه الغربة البعيدة، ومن دون أن يستطيع أي منا مساعدتك». نزل كلام والدتي على أذني كالصاعقة، أيقظتني فزعًا من الحلم الرؤيا التي غرقت فيها للحظات، وفي ثوان سريعة استعدت إدراكي لما حولي.

قفزت من فراشي واقفًا على رجليّ في أقل من لحظة، رفعت فراشي الذي أخفيت تحته جواز سفري وما لدي من نقود. قلبت الفراش رأسًا على عقب بحثًا عما عاتبتني عليه أمي، لكن الصدمة العارمة، أن جواز السفر لم يكن موجودًا في المكان الذي وضعته فيه. لقد اختفى من مكانه. رحت أبحث في كل زاوية من زوايا الغرفة حتى قلبت كل محتوياتها علني أجد الوثيقة، أو أتذكر شيئًا يدلني على مكانها. لكن لا أثر يُذكر على الإطلاق، وكأن هناك من أحس بنيتي الفرار من البلاد في الليلة التالية، وأراد إحباط ذلك لسبب لا أعرفه، أو لإغراقي في مستنقع تبعاتِ ما يحصل، أو لعلّه مرتبط بما حدث للشيخ القحطاني الذي يكتنف مصيره الغموض.

«آه يا لها من مصيبة! ماذا يحصل لي؟ من سرق الجواز؟ ومن له مصلحة في ذلك؟!». رحت أردد هذه الكلمات، وأنا جالس مكاني. أندب بؤس حالي وحظي العاثر.

عندما طلع الصباح استدعيت صاحب النزل الطاعن في السن. راودتني الشكوك بأنه فعلها بسبب المتأخرات المالية المستحقة، ظننتُ أنه ربما فعل تلك الحماقات مثلما كانت العجوز الشمطاء، إلا أن توجيهي السؤال المباشر عن اختفاء

جواز السفر أثار استغرابه واستهجانه، وجد فيه تشكيكًا في أمانته، وفي العاملين معه في المكان. بدا استياؤه واضحًا من نبرة صوته، ونفى بصوت حازم أنْ يكون قد دخل الغرفة في أثناء غيابي، أو أن أحدًا من العاملين قد فعل ذلك. قائلًا:

«اعلم يا سيدي أنني الوحيد الذي يملك مفتاحًا احتياطيًا لجميع الغرف، وهذه المرة الوحيدة التي يشتكي فيها أحد النزلاء من فقدانه شيئًا من حاجياته. لكن أرجو أن تبحث جيدًا مرة أخرى، أو أن تتذكر إنْ كنت قد استعملته في مكان آخر أو نسيته هناك؛ لأن ما تزعمه يخدش سمعة بيتي، وأسرتي، وكذلك صورة نزلي، وهذا يعنيني بشكل كبير فهو مصدر رزقي».

واصلت البحث عن جواز السفر طوال النهار، مُفتشًا كل شيء في الغرفة، ولكن دون جدوى، حتى صرت أشك في كل من حولي، وكل من أصادفه أمامي في النزل. رحت أتابع سلوكهم، وأراقب وجوههم لعلّي أجد إشارة ارتباك تُسهل لي الطريق إلى الحقيقة، أو تدلني على من يقف وراء سرقة الجواز، بل رحت أخترع لكل واحد سببًا قد يكون دفعه لذلك، من دون فائدة.

خرجت عصر ذلك اليوم منهكًا ومجهدًا. وصلتُ إلى حالة بائسة مزرية، حاملًا همومي وقلقي. ذهبت إلى فندق هملايا شيراتون بحثًا عن حل للجزء الآخر من الأزمة التي غرقت فيها، والمتعلقة بذلك الثري العربي الذي اختفى دون أن أسمع منه شيئًا، داعيًا ربي أن يختمها على خير، وأن يهبني ما يحلُّ عقدتي، ويخرجني من ورطتي.

وصلت الفندق وسط تجمعات أقل في انتظار الشيخ. طفقوا هذه المرة ينظرون لي، وهم يتحدثون مع بعضهم بعضًا، وكأنهم يشيرون لي في حديثهم هذا الذي تَبين لي من تعابير وجوههم أنه غير إيجابي، لكنني تجاوزتهم دون الالتفات إليهم، متجنبًا نظراتهم.

كـان مدير الفندق وبعض الموظفين واقفين يتبادلون الحديث مع رجلين، عرفت أنهما من أصحاب الوكالات، زرتهم مع الشيخ قبل بضعة أيام، ومن حولهما وقف بعض العمال باحثين عن خبر يحيي فيهم الأمل. علمتُ أنهم تجمعوا بحثًا عن الشيخ، بعد تغيبه عن حضور اجتماعاتهم المعدة سلفًا، وذلك منذ لحظة غيابه قبل أربعة أيام. وجدوا أنفسهم واقعين تحت ضغوط الناس الذين دفعوا لهم الأمـوال التي تغطي

كلفة التأمين، والوساطة، واستوفوا جميع الشروط للوظيفة، وأصبحوا ينتظرون سفرهم للسعودية، في حين اختفى الشيخ الذي لا يعلم مصيره أحد، ولا أين صارت أموال العمال، أو الضمان المالي الذي كان في حوزته!

عرفتُ حينها أن كثيرًا منهم قد لجأوا إلى الشرطة، اعتقدوا أن الشيخ القحطاني قد جمع أموالهم، وفر بها هاربًا خارج البلاد، وهو ما لم أكن أصدقه لاعتبارات كثيرة. عندها تيقنتُ أنني سأكون في مواجهة معضلة كبيرة، وورطة جديدة بدأتْ تتكشف في تلك اللحظات، وهي اعتقاد هؤلاء أنني مدير أعمال الشيخ، كما كان يقدمني للجميع منذ اليوم الذي تعارفنا فيه. جاء مدير الفندق يستقبلني في اللحظة التي لمحني مقبلًا فيها، سألني إنْ كانت لدي أي معلومات عن الشيخ القحطاني، وقلت:

«لا أعلم يا سيدي على الإطلاق. وأنا قلقٌ جدًا عليه، وأبحث عنه في كل مكان، وقد كان موظفوكم إلى يوم أمس مقتنعين أنه في الفندق، وهذا يدفعني للاعتقاد بأن شيئًا ما قد حصل، لكنني لا أريد استباق الأمور. لماذا لا تقوم إدارة الفندق بفتح باب الغرفة، والبحث عنه هناك؟ ربما نحصل على إجابة شافية لا تحتاج إلى تخمين أو تحليل من هذا وذاك».

«في الحقيقة راودتنا المشاعر عينها، ونرجو ألا يكون قد أصابه أي سوء، ونحن ننوي دخول غرفته على أي حال، خصوصًا أننا حصلنا على الموافقة الأمنية لذلك، بل سيكون معنا الفريق المعني بمسرح الجريمة التابع للشرطة».

ثم أضـاف: «لقد كنا في انتظارك منذ الصباح الباكر، لم نرغب في دخول غرفته إلا بوجودك معنا، وتجنبًا لأي انتهاكات إجرائية تُعرضنا لمساءَلات قانونية مستقبلية، أو تضعنا تحت المحاسبة. سنقوم بفتح الغرفة، وتفتيشها أمام عينك؛ لأنك الوحيد الـذي تجمعك علاقة به أو تعمل معه، وشهادتك للإجراءات التي سنقوم بها أمر مهم لنا وللجميع».

توافقنا على الإجراءات التي ستُتخذ، وبحضور بعض رجال الشرطة بطلب من إدارة الفندق وموظفي الأمن لديه، صعدنا جميعًا متوجهين إلى غرفة الشيخ القحطاني، على أمل فتح الباب بأي شكل كان. وقفنا أمام باب الغرفة، في حين راح مدير الفندق يطرق الباب مرة، وثانية، وثالثة، بل عدة مرات، لكن دون رد أو إشارة تدل على وجود أحد في الداخل. عندها قام رجل أمن الفندق باستعمال المفتاح الاحتياطي. دفعه بحذر وبطء شديدَيْن خوفًا من حصول أي شيء لم يكن في الحسبان.

كنا نتشارك جميعًا هذه الحالة. أخيرًا فُتح الباب، ودخل الجميع واحدًا تلو الآخر. حرصت أن أكون آخرهم كي لا أصدم بما لا أريد رؤيته. كانت الصدمة أكثر مما توقعت. الغرفة خالية تماماً.

وقفت متسمّراً أقلِّب هواجسي فيما راح أمن الفندق يبحث في كل مكان، تحت سرير النوم، خلف الأرائك، أسفلها، في الحمام، خزانات الملابس. كانوا يفتشون بدقة سعيًا وراء أي إشارة تدلهم على مكان الشيخ القحطاني، أو المصير الذي آل إليه دون جدوى.

كانت بعض متعلقات الشيخ ما تزال في الغرفة، قطع ملابس معلقة على الشماعة، وفي خزانة الملابس، أخرى وضعت في كيس الغسيل. كانت صورة زوجته وطفليه ما زالت معلقة مكانهما. أخبرت رجال الأمن ما قاله الشيخ عن عائلته. على طاولة المكتب وضعت عشرات جـوازات السفر النيبالية الخاصة بالعمال، كذلك عقود العمل الفردية، وأخـرى في الحقيبة الدبلوماسية التي تُركت مفتوحة على السرير.

حينها نظر كلٌّ منا للآخر، منتظرًا تفسيرًا أو رأيًا حول ما يحدث أو أين اختفى القحطاني. لقد زاد الأمر تعقيدًا. وجود كل هذه الوثائق والحقيبة المفتوحة، وكذلك وضعية الملابس

يُبين أن الشيخ كان منهمكًا في أعماله، في الوقت الذي اختفى أو اختُطف فيه. صرت أُرجِّح أن يكون تعرّض للاختطاف من أجل سرقته، أو ابتزازه مقابل المال، أو ربما في أسوأ الأحوال قُتل بعد سرقة ما لديه من أموال نقدية. وهي افتراضات مزعجة، لكنها مبنية على ما رصدته، وسمعته منه عن الملاحقات الغامضة التي لم أُطْلع عليها أحدًا، بناءً على طلب الشيخ نفسه.

تحدث أحد أصحاب الوكالات الذي كان يراقب عملية التفتيش، وهو يُلملم بعض الجوازات الخاصة بعملائه قائلًا:

«أعتقد أن الرجل قد فرّ من البلاد خلسةً، بعد أن سرق أموالنا التي أعطيناها إياه، مقابل الضمان المالي، أي أننا واقعون في ورطة كبيرة ستؤدي بنا جميعًا إلى السجن والضياع». لكن مدير الفندق فاجأني نافيًا تلك المزاعم، ومعززًا ما لدي من اعتقاد قائلًا:

«لا يمكن أن يكون قد غادر البلاد. جواز سفره ما زال في حوزتنا».

كان ذلك كفيلًا بتبرئة ساحة الشيخ من اتهامات النصب والاحتيال أو الفرار من البلاد. وهي المزاعم التي بدأ يرددها بعض العمال، وأصحاب الوكالات. يدعم كلام مدير الفندق

فرضيتي أن الشيخ ربما يكون رهينة في مكان ما داخل البلاد، أو أنه قد تم اغتياله، وهو ما أخشى مجرد التفكير فيه. وهنا وجدت أنه من الضروري إطلاع الحاضرين بما نواجهه نحن الاثنين من ملاحقات غامضة لم نعرف من يقف وراءها، وأخبرتهم بما أعتقده أن للضالعين بتلك الملاحقات علاقة باختفاء الشيخ القحطاني. لامني الجميع لصمتي طوال الأيام الماضية، وتأخُّري في إبلاغ الأجهزة الأمنية بذلك. لم أخبرهم أن الشيخ القحطاني هو الذي رفض ذلك، تجنبًا لإحراجه، أو إبرازه أمام المسؤولين بصورة سلبية، وغبية.

أدركت بعد تلك النقاشات، بعض المعطيات التي لم أكن منتبهًا إليها في خضم فوضى العمل، وهي أن أغلب الواقفين من الوسطاء، أو أصحاب الوكالات واقعون مثلي في ورطة كبيرة، يصعب الخروج منها بسهولة، بل أكبر مما كنت أعتقد بكثير، وأنني لن أكون الضحية الوحيدة في هذه القضية المتعددة الأطراف؛ وذلك لأن هناك أموالًا طائلة قد جُمعت ممن ينوون السفر للعمل في الخارج. المشكلة الكبرى أن الأموال التي أُعطيت للشيخ اختفت باختفائه عن المشهد، وربما صارت في أيدي الخاطفين. الأكيد أن هذه ستكون كارثة إنسانية. في

الحقيقة لم أكن أعي ضخامة الأموال التي جُمعت من الفقراء، وتقاسمَها الطرفان (الشيخ والوسطاء)، خصوصًا أني لم أكن أحضر الاجتماعات التي تناقش الشؤون المالية، والتي تجري بين الشيخ وسائقه، وأصحاب المكاتب، أو مع العمال أنفسهم وبصورة مباشرة.

وبعد أن تلاشى الأمل في العثور على الشيخ، التفت مدير الفندق نحوي قائلًا:

«سيد نادر. هل لنا أن نتحدث جانبًا عن تسوية فاتورة الشيخ المتأخرة، والتي تشمل تكاليف غرفته، ومصروفاته في الفندق». ما كاد ينتهي من سؤاله حتى انفجرتْ عاصفة من التساؤلات من قبل الآخرين الذين راحوا يندبون حظهم، بسبب خسائرهم المالية، وتبعاتها وكأنهم يرجون مني حلًا. أخذوا يشكون لي الحال، طالبين طمأنتهم بأني سأتحمل مسؤولية خسارتهم في حال لم يظهر الشيخ.

الورطة الكبرى التي بتُّ أعيها، وأخشى تبعاتها الكارثية أن جميع هؤلاء كانوا يعتقدون أنني مدير أعمال الشيخ، وكان من الصعب التنصل من دوري في ذلك الوقت، لكنني بقيت صامتًا متجاهلًا جميع أسئلتهم ومطالباتهم. وكان من العسير كذلك

الاعتراف بحقيقة أنني لست سوى طالب أدرس في الهند، جئت في رحلة سياحية لهذه البلاد، وأنني لا أملك المال، ولا حتى لدفع فاتورة غرفة النزل البائس الذي أقطن فيه، بل ولا مصاريف عودتي إلى الهند، كما أنني لم أعد أملك جواز سفر لأغادر به البلاد، أي أنني غارق أكثر منهم، ووضعي أسوأ مما يتصورون!

أدركت حقيقة وضعي الصعب، وعمق مأزقي الذي لا يمكن الخروج منه بسهولة. ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، وكيف أتعامل مع هذه المصائب التي شلّت عقلي، وأفقدتني القدرة على الفرار من البلاد!

تركت فندق هملايا شيراتون، مُتسللًا من البوابة الخلفية المعدة للخدمات وموظفي الفندق، متخفيًا عن الرجال الواقفين تحت المطر في مرآب السيارات بانتظار الشيخ القحطاني. ورحت أمشي في الشوارع تائها، لا أعرف وجهتي القادمة، ولا ما سيؤول إليه مصيري. كابوس حقيقي لا أعلم إنْ كان لي خلاص منه، ومتى ستسنح لي فرصة الخروج من هذه البلاد التي أتعبتني، وكيف أعود إلى حياتي الطبيعية في الهند.

لا أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، أو أين ألجأ طلبًا للعون،

ولا سفارة لبلدي ألوذ بها، ولا سفارة للسعودية، ولا أي دولة عربية يمكنني أن أشكو لها الحال، أو أحتمي بها.

كما أنني لا أعرف من مواطني هذه البلاد سوى أولئك الذين بدأوا يُحمِّلونني المسؤولية، وينتظرون مني انتشالهم من الأزمة التي أنا نفسي واقعٌ في دركها الأسفل. ولا أحد عندي في هذه البلاد غير الرفاق من المتطوعين الغربيين، وهم أيضًا غرباء على البلاد. فكرت بماريا وأسرتها، وإنْ كنتُ أعلم أنهم لا يملكون حلًا سحريًا يُخرجني من ضائقتي، إلا أنهم قد يستطيعون تقديم الدعم النفسي والمعنوي الذي أحتاج إليه في هذه المرحلة الصعبة.

وفي نزل كونتيبور إيفرست، جلستُ منزويًا على الفراش حتى وقت متأخر. أفكر فيما يمكن أن أقوله لماريا، أو كيف أشرح لها الحال، وكيف يمكن لها أن تساعدني هي وزوجُها، وكل علاقاتهم مع الفقراء.

نزلت بملابس نومي، وأيقظتُ الرجل العجوز الطيب من نومه طالبًا منه السماح لي باتصال هاتفي. وكعادته لم يتردد، أعطاني السماعة بعد أن أدار الرقم بنفسه.

«عزيزتي ماريا. أعتذر عن الاتصال في هذا الوقت المتأخر

من الليل، لكن الأمر مستعجل ولا يتحمّل التأخير، أنا في ورطة كبيرة، لا أعرف كيف الخلاص منها.»

«يا إلهي ما هذه الورطة التي وقعت فيها؟».

«أنا واقع بين مصيبتين، وكل واحدة أكبر من الأخرى».

«وما هما؟»

أخبرتها عن اختفاء الشيخ وما أعتقده حول اختفائه، ثم أضفت منهارًا: «المشكلة الأكبر هي ضياع أموال العمال الفقراء الذين أمسوا يبحثون عنه في كل مكان، بل راح بعضهم يحمّلني المسؤولية، معتقدين أننا شريكان في نهب أموالهم.»

«هذا أمر مريب، يكاد ألّا يُصدق حقًا، وعلينا إبلاغ الشرطة في أسرع وقت ممكن، لكن الأهم هو الانسحاب من هذا الموضوع برمته، وترك الباقي للجهات الأمنية لتباشر عملها في موضوع الاختطاف». وأضافت: «اسمع عزيزي نادر أنا قادمة إليك في الصباح الباكر؛ لكي تنتقل معنا للبيت حتى تغادر البلاد.»

«لم يعد الأمر بهذه السهولة عزيزتي. أنا واقع في مصيبة أخرى تحول من دون مغادرتي البلاد؛ حيث سُرق جواز سفري، ولا أعرف من قام بذلك.»

«لا أصدق أن كل هذا يحدث لك، وأنا لا أعلم!». أضافت: «اسمع.. ربما هي سرقة من أجل الابتزاز، وسيعاود السارق التواصل معك طلبًا للمال»

«أي ابتزاز عزيزتي، وأنا مفلس لا أملك سوى 10 دولارات في جيبي»

«لا عليك، تأكد أننا إلى جانبك، لن نتخلى عنك على الإطلاق حتى تعود لدراستك»

«أشعر بالخوف، وأخشى حتى الخروج من الغرفة، وأن تكون هناك عيون تراقبني، وتتبعني في كل مكان».

«خفف من روعـك يا صديقي حتى يأتي الصباح. لكن تأكد أن تقفل الباب والنافذة بإحكام قبل أن تخلد إلى النوم، وسأكون معك صباحًا لدفع متأخرات الغرفة. والانتقال إلى بيتنا حتى تُحَلَّ المسألة».

ثم سألتني عن شيء ينم عن خوفها، وتوقع حدوث الأسوأ قائلة: «هل يمكنك أن تعطيني رقم هاتف أسرتك في البحرين كي أحتفظ به؟ أنا متأكدة أننا لن نكون في حاجة له على الإطلاق، لكن من المفيد الاحتفاظ به في حال حصول شيء ما قد يزيد الأمر تعقيدًا». لم أكن متشجعًا للاتصال بأسرتي لاعتبارات أوضحتها:

«أخشى أن تصاب أمي بالهلع، كما أخشى على صحة أبي المريض لو عرف بما أنا فيه من ورطة، أو ما يجري لي في هذه البلاد، لا أستطيع أن أخبرهما بأنني قد ضللتهما منذ البداية، حين أقنعتهم بأنني في نزهة إلى ولاية كشمير الهندية»

«حسنًا، سأراك في الصباح الباكر، وتأكّد أننا سنكون معك إلى النهاية، وعليك أن تنام من دون خوف أو قلق.»

أنهيت المكالمة بشيء من الاطمئنان النفسي، من دون أن أعلم ما يخبئه لي القدر من خفايا في الساعات القادمة.

شكرت صاحب النزل، واعتذرت لإزعاجه بتلك المكالمة الليلية المتأخرة. وقد كنت أراه طوال وقت المحادثة ينظر إلى وجهي محاولًا معرفة ما يحدث من خلال تعابير وجهي، وردود أفعالي، أو نبرات صوتي. وبينما كنت أهمُّ بالخروج من غرفته ناداني ليأخذ بيدي قابضًا عليها بإحكام، وبملامح، وتعابير جادة وقال:

«اسمع يا بنيّ. لا أعلم لماذا أشعر بأنك واقع في أزمة تشغل بالك كثيرًا، وهذا ما تتحدث عنه تقاسيم وجهك، وحالة الحزن التي تبدو عليها، ولا أعلم إنْ كان ذلك بسبب ضياع جواز سفرك، أم أن هناك أمرًا آخر أيضًا، كما لا أعلم

إنْ كان بمقدوري مساعدتك! لكن إذا كان لذلك أي علاقة بعدم استطاعتك سداد فاتورة الغرفة المتأخرة، فأرجو منك ألا تشغل بالك بها أبدًا. تستطيع البقاء تحت ضيافتنا قدر ما شئت من الأيام من دون أن تفكر أو تشغل نفسك بالفاتورة»

شعرت بالخجل من نفسي، ومن كلماته التي حملت كل معاني الرحمة والإنسانية رغم من اختلاف أعراقنا وديانتنا وثقافاتنا. كرهت تلك اللحظة التي شككت فيها بأمانته، واتهمته في قرارة نفسي بسرقة جواز السفر في الليلة السابقة، في حين هو رجل شهم وكريم، حرّكت كلماته في داخلي كل مشاعر الود والحب تجاهه حتى احتضنته بحرارة، وأنا أكاد أبكي لهذا الموقف المشحون بالعاطفة.

15
الاختطاف إلى المجهول

لملمتُ حقيبتي للمغادرة صباحًا. رميتُ جسدي المنهك على الفراش. ثقيل رأسي، أفكّر كيف سأواجه الأيام القادمة. أتأمل سقف الغرفة. أنظر إلى تفاصيله مُتتبعًا بداية شروخه ونهايتها، وبيوت العنكبوت التي تجمعت كخيام من خيال، في أطرافه وزواياه.

تداخل المشهد مع شريط الأحداث التي مررت بها، كأنها حدثت باتفاق مُعَدٍّ سلفًا، أُقحمت فيما ليس لي به علاقة، أرى حكايتي واضحة أمامي، مسرحية معدة بإتقان، لا أعرف من هو المُعِدُّ ولا من هو المُخرِج ولا من يحرك خيوطها ويديرها عن بعد. كل ما أعرفه أني لعبتُ دور الضحية، وهو أسوأ أدوار هذا العمل وأكثرها معاناة. لا أعرف ما ينتظرني سوى المجهول.

نهضت باحثًا عن جواز سفري مرة أخرى، عسى بارقة أمل تغير مجرى الأحداث. أعدتُ نبش كل شيء في الغرفة دون جدوى.

ألقيت جسدي على السرير يائسًا، عاودت النظر إلى سقف

الغرفة، مصباح الإنارة المعلّق بسلك كهربائي. تأملت حركة المروحة تدور حول نفسها مهما عظمت سرعتها أو خفت، حتى بيوت العنكبوت لا تكترث لحركتها ما دامت تراوح مكانها. كنت أنا هذه المروحة.

مضطرب العقل والتفكير، أعدُّ الدقائق ليطلع الصباح وتأتي ماريا تحررني من هذا الجحيم. أخاف كل حركة غريبة، كل صوت يخدش سكون الليل المهيمن على المكان، خشخشة الأوراق اليابسة وهي تتساقط من الأشجار، تطايرها من مكان لآخر، صوت الرياح وهي تخترق فتحات نافذة الغرفة لتصنع صريرًا مزعجًا، كل صوت هو رعب مضاعف. دثّرت جسمي باللحاف، وتركت وجهي يلاحق أنفاسه، وعيوني تراقب كل حركة، وكأن هذا التحفّز سينجيني من القادم.

الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، حين لمحت من زجاج نافذة غرفتي المعشّق، خيال رجلين أو ثلاثة يتحركون في الخارج. حملقت في الزجاج بعينين مفتوحتين على مصراعيهما، كي أتأكد أن ما أراه حقيقة لا كابوسًا. كان كابوسًا حقيقيًا تمامًا، ها هم يتحركون خارج غرفتي ذهابًا وإيابًا، أسمع همساتهم ووقع أقدامهم على الأرضية الخشبية، رغم محاولتهم المشي على

أصابع أقدامهم. سرعان ما تأكدت أني المقصود، وأن نهايتي قد اقتربت، حين قام أحدهم بـإدارة مقبض الباب محاولًا فتحه بهدوء. كان الباب مقفلًا، ومحاولة كسره ستحدث جلبة وفوضى في النزل كلِّه.

تصببت عرقًا وارتعدت فرائصي وارتفعت وتيرة دقات قلبي، بما في ذلك قسمات وجهي التي راحت تتراقص في حالة عصبية غريبة! قفزت من سريري واقتربتُ من باب الغرفة، ألصقت أذني به كي أنصت لما يدور من حديث بين هؤلاء في الخارج، سمعت كلمات لم أميزها. قام أحدهم بطرق الباب مرتين متتاليتين. بصوت مهزوز سألت: «من الطارق؟»

جاء الرد بلغة إنجليزية ركيكة: «نرجو منك فتح الباب، نريد أن نتحدث معك قليلًا».

«لكن من أنتم؟ وماذا تريدون مني؟»

«افتح الباب بسرعة. نحن من رجال الشرطة، جئنا لطرح عليك بعض الأسئلة». لم أصـدّق مزاعمه على الإطـلاق. سألت:

«ما الذي يُثبت أنكم من رجال الأمن؟»

«افتح وإلا كسرنا عليك الباب». عبارة كافية لتؤكد كذب زعمهم. حاولت تخويفهم:

«سأنادي العاملين في النزل وأصحابه إنْ لم تغادروا المكان فورًا». أعلم أن تهديدي لا أثر له، لا بد أنهم يعلمون أن لا أحد في المكان، لا أحد غير صاحب النزل وزوجته الطاعنين في العمر، لا يقدران حتى على مساعدة بعضهما البعض.

سريعًا ما أخذ تهديدهم منحى جادًا، لمحتهم يحركون أدواتهم التي يحملونها، شرع أحدهم بمحاولة فتح الباب عنوة مستعملًا قضيبًا حديديًا، ومفكًا للبراغي. في حين راح الآخر يهدد ويتوعد بالانتقام بسبب عدم انصياعي، لهذا رأيت من الأفضل أن أرضخ لهم، وأفتح الباب خشية من رد فعل انتقامي، سيما أنهم سيدخلون الغرفة بأي طريقة كانت.

رفعت حلقة المزلاج، وأدرت المقبض النحاسي، وفتحت الباب، وقبل أن تسنح لي الفرصة أن أطل برأسي لأتعرف إلى زوار ليلي، دفع أحدهم الباب بقوة شديدة رمتني بعيدًا، لأجد نفسي أقع مترنحًا على الكرسي وسط الغرفة. اقتحم الثلاثة الغرفة مسرعين وأمروني بالبقاء صامتًا بلا حركة حتى يؤذن لي، التزمت بما أُمرت به وأنا أعاين أشكالهم وتحركاتهم محاولًا التعرف على هويتهم، وما ينوون فعله بي.

كانت ملامح وجوههم مختلفة، بدا الأول مثل كثير من

النيباليين، وجوههم شبيهة بالسكان الأصليين في أمريكا الجنوبية، وكأنها خليطٌ بين الهندية والصينية. يحمل هذا الرجل خنجرًا (كوكريًا) مثبتًا في حزام على خاصرته، كان الأكثر شراسة وشرًا بين الرجال الثلاثة، وعرفت من مناداة رفاقه أن اسمه (گيان)، في حين بقى أحدهم، واسمه (شاجي) واقفًا خارج الغرفة، بدا من هيئته أنه مغوليّ السلالة، وأقرب إلى قاطني إقليم التبت، عرفت لاحقًا أنه من قاطني الجبال. أما الثالث فكان من أصول هندية واسمه (گوبال)، انشغل مع (گيان) بتفتيش الغرفة والحمام. قلبوا محتوياتها كلَّها وفتّشوا كل شبر فيها. لم يبدُ على الرجلين الآخرين شاجي وگوبال الخطورة نفسها التي بدا عليها گيان، توحي تصرفاته أنه مستعد لفعل أي شيء في سبيل تحقيق غرضه، وإشباع غضبه الذي بقي ملازمًا له طوال الوقت.

الثلاثة في العشرينيات من العمر، يقودهم گيان، لا بحكم منزلته، ولا المهام التي أوكلت إليه كما عرفت لاحقًا، إنما لقدرته على فرض نفسه كقائد للمجموعة، بحكم دوافعه والحزم والشدة اللذَيْن يُظهرهما في سلوكه، واستعداده خوض التحديات مهما كلف الأمر. وقبل أن يتحدث معي أحد، وجّه گيان تعليماته لرفيقه:

«انتبه للخارج جيدًا يا شاجي، وتأكد ألّا تبتعد عن عتبة الباب، أخبرنا عن أي تحركات غريبة قد تحدث». كانوا يتحدثون اللغة الهندية، هي لغة گوبال، والوحيدة التي اجتمع الثلاثة على إتقانها، ساعدني ذلك على متابعة الكثير من مجريات الأحداث.

وقف شاجي خارج الغرفة حارسًا ومراقبًا، في الوقت الذي راح گيان وگوبال يقلبان الغرفة رأسًا على عقب، فتّشوا الحمام، خزانة الملابس، بعثروا حقيبة سفري، لم يبق شيء في الغرفة في مكانه. لا أحد من النزل انتبه لما يحدث، ولا الرجل المسن صاحب المكان.

تابعت تحركاتهم بنظراتٍ مذعورة، وقلبٍ مليءٍ بالخوف، وصدمة، خصوصًا عندما اقتلعوا بعض ألواح السقف، وفككوا أجزاء السرير بحثًا عما يعتقدون بأنه مُخبّأ لدي، وعندما لم يجدوا شيئًا، ارتفعت حدّة صراخ گيان تجاه رفاقه، وصار يتصرف بشكل هستيري. حاولت أن أستفسر منه عن سبب اقتحام غرفتي، فصرخ في وجهي أن أصمت وإلا قطع لساني، كنت أريد أن أخبرهم أني لا أملك مالًا إنْ كان هذا هو هدفهم. أدركت أني ماضٍ إلى الطريق الذي أُخذ إليه الشيخ القحطاني،

ولا شيء سيغير ذلك المصير المعدّ في صفحة قدري.

جلس المدعو گيان ذو الملامح اللاتينية أمامي، وهو يحدق في وجهي، وشرار الغضب يتطاير من عينيه. لوَّحَ في وجهي بخنجره، ثم مسح به على نحري وهو يقول: «هل سمعت عن الخنجر كوكري؟»

«لا أعرف ماذا تقصد سيدي»

«إذن عليك أن تعرف أنه حين يخرج من غمده لا يعود إلا محققًا غرضه، أو مريقًا دمًا». ثم أضاف: «ناولنا الأموال التي لديك، وإلا عليك أن تعلم أنني سأقتلك، وأرمي أشلاءك لتقتات منها الكلاب». بضع كلمات كانت كفيلة أن تشعرني بقرب نهايتي. حاولت أن أُهدِّئ عصبيته، واندفاعه العدواني، لكن الخوف جعلني أتلعثم، أطلق كلمات مبعثرة لم يفهمها أحد، بمن فيهم أنا نفسي! استجديتهم ببعض الكلمات التي تُقال في الوقت الضائع:

«لستم في حاجة لإيذائي، سأعطيكم كل ما عندي دون مقاومة». لسوء حظي فُهمتْ عباراتي بصورة خاطئة، اعتقدوا أني سأعطيهم الأموال التي جاؤوا بحثًا عنها. دفعني ذلك الشرير بيده مستعجلًا:

«هيا تحرك إذن، وناولنا كل ما لديك». كنت أعلم أنهم استوعبوا كلامي بشكل مختلف، لكن قلت هي محاولة عسى أن تخفف عليّ، أو تحميني من الموت.

فتحت خزانة الملابس، بعد أن استأذنته بالتحرك من مكاني، أنزلت سـروال الجينز المعلق، وأخرجت كل ما في جيبه، وهو كل ما أملك من نقود، ثماني دولارات أمريكية، وبعض الأنواط من العملتين النيبالية والهندية لا تتجاوز قيمتها نصف قيمة الدولارات، وضعتها أمامهم على الطاولة قائلًا:

«إليكم كل ما أملك من مال، وأرجو أن تأخذوه وتتركوني في حالي». رمقني اللعين گيان بوجه محمر من الغضب، إلى درجة صرت أسمع فيها شهيق أنفاسه وزفيرها، مثل كلب مسعور يستعد للانقضاض على فريسته، ثم صرخ في وجهي قائلًا:

«نحن لم نأتِك متسولين يا لصّ». وأنهى عبارته بصفعة مؤلمة طبعها على وجنتي، وأخـرى على الجانب الثاني، وختمها بلكمة على صدري كادت أن تقطع أنفاسي، انطرحتُ أرضًا وبقيت مُلقىً كالثمل الذي لا يقوى على الوقوف. ثم سحبني من قميصي ليجبرني على الوقوف مرة أخرى، استلّ

خنجره من غمده، وشد شعري للوراء، وضع الخنجر على نحري، وضغط به على قصبتي الهوائية ليؤكد جدية تهديداته، حينها خارت قواي الجسدية، وأصبت بحالة من التصلب الجسدي، والخرس، وانهرت نفسيًا أمام هذا الواقع الذي لم أعد أستطيع تحمله، حتى صرخ في وجهي مكررًا طلبه:

«هل ستعطينا الأموال، وكل ما لديك من مقتنيات، وتنجو بنفسك، أم أنك قررت المضي إلى مصيرك المحتوم؟» رفع خنجره عن عنقي بعد أن وجدني غير قادرًا على التحدث أو أتنفس، سريعًا خلعت ساعة يدي اليابانية سيكو، وسحبت جهاز المذياع سوني الذين أحضرتهما معي من البحرين، وبقيا ملازمَيْن لي في كل مكان أذهب إليه، وضعتهما على الطاولة قائلًا:

«تفضلوا هذا أثمن ما أملك من مقتنيات في هذه البلاد، ويمكنكم أخذها مني هديةً، أرجو أن تكون كافية لتحريري، والعودة سالمًا إلى أهلي»، لم يتركني هذا الشيطان أكمل عبارتي حتى أبرحني ضربًا بقسوة أكثر، سقطت والدماء تنزف من فمي وأنفي، تلطخت ملابسي. بقيت ممددًا على الأرض خائر القوى، لا أنطق إلا بأنين الألـم، ولا أسمع إلا طنينًا

متواصلًا في أذنيّ جراء الصفعتين اللتين غيبتا سمعي بشكل مؤقت. أنهضني الشرير گيان مجددًا، وأرغمني على الوقوف أمامه من أجل وجبة جديدة من الضرب، لكن في هذه اللحظة تدخل رفيقه گوبال، حال بينه وبيني وأوقف هجومه المسعور، فيما واصل الشرير هجومه الهستيري محاولًا الإفلات من قبضة رفيقه وهو يصيح :

«هـل يعتقد هـذا اللص أننا محل استهزاء، أو جئنا له متسولين؟ اتركني ألقنه درسًا لن ينساه طوال حياته» دخل شاجي الغرفة بعد أن سمع الفوضى. وقف الثلاثة يتبادلون الحديث، ويتجادلون حول طريقة تعامل الشرير معي، يبدو أنهم غير راضين عنها. بعدها تبدّل حديثهم إلى لغة محلية مشفرة كي لا أستوعبها، أيقنت أنها بشأن خطوتهم التالية بعد عملية السطو الفاشلة، استوعبتُ أنها لن تنتهي على خير، ولا عند هذا الحد، بل إنهم لا ينوون تَركِي في سبيلي بهذه السرعة، إنما ستكون هناك خطوات قادمة، لا أعرف ماهيتها، ومدى خطورتها، رغم أنني كنت شبه متيقن بأنني سألحق بمصير الشيخ القحطاني.

طلبوا مني ارتداء ملابسي، وحمل آخرين معي استعدادًا لمغادرة النزل، والانتقال معهم إلى مكان آخر. لم يجب أحد

على سؤالي عن سبب مغادرتي المكان معهم، أو إلى أين سيأخذونني، فأنا مفلس لا أملك مالًا، ولا مقتنيات ثمينة يمكن أن يُستفاد منها، ولا حظوة اجتماعية، أو أهمية اقتصادية، أو سياسية تمكنهم من ابتزاز طرف مقابل فدية إطلاق سراحي.

لكني لم أقاوم الخروج معهم، لمعرفتي أني لا أقدر على مواجهة ثلاثة رجال أقوياء في آن واحد. حذرني الشرير صارخًا في وجهي، بعد أن وجدني أتلفَّتُ كلما فُتح باب الغرفة قائلًا: «تأكد أن تلتزم الصمت والهدوء، وألّا تثير الفوضى، أو تحاول الهرب وإلا ستلقى درسًا لن تنساه أبدًا».

توسّلت إليهم: «لقد أعطيتكم كل ما أملك، وأنا صادق في ذلك، ولا أعلم ما الجدوى من أخذي معكم!». رمقني الشرير گيان بنظرة فيها الكثير من المقت كمن يضمر لي شرًا، ثم قال:

«ألا تعي يا نصاب أننا لم نأتك زائرين، إنما لمهمة علينا أن ننجزها؟»، ثم أضاف: «سيكون وضعك أفضل لو تعاونت معنا، ونفذت ما طلبناه منك، لكنك أبيت وحاولت تضليلنا، والظهور بمظهر البريء خلاف حقيقتك، عليك تحمل عواقب أفعالك». ناشدتهم أن يعطوني فرصة كي أتصل من غرفة صاحب النزل، وأُطلع ماريا بما حل بي، وأعطيها هاتف أسرتي

في البحرين. لكنهم رفضوا تمامًا. زعم شاجي أنهم سوف يأخذونني بضع ساعات من أجل استفسارات سريعة، ثم سيعيدوني إلى المكان نفسه، وهو ما لم يبد لي منطقيًا بسبب الاستعدادات والأهمية التي يحيطون بها العملية.

لم يكن أمامي غير الانصياع. كل ما كان يقلقني هو أن أُقتل، وترمى جثتي بعيدًا عن وطني وأهلي. صرخت: «كيف أعرف أنكم لن تتخلصوا مني بأي شكل من الأشكال؟!» وفي ظل صمت رفيقيه رد الشرير گيان قائلًا:

«أريد ذلك بالفعل لكننا لم نؤمر به، على الأقل ليس الآن، عليك أن تتذكر أن حياتك مرهونة بتعاونك معنا. استجداؤك وتوسّلاتك لن تجدي نفعًا».

عُصبت عينايَ، وقُيدت يداي بحبل بلاستيكي، يكشف النية المبيتة لاختطافي. بعدها تقدَّمَنا شاجي للتأكد من خلو الطريق أمامنا، واقتادني الاثنان الآخران خلفه إلى سيارة مركونة على بعد خطوات من النزل. لم أتمكن من رؤية شيء غير عتمة العصابة فوق عيني، ولم أسمع غير نباح الكلاب الضالة. أركبوني المقعد الخلفي وأجبروني على خفض رأسي، كي لا أرى شيئًا أو يراني أحد. انطلقت السيارة في شوارع كاتماندو،

علمتُ أننا نسير على طرقات المدينة، وأزقتها الضيقة بسبب ارتدادات وصدى صوت السيارة.

وصلنا إلى نُزل ما، وأزالـوا العصابة عن عيني، المبنى قديم ومتهالك يضم عدة غرف تفصلها جدران خشبية، شبيهة بأكشاك الهاتف العمومي، يبدو على المكان من الوهلة الأولى أنه أسوأ بكثير مما كان عليه (كونتيبور إفرست)، خصوصًا مستوى النظافة، فجدرانه الداخلية ملبّدة بالدهون والأوساخ، كتابات خطها النزلاء السابقون على الـجدران الخشبية، تضم أسماءهم، وبلدانهم، وعبارات الحب، والرومانسية، والشعارات المختلفة التي تبين أنها وليدة حالات انتشاء أو حنين.

كان أغلب قاطني المكان من بقايا الهيبيين، أو متعاطي المخدرات الغربيين الذين يأتون من الدول الغربية، ويقيمون هناك فترات طويلة، من أجل تعاطي المخدرات التي يمكن الوصول إليها بسهولة وأثمان رخيصة. في كل غرفة من غرف ذلك النزل سريران مزدوجان، أو أكثر. لا يوجد غير حمام واحد في الطابق كاملاً. يصطف على أبوابه القاطنون والعاملون كلٌّ في انتظار دوره.

جلست على أحد الأسرّة، مرتعبًا، متألمًا من الضرب الذي أُبرحت به. وجلس أمامي كل من السائق شاجي وصديقه گوبال، في حين بقي گيان خارج الغرفة يتحدث مع صاحب المكان، قدّم لنا بعض الطعام، وكان يبدو عليه أنه على اطِّلاع بموضوعي.

أعطاني گوبال كأسًا من الماء؛ لأروي عطشي بعد أن طلبتُ منه ذلك، ثم ناولني قطعة قماش مبللة، طالبًا مني أن أمسح بقع الدماء عن وجهي، وراح يساعدني على ذلك برفق، وهو الموقف الذي رأيت فيه شيئًا من الرحمة، أشعرتني براحة تجاهه، ودفعتني للتعاطي معه وسؤاله: «لماذا تفعلون بي كل هذا، وأنتم تعلمون أنني لا أملك شيئًا؟!». لم أعلم أن الشرير گيان يتنصت على باب الغرفة إلا بعد أن اندفع داخلًا بوجه متشنّج غضبًا. جرّني من السرير، ودفعني مثل كومة قش في كل اتجاه، وهو يصرخ في وجهي قائلًا:

«ألم أطلب منك أن تصمت، وألّا تسأل عن شيء؟ هل تريد أن أبرحك ضربًا وأنهي حياتك في هذه اللحظة؟» كان يصرخ في وجهي بعصبية ترتعد لها عضلات جسمه كله. لم يتركني في حالي إلا بعد أن تقيأتُ، وأخرجتُ ما في جوفي من ماء

وطعام، وبعد أن صرخ گوبال في وجهه طالبًا منه التوقف عن إيذائي.

أفلتني وغادر الغرفة مُغمغمًا ببعض العبارات، لم أفهم منها غير السبّ والشتم. لا أعلم لماذا كان هذا الرجل يعاملني بقسوة دون الآخرين؟ ولماذا هو الأكثر شراسة وتحاملًا ضدي!؟ كما لم أعلم سبب اختطافي حتى ذلك الوقت! لكن بعد مغادرته الغرفة التفت لي رفيقه گوبال الذي بدا منزعجًا من تصرفاته، قائلًا:

«اسمع جيدًا. نحن لا نعلم شيئًا عدا أن علينا إيصالك وتسليمك إلى الرئيس، مع الأمـوال التي تسلمتها ورفيقك العربي، وهي التي لم نتمكن من العثور عليها». ثم أضاف: «لكن أرجو منك أن تتوقف عن تكرار الأسئلة كي لا تأتيك المتاعب من رفيقنا العصبي». عرفت أنه يقصد برفيقي العربي الشيخَ القحطاني الذي كنت أعتقد- حتى ذلك الوقت، بأنهم الجماعة نفسها التي تقف وراء اختطافه. قلت: «لا أعلم أين هو الرفيق العربي. كنت أعتقد أنه موجود لديكم».

رد عليّ بانزعاج واضح: «لو كنّا نعلم بمكانه ما أتعبنا أنفسنا معك، بل إن اختفاءه هو سبب مجيئنا إليك، وخوفًا من أن

تلحقه بالفرار من البلاد، حاملًا معك الأموال التي جمعتماها من الناس».

«أي أمـوال تتحدث عنها سيدي فأنا لا أملك سـوى ما رأيتموه معي، ولا أعلم أين الشيخ وكيف اختفى وتركني في هذه الورطة الكبيرة»، أضفت مدافعًا: «ثم إن الشيخ رجل ثري ليس بحاجة لنهب أمـوال الفقراء، وكيف يكون قد فرَّ خارج البلاد وجواز سفره لا زال موجودًا في مكتب الفندق؟! لا يمكن حدوث ذلك»، ثم تنهدت قائلاً: «يبقى أنه ليس لي علاقة بكل ذلك، كما لا فائدة من احتجازي وأنتم تعلمون أني لا أملك سوى ملابسي التي أحملها معي». عندها كرر كلامه السابق، وأضاف:

«سننقلك إلى مكان بعيد، أكثر أمانًا من هنا، وفيه ستلتقي الرئيس نفسه». عرفت أن قضيتي ستطول، ولن تكون لها نهاية قريبة. أضاف:

«سيطلقون سراحك كي تعود إلى أهلك سالمًا إذا تعاونت معهم، وحصلوا منك على ما يريدونه، والعكس إنْ لم يروا منك أي تعاون». هكذا ختم كلامه، قبل أن يطلب مني أن أخلد إلى النوم، مُحذِّرًا من استغلال غفلتهم، أو محاولة الهرب

قائلًا: «احذر فإن رجالنا ينتشرون في كل مكان من هذا المبنى، وخارجه. لا ترتكب أي حماقة تُسبب لك ولنا المتاعب»

وضعتُ رأسي المثقل على المخدة، وأنا أدير الأسئلة في رأسي: من هؤلاء؟ ومن الرئيس؟ وهل يعقل أنهم لا يعرفون مكان الشيخ؟ إذن أين اختفى الشيخ ومن المسؤول عن ذلك؟ كنت مشوش البال، مضطرب التفكير، أعيد شريط الأحداث إلى أن غفوت، ودخلت في نوم عميق حتى مساء ذلك اليوم، أيقظني الرجل نفسه، وهو يدفع نحوي بعض الخبز والحساء النباتي مع الأرز، ويقول: «انهض وتناول عشاءك سريعًا، لا تترك منه شيئًا كي لا تشعر بالجوع في الطريق، أمامنا درب طويل». أطلَّ گيان من الباب، وهو يقول بنبرة مُستفزة:

«اسمع يا أنت. عليك الاستعداد للرحيل معنا بعد قليل، ولا أريد سماع صوتك أثناء الخروج، ولا حتى صوت تنفسك». ثم أضاف ما لم يكن في الحسبان: «سنضعك في صندوق السيارة بعض الوقت لدواعٍ أمنية، لكنك ستعود إلى مقعد السيارة، بعد أن نجتاز بعض الطرق، والأماكن التي تتطلب منا الحذر».

قال عبارته تلك وخرج، في حين جمدت اللقمة التي كنت آكلها في حلقي. رأيت فيما يقول نهايتي، وقررت ألا أسمح

بإنهاء حياتي بعيدًا عن وطني وأسرتي، بل مقاومتهم قدر الإمكان. حين يتأكد الإنسان أنه مقبل على الموت لا محالة، وأنه لا سبيل لإيقاف ذلك القدر المحتوم، لا يتجاوز طموحه أن يموت في وطنه وبين أفراد أسرته. كنت في حالة من الانكسار والإحباط أن لم يعد لدي طموح أكثر من هذا.

التفتُ إلى گوبال الذي يجلس إلى جانبي، رجوته بالعدول عن الشروع في اقتراف جريمة لن تنفعهم شيئًا، لكنه حاول طمأنتي: «لا تخف. لا يريد أحد قتلك أو إيذاءك، بل وضعنا في صندوق السيارة فراشًا ولحافًا لراحتك، حتى تقي نفسك من البرد، ولا تشعر بالتعب أثناء السير». رغم تبسيطه الأمر لطمأنتي، وجدت في تلك المحاولة تآمرًا للتخلص مني، فأخبرته أنني سأقاوم ذلك بكل ما أملكه من قوة جسد، وصوت، وسأثير الفوضى في اللحظة التي سيشرعون فيها بوضعي داخل الصندوق، غير مبالٍ بما سيترتب عن ذلك من ردود أفعال.

وكان واضحًا أن تهديداتي قد أقلقتهم، انخرطوا في جدال لم أفهم تفاصيله، قبل أن يكملوا نقاشهم خارج الغرفة، عاد گوبال بعدها ليخبرني إنهم غيّروا خطتهم، وسينقلونني معهم بصورة طبيعية على مقاعد السيارة، وحذرني ألّا أحاول الهرب

أثناء ذلك، وهو ما أكدت حصوله في جميع الأحوال. طمأنني هذا قليلًا، ولو أنني بقيت مشككًا في صدق نواياهم، بعد أن سمعتهم يتهامسون خارج الغرفة.

قبل اقتيادي إلى السيارة، طلب مني دخول الحمام وقضاء حاجتي، قبل أن نتحرك ولا يتسنى لهم الوقوف كثيرًا. في الحمام وبينما أغسل وجهي، صدمت من الحالة المزرية والكدمات التي كان عليها. رحت أتفحّص وجهي، وأزيل بقع الدم اليابسة بحذر وأنا انتحب مما وصل إليه حالي، لكني استعجلت الخروج بسبب ضرب گوبال المتواصل على الباب.

في الغرفة جلس الرجال الثلاثة يتحدثون بلغتهم المشفرة دون أن أفهم شيئًا. قبل خروجنا جاء أحد العمال يحمل صينية فوقها أربعة أكواب من شاي الكرك، أعطى كل واحد منا نصيبه من الشاي الساخن. ما إنْ أنهيت كأسي حتى أحسست بأن ما تبقى من مذاق في فمي لم يكن طبيعيًا، شعرت بثقل عام في جسمي ونعاس يفرض نفسه عليّ وشيء ثقيل يربط لساني ويفقده القدرة على النطق والكلام، أمسيت جامدًا لا أستطيع الحراك من المكان.

كنت قد لاحظت أمورًا عندما أحضر العامل الشاي، لكني

لم أستوعبهما في حينها، كان الكوب الخاص بي مختلفًا عن الآخرين، والشاي فاترًا، على غير ما جرت عليه العادة في تلك البلاد، يُحرص على تقديمه ساخناً. وقد حرص الثلاثة أن أحتسي كأسي كاملًا وبسرعة.

هكذا وقعتُ في الفخ، كل ما أتذكره من تلك اللحظات، هي عباراتهم الساخرة التي راحوا يتبادلونها، بعد أن بدوت أمامهم ثملًا، وسؤال الشرير گيان ساخرًا: «ألا تريد أن ننقلك في طائرة خاصة؟». فقدت حينها القدرة على الحركة والكلام تمامًا، وغطَّت عيناي في ظلام دامس، منهيًا بذلك فصلًا من فصول محنتي، ولأبدأ فصلًا آخر من الرحلة الأخطر في حياتي!

16
رحلة العتمة

مضى وقت وجسدي يتأرجح لا إراديًا كطفل رضيع على سرير هزاز وسط هدير محرك السيارة المتواصل، تصدّع رأسي حتى كاد ينفجر من شدّة الألم. أشم رائحة خانقة لا أعلم إنْ كانت رائحة بنزين، أو أدخنة عوادم السيارات، أو خليطًا من الاثنين. كذلك رائحة القيء على ملابسي، تصيبني بلوعة وغثيان وصعوبة في التنفس.

لم أعِ بادئ الأمر مصدر تلك الروائح المنفرة، ولا الوضع المزعجِ غير الطبيعي الذي كان عليه جسمي، بقدر ما أشعرُ بالبرد الشديد، والقشعريرة في جسمي، حتى راحت أسناني تصطك ببعضها البعض، وزاد من أثر البرد رطوبةُ سروالي، والجزء السفلي من قميصي الذي أدركت أنه غارق نتيجة تبولي اللاإرادي. ولم أدرك سبب كل ذلك، فقد كنت أصارع كي أفتح عينَيَّ، وأخرج من سُباتي، إلا أن النعاس كان يغلبني، ويعيدني إلى غيبوبتي.

هكذا مر وقت من الزمان، وأنا بهذا الحال، لا أعلم إنْ كانت

مشاعري تعبر عن حقيقة قائمة، أم أنها أضغاث أحلام فرضتها الحالة النفسية التي أمر بها، وهي بعيدة عن الواقع. رحت أسأل نفسي: ماذا يحصل لي؟ ومن أين يتسرب لي هذا الهواء البارد؟ ولماذا أنا في هذه العتمة التي لا أرى فيها شيئًا؟ وكيف يتراقص جسمي دون قدرة على التحكم فيه، وأنا نائم هكذا!؟ وبشكل تدريجي صرت أستعيد وعيي، وأتخلص من خدري لأستوعب حقيقةَ أنني مُحتجز في صندوق السيارة، دون أن أعلم: منذ متى وحتّى متّى. وأدركت أني غارقٌ في مستنقع من البول والقيء نتيجة جرعة المنوّم الثقيلة في كوب الشاي، لكن المهم أنني ما أزال على قيد الحياة.

لم أستطِع الحركة، لا بسبب جرعة المنوم فقط، بل لضيق المكان، كلما حاولت رفع رأسي أو تحريك جسدي، ارتطمتُ بجهة ما من هيكل الصندوق. حاولت مناداة الجالسين داخل السيارة، كلما رفعت صوتي، خرج على شكل بحة ثقيلة وهمهمات لا يسمعها أحد، يطغى عليها صوت محرك السيارة المزعج، يئن تارة ويصيح تعبًا كلما صعدت السيارة مرتفعًا أو هبطت.

رغم كل ذلك، غططتُ في النوم بين فينة وأخرى، مستسلمًا

لنعاس المخدر الذي لم أتخلص منه تمامًا، إلا بعد يوم أو يومين. وبينما نسير شعرت بانعطاف السيارة إلى طريق آخر أكثر وعورة، مليء بالمطبات التي زادت من خضخضة جسمي كالجرة التي يُصنع فيها اللبن. وبعد وقت قصير ومشقة كبيرة، توقفت السيارة من أجل الاستراحة.

فتح السائق شاجي باب الصندوق قائلًا: «هيا اخرج وتناول بعض الطعام. لقد نمت بما فيه الكفاية. كل مرة نفتح فيها الصندوق نراك نائمًا!». وجدت نفسي مستلقيًا مكاني أنظر إلى خارج لا تختلف عتمته عن الداخل، عدا أنه برِّية أوسع، وهواء أنقى، وفضاء آخر غير فضائي داخل الصندوق. عتمة حجبتْ فيها كثافة الغيوم، السماء والقمر والنجوم، حتى لم يعد هناك خيط نور، عدا مصباح السيارة، والمصباح اليدوي الذي يحمله شاجي في يده.

لم أقوَ على رفع جسدي إلا بمساعدة شاجي. رميت ثقلي كله عليه، ثم سحبني من ذلك القبو الكريه. لم تكن أطرافي قادرة على حمل جسدي، ولا الخروج دون مساعدة. كانت عظامي قد تيبست، وعضلاتي ارتخت، ولا علم بالوقت الذي قضيته نائمًا داخل الصندوق.

ألقيت نظرة داخل الصندوق، مستفيدًا من نور المصباح اليدوي، ولمحت الفرش العتيق ذا البطانة الممزقة الذي كان حاضنتي، واللحاف المهترئ تحت قدمي، من دون أن أعي وجوده عندما كنت في حاجة إليه. رأيت بقايا ما تقيأته من فضلات على الفراش، سبب الروائح العفنة لملابسي. شعرت بالاشمئزاز مما أنا فيه. تذكّرت الكلب العبقري الذي أهانني ذات عرض أمام الناس وجعلني أضحوكتهم وسخريتهم، عندما اختارني لأكون الأوسخ والأقذر بينهم، ماذا لو رآني الآن بهذه الحالة؟ أين سيضعني؟ الفرق أنه كان حينها مفتريًا، أما الآن فأنا في الحالة التي بحث عنها.

كان الظلام حالكًا، لا وميض لمكان قريب أو بعيد يمكنني رصده، الرطوبة هبطت إلى مستويات دنيا، وانتشر الضباب في كل مكان. حجب الصورة كلها بحيث لا يمكن رؤية شيء غير السيارة القديمة التي كنت ضيفًا في صندوقها، وأضوائها الخافتة التي بقيت مفتوحة تنير لنا المكان. حاولت استعادة توازني مقاومًا خدر جسدي، أسندته إلى السيارة، ثم أخذت أنظر حولي، أرصد بعيني وذاكرتي كل ما يمكنهما حفظه من كارثتي.

ناولني گوبال كيس طعام فيه رغيفان وقطعتان من الموز، وهو أشد ما كنت في حاجة إليه من شدة الجوع. تناولته سريعًا والتهمته بشراهة، تعجبت، لماذا أتضور جوعًا، وأنا للتو تناولت طعام العشاء في الغرفة قبل أن يقوموا بتنويمي. سألتهم عن الوقت الذي قضيته داخل الصندوق. رد شاجي قائلًا:

«قضيت اثنتي عشرة ساعة وأنت مرتاح في نومك. أي منذ ليلة أمس بعد تناولك العشاء.» نظرتُ له لا أدري ما أقول، أو كيف أتعامل مع تعليقه الساخر الذي يحاول فيه تبسيط المأساة التي أعيشها بسببهم، والظروف الصعبة التي أعانيها، إلا أنني فضلت تجنب إثارتهم، وخصوصًا ذاك الشرير منهم. سألت گوبال:

«ألم تخشوا موتي اختناقًا في هذا القبر الذي وضعتموني فيه؟»

«نعلم أنك لن تموت اختناقًا، هناك تهوية كافية تأتيك من ثقوب في جدار الصندوق. لا شيء سيحصل لك عدا قليل من التعب». هنا قفز الشرير گيان صارخًا في وجهي، محتجًا على سؤالي: «موعد قتلك لم يحن بعد، لكنه قريب». أجبتهُ غير خائف، وأنا تحت أثر بقايا المخدر قائلًا: «لكن ما الفائدة التي

ستجنيها وراء ذلك؟»، وهنا تدخل گوبال محاولًا تصحيح الفهم:

«قتلك ليس هدفًا لنا، إنما الوصول للحقيقة، والأموال التي جمعتماها من العمال أنت ورفيقك العربي، وهذا يتطلب تعاونك مع الرئيس بعد وصولك قرية سورو».

«أين هذه القرية؟ ومن الرئيس الذي تتحدثون عنه؟»

«هو الذي طلب إحضارك، ليلتقيك في القرية بعيدًا عن الأنظار»

تكرر اسم الرئيس عدة مرات حتى صرت أعتقد أنه قائد عصابة منظمة، أو جماعة إجرامية تقوم باختطاف الناس لابتزازهم، ونهب أموالهم.

تركتهم يتناولون الطعام، وتنحيت جانبًا على بعد أمتار، متسترًا بظلام الليل الحالك والضباب الكثيف، كي أقضي حاجتي. أثناء ذلك صاح بي گوبال مناديًا، وفي يده إبريق الشاي قائلًا:

«هيا. تعال اشرب قليلاً من الشاي، والحليب الساخن لتحصل على بعض الدفء قبل مواصلة دربنا. لم يبق الكثير حتى نصل إلى المحطة».

«أي محطة، وقد تحدثتم عن قرية سورو، وملاقاة الرئيس هناك؟!»

«لا عليك من هذا الآن، ستعرف كل شيء في حينه، لكن تعال واشرب بعض الشاي».

«لا. شكرًا ليس هذه المرة. سأمضي إلى الصندوق طواعية دون شيء».

«لسنا في حاجة إلى تخديرك، وخصوصًا أننا خرجنا من دائرة الخطر، وبتنا قريبين من هدفنا».

طمأنتني مشاهدتهم يشربون من الإبريق ذاتـه. عانقتُ الكوب الساخن براحة يدي، لعل حرارته تخفف برودة جسدي الذي أمسى ضحية لسعات البرد القارس، لم أعهد مثله في حياتي. رحت أرتشفه ببطء متأملًا الضباب حولي، وأنا أفكر في أهلي، وأتخيل كيف سيكون حالهم لو عرفوا ما يجري لي، وأنا في هذه البرية النائية من العالم!؟ مقابل ذلك رحت أتخيل كيف تقضي عائلتي الآن وقتها هذا، محاولًا أن أكون معهم ولو في مخيلتي. اعتراني شوق شديد لهم وحاجة ماسّة أن يكونوا بقربي. اللحظات العصيبة تعرّف الإنسان قَدْرَ الأسرة ومعناها في حياته. ناشدت ربي أن لا يُنهي حياتي في هذه الأرض، بعيدًا عن أهلي.

فجأة سمعت من ينادي بصوت عالٍ: «هيا اصعد مكانك في السيارة، وأكمل أحلامك». بهذه الجملة قطع الشرير گيان خيالي، قبل أن يكمل قوله المزعج:

«تأكد أن تقضي حاجتك خارج السيارة، قبل أن تعود وتواصل نومك».

« عن أي نوم تتحدث؟ أقحمتموني في مصيبة لا علم لي بأولها من آخرها، لكني صاعدٌ طواعية، أعلم بأنني سألقى مصيري عاجلًا أم آجلًا، وإنْ لم يكن على يدك فسيكون اختناقًا برائحة البنزين، ودخان عادم السيارة داخل الصندوق».

سدّ شاجي بعض الثغرات الصغيرة التي صنعها الزمن في هيكل الصندوق، مستخدماً قطع صغيرة من القماش، وهي فتحات قريبة من عادم السيارة، تتسرب منها رائحة الدخان التي أثقلت تنفسي. ثم أعطاني لحافًا إضافيًا أحمي به جسدي من البرد، وطلب مني أن أطرق هيكل الصندوق متى ما احتجت لقضاء حاجتي مرة أخرى.

كان كل من شاجي وگوبال، قد ارتأيا عدم ضرورة بقائي داخل الصندوق، بعد أن تجاوزوا منطقة الخطر، لكن إصرار الشرير المتحامل گيان فرض قراره عليهما. من الواضح أن

هذا الرجل يستمتع بإيذائي جسديًا ونفسيًا، كمن له ثأر عندي. وكان واضحًا تجنب الرفيقين الدخول في جدال معه، رغم انزعاجهما من تصرفاته الرعناء، وأوامره الاستبدادية.

دخلت طواعية هذه المرة من دون خوف على نفسي، وهي شجاعة ربما نابعة من نشوة المخدر الذي لا زال أثره باقيًا، أو من خشيتي من ردود أفعال الشرير أيضًا. انزويت في قبري، ضامًا أطرافي مع بعضها بعضًا، ومخفيًا إياها تحت جسدي مثل سرطان البحر الخامل، ليعود جسدي إلى الرقص على إيقاعات المطبات، كالميت في تابوته، تتراقص به أيدي حامليه! ندبت حظي العاثر الذي جاء بي زائرًا إلى هذه البلاد، ومواجهة هذا البلاء، وظللت أنتحب بصمت مع نفسي. كنت أتخيل أفراد أسرتي يبحثون عني في كل مكان، ويتقصّون أخباري، إلى جانب كل الأصدقاء، والجهات، ولم أكن أعلم وقتها أن هذا بالفعل ما كان يحدث على أرض الواقع.

أكثر ما ندمت عليه في حياتي، هو سفري إلى النيبال دون أن أطلع أحدًا، ندمت أيضًا أني لم أترك رقم هاتف عائلتي عند ماريا عندما طلبته مني، كان يمكنها التواصل مع أبي أو أخي الأكبر على أقل تقدير. لا أعلم كيف سيتصرف أهلي وهم غير

مدركين أين أنا. ولا أعلم ماذا ستفعل ماريا عندما تدرك أني اُختُطِفتُ من مكاني، وهل أبلغت الشرطة أم لا.

أشرقتْ شمس الصباح، وطلع نورها مخترقًا ثقوب الصندوق. صار مثل أشعة ساطعة تضيء المكان، مثل كشافات المسرح تُسلَّط على أبطالها تلاحقهم أينما ذهبوا.

توقفت السيارة، تُركتُ برهة من الوقت في الصندوق، وعرفت أنهم يقومون بمسح المكان للتأكد من عدم وجود غرباء، قبل إخراجي من السيارة، ثم فُتح الباب، وطُلب مني النزول بعجالة لكي لا يلتفت لي أي من القرويين القاطنين هناك. بصعوبة شديدة حاولت الوقوف على رجليّ المتنملتين، فتحت عينيّ أمام صدمة نور الصباح، مغّطت جسدي المتخشب، شددت أطرافي كالطفل المستيقظ من نومه، وتلفَّتُّ برأسي متفحصًا المكان بكل تفاصيله، قاصدًا رصد أو اقتناص أي مشهد يمكن أن أحتفظ به في مخيلتي. غادرنا السيارة ومشينا راجلين، على بعد مائتي متر تقريبًا، دخلنا كوخًا حجريًا تقليديًا صغيرًا.

قرية فقيرة وصغيرة، يمكن مشاهدة بيوتها مصفوفة على المنحدر الجبلي مثل عتبات درج، تنحدر إلى أسفل الوادي

المحاط بالجبال. جبال تكسو قممها الثلوج الناصعة البياض، تزداد بياضًا وبريقًا كلما انعكست أشعة الشمس عليها. تضم القرية مجموعة من البيوت، والأكـواخ التقليدية المتفرقة، والبعيدة نسبيًا عن بعضها، مثل معظم قرى الجبال هناك. مشيدة من الأحجار الجبلية المصفوفة، والملتصقة بعضها ببعض كألعاب الليغو. بعضها مغطى بحزم مترابطة من القش النهري، وسيقان الخيزران المشدودة، وبعضها ذات أسقف من الألواح المعدنية، تقي البيوت من الأمطار.

ترتفع الأكواخ قليلًا عن مستوى الأرض تفاديًا لانجراف المياه، وسيول الأمطار المنحدرة من الأعالي في مواسم الأمطار، أو تلك الناتجة عن ذوبان الثلوج، وسيلانها إلى قعر الوادي؛ حيث القنوات المائية المتفرعة من أنهار أكبر منها. لكن ما لفت نظري عند وصولنا هو غياب شباب القرية ورجالها، لم أر غير طاعنين في السن وأطفال ونساء، رأيت بعضهنَّ يحملْنَ الأعلاف ويطعمن الماشية؛ أغنام جبلية، وبقرتين بضرعين كبيرين، جلست امرأة تحلب واحدة منها، فيما تحمل طفلها النائم في كيس قماشي خلف ظهرها، كان الأطفال يلعبون ويمرحون في تلك الأجواء الماطرة، وأدوات لعبهم لا تتعدى

أن تكون قطعًا من حجارة بركانية صغيرة، ملساء شبه دائرية، يرمونها هنا وهناك.

عند مشاهدتهم لنا لوّحوا بأيديهم، مرحبين من بعيد، وكأنهم اعتادوا رؤية الغرباء في قريتهم الصغيرة. من بعيد، ترعى الأغنام على المنحدرات صعودًا ونزولًا، وبحرية ما كنت أمتلكها في ذاك الوقت! سحرني هذا الفضاء الأخضر، طبيعة ربانية خلابة، من أجمل ما رأيت في حياتي رغم بساطتها، كنت سأستمتع بهذا كله لو لم أكن فيما أنا عليه من حال.

يقع الكوخ منعزلًا قليلا عن بقية الأكواخ، شيّد من الحجر الجبلي، وغطّي بالصفائح المعدنية الصدِئة، يقف على مجموعة من الأعمدة الخشبية ترفعه عن مستوى الأرض. قريبًا منه زريبة كبيرة، خالية إلا من بغلين مربوطين إلى الأرض، يبدو أنهما يعانيان من إصابة أفقدتهما القدرة على السير والعمل.

في الجانب الآخر من الكوخ، بعض النسوة يطهين الطعام بأواني طبخ معدنية، غيب الأسـود هويتها ولونها الأصلي، وضعنها على أقـراص روث الأبقار المجففة، والمشتعلة كالجمر، والمحاطة بالأحجار المسندة إلى جـوار بعضها بعضًا، لحماية النار المشتعلة من الرياح وزخـات المطر.

تستعمل أقراص روث الأبقار، والجواميس، المجففة كوقود بكثرة، في القرى النيبالية والهندية، خصوصًا في الطهي؛ نظرًا لرخص ثمنها، رغم ما تسببه من انبعاث الغازات السامة أثناء عملية الحرق.

ومنذ الوهلة الأولى يمكن إدراك أن حياتهم كانت بدائية، بعيدة عن المدنية. يعتمد الناس على ما تنتجه الطبيعة من خيرات، أو ما تخلفه من فضلات. ولا يوجد شبكة كهرباء أو ماء، ولا صرف صحي كما هو الحال في معظم البلاد.

دخلتُ الكوخ الخالي من الناس، وجلست على مرتَبة ملقاة على الأرض. الظاهر أنها للنوم والجلوس معًا. ثمّ رحت أعاين المكان الذي بدا وكأنه محلٌ يتردد عليه الناس، أو يتجمعون فيه، نظرًا لكثرة المرتبات المطوية المسندة على الحائط.

تناولت إبريق الماء الموجود على رف النافذة الخشبية، سكبتُ لنفسي في إناء، وشربت منه سريعًا لأروي ظمئي، غير مبالٍ إلى لونه العكر، ولا طعمه المختلف، ولا حتى بقايا الطين المترسبة في قعره.

ظهر ذلك اليوم، بعد ساعتين من وصولنا القرية التي عرفت أن اسمها (رابتي)، علمت أن شاجي وگوبال قد غادرا القرية

خلسة، دون أن يُطلعاني على ذلك، وهما الأقل خطورة. وجدت نفسي وحيدًا مع ذلك الشرير العصبي الذي يتحين بي الفرص لينقضَّ عليّ، فشعرت بالصدمة وزاد خوفي.

حدث ما كنت أخشاه حين دخل الشرير الكوخ ظهرًا، مُستغلًا غياب رفيقيه، جلس القرفصاء أمامي، وهو يرمقني عن قرب، بنظرات مليئة بالحقد والكراهية، وفي محاولة مني لترطيب العلاقة وثنيهِ عن أي عمل متهور يمكن أن يُقدم عليه؛ قدمتُ له كأسًا من الماء: «تفضل الماء سيدي». إلا أنه استمر يحدّق في عيني، متجاهلًا دعوتي، لم أعرف كيف أتعامل معه أو أخفّف من حنقه، رحت أكرر قولي محاولًا دفعه للحديث، عوضًا عن ذلك الصمت المخيف:

«أقسم لك أنني لا أملك شيئًا يستحق العناء الذي تكبدتموه، ولا العذاب الذي أذقتموني إياه، لقد أخذتم الشخص الخطأ، ولا شك أنكم ستعلمون ذلك عاجلًا أم آجلًا». من الواضح أن كلماتي استفزته أكثر، بدلًا من أن تحظى بتعاطفه. ومرة أخرى رأيت عضلات وجهه ترتعد غضبًا أمامي، وهو في حالة عصبية كالتي سبق أن رأيته عليها، وراح يصيح في وجهي، ويصرخ قائلًا:

«إنك لص ونصاب، لكنك تتظاهر بالبراءة أمام الجميع، وتُمثل دور المسكين الذي لا يعلم شيئًا، إلا أنني لست مغفلًا لآخذ بهرائك هذا، والرسالة الأخيرة لك هي إمَّا أن تخبرني أين وضعت الأموال، أو أنهي حياتك اليوم». جلست أصغي إلى تهديداته التي بدت أكثر جدية، بعد مغادرة صاحبيه المكان، ورحت أخاطبه متوسلًا مرة تلو الأخرى، مكررًا العبارات نفسها:

«أقسم أنني لم أسرق، أو أشترك في سرقة أحد، والشيخ العربي الذي اختفى لم يكن صديقي، إنما تعرفت إليه قبل بضعة أيام فقط من اختفائه». لم يتركني أكمل عبارتي حتى شد شعري بقسوة، وصفعني على وجهي مرتين، قبل أن يرميني أرضًا، ويصرخ في وجهي قائلًا:

«يا لص، وإلى وقت قصير كنتَ معه تزعمان أنكما رفيقان تعملان مع بعضكما البعض، والآن تتنصل من كل ذلك؟». ختم كلامه بركلة على صدري، قبل أن يتركني مرميًا على الأرض، أتلوى وجعًا، وأكاد أفقد قدرتي على التنفس، ثم غادر المكان مغمغمًا مع نفسه بكلمات التهديد والوعيد.

مساءً، وبينما أنا مُلقى على مرتبة الجلوس في حالة نفسية

رديئة، وشعور باليأس، دخل أحد أطفال القرية يناديني ملوحًا بيده، وطالبًا مني اللحاق به إلى الخارج، وكان واضحًا أنه مُبتعث لي من قبل أحد. اتبعته. كانت السماء ممطرة، والرؤية شبه منعدمة جراء المطر والضباب، على بعد خطوات من الكوخ أشار الطفل باتجاه بقعة فضاء بها رجل قد أمسك معولاً بيديه، وراح يحفر الأرض، يزيل التراب من الحفرة بجاروفِه، ويضعه جانبًا. اقتربت منه لأجد أن الشخص هو گيان نفسه، كان يتحدث مع نفسه في حالة عصبية غير طبيعية، وهو منهمك بحفر الأرض، بجانب المنحدر الذي تطل عليه القرية. كان ذلك كافيًا ليثير عندي حالة الرعب مرة أخرى، خصوصًا مع نظرات الحنق والغضب على وجه هذا المعتوه. عاد الطفل إلى بيته، ووقفتُ صامتًا أنظر يمينًا ويسارًا، لعل هناك من البشر من يسعفني، أو يشغل هذا الشيطان الأشر عني، لكن دون جدوى! نظرت إليه مترقبًا سماع ما استدعاني من أجله؛ حتى صاح في وجهي بصرخة مدوية، سمعتُ أصداءها تتكرر في الوادي المحاط بالجبال:

«ما بالك واقف كالصنم تنظر لي هكذا؟ انزل معي يا لص واحفر». وبـدون أن أنبس ببنت شفة تناولتُ الجاروف من

الأرض، ونزلت معه أساعده في عملية الحفر، وإزالة التراب، ورميه خارج الحفرة. ولا أعلم ماذا كان يفعل هذا الشيطان؟! أو لماذا يحفر الأرض؟ أو لماذا استدعاني لمساعدته، ونحن في علاقة سيئة!؟ لكنني عملت على مساعدته بصمت، وبقواي الجسدية كلها من أجل أن أتقي شره، أو لعل ذلك يُحسّن من معاملته لي، أو يكفه عن إيذائي، وعلى الأقل هذا ما كنت أتمناه، لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه!

توقف گيان فجأة عن حفر الأرض، واتكأ على المعول الذي يستعمله، وكمن أراد قول شيء مهم أو خطير، في حين واصلت عملي متجاهلًا نظراته المخيفة التي تلاحق كل تحركاتي، بصورة لا أستطيع تجاهلها، رغم تصنعي الانشغال عنه. وفجأة طلب مني التوقف قائلًا:

«اسمع يا هذا، ستكون هذه اللحظة فرصتك الأخيرة لتنجو بنفسك إنْ أردت الحياة، فقد صدر لي الأمر بالتخلص منك، قبل حلول الظلام، إنْ لم أصل معك إلى نتيجة». كنت حينها قد وصلت لمرحلة أيقنت فيها أن لا خلاص لي، وأن صفحة حياتي أوشكت على الطيّ. رحت أحاول ربما للمرة الأخيرة تهدئته، وأنا في غمرة وهني واستسلامي، مكررًا القول نفسه:

«لقد كنت صادقًا ومتعاونًا معكم، وأخبرتكم بحقيقة أنني لا أملك شيئًا عدا ما رأيتموه عندي، كما أنني لستُ لصًا، ولا محتالًا كما تناديني». كان واضحًا أن حديثي لم يعد ذا أهمية عنده، كما لم أتمكن من كسب تعاطفه، حتى رحت أوجه له طلبًا أخيرًا يعبر عن أمنية أخيرة كانت عندي، ووددت لو أحققها فيما تبقى لي من وقت، وتعبر عن حالة الاستسلام، التي وصلت إليها قائلًا:

«هل يمكن أن تمنحني فرصة أخيرة لأتحدث مع أمي، وأودعها مع بقية أفراد أسرتي، هذا كل ما أرجوه الآن». لكنه استمر في تجاهل مناشدتي، وعوضًا عن التعاطي معها، أخرج حبلًا بلاستيكيًا من جيبه، صارخًا في وجهي، وطالبًا مني الركوع، ووضع يدي خلف ظهري، وهمّ بتقييدي قائلًا:

«هذا الهراء لا يفيدك بشيء، والحديث معك لا يجدي نفعًا، كما لا يبدو أنك استوعبت الدرس، أو عرفت مدى جديتي!». ثم أضاف العبارة التي احتجت لحظات لأستوعبها: «اليوم ستعي أن تهديدي لك ليس مزاحًا، بعد أن أرمي جثتك في قبرك هذا». كان يقول ذلك، ويشير للحفرة التي عملتُ معه على تهيئتها، ومكررًا القول نفسه: «سيكون مأواك هذه الحفرة،

وهذه البرية، ومن بعدها ليبحث أهلك عنك في كل مكان».

نزلت كلماته كالصاعقة، وأحسست بصفعة مدوّية، هذا الشرير جعلني أحفر قبري بيدي، دون علم ولا دراية مني! وفجأة أصبتُ بحالة من الجنون، ورحت أصرخ في وجهه بحالة هستيرية، غير مبالٍ بما ستكون عليه ردة فعله. أخذت أرميه بالشتائم، وأسوأ الكلام بشكل لا شعوري، وبصوت يـدوي المكان، تمامًا كالمجنون الـذي فقد الـقـدرة على استيعاب كل شيء حوله، حتى رحت أسمع صدى صوتي في الوادي الذي تقع القرية على أحد منحدراته. وبينما كنت في هذه الحالة الجنونية، وجدت تبدلًا في سلوك الشرير، وتراجعًا حادًا في اندفاعه، حتى تحول غضبه إلى حالة من الخوف جراء تصاعد ردة فعلي التي لم يكن يتوقعها، أو يحسب لها حسابًا، كما لم أتوقعها أنا نفسي كلما استرجعت ذلك الحدث من مخزون الذكريات.

فجأة، وبمظهر المتصنع الواضح صرخ في وجهي، وهو يتراجع عني، قبل أن ينسحب من المكان قائلًا: «أخرِس صوتك يا أحمق، ولا تُفزع به أهل القرية. سأتركك الآن، لكنني سألقنك درسًا لاحقًا». قال هذا وهو يغادر المكان مسرعًا،

وتركني ممددًا على الأرض، تحت حبيبات المطر، وفي حالة نفسية سيئة، لا أعي ما كنت أردد من كلمات مع نفسي، ولا مستوعبًا كيف تغير سلوك ذلك الرجل، أو ما كان يجري!

17
رجال الجبال

بعد ما يقارب ساعة على انسحابه المفاجئ؛ كنت لا أزال مرميًا على الأرض تحت الأمطار، حين رأيت بعض أطفال القرية يتجمعون حولي، مستغربين حالتي البائسة، وهم يحاولون مساعدتي على الوقوف، أعطاني أحدهم رغيفًا، معتقدًا أنني مريض أو جائع، وآخر يتحدث معي ليواسيني، ويسألني بكلمات لا أفهمها. وقد أضفى وجودهم على نفسي حالة من الاطمئنان والسلام الداخليين، وحينها أدركت أن الزمان لم ينتهِ عند ذلك القبر، وأنَّ نهاية عالمي لم تحنْ بعد، بل هناك زمن أطول سأعيشه. نهضت والأطفال من حولي، ثم رجعت أدراجي إلى الكوخ بصحبتهم حتى الباب. وهناك في الكوخ جلست منزويًا مع نفسي، حتى خيم الليل بظلامه الحالك، وهدوئه الذي لا يكسره سوى صوت حبيبات المطر، وهي تتساقط على سقفه المعدني.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت على أصوات بعض الرجال يتحدثون خارجًا، وعرفت من أصواتهم؛ أنهم الرفاق

الثلاثة، وقد انضموا مرة أخرى مع بعضهم البعض، أي أن الرفيقين السائق شاجي وكوبال قد عادا في ساعات الفجر الأولـى، في حين اعتقدت أنهما تركاني مع الشيطان گيان ليتخلص مني، أو أنهما لن يعودا مرة أخرى.

علمت أنهما كانا ذاهبَين ليحضرا مؤونة طعام تكفينا لبعض الوقت، وهو ما طمأنني أن الأمـور ليست بالسوداوية التي حاول أن يقنعني بها الشرير يوم أمس، وأنه لن يعاود الاعتداء عليّ بالضرب في ظل وجودهما، وقد قررتُ أن أخبرهما بما حصل بعد رحيلهما عن القرية.

وعند منتصف نهار اليوم الثاني، بدأتُ أسمع أصواتًا غريبة في الخارج، تقترب تدريجيًا من الكوخ مُحدثة جلبة، اختلطت فيها أصوات رجال ونساء وأطفال وحيوانات وأجراس معلقة على رقابها، لم أعلم إنْ كان أصحاب هذه الجلبة قادمون للقرية، أو أنهم مجرد عابري سبيل، حتى سمعتهم يُحيون بعضهم بعضًا بنبرة سعيدة عالية، وليتحول ذلك النهار الهادئ إلى سوق يمارس فيه الجميع أنشطتهم، وأعمالهم، وهو الاستنتاج الذي خطر ببالي جراء الفوضى التي عمت المكان.

نهضت من مكاني؛ كي أعرف ما يجري خارجًا، وإنْ كان

لتلك الجلبة علاقة بوجودي في هذه القرية أم لا!؟ وبحذر شديد فتحت باب الكوخ لأطل برأسي، وأعاين القادمين. وبعد مسحة استقصائية سريعة، استغرقتْ مني لحظات فقط، سمعت صرخة مدوية أطلقها الشرير الذي كان واقفًا إلى جانب الباب، ولمحني أطل منه.

«أَدخل رأسك سريعًا، وإلا رميته بحجر». عدت أدراجي مرعوبًا، ورميتُ جسدي على المرتبة، وغطيته باللحاف كنعامة تخفي رأسها في التراب، معتقدة أنه سيحميها من الخطر الذي يهددها.

لكن من خلال تلك المعاينة المستعجلة، رأيت مجموعة من الرجال يترجلون من على ظهور بغالهم، ويربطونها في مكان ما بالزريبة المجاورة للكوخ، وآخرين يُنزلون الأحمال من على ظهور الحيوانات، ويركنونها جانبًا من الطريق. كما رصدتُ بعض النساء، وهن يحملن الأعلاف، ويطعمن بها الحيوانات من: الحمير، والبغال، وبعض ثيران الياك الجبلية التي أراها لأول مرة في حياتي، وهي نوع من الماشية المشعرة التي تشبه الثور البري الأمريكي، وتعيش في مناطق الهملايا الجبلية، وتُستعمل لنقل البضائع والحمولات الثقيلة؛ نظرًا لقدرتها على تحمل الأعباء، والسير في الطرق الوعرة بين الجبال.

اشترك جميع أطفال ونساء القرية، في إنزال الأحمال من على ظهور الحيوانات التي يقودها شباب القرية، كان المكان خاليًا منهم عند قدومنا، ولم أكن أعلم بوضوح ما يجري أو من أين قدِم هؤلاء الشباب، إلا بعد الحديث مع الرجل القروي صاحب الكوخ.

بينما كنت متصنعًا النوم على المرتبة داخل الكوخ، دخل أحد هؤلاء الرعاة القادمين مع القافلة، وهو يغني ألحانًا وأغاني محلية، وبصوت عال أراد فيه لفت نظري لوجوده. كان شابًا قوي البنية، قصير القامة، يشبه أبناء التبت، ذوي السلالات المغولية، فلم أكد أرى أين اختفت عينه لصغرها. راح ينظر لي وهو يُنزل من على ظهره كيسًا قماشيًا من الخيش، ويطرحه أرضًا في أحد أركان المكان، ثم خاطبني بالهندية ملاطفًا، وهو يقول:

«أعلم أنك لست نائمًا. هيا شاركني الطعام، فلا يمكن أن تكون في بيتي، ولا تتناول معي الطعام». قال هذا وهو يخرج بعض الطعام المتواضع من كيسه القماشي، ويفرشه على سجادٍ أرضي رماه على الأرض. ومنذ الوهلة الأولى بدا هذا الرجل شخصًا بسيطًا كأي أبناء الريف المعروفين بالطيبة

والبساطة، ولم يبد عليه أنه يعلم أي شيء عن قصة اختطافي، كما لم أبادر بإطْلاعه على أي شيء حول ذلك، عدا أنني كنت قادمًا من الهند. لكن ومن خلال نبرة صوته المفعمة بالنشاط، وحديثه الودي البسيط والسريع استطاع تغيير مزاجي، وتبديد مشاعر الإحباط والخوف. جلست معه تلبية لدعوته، مدفوعًا بالطمأنينة والأمان اللذين صنعهما وجوده في المكان. راح يتناول الطعام، ويناولني بعضًا منه، وكأنه يعرفني منذ زمن طويل، ثم أخذ يتحدث في أمور كثيرة حول القرية، معتقدًا أنني عارفٌ بكل شيء. وقد اغتنمت الفرصة؛ لأطرح بعض الأسئلة محاولًا استنطاقه بما أرغب في معرفته.

قلت: «في الواقع لم أعلم أنه بيتك في بادئ الأمر، لكن لماذا كان خاليًا من أي أحد؟ وما هو عملك؟»

« نعم هذا بيتي. أعلم أنه ليس بالمستوى الذي تبدو عليه بيوتكم أنت وأهل المدينة، لكنه مكان إقامتي، ومقر عملي، ومحطة ينتظر فيها المسافرون الذين يودون السفر معنا». ثم أضاف متحدثًا عن عمله: «قضيت معظم حياتي مسافرًا في البراري، عابرًا الجبال والوديان، ناقلًا أحمالًا ومسافرينَ وأمتعةً من مكان إلى آخر، ثم أعود إلى هنا مرة كل يوم أو

يومين، أو أكثر لقسط من الراحة، وهذا هو مصدر رزقي الذي أعيش وأسرتي عليه». شجعتني بساطة هذا الراعي وعفويته؛ على التفاعل معه، وسؤاله حول حياته:

«وكيف يكون هذا بيتك، ومقر عملك، وفي الوقت نفسه محطة للمسافرين؟». نظر مستغربًا جهلي بتلك الأمور التي ربما كان يتوقع معرفتي إياها، قائلًا:

«اسمع يا رفيقي، تعدّ قريتنا محطة لنقل المسافرين والبضائع، من وإلى القرى القريبة والبعيدة التي لا تصلها شبكات المواصلات، ولا تصل إليها طرق معبدة للمركبات الآلية كمعظم مناطق البلاد الجبلية، لكننا نقوم عوضًا عن ذلك بنقل الأفراد والأمتعة معنا في قوافل السفر، وعلى ظهور الحيوانات التي وصلت للتو، وهي وسائل النقل الوحيدة، والرئيسة الموجودة، والقادرة على الوصول إلى هذه المناطق النائية، وعبور الطرقات ذات التضاريس الوعرة».

ثم أضاف: «أغلب المسافرين نسوا اسم القرية (رابتي)، وراح بعضهم يطلق عليها اسم الزريبة لكثرة حيوانات النقل فيها، وآخرون أطلقوا عليها اسم المحطة، وهو الأكثر شيوعًا بين المسافرين، أي أنها المحطة التي تُستبدل فيها سبل النقل

من الآلات إلى الحيوانات». وأضاف شارحًا الأسباب: «كما تعلم يا صديقي أن أغلب قرى هذه البلاد لا توجد فيها بنية تحتية، ولا تربطها شبكات مواصلات، ولا خطوط كهربائية، بل هي قرى بسيطة، وفقيرة، بعيدة عن المدينة والمدنية». ثم اعتدل في جلسته رافعًا صدره متبجحًا، وهو يقول بنبرة من الكبرياء:

«لكننا شريان الحياة في هذه المناطق، وأداة الربط بينها، كذلك مع العالم الخارجي، كما أننا نمارس التجارة في تنقلاتنا بين المناطق والقرى، وإنْ كان بشكل متواضع غير ذلك الذي يخطر في عقلك. نحن نحمل الأغذية، والمحصولات الزراعية، وبعض الحلي، والملابس، والمشغولات اليدوية المصنوعة محليًا إلى المناطق والقرى الصغيرة التي تكون في حاجة إليها، وعادة ما نقوم ببيعها أو مقايضتها بأشياء أخرى».

أنساني حديث هذا الرجل ما أنا فيه من مصيبة وآنسني. وجدتُ في حكايته الكثير من المتعة التي لا تسمع عنها كل يوم، وخصوصًا في المناطق التي عشت فيها، بل زادت عندي الرغبة في معرفة المزيد من تفاصليها، وطرح المزيد من الأسئلة التي راح يجيب عنها من دون تردد:

«لقد كانت زوجتي وأطفالي معي هنا في رابتي، لكن العيش

بعيدًا عن قريتهم الأم لم يرُق لهم، وخصوصًا أنني دائم الغياب والترحال، ما جعلهم يشعرون بالوحدة والخوف أحيانًا، واضطرهم للعودة إلى القرية التي ترجع أصولي إليها، قبل أن أنتقل هنا لكسب الرزق، لكنني أحرص على زيارتهم كلما توفر لي الوقت، أو حين أكون مارًا من هناك ناقلًا بعض المسافرين من السكان المحليين».

«إنها حياة قاسية بعض الشيء؟». نظر لي بشموخ قائلًا:

«هكذا هي حياة رجال الجبال يا رفيقي. صحيح أنها قاسية، لكنها البيئة التي صنعت رجال الگوركا الأشدّاء». أنهى قصته مُوحيًا بنيته الذهاب للنوم: «عليك أن ترتاح الليلة أي أن تنام مبكرًا؛ لأن أمامنا دربًا طويلًا يوم غد، ورحلة ستكون شاقة عليك بعض الشيء». عندها عرفت أنهم ينوون السفر بي إلى مكان آخر، وفي رحلة جديدة ستكون مختلفة هذه المرة، وعلى ظهور البغال والحمير. بعد أن أنهى طعامه راح يفرش مرتبته؛ استعدادًا للنوم قائلًا:

«للتو عدنا من رحلة استغرقت يومين، سائرين في الطريق، وأنا الآن في حاجة إلى قسط من الراحة، كذلك حيواناتنا المتعبة التي تحتاج إلى الراحة، وإلى تناول أعلافها».

ما أطلعني عليه هذا الراعي حول نية نقلي لمنطقة أخرى وضعني في حيرة من أمـري، لا أعلم أين ومتى سينتهي بي الحال الذي وقعت فيه، والخلاص من هذه الورطة التي غرقتُ في مستنقعها؟! بعدها دخل گوبال حاملًا بعض المؤونة الغذائية التي ينوي حملها معنا، في اليوم التالي وهو يقول:

«استعد للسفر، سنغادر في ساعات الصباح الأولى إلى سورو، وكما أخبرتك فإن الرئيس سيلتقيك هناك، وستكون هذه الرحلة متعبة قليلًا؛ لأنك غير معتاد مثلنا على السفر فوق ظهور الحيوانات، أو في طقس بارد كالذي ستشعر به كلما صعدنا في سيرنا، لكنني طلبت من الراعي أن يزودك بمعطف للسفر، كما سأعطيك هذا الوشاح الصوفي، ليقيك البرد والمطر». أنهى كلامه وهو يرمي نحوي ذلك الوشاح الثقيل الذي يُشبه ما يرتديه ساكنو الجبال والمناطق الباردة. وسألته:

«ما الذي تنوون فعله بي هناك؟ هل سأتعرض إلى مزيد من العذاب الجسدي والنفسي؟». نظر نحوي مقطبًا جبينه:

«ومن قال لك إننا ننوي فعل ذلك؟ الرئيس الذي نذهب للقائه رجل طيب، يحترمه الناس كافة في (سـورو)، كذلك القرى المجاورة، لا يمكن أن يؤذي أحدًا على الإطلاق، وهناك

ستتعرف إليه بنفسك، وترى ما كنت أتحدث عنه». اغتنمت قوله هذا وأطلعته على ما فعله بي رفيقه گيان أثناء غيابهما مساء يوم أمس، مستفسرًا إنْ كان ذلك بالتنسيق معهما، حين دخل شاجي، وأخذ يستمع إليَّ والعبرة تخنقني، وتربط لساني حتى اغرورقت عيناي بالدموع. كانا يستمعان لي باهتمام واضح، ثم أخذا ينظران لبعضهما باستياء شديد مما اقترفه رفيقهما. استوقفني گوبال مطمئِنًا، قائلًا:

«لا تهتم. لن نتركك معه بعد الآن، وسنبقى حولك طوال الوقت». ثم أضاف معقّباً: «هذا الرجل بات شبه مجنون بسبب الظروف الصعبة التي يمر بها، لكنني سأضع حدًا لتصرفاته الطائشة». خرج مستعجلًا، وعلامات الغضب واضحة عليه، ثمّ لحقه رفيقه شاجي قلقًا من أن يتصادم الاثنان. سمعتهما لاحقًا يدخلان في جدال محتدم، ارتفعت له الأصوات إلى أن كادت تتحول لاشتباكات بالأيدي لولا وجود السائق شاجي الذي حال دون ذلك. سمعت گوبال يصرخ في وجه رفيقه الشرير قائلًا:

«توقف عن شـرورك مع هذا الشاب الذي تجاوزتَ في معاملته صلاحياتك الممنوحة! لم يطلب منك أحـد أن

تتصرف معه بوحشية هكذا كما تفعل. أصبحت عنصرًا مؤذيًا لا يمكننا ائتمانك على أي شيء بعد اليوم!». ما أثار استغرابي سماعي الرجل الشرير، وهو يبكي أمامهم، ويبرر لهم فعله، وأسباب سلوكه، ويدافع عن نفسه ببعض العبارات التي لم أفهم منها سوى أنه كان يتحدث عن أبيه بحرقة، موحيًا بأن لأبيه علاقة بما يفعله بي دون أن أفهم طبيعة تلك العلاقة! لكن استهجان رفيقيه، وردّ فعلهما على سلوكه هدّأ من روعي، وبيّن لي أنه لا يوجد إجماع على التخلص مني ولا إيذائي، وأن ما حصل لا يتعدى أن يكون تصرفًا شخصيًا صادرًا عن الشرير نفسه، وبقرار منه، وإنْ كنت لم أعرف حتى حينها دوافع غضبه تجاهي، بخلاف الآخرين.

خرجت من الكوخ في تلك الليلة، وهي الثانية منذ وصولنا إلى رابتي، كي أعاين القرية بعقل وروح مختلفة مطمئنة بعد الذي سمعته، ولأتعرف إلى ما يحدث من نشاط ليلي فيها، خصوصًا حياة السفر، والقوافل التي تَحدث لي الراعي عنها. وكان الضباب قد غطى القرية كلها في مشهد لا أعرف منه إنْ كان ضباب حقيقي قد نزل إلى مستويات متدنية، أم أنه غيوم سَبَّبها علو المكان الذي تقع عليه القرية خارج الكوخ! جلستُ

على ناصية حوضِ تجميعِ المياه المنحدرة من الأعلى، مُتدثرًا بالوشاح الذي أعطاني إياه گوبال، صادف وجوده في المكان نفسه يتناول طعام العشاء وحيدًا. وحالما رآني قادمًا نحوه أفسح لي المكان؛ كي أجلس إلى جواره، وهو يكرر تطميناته قائلًا:

«تعال استرح قليلًا، ولا تخف من شيء يا رفيقي. لن يمسك أحد بأذى بعد اليوم. كل ما كان يفعله هذا المجنون گيان هو محاولة للضغط عليك كي تكشف عن مكان الأموال التي يعتقد الجميع أنها في حوزتك، وهو لا يهدف إلى قتلك على الإطلاق، لكنه بالغ كثيرًا في ذلك السلوك، ولاسيما اعتداءه عليك بالضرب».

أضاف مُبديًا بعض التعاطف تجاهي، قائلًا: «في الواقع بدأت أرثي لحالك، وصرت أبغض وجودي في مثل هذا الموقع من القضية، لكنني أرجو لك الخلاص من هذه المحنة في أسرع وقت ممكن، وأن تعود سريعًا إلى وطنك وأسرتك». هذه المرة شعرت بأن مرافقي گوبال يخاطبني بود وتعاطف حقيقيين، غير مصطنعين، وأكثر من أي وقت مضى. شجعني ذلك أن أفضي إليه قصة حياتي كلها، ومكنونات مشاعري،

مسترسلًا في حديث صريح طويل نابع من القلب من دون زيادة أو نقصان. وفي الوقت الذي التزمَ فيه الصمت، مُستمعًا لي باهتمام بالغ رحتُ أفرغ كل ما في ذاكرتي من أمور عن حياتي منذ أن كنت في البحرين.

تحدثت له عن حياتي السعيدة في كنف أسرة معروفة في البلاد، ومترابطة الأطـراف، وذات سمعة طيبة بين الناس، وكيف كانت سنواتي السبع عشرة التي عشتها هناك، ولم أفترق فيها عن أسرتي ولا للحظة واحدة إلى أن سافرت إلى الهند كي أكمل دراستي الجامعية. أطلعته على مشاعري كلها، وكم أنا في حاجة لأسرتي في هذا الوقت، وفي الظروف الصعبة التي أيقظتني أكثر من أي وقت مضى؛ لأعي أهمية أسرتي، وأثرها الإيجابي في حياتي. حدثته عن أمي التي يفيض منها الحنان، والتي زرعت فينا أنا وإخوتي قيم الرحمة، والتسامح، واحترام الآخرين المختلِفين عنا، ودفعتنا للتعليم الجامعي الذي لا تقبل بشهادة أقل منه، وهي أكثر من أحببت في حياتي، كما أحبَّها كل الناس؛ لبساطتها، وحجم الحب والتسامح الذي تملكه حتى مع أكثر الناس سوءًا. وأخبرته عن وصاياها المتكررة في كل خطوة أخطوها، وكأنها كانت تعلم بما ستؤول إليه حياتي في

نهاية المطاف، وهي التي دائمًا تذكرني بحبها لي، وتفضيلها لي على بقية أولادها.

كنت سعيدًا بأن أتحدث لأحدٍ ما، وأن أجد من يستمع لي باهتمام بعد كل الذي مررت به، استرسلت في الحديث، وانتقلت للحديث عن أبي المعروف بشجاعته وإقدامه، وهو الرجل الكادح ليلًا ونهارًا؛ من أجل أن ننعم أنا، وأولاده العشرة بحياة كريمة، وهو الدافع والمشجع لكل خطوة كنت أخطوها إلى الأمام، ومنها سفري إلى الهند. ثم تحدثت عن الهند، والحياة الجامعية، والأصدقاء القادمين من كل بقاع العالم، ومن ثمّ تعرّفي في مدينة بونا على صاحبتي الإيطالية ماريا سالادينو وأسرتها التي غدت كأسرتي. أبلغته أنني جئت من أجلهم قاصدًا مملكة النيبال التي سبقوني إليها، وخطيئة إخفاء أمر سفري عن أهلي وأصحابي. أخبرته عن كل شيء يخص الشيخ القحطاني منذ الساعة التي التقيته، وحتى اللحظة التي اختفى فيها.

أثناء حديثي أخذ يطرح عليّ الأسئلة حول بعض التفاصيل، والمعلومات التي تتعلق بما قلته، أو تلك التي لم أُشر إليها، وكأنه أراد مساعدتي في ربط أحداث القصة المبعثرة التفاصيل

بسبب حالتي النفسية، ولكي تكون أكثر واقعية لسامعها. ومن ثمّ علق يقول:

«في بادئ الأمر كان من الصعب على الجميع تصديق قصة جهلك بمكان وجود الشيخ العربي، إلا أنني وبعد كل الذي حصل صرت مقتنعًا في داخلي ببراءتك من كل شيء، رغم تعقيدات قصتك. وبتُّ شبه متيقن أنك لا تملك المال، ولا تخبئه في أي مكان، وإلا ما قبلت أن تتحمل كل هذه المتاعب، والمصير السيئ، لكنني أعدك أن أنقل انطباعي كله وما حصل لك إلى الرئيس، فأنا متأكد أنه لن يقبل ذلك على الإطلاق». كان شعوراً افتقدته منذ أيـام، أن أجد من أشاركه الحديث بطمأنينة، كان حـوارًا صادقًا بعيدًا عن التهديد والتخويف. شعرت بالهدوء وأنا ذاهب إلى النوم.

إنه اليوم الثالث، استيقظت في الصباح الباكر على أصوات حركة الرعاة واستعداداتهم للسفر، وهم يقومون مع أفراد أسرهم بتجهيز حيواناتهم، وتحميلها البضائع والحمولات التي ستُنقل معهم إلى (سورو) أو القرى التي تليها. دبّ النشاط والحيوية في القرية كلها كما الليلة التي سبقتها، راح الجميع رجالًا ونساءً يعملون كالساعة في تجهيزها. كلٌ يؤدي دوره

بحرفية وإتقان، انشغل بعضهم بتجهيز البغال وربطها بوضع قطع الأقمشة القطنية على ظهورها، قبل تحميلها البضائع، وربطها بالأحزمة. في حين انشغل آخرون بتجهيز بعض ثيران الياك، وتحميلها الأمتعة الأثقل وزنًا لاستباق القافلة، وهي تقصد أماكن جبلية أكثر ارتفاعًا، وطرقًا أصعب.

عند الساعة السادسة، تحركتْ بنا القافلة الطويلة وهي مُحملة بالأمتعة والمسافرين من أهالي القرى التي سنمر عليها في طريقنا. رحنا نسير في طابور طويل من البغال والحمير قاصدين (سورو) القرية الجبلية التي سألتقي فيها الرئيس. يتقدمنا في القافلة الراعي الذي قضيت الليلة السابقة مستأنسًا بحديثه البسيط الشائق. امتطيتُ بغلًا مثل كل واحد منهم، يتبع كل واحد بمن يتقدمه في طابور القافلة، وفي مؤخرة الركب كان هناك راعٍ آخر يمتطي حمارًا، بدا أضخم حجمًا، وأعلى هيبة من البغالِ التي نركبها، وإلى جانبه الشرير گيان فوق بغلهِ يجرّ نفسًا تلو الآخر، ويحرق سيجارة تلو الأخرى، لكنه على غير عادته، تجنب النظر إلى وجهي، في كل مرة ألتفت إليه، بل كان منكسرًا، ووجهه أقل شرًا مما عهدته عليه منذ اللحظة التي عرفته فيها. وهكذا رويدًا رويدًا رحنا نبتعد عن القرية التي

بدأ مشهدها يغيب عن أنظارنا تدريجيًا، ويبدو أكثر جمالًا كلما ابتعدنا أكثر، حتى اختفت القرية خلف الجبال التي مررنا بها وتجاوزناها.

قضينا ساعات طويلة وأوقات من التعب والمشقة في تلك البرية الجبلية. تتكبّد بغالنا مشقّة صعود الأماكن المرتفعة تارة، ومتحملة عناء الأحمال الثقيلة، وتارة أخرى تنحدر في دروب ومنحدرات زلِقة خطيرة، تدربتْ عليها حوافر الحيوانات، ورعاتهم. وفي أحيان أخرى نصعد راجلين على أقدامنا، كي نخفف الأعباء عن كاهل حيواناتنا المرهقة، وهي تعبر إلى المرتفعات الحادة.

بوصلة دربنا هي تلك الطرق المرصوصة التي عبّدتها حوافر الحيوانات، والقوافل التي سبقتنا إليها على مر السنين، إلى أن صارت طرقًا يستدل بها المسافرون من الرحالة أو السكان المحليين. ولولا تعوّد الحيوانات، ورعاتهم على هذه الدروب، وتعقيداتها، ودرايتهم بشبكات الطرق التي خطّها الزمن لأصبح أغلبهم مع حيواناتهم، طعامًا تقتات منه ذئاب الجبال.

هكذا مشينا طويلًا في طريق تحيط به الجبال الشاهقة من كل صوب، يفوق ارتفاع قممها مستوى الغيوم، ناصعة البياض

بجليدها الأبيض الذي يكسوها، ويعكس أشعة الشمس فيجعل النظر إليها أمرًا صعبًا. مررنا بعدة قرى صغيرة، وطفنا ممرات ضيقة على أطراف الجبال، وحوافها المطلَّة على الأودية، أو القنوات المائية الجارفة التي يكون المرور عليها مغامرة بطولية لشخص قادم من أرض قاحلة مثلي! وعند الظهر نزلنا في وادٍ عميق، وعبرنا قناته المائية المنحدرة من أعالي الجبال جرّاء ذوبان الثلوج، ما جعل مياهه باردة جدًا، يصعب عبورها مشيًا على الأقدام، ليس بسبب عمقها، لكن بسبب برودتها التي تُفقد الإنسان الإحساس بقدمه تحت الماء. وهي مياه زرقاء نقية، جميلٌ صفاؤها، ونظيفة لم تلوثها أيدي البشر، ولا مخلفات مصانعهم.

مساحات شاسعة على مدّ البصر، من الطبيعة المختلطة التي من غير المعتاد رؤيتها، حيث الأراضي الزراعية الخضراء، بدت وكأن هناك من قطّعها وشرّحها بشفرة حادة، ثم هيأها لأبناء الريف من أجل إصلاحها، وزراعتها. إلى جانب أراضٍ صخرية، مليئة بالحجارة والأتربة، والتي لا يمكن إصلاحها للزراعة. كنت أمرُّ وأمعن النظر في كل جديد من تلك الطبيعة الخلابة، وكأنني أعاين لوحات فنية فائقة الجمال، زاهية

الألوان، لا يمكن أن تكون إلا من ريشة خالق الطبيعة والجمال.

أحاول توثيق كل تفاصيل تلك البرية في ذاكرتي: الأرض، والنبات، والألـوان، وآثار حوافر الحيوانات، والتضاريس، وجليد الجبال، والقنوات المائية. أتلفت إلى الوراء بين الفينة والأخرى لأرى التغيرات على المشهد من خلفي، والأمكنة التي قدمنا منها، وكيف تبدو بعد أن ابتعدنا عنها. ظللت أنظر إليها وهي تتلاشى تدريجيًا، وتغيب عن الأنظار. عالمٌ غريب، ومشاهد فنية لا أعلم إنْ كنت سأراها مرة أخرى.

شعرت بضيق في التنفس، وسرعة في نبضات القلب، ازداد ذلك سوءًا كلما أخذنا في الصعود إلى المناطق الأكثر علوًا، استمر ذلك طوال الرحلة، رغم نقاء الهواء، وقد طمأنني الراعي عندما سألته عن تلك الظاهرة بقوله:

«لا تخشى شيئًا على الإطلاق. هذا أمر طبيعي في المناطق المرتفعة، يقل مستوى الأكسجين، وكذلك مستوى الضغط، وقد اعتدناه نحن ساكني الجبال كما اعتادته أجسامنا».

مررنا في طريقنا على الكثير من المعابد، والمزارات الدينية التي يمكنني التعرف إليها من خلال الأعلام، والأقمشة الملونة التي ترفرف على أسوارها، أو فوق جدرانها. وكنت أحرص

على مناجاة ربي في داخلي كلما مررت على أحدها مناشدًا إياه أن يقيني مما مررت به سابقًا، ويمنحني عمرًا أرى فيه أهلي وناسي. لم أكن أعلم إلى أي الديانات تنتمي أماكن العبادة تلك! أو إنْ كانت لأصحاب عقيدة وديانة واحدة، أم متعددة الديانات؟! كما لا أعرف في أي زمان شُيدت، ومن قام بتشييدها، لكنني مؤمن بأنها بُنيت من قبل أناس صالحين أحبوا الخير، ووقروا الله، وعبدوه منذ زمن طويل، بل ربما هم من الرسل الذين بعثهم رب العالمين لإصلاح البشرية، لكنه لم يأتِ على ذكرهم كما أشار في سورة غافر من كتابنا المقدس.

ومع بداية غروب الشمس، وقبل حلول ظلام مساء ذلك اليوم، لمحتُ من بعيدٍ بقعة بعيدة من البيوت المشيّدة على أحد المنحدرات الجبلية، وحولها بدت بعض الأراضي الزراعية، وعرفتُ من الراعي أنها (سورو) التي نقتربُ منها رويدًا رويدًا، وتتضح لنا ملامحها كلما اقتربنا منها بصورة أكبر. وجود القرية على واحد من المنحدرات كأغلب القرى الجبلية، يجعل الزائر يراها بهيئتها كلها، بجميع بيوتها من مسافة بعيدة، قبل الوصول إلى القرية نفسها. ومع اقترابنا منها صارت بيوت سورو أكثر وضوحًا، كما بدت فائقة الجمال بطبيعتها الجبلية،

وبيوتها المشيدة من الأحجار المصفوفة، والمطلية بالألوان المختلفة مثل البني والأحمر والأصفر والأخضر، ومغطاة جميعها برزم القش النباتي النهري. كما أنها متباعدة قليلًا عن بعضها بعضًا، ومحاطة بالأراضي الزراعية المُقسمة إلى قطع مستطيلة، ومربعة، أو أخرى متعددة الأشكال والأحجام، وكذلك الارتفاعات التي تختلف فيما بينها حسب موقعها من الانحدار الجبلي الذي تقع عليه القرية نفسها. ويُضاف إلى جمال المكان بساطة الناس، وأصالة عاداتهم، وأنماط حياتهم المتواضعة التي عرفتُها لاحقًا هناك، مثلما هي بقية القرى.

أول من استقبلنا في (سورو) مجموعة من الأطفال يلعبون. مستعملين صغار الأحجار البركانية الدائرية والملساء، كلٌّ يرمي حجره دافعًا إياه بأصبعه ليرتطم بحجر الآخر. وكان لكل فريق مُشجعوه الذين تجمهروا حوله، وأخذوا يتحركون معه أينما تحرك. وسرعان ما توقفوا عن اللعب بعد أن رأونا مقبلين، وراحـوا يمشون خلف القافلة يستقبلونها وهم يصفقون، ويُغنون لنا ملوحين بأيديهم بإشارات ترحيبية، عارفين أنها تحمل الناس، والأمتعة المتوجهة إلى قريتهم.

كانت هناك بعض النساء يرتدين جلابيات جميلة مزخرفة وزاهية، ويضعن حليّاً معدنية مرصعة بالأحجار الملونة.

بعضهنّ يحملن جرار الماء على أكتافهن، أو رؤوسهن، بعد تعبئتها من البئر المائي المنحدر من الأعلى والموجود في أحد أطراف القرية، وأخريات ينقلن حزم القش والسيقان النباتية على رؤوسهن، ثم يركُنّها في الأماكن المخصصة لها، أو يحملن الأعلاف الحيوانية إلى مناطق تجمُّع الماشية أو زرائبها.

وهناك مجموعة من الرجال مشغولين في قطع وتجميع أغصان الأشجار اليابسة، وحملها في سلال صُنعت من سيقان الخيزران، وشُدّت على الرأس بحبال عريضة، لكي تتحمل ثقل تلك السلال وما فيها، وهي محمولة على ظهورهم. كانوا يجمعونها غالبًا لاستعمالها في عملية التدفئة داخل البيوت وخارجها، كذلك لطهي وتحضير الطعام. رجال آخرون يعملون على حرث أراضيهم الزراعية، وتهيئتها للزراعة التي عُرفت بها القرية كزراعة الذرة، والبطاطا، وأنواع من الخضار الجذرية، وكل ما تستطيع هذه المجتمعات توفيره من أجل أمنها الغذائي.

دخلنا القرية مُحدثين بعض الجلبة التي لفتت أنظار قاطنيها، بمن فيهم من كانوا في البيوت، حتى خرجوا منها

تِباعًا، ليتعرفوا على ما تحمله القافلة من وجوه زائرة، أو أمتعة قادمة. توقف الجميع عن الحركة، وتركوا كل ما في أيديهم من أعمال، وراحوا يراقبون دخولنا بوجوه مبتسمة، وإشارات مرحبة، تحمل علامات التساؤل حول القافلة، والأجنبي الذي يمتطي ظهر أحد البغال! وهكذا واصلنا سيرنا إلى أن توقفنا وسط القرية أمام أحد البيوت الكبيرة والجميلة بحجارتها ذات الألوان الطبيعية، والمنظومة بحرفية شديدة، تبين تميزه عن البيوت الأخرى من الناحية الشكلية، وكذلك مساحته الكبيرة، وطوابقه الثلاثة. كما بدت أبوابه، ونوافذه، وكذلك شرفته مصنوعة على أيدي نجارين، ونحاتين حِرفيين، وفنانين رسموا أجمل اللوحات الفنية كإطارات لنوافذه وأبوابه.

إنه بيت الرئيس، وهو الرجل الأكثر احترامًا في القرية، وكذلك مجلسه الذي يتجمع فيه كبار القوم عمرًا ومرتبة، أو زائرو القرية القادمون من المناطق الأخرى. وأمام هذا البيت الكبير حَطّ الركاب، ونزل المسافرون والرعاة، كما أُنزلت أمتعتهم، أو الحمولة المشحونة لهذه القرية. وأُبقيت بعض تلك الأمتعة في مكانها على ظهور الحيوانات، تواصل طريقها إلى قرى أخرى.

دخلت البيت الكبير الذي سيكون محل إقامتي مع گوبال،

ورفيقه شاجي، في الوقت الذي انشغل فيه البقية بإنزال الحمولة من على ظهور الحيوانات، أو إيصالها لأصحابها، ومعهم الرعاة. أما الشرير فقد بقي خارجًا متجنبًا لقائي بناءً على أوامر رفيقيه. وهناك أطلعني گوبال على البرنامج المعدّ قائلًا:

«علينا انتظار الرئيس الذي يُتوقع وصوله من العاصمة، خلال يوم أو يومين على الأكثر. وحتى ذلك الوقت يمكنك قضاء الوقت معنا، والتعرف إلى القرية». ربما كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن الرئيس يقطن في العاصمة كاتمندو التي جاؤوا بي منها، مما أثار استغرابي، خصوصًا أنه كان بإمكانه لقائي ونحن في المدينة دون الحاجة لكل المشقة والتعب اللذَيْن تكبدتهما، فشرح لي گوبال قائلًا:

«الرئيس فضّل لقاءك في سورو بعيدًا عن أعين الناس، خصوصًا أولئك الفقراء الذين خسروا أموالهم، ويرون أنك شريكٌ في سرقة أموالهم، وباتوا يبحثون عنكما أنتما الاثنين، إلى جانب الشرطة التي بدأت بدورها بالبحث عنك».

18
رجل الگوركا

جلست متوسطًا شيوخ القرية ورجالها الذين جاؤوا الاستقبال الرئيس. وصل صباح هذا اليوم، وهو اليوم الثالث لوصولنا سورو. جاء ضمن قافلة أخرى قادمة من منطقة مختلفة، لكنها قريبة، وكان قد وصل إليها من العاصمة بالهليكوبتر.

شعرت بشيء من الرهبة في المكان الذي عجّ بوجهاء القرية، والقرى المجاورة الذين قدِموا من أجل تحية الرئيس بصورة تُبين مكانته بينهم أو بأنه ليس فردًا عاديًا. رحت أتلفت إلى كل من حولي في المكان كالأبله التائه في سوق مكتظ بالغرباء، أعاين الجالسين الذين يبادلونني علامات الاستغراب والتساؤل نفسها، ويُطلقون بعض العبارات الترحيبية، أو التعليقات التي تخصني لكنني لا أفهمها. مستفسرين بين بعضهم عني، الكائن الغريب الجالس بينهم، والقادم من مكان غير معلوم!

وكنت أعدُ الدقائق واللحظات كي أرى الرئيس، وأتعرف إليه بعد أن أصبح مصيري في يده، فهو من أمر باختطافي، وجعلني

عُرضة لكل هذه المخاطر، والظروف الصعبة التي مررت بها. وفي هذه الأثناء، وبينما كان الجميع منهمكًا بالحديث في آن واحد، وأنا شارد الذهن منشغلًا بالأجواء الاجتماعية الجديدة، دخل علينا ذلك الرجل الخمسينيّ، صاحب البنية القوية، وهو يمشي بانضباط عسكري، وخطوات الواثق بالنفس كالذي يؤدي التحية العسكرية في طابور العلم. أدركت منذ الوهلة الأولى أنه لا بد أن يكون الرئيس المنتظر القادم من العاصمة، خصوصًا بعد أن وقف له الجميع احترامًا، وتقديرًا. ورغم ابتسامته الترحيبية التي راح يحيي بها الجميع، فإن ملامح وجهه تُفصح عن حزم وقوة شخصية حتى استطاع بهيبته أن يفرض الصمت على الجميع، وقفوا له وهم يحنون ظهورهم، تعبيرًا عن التقدير الذي بادلهم إياه بالتواضع والدرجة نفسهما. يعبّر إحناء الظهر في المجتمعات الهندوسية والبوذية عن حالة من التقديس أو الاحترام، خصوصًا أمام المعابد وتماثيل الآلهة، أو مع الأفراد من كبار السن، والوجهاء الذين يحظون باهتمام ورعاية كبيرين، عند هذه المجتمعات التي تقدر الكبير عمرًا أو منزلة.

وكان الرئيس يرتدي الزي النيبالي التقليدي المكون من

القميص الأبيض، والمطرّز بنقوش فنية على صدره، وياقة مُغلقة، وهو الذي يطلق عليه اسم (دورا)، كذلك السروال الأزرق الداكن، والضيق من الأسفل، ويُطلق عليه (شروال)، وكان يعتمر القبعة النيبالية المعروفة (بتوبي دكا)، وهي قبعة بيضاوية الهيئة، مُزخرفة وزاهية بألوانها. ومن خلال الملابس التقليدية الراقية التي كان يرتديها، وإجلال الناس الواضح، واحترامهم له، وضخامة المنزل الذي كنا نتجمع في باحته عرفت أنه رجل ثري، ذو وجاهة، ومنزلة اجتماعية مُقدرة في المنطقة التي يقطنها، وكذلك المناطق القريبة منها، وإنْ كان يصعب على الزائر تصوّر وجود أثرياء في هذه القرى الجبلية الفقيرة، والنائية من العالم.

لقد فاجأني عند دخوله حين اصطفاني من بين الحضور بمصافحة يدي، بقي قابضًا عليها بُرهة من الوقت، وهو ينظر مبتسماً في وجهي بتمعن وتركيز شديدين، وكأنه يحاول في لحظات قصيرة، أن يعرف شيئًا من تقاسيم وجهي، أو يفكك رموز مخطوطةٍ صَعُب على الجميع قراءتها.

بدأ حديثه مرحبًا بي قائلًا: «أهلاً بك في قريتنا الجميلة سورو. أنا الكابتن (مايور)، أو الرئيس كما يُطلق عليّ أبناء هذه

المنطقة، ولأسباب ربما تعرفها لاحقًا، لكن المهم هو أنني من أمر بإحضارك هنا للقائك بعيدًا عن أنظار الناس، وأعين الشرطة، والعمال الذين صاروا يبحثون عنك». في الحقيقة تفاجأتُ باللغة الإنجليزية التي يتقنها بطلاقة تامة، ولولا هيئته المغولية، لاعتقدت أنه مواطن إنجليزي. واللافت لي أن شخصيته لم يبدُ عليها السوء، كما لا يبدو أنه عضو في عصابة أو مافيا، ولا تبين أنه الرجل المسؤول عن اختطافي، وكل ما تعرضتُ له منذ اللحظة التي اقتحموا فيها غرفتي في كونتيبور إيفرست.

واصل حديثه، قائلًا: «أعلم أن دربكم كان شاقًا وطويلًا، لكن كان لا بد من ذلك، مصير المئات من الأسر الفقيرة بات رهينة يديك، أو هكذا اعتقد معظمنا». وأضاف: «ولأنني فرد مسؤول عن أهلي وعشيرتي ومنطقتي، طلبتُ إحضارك كي أتعرف إلى الحقيقة منك مباشرة، وأعرف أين أموال الفقراء؟ إلا أنني سمعتُ من الرفاق اليوم ما غيّر تصوري المسبق عنك. لكن لنتناول بعض الطعام الآن مع رجال القرية، ثم نجلس ونتحدث بأريحية».

وبعد أن بادلته التحية، جلسنا على الأرض نتناول الطعام

المتواضع الـذي أعدته نساء القرية، والـذي احتوى بعض الأرز الأبيض اللزِج ذي الحبيبات الكبيرة، والحساء النباتي الأصفر اللون، والغني بالبهارات والتوابل النيبالية التي أضفتْ عليه طعمًا لذيذًا وحـارًا بعض الشيء. بعد العشاء انشغل الجميع باحتساء الشاي المخلوط بحليب الجاموس النهري. أثناء ذلـك، راح الرئيس يسأل كل واحـد من الحضور عن أحواله وأسرته وعمله، ويستمع لهم باهتمام واضح، ويتلقى شكاواهم، وطلباتهم، ويدون بعضها في دفتر صغير يحمله في جيبه، كما كان يُوعز لأحد رجاله ليعطي بعض المال للأفراد الذين جاؤوا طلبًا للمساعدة، أو التعامل مع القضايا التي جاء بعضهم حاملًا إياها. وبعد ساعة تقريبًا، بدأ الناس بالانصراف وتوديع الرئيس بالاحترام نفسه الذي استقبلوه به. من الواضح أن مأدبة العشاء عادةٌ اجتماعية تواصلية دارجة، في كل مرة يزور فيها الرئيس القرية، ويعالج شؤونها. غادر الجميع. بقيت أنا والرجال الثلاثة الذين جاؤوا بي إلى القرية، والرئيس مايور الذي التفت لي سائلًا:

«ما انطباعك الأولي عن القرية، أو كل ما يجري؟». رددت بما يجول في بالي حينها: «لا أعرف ما تعنيه بسؤالك هذا

سيدي الكريم، لكن هناك أمرين يحيراننني منذ لحظة دخولك علينا، أولهما هي لغتك الإنجليزية الفصيحة التي لا أعرف كيف اكتسبتها، والأهم الذي يدور في بالي، كيف يُعقل أن تكون أنت الذي أمر باختطافي؟ يبدو عليك أنك رجل صالح، لا يمكنه أن يقوم بأفعال تسبب أذىً لأحد، بل لو كنتَ شخصًا سيئًا لما كسبت حب وتقدير هؤلاء الناس الذين توافدوا احترامًا لك». نظر لي مبتسمًا، قبل أن يطرح عليّ سؤاله الذي لم أرَ له علاقة بما استفسرت عنه:

«هل تعرف رجال الگوركا؟»

«لا يا سيدي. لا أعرف مَنْ هؤلاء، رغم أن هذا المسمى سبق وتكرّر على مسامعي عدة مرات». في الحقيقة كنت قد سمعتُ بهذا الاسم منذ يوم وصولي، إلى العاصمة كاتمندو، وكذلك في أكثر من موضع، لكنني لم أعره انتباهًا، أو أستفسر عن معناه.

«إذن عليّ أن أبدأ من ذلك، ومنها أجيب عن تساؤلاتك قبل الولوج إلى الموضوع الرئيس الأهم الذي تَجَمّعنا من أجله». ثم بدأ حديثه قائلًا: «رجال الگوركا هم من الأفراد الأشداء القادمين أصلاً من منطقة تُسمى گوركا، وهي واحدة من

سبع وسبعين مقاطعة، تُشكلها مملكة النيبال، ويرتبط اسمها بالتاريخ الملكي للبلاد. توسعت الملكية بدءًا من هذه المقاطعة حتى أصبحت على صورتها الجغرافية الحالية. ويقطن في هذه المقاطعة بعض قبائل الهمالايا العائدة لسلالتين رئيسيتين معروفتين بشجاعتهما في المعارك الحربية، وهو الأمر الذي دفع الجيش البريطاني للاستعانة بهؤلاء حين أدرك بسالتهم، منذ الزمن الفيكتوري، وعندما كانت تُدار شبه القارة الهندية من قِبل شركة الهند الشرقية. منذ ذلك الحين أسس الإنجليز لواء گوركا في جيشهم، وهو الذي يتكون من الجنود النيباليين، والمعروف أن شعارهم هو (نموت ولا نحيا جبناء). «ومع مرور الوقت صار يُطلق اسم گوركا على جميع الجنود النيباليين العاملين في الجيش البريطاني، أو الجيوش الأجنبية الأخرى، وكذلك العاملين في المؤسسات الأمنية الخاصة حول العالم، والتي تعمل على تأمين وحماية السفارات، والمنشآت المدنية والعسكرية في أيامنا هذه».

أضاف مفتخرًا بقومه: «إن هذه الجبال التي مررت عليها قد صنعت من أفرادها رجالًا أشداء، لا مثيل لهم في ميادين الحرب، تتهافت جيوش العالم على إلحاقهم ضمن صفوفها،

وأنا أُعَدُّ واحدًا من رجال الگوركا الذين عملوا في السلك العسكري لدى الجيش البريطاني، كنتُ محاربًا شرسًا في صفوف هـؤلاء المجندين في الفرقة التي كانت تعمل منذ فترة الاستعمار، ومن هناك تعلمت، ثم أتقنت الحديث باللغة الإنجليزية».

« في أي بلد عملت؟»

«لقد عملت في عدة مستعمرات بريطانية حول العالم مثل سيراليون، وقبرص، وتيمور الشرقية، وكذلك العراق، وشاركت في مهمات عسكرية متعددة، كما شارك غيري من الرجال النيباليين الذين خاضوا حروبًا ومعارك منذ عشرات السنين، خصوصًا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقدنا آلاف القتلى من رجال الگوركا دفاعًا عن التاج البريطاني، بل عملنا بجهد، وقاومنا بشراسة كأننا ندافع عن أوطاننا، لكن رغم كل تلك التضحيات، عاملَنا الإنجليز مثل الغرباء، إذ غالبًا ما كنّا عُرضة للتمييز، والتهميش في المستحقات، والامتيازات، وكذلك تجاهل حقنا في الجنسية البريطانية، بعد أن خدمنا وأخلصنا دفاعًا عن هذه الإمبراطورية، من دون تقدير يُذكر»

أكمل: «ليس ذلك فقط، إنما ومن أجل إرهـاب جيوش

الأعداء كانت أجهزة الإعلام تُصورنا كجنود عديمي الرحمة، متوحشين نأكل لحوم أعدائنا البشر، حتى جعلوا منا دعاية مُشينة لتحقيق أغراضهم في الحرب النفسية، وكانت هذه الدعايات مسيئة لنا، نحن العاملين في صفوف جيش صاحبة الجلالة، وخصوصًا أننا رجال أخيار نحترم الجميع، والعلاقات الاجتماعية، كما أننا منضبطون نحترم القواعد العسكرية، ونحترم القانون الدولي الإنساني المعني بالنزاعات المسلحة، وكذلك نرفض الممارسات الهمجية غير الأخلاقية، أو جرائم الحروب التي تُرتكب».

أضاف مسترسلًا في مقدمته التعريفية: «وهكذا عملتُ سنوات طويلة، وتدرجت في رُتبي العسكرية حتى تقدم بي العمر في العمل العسكري، فتم نقلي لمزاولة الأعمال المكتبية، في إحـدى القواعد العسكرية بجزيرة قبرص، وإدارة شـؤون جنود الگوركا المغتربين، والتي تتمثل في شؤون سفرهم، وإجازاتهم، كذلك مستحقاتهم، وهي المهام الجديدة التي فتحتْ لي المجال للسفر من وإلى النيبال، وبقية المستعمرات البريطانية، ومنها رحتُ أتعرف إلى المزيد من رجال الگوركا، وكذلك الجنود والضباط البريطانيين المقيمين

في تلك القواعد العسكرية، أو الزائرين لها. وقبل أن أتقاعد من عملي ببضع سنوات بدأتُ أمارس التجارة بشكل متواضع، إلى جانب عملي في الجيش، وساعدني في ذلك سعة معارفي، وكثرة تنقلاتي من مكان لآخر. وقد تمحورت تجارتي في بيع المشغولات اليدوية، المصنوعة في قرى النيبال النائية، أو إقليم التبت الذي هو مسقط رأس زوجتي، ومن هناك استوردتُ الملابس التقليدية، والحلي المعدنية، والخناجر النيبالية التي كنت أحملها عن طريق رجال الگوركا القادمين من البلاد، ثم أبيعها على الجنود، والضباط البريطانيين، كما كنت أفعل العكس مع الرجال العائدين إلى النيبال؛ حيث أرسل معهم بعض البضائع الغربية. وهكذا بقيت منخرطًا في العمل التجاري إلى جانب عملي في الجيش، حتى تمت إحالتي على التقاعد، والعودة إلى البلاد».

« وماذا حصل؟»

«تفرغت للتجارة، باتت نشاطي الرئيس، أخذتُ أعمل على تصدير التحف، والمشغولات اليدوية إلى المملكة المتحدة، وبعض الدول الأوروبية بصورة أكبر، وأكثر حرفية من السابق، إلى أن ازدهرت تجارتي تدريجيًا، ورحت أسافر إلى القرى

والمناطق النائية في جبال الهمالايا بجزأيها: الموجود على أرض النيبال، أو في الجزء الواقع في إقليم التبت».

«وأين أسرتك من كل ذلك؟»

«أنا يتيم الأبوين منذ طفولتي، ونشأت في كنف خالي الذي اهتم بي حتى فقدته العام الماضي، لكن وبعد سنوات من العمل الدؤوب استطعتُ أن أجمع بعض المال، وأتزوج، ولو أن ذلك تم في سن متأخر قليلًا، اقترنتُ بابنة أحد التجار التبتيين الذين عملت معهم في التجارة، ومنها أنجبتُ ولديَن وحيدين عوضاني حنان الوالدين اللذين فقدتهما، لكنهما كبرا سريعًا وغادرا، ليواصلا تعليمهما الجامعي في مدينة بنگلور الهندية».

«وهكذا عدتَ وزوجتك وحيدين مرة أخرى؟».

«نعم بتنا وحيدَيْن في بيتنا بالعاصمة، وهو أمر موحش لي، وخصوصًا أنني بعيد عن مجتمعي الحاضن، وبيتي هذا الذي تقيم فيه منذ يومين، وهو البيت الذي وُلدت وترعرعت فيه، ولا يمكنني نسيانه أو التنازل عنه حتى بنيته، وزدت من سعته في السنوات الأخيرة؛ كي يكون مكانًا صالحًا يتجمع فيه أهلي وشيوخ القرية عندما أزورهـم كل ثلاثة أشهر أو أكثر، كي

أتعرف إلى احتياجاتهم، واحتياجات أبناء عشيرتي في القرى المجاورة، وهو ما يجيب عن سؤالك حول سبب احترام الناس، وتقديرهم لي»

«هل ستقضي جلّ حياتك في المدينة؟».

«لا بل سأعود يومًا إلى هذا المكان، لكي أقضي ما تبقى من عمري بين هذه الجبال التي صنعتني، والحياة البسيطة التي نشأتُ عليها، وكذلك هروبًا من ضوضاء المدينة وتعقيدات الحياة هناك، إلا أن ذلك سيتم بعد تخرج أبنائي من دراستهم الجامعية، وتحملهم مسؤولية تجارتي من بعدي».

«لقد عرفت الكثير عن حياتك المفعمة بالنشاط سيدي، لكن ما لم أعرفه هو لماذا تم اختطافي؟!».

«نعم، وهو ما أنا مقبل عليه في حديثي». ثم أجاب على ذلك قائلًا : «في كل مرحلة من مراحل تكوين ثروتي لم أنسَ موطني الأصلي، ولا الناس الذين نشأت في أوساطهم في هذه المناطق الفقيرة التي تشهدها، بل وهبت لهم جزءًا من جهدي، وثروتي كي ينعموا بحياة أفضل، وعملتُ على تمكين الناس الفقراء هنا بهدف تنمية مجتمعاتهم المحلية، كما سعيتُ إلى تأمين السكن اللائق، وإصلاح الأراضي الزراعية من أجل

ضمان أمنهم الغذائي، وفي سبيل ذلك ابتعثتُ الكثير من أبناء القرية، وكذلك القرى المجاورة للدراسة والتدريب في المدن، كي يعودوا ويشاركوا في بناء، وتطوير مناطقهم الفقيرة».

أضاف قائلًا: « لكن قبل عدة أسابيع، جاءنا رسول من أبناء المنطقة يخبرنا عن وجود فرص عمل ضخمة أمام شباب هذه المنطقة، للعمل في منطقة الخليج، والسعودية تحديدًا، وهي فرصٌ بدت مشجعة للكثير من الشباب المتطلع للهجرة من أجل الرزق، والعيش الكريم. انتشر هذا الخبر كالنار في الهشيم في كل قرية ومدينة، حتى صار الجميع يتحدّث عن ذلك الثري العربي الذي يقيم في فندق هماليا شيراتون، كذلك أنت، مساعدهُ أو مدير مكتبه الذي يتقن اللغتين الهندية والإنجليزية، ويقوم بمعظم أعماله. وبناءً على تلك العروض عزم كثيرون من أبناء هذه المناطق على التقدم لنيل فرصة العمر والعمل، لكن العائق لدى معظمهم كان توفير الضمان المالي الذي كان لا يتحمل تكاليفه الكثير من هؤلاء الناس، وهو ما اضطرني إلى التكفّل بتغطيته إلى العشرات منهم، مساهمة مني لرفعهم من حالة العوز الذي يعيشونه، وهي تكلفة مالية عالية غير أنني تحملتها لمساعدة أهل المنطقة، لكن لا كي تُسرق

هذه الأموال، أو تختفي مع صاحبها بالصورة التي شهدناها!».

أضاف شارحًا الأضرار التي حدثت: «هناك المئات غيرهم ممن تكفلوا بأنفسهم بتوفير الأموال من أجل نيل فرصة العمر التي تبخرت! وأنا مهتم لأمر هؤلاء الفقراء أكثر من اهتمامي بأموالي المفقودة». قصة هؤلاء الفقراء كانت مؤلمة لي بقدر ما سببته من ألم للضحايا، لكن تحميلي المسؤولية فيه ظلم كبير! رحت أستفسر منه: « لكن لماذا رأيتم أنني المسؤول؟».

«بعد اختفاء الثري العربي، وضياع أموال الناس والفقراء لم يتبقَ أمامنا إلا أن نقصد مدير أعماله الذي لا زال باقيًا في المدينة، أي لم يكن لدينا خيار سوى اللحاق بك، قبل أن تلحق بصاحبك». وهنا وجدتها فرصة أنْ أطلعه على قصتي كلها منذ وصولي إلى النيبال، وكان الرئيس كما أطلعني قد عرف القصة كاملة من الخاطفَين الاثنين قبل مجيئه للقائي، لكنني وجدت من الأهمية أن يسمعها مني بشكل مباشر، ويعي حجم الألم الذي بي والمعاناة التي أعيشها. استمع لي بتأثرٍ شديد، وحيرة واضحة تُبين إدراكه أنني الشخص الخطأ، وفي المكان الخطأ. ثم ختمتُ حديثي بسؤاله: «لكن لماذا كل هذا التعقيد يا سيدي لكي تلتقيني؟ ألم يكن بمقدورك لقائي في العاصمة مثلا؟».

« نعم كانت الفكرة الأولى أن يكون هذا اللقاء في العاصمة كاتمندو، لكنني علمت أن الشرطة تعتزم القبض عليك في اليوم التالي، وأنها قد قبضت على مجموعة من الوسطاء الذين كانوا يتعاملون مع الشيخ، وكذلك سائقه الذي عمل مُيسرًا لشؤونه بعض الوقت، كما بدأ بعض العمال يبحثون عنك بعد أن تأكد لهم فرار رفيقك، يعتقد الجميع أنكما شريكان في جريمة نصب واحتيال، غير أن التطور الجديد الذي حصل قبل سفري هو أن الشرطة أصبحتْ تبحث عنك، وعن خاطفيك المجهولين الذين هم أنا ورجالي أيضًا، أي أن القضية صارت أكثر تشعبًا. ولو أن ذلك لا يهمني بقدر ما يعنيني عودة الأموال التي تخصّ الفقراء الذين تحولت قضيتهم إلى مأساة ستقلب حياة الكثيرين منهم إلى جحيم، كما ستترك آثارًا اجتماعية مدمرة إلى زمن لا يمكن تصوره!».

فجأة توقف الرئيس مايور عن حديثه، وراح ينظر إلى بقية الرجال، ثم نادي الشرير گيان ليتقدم نحوه، جاء مسرعًا نحو الرئيس وهو يحني رأسه احترامًا، حتى أمسكه الرئيس من يده وهو يسألني قائلًا:

«ماذا تعرف عن هذا الرجل؟». كان يخاطبني بتأثر وهو يشير

إلى گيان الذي أثار استغرابي حين وجدته متأثرًا، وكأنه يعي ما يودّ الرئيس قوله عنه. تابع قائلًا: «أعلمُ أن هذا الشاب قد تعرض لك بالضرب والتهديد، وهو ما لا أقبله على الإطلاق، وقد وبخته على ذلك كثيرًا حين نما لمسامعي، لكن هل سألتَ نفسك ما الذي دفعه لهذا السلوك؟».

«لا يا سيدي. لا أعرف عنه سوى أنه يكرهني، ويتحيّن الفرص لإيذائي؛ حتى صار وجوده يسبب رعبًا في نفسي». لكنه قاطعني قائلًا:

«لأنه واحد من الذين كانوا يحلمون بالعمل في الخارج مع أخويه المزارعين، كانوا يعملون مع أبيهم في الزراعة، وتأمين قوت يومهم من الرعي، لديهم أرض يملكونها ويعيشون على ما تنتجه من محاصيل تبقيهم على قيد الحياة، إلى أن جاءت فرصة العمل، والحلم الذي داعب حلم الشباب».

أضاف: «ومن أجل تحقيق طموح أولاده قام الأب ببيع بيته، وأرضه الزراعية كلها، بل مضى أكثر من ذلك حين استدان الأمـوال من بعض الجشعين، لكي يكمل المبلغ المطلوب ضمن شـروط العمل، ومن أجل أن يضمن مستقبلًا أفضل لأبنائه، لكن هل تعلم ماذا حصل بعد اختفاء الرجل، وضياع

الأموال؟ لم يتحمل العجوز هذه الصدمة التي تمثلت في ضياع مستقبل أبنائه، وملاحقة الدائنين المتوقعة. وهربًا من أن يواجه ذلك المصير المرّ وضغوطات الدائنين أقدم على الانتحار بشنق نفسه، وأنهى حياته التي لم يستطع تحمل تبعاتها».

اهتز جسدي من هول صدمة ما سمعت، فيما راح گيان ينتحب ودموعه تنهمر على خديه. واصل الرئيس:

«نعم لقد فقد هذا المسكين وأخواه أباهم، وهو الظَهر الذي استندوا عليه، كما فقدوا مصدر رزقهم الوحيد، وفوق كل ذلك فإن ديونه لم تمت معه إنما هي باقية، وستلاحق أولاده طوال حياتهم، وأخشى أن تدفعهم إلى المصير المظلم نفسه الذي انتهى إليه والدهم».

لحظات فقط، هي مدّة سماعي لهذه القصة الأكثر حزنًا والأشد إيلامًا، أبدلتْ مشاعري كلها تجاه هذا الرجل، كنتُ أراه شريرًا لا يطاق، تغير النفور تجاهه إلى حالة من التعاطف والشفقة، والتفهم لجميع تصرفاته حيالي. بل أحسستُ بالغضب والامتعاض الشديد لما جرى لهذا الشاب وأسرته كلها، مصيبة لا يمكن تداركها أو إصلاحها. وجدت نفسي أرثي لحاله وأشعر بالأسف الشديد من أجله. لم يكن بمقدوري

قبل ذلك اليوم تصور حجم الأضرار والتداعيات التي حصلت للضحايا، حتى أيقظتني هذه الفاجعة من سبات عميق، وبيّنت لي كم أن المأساة التي أمامنا كبيرة، وعويصة!

لا أعني هنا خسارة الأموال، ولا الأحلام فقط إنما الخسارة البشرية، التي لا تُعوض، لرب هذه الأسرة الذي لن يحلّ محله أحد، وهو المُعيل الذي أراد الخير لأبنائه وأسرته الفقيرة، لكنه في المقابل خسر كل شيء حتى حياته التي أنهاها بصورة مأساوية! لقد فعل ذلك هربًا من مواجهة الحقيقة المرّة الناتجة عن فقدان كل ما يملك من مـال، ومـن ملاحقة الجشعين والمرابين من تجار العملة، وكذلك صدمته جراء ضياع حلمه، وحلم أولاده. كان يدرك أن بقاءه على قيد الحياة تحت عبء هذه الديون الثقيلة سيبقيه رهينة للدائنين، الأمر ذاته سيتكرر عند معظم العمال الذين خسروا أموالهم، أي أن هذه الحالة التي نحن أمامها ما هي إلا نموذج واحد، أو كأنها ما ظهر من قمة جبل جليدي، لم يتكشف لنا بعدُ حجمه، ولا سعة قاعدته. إنها فقط بداية قصة تراجيدية من أحداثٍ حزينة، يُتوقع لها أن تبرز في الأسابيع، والأشهر القليلة القادمة، كلما اتضحتْ الصورة للضحايا، وتيقنوا حقيقة ضياع أموالهم، واستحالة إرجاعها!

لا أعلم كم أسـرةٍ سوف تتضرر، أو بيتًا سيدمر، ولا كم رب أسرة سينهي حياته بهذه الطريقة المأساوية، أو كم رجل سيُختطف، ويتعرض للقتل؟! نتيجة الإخفاقات المتوقعة في تسديد ديونهم تحت تلك الشروط المُجحفة، الخالية من الرحمة، والتي حوّلت معظمهم إلى رهائن لدائنيهم، وعُرضة سهلةً للابتزاز؟!

عرفت لاحقًا، المزيد عن هذه الـدورة الظالمة التي يمر بها العمال الحالمون بفرصة عمل خارج بلدانهم، والذين عـادة ما يكونوا لقمة سائغة للنصب والاستغلال، من قبل أفراد وجماعات ترقى أفعالهم إلى الإتجار بالبشر، سواء من الدول المصدرة لهذه العمالة أم تلك المستقبِلة لها. كما عرف العالم في سنوات لاحقة حجم هذه المأساة، واتساع رقعتها حتى باتت تؤرق الضمير العالمي الذي التفت لها متأخرًا، وخصوصًا أن غالبية ضحاياها هم الفئات الضعيفة الأشد فقرًا، والقادمون من المناطق الفقيرة، أو تلك التي تتعرض مناطقها إلى نزاعاتٍ مسلحة، أو تُحكم من قبل حكومات استبدادية. وبعد عدة سنوات أدركتُ بأن ما شهدته في النيبال من أحداث ما هو إلا نموذجٌ يتكرر في الكثير من دول العالم.

وقفت صامتًا مذهولًا بعد سماع حكاية گيان، القصة الحزينة التي يُدمى لها القلب، تعيى النفس، تعجز الكلمات والعبارات أن تعطيها حقها في التوصيف! أدرت بصري بين الرئيس وبقية الرجال، في حين خيّم الصمت والسكون على الجميع، تبادلوا معي نظرات الترقب ذاتها لمعرفة ما سأقوله بعد كل الذي سمعت. في الوقت الذي رحت أبحث عن عبارات أُطلق فيها عنان ما يختلجني من مشاعر حزينة، لعلها تخفف من حالة هذا المسكين البائس گيان، وعذابه النفسي جراء المحنة التي ستبقى عالقة في قلبه، وذاكرة أسرته طوال حياتهم. قلت بعد صمت:

«هذه فاجعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ومأساة حقيقية لا أتمنى حدوثها لأحد سيما أبناء هذه الفئة المسحوقة من البشر، ولا أعلم في هذه اللحظة كيف يمكنني تخفيف وطأة ما حلّ بهذا الرجل المسكين، كما لا أعلم إنْ كان هناك ما يمكنني فعله حيال الألم الذي يعتصره!؟ أعلم أنها خسارة لا يمكن تعويضها بالأموال، ولا بعبارات المجاملة، ولا أملك غير الدعاء من الرب الرحيم أن يُهوّن عليه، ويواسي قلبه، وأفراد أسرته».

ثم واصلت الحديث قائلًا: «لكن هل تعلم سيدي الكريم أنه وقبل سفري إلى الهند والنيبال، لم أكن أعي أن هناك شرائح بشرية في عالمنا الحاضر ترزح تحت هذا المستوى المتدني من الفقر، كالذي شاهدته، وفوق هذا الفقر تتعرض للاستغلال، عوضًا عن مد يد العون لانتشالها مما هي فيه من بؤس! تعرفتُ إلى ذلك بصورة أكبر منذ أن تقربتُ إلى هذه المجتمعات هنا، وتعرفتُ على الكثيرين من أبنائها الذين يحلمون بالعمل خارج البلاد، حتى شعرت وكأن العالم كشف لي عن وجهه الآخر الذي لم أكن أعرفه!».

أضفت: «لقد سبق والتقيت أفـرادًا من العمالة الآسيوية المهاجرة في بلادي، ومعظمهم قادم من دول آسيوية فقيرة كالهند وباكستان، كنت أعمل معهم كعامل بناء في كل إجازة صيفية، لكنني لم أكن أعي حينها تعقيدات الـدروب التي سلكوها، والخسائر التي تكبدوها حتى وصلوا هناك. أدركت أن معاناة هؤلاء العمال في بلادي لا تختلف عمّا يحصل أمامنا هنا، عدا أنهم قد حصلوا على فرص العمل، بعد الأموال التي أنفقوها، في حين ضاعت أموال هؤلاء وممتلكاتهم، دون أن يحصلوا على فرص العمل التي وُعدوا بها». ثم رأيت أنه من

الأهمية تأكيد براءتي مما وُصمت به ظلمًا:

«سيدي الكريم. مثلما تحوّل معظم هؤلاء العمال الفقراء بين ليلة وضحاها إلى ضحايا فقدوا كل شيء، أصبحت أنا كذلك ضحية لجريمة لا أعلم من هو المُتسبب فيها، وأصبحت في أخطر موقع صرتُ فيه في حياتي، وأنا لست سوى طالب جامعي سافرتً بعيدًا عن وطني كي أحقق طموحي، وحلم والديّ اللذين كدحا وشقيا من أجل أن أنهي دراستي خارج وطني، مُتحملين التكاليف المادية المرهقة، والتأثير النفسي الناتج عن ذلك البعد. لكن ها أنذا أمامك سيدي تائه، لا أعلم في أي بقعة من العالم أكون؟! ولا لأي مصير مجهول أسير؟! في الوقت الذي لم أقترف فيه أي شيء يستحق هذا الظلم الذي أمسيتُ ضحيته، وجدت نفسي متورطًا في أكبر أزمة واجهتها في حياتي، وأقضي أقسى عقوبة حيالها، اختُطفت من غرفتي، وتم اقتيادي قسرًا إلى مكان مجهول، وضُربت بلا رحمة دون ذنب اقترفته، وكدت أموت اختناقًا داخل صندوق السيارة، أي أنني ضحية تعذيب نفسي وجسدي لا يستطيع تحملهما أحد».

أكملت: «تخيلْ سيدي الكريم لو تم اختطاف أحد أبنائك البعيدَين عنك في الهند، أو تعرض أحدهم لمثل ما تعرضت

له من عنف جسدي وتعذيب نفسي، وأنت لا تملك حيلة في مساعدة هذا الابن، كيف ستكون مشاعرك، وكذلك زوجتك حيـال...». وقبل أن أكمل عبارتي قاطعني الرئيس، وكأن كلماتي لامستْ مشاعره بصورة لم يتحمل سماع المزيد منها، قال:

«حديثك هذا يؤلم قلبي، ولا يمكنني أن أتخيل حدوثه لأي من أبنائي على الإطلاق، كما أنه سيكون مؤلمًا لزوجتي التي تعبت على تنشئتهم، وصارت تفتقدهم بشكل لا يصدق، حتى راحت ترمي عليَّ اللوم، وتحملني مسؤولية سفرهم بعيدًا عنها، وكأن في ذلك جريمة اقترفتها. سيشعلني غيظًا لو حصل ذلك فعلًا، وحينها لن أضمن عقلانية رد فعلي حيال ذلك».

«أفهم مشاعرك تجاه أبنائك، وهي مشاعر أبي وأمي وجميع أفراد أسرتي الذين لا يعلمون عني شيئًا، وأنا تائه هنا في منطقة نائية من جبال الهملايا، بين خاطفين يقيدون حريتي، وشرطة تلاحقني بتهم وجرائم أنا بريء منها». قلت ذلك، ثم صمتُّ بعد أن أوقفتني العبرة، وأضافت إلى صوتي بحة؛ دفعت الرئيس لطمأنتي قائلًا:

«لا عليك يا بنيّ. لن يمسّك أحد بسوء بعد اليوم، كما

أقدم لك اعتذاري عمّا حصل لك دون علمي، فأنا أب وأعي ما تقوله تمامًا، وأنصحك بنسيان الماضي، والتطلع إلى المستقبل». ثم أضاف: «لقد وضحت لي الصورة بشكل جليّ، وبتُّ متيقنًا ببراءتك، وأنك لست مسؤولًا عن ذلك، بل ضحية مثلنا جميعًا، وأتفهم مشاعرك وآلامك كلها جراء ما مررت به من ظروف كانت صعبة عليك، ومعاملة سيئة لستُ فخورًا بها على الإطلاق، لكن ذلك لن يتكرر أبدًا». ثم أضاف متحدثًا عن الخطوة التي تُبين التبدل في نظرته تجاهي قائلًا: «أنا أدعوك لتحل ضيفًا في بيتي بالعاصمة، وسنكون أنا وزوجتي سعيدين باستقبالك، وإقامتك معنا حتى تجد لنفسك مخرجًا من الأزمة».

هكذا جلسنا، أنا والرئيس مايور نتحدث حول القضية، وتبعاتها، وتوقعاتنا حيالها، ونتفكر كيف يمكن مساعدة هؤلاء البائسين الذين فقدوا كل شيء يملكونه، وكيف يمكننا التخفيف من وقع الصدمة الأكبر في حياتهم؟ ثم واصلنا الحديث عن الجواز الذي اختفى، وكيف يمكننا التعامل مع الأمر.

في صباح اليوم التالي غادر الرئيس مايور القرية قبل أن أستيقظ من النوم، في حين بقيتُ هناك ليوم آخر بناء على طلبه،

قبل أن أبدأ رحلة العودة إلى العاصمة النيبالية، متبعًا السبل نفسها التي سلكناها في رحلة الذهاب، عدا أنني جلست على الكرسي الخلفي للسيارة محترَمًا، عوضًا عن صندوقها، ولو أن الفرق لم يكن كبيرًا بين الحالتين.

19
مفاجأة غير متوقّعة

تركتُ سورو وأهلها الطيّبين وأنا أحمل في داخلي شعورًا مركّباً؛ الخوف على نفسي ومصيري من القادم المجهول، والامتعاض على ما جرى للضحايا الفقراء من مآسٍ زادت بؤسهم، وتداعيات وجدت نفسي عاجزًا أمامها، وفاقدًا حتّى الكلمات التي يمكن أن تخفّف معاناتهم. وصلت إلى العاصمة كاتمندو بعد يومين من وصول الرئيس مايور إليها جوًّا، سالكًا الدروب البريّة ذاتها التي عبرتها في رحلة الذهاب، لكن بلا قيود أو وتعقيدات كالتي واجهتها سابقًا.

أعيش حالة من التيه، بلا جواز سفر ولا سفارة لبلادي يمكنها أن تمدّ لي يد العون. يأتيني صوت تحذير والدتي: «إذا أضعت جواز سفرك سوف لن تتمكن من العودة لنا». ها أنا في محنة ما حذّرتني منه تمامًا، بل أكثر من ذلك وأخطر، تلاحقني الشرطة التي تعتقد بتورّطي في جريمة لم أقترفها، ويبحث عني عمّال فقراء يحمّلوني مسؤوليّة ضياع أموالهم.

لم أجد مأوى لي غير بيت الرئيس مايور في وسط المدينة،

بقيت مختبئاً فيه عدّة أسابيع، وجدته أفضل ملجأ يُمكن أن يحميني حتّى أجد من يمكنه إنقاذي مما أنا فيه، وانتشالي خارج البلاد. تعرّفتُ إلى زوجة الرئيس السيدة چانتن، اسمها يعني القمر، كوجهها الدائريّ الأحمر، وخدّيها المكتنزين اللذين يخفيان عينيها. كانت هذه السيدة القمريّة متوسّطة الطول ممتلئة الجسم في نهاية الأربعينيّات من العمر. ترتدي معظم الأحيان معطف چوبا (الـزيّ التقليديّ الذي ترتديه نساء إقليم التبت بألوانه الزاهية)، وتتزين بالحلي والأساور والأقراط المعدنيّة المرصّعة بالأحجار الملوّنة، لا يخلو منها عنقها وشعرها وصدرها وأذناها، كذلك يداها ورجلاها، وهو تقليد قديم يعود لأصول قريتها الجبليّة في إقليم التبت. ذلك الإقليم المحاذي إلى مملكة النيبال، والمتنازع عليه بين سكّانه المحلّيّين وحكومة الصين الشعبيّة.

منذ اليوم الأول، حرصت هذه السيدة على معاملتي كضيف محبّب، تطوّرت العلاقة مع الأيام، وصارت تعدّني واحدًا من أفراد أسرتها، وطلبتْ منّي أن أتصرّف كما لو كنت بين أفراد أسرتي. تتعنّى لي بطهي الطعام وتقديمه بنفسها، تتابعني حتى انتهي منه، رغم وجود عاملات ثلاث تحت إمرتها، يمكنهنّ أن يَقمن بتلك الأعمال نيابة عنها.

حرصت السيدة چانتن على شراء كلّ احتياجاتي وتوفيرها لي، بما فيها الملابس، لم أكن أملك غير ما أرتديه، عندما حططتُ في بيتها.

تعيش سيدة هذا البيت وزوجها حياة مرفّهة، يملكان (فيلا) راقية، فيها من الخدم والأجهزة والأدوات ما لا يملكه غير كبار القوم وأثرياؤه في هذه البلاد، فيما غالبية سكّان البلاد الذين تعرفت إليهم، وتفاعلت معهم خلال أيامي الأولى في العاصمة، يعيشون حياة بائسة ومستويات متدنّية من المعيشة.

ورغم الثراء، كانت چانتن امرأة رفيعة الأخلاق، حلوة المعشر، متواضعة الشخصيّة، تحبّ الخير للجميع. رأيت بنفسي كيف تعامل خدمها كأصدقاء أو أفراد من العائلة، وكيف تُحسن إليهم، وكلّما خرجتْ إلى السوق لا تعود إلّا محمّلة بالهدايا التي تغدق بها عليهم، أو ترسلها معهم إلى عوائلهم الفقيرة، أو أهالي مناطقهم من الفقراء والمحتاجين. عُرف عنها في وسطها الاجتماعي أنّها فاعلة خير بامتياز، كما أخبرتني العاملات في منزلها، كما زوجها الثريّ المعروف بأعماله الخيريّة والاجتماعيّة في محيطه القرويّ والجغرافيّ، كذلك في المدينة التي يقيم فيها منذ سنوات طويلة.

لم تكن البساطة والتواضع اللذين تتحلّى بهما السيدة چانتن، تخفيان قوة شخصيتها، والاعتبار الذي يضعه لها الجميع بدءًا من زوجها، وهو أمرٌ نادر في مجتمعٍ ذكوريّ، تخضعُ فيه النساء إلى سلطة الرجل الذي تنحاز لصالحه الأعـراف والتقاليد القديمة بشكل واضـح، وعلى حساب المرأة المنتقصة في حقوقها الأساسيّة، سيّما حقّها في التعليم والرعاية الصحّيّة وتقسيم الميراث العائليّ، وكذلك نظرة المجتمع الدونيّة لها. عرفت بعد سنوات طويلة، أنّ وضع المرأة تغير إلى الأفضل، خصوصًا بعد صدور دستور جديد للبلاد عام 1999، راعى قيم العدالة والمساواة ونبذ كلّ أشكال التمييز ضدّ المرأة.

أما أنا، فرغم كل تلك العناية التي حظيت بها في ذلك البيت، لكني بقيت محاصرًا باليأس، تائها في الضياع، هي الحالة البائسة التي وجدَتنِي عليها سيّدة البيت بعد أيام من وجودي معهم، فطلبتْ منّي الاتصال بأسرتي في البحرين، كذلك أصدقائي في النيبال لطمأنتهم وإطلاعهم على مكان وجودي، لكني رفضتُ ذلك تمامًا. وجدتُ أنّ الاتصال بأسرتي سيضعني في موقف يصعب التعامل معه، سأجد نفسي مضطرًا لإبلاغهم الحقيقة، وأنّي ضللتهم حين أخفيت عنهم موضوع سفري إلى النيبال،

وخشيتي على صحّة والـدي مريض القلب، وسلامة أمّي النفسيّة، ومشاعر جميع أفراد أسرتي لو علموا بوجودي هنا، وما أمرّ به من ظروف، خاصّة أنّ مصيري ما زال مجهولًا، ولا يُنبئ بخير في نهايته. وكنت أخشى الاتصال أيضًا بأصدقائي في النيبال مثل ماريا سلادينو وزوجها، خوفًا من أن يكشفا عن مكاني للشرطة بعد تعرّضهما لضغوط متوقّعٌ حصولها.

في تلك الفيلا الواسعة، أقضي معظم يومي مشاهدًا الأفلام الهنديّة، والأجنبيّة أحيانًا، مستعملًا التلفزيون الملوّن الذي ربّما يكون نادر الوجود في المدينة، وجهاز الفيديو، التكنولوجيا الأحدث حينها لمشاهدة الأفلام المُسجّلة على شرائط مغناطيسيّة. لم تكن النيبال قد بدأت بعد بث قناتها التلفزيونية في 1984، بدأت ذلك في السنة اللاحقة.

أتبادل الحديث مع سيّدة البيت، لا تتقن من اللغة الإنجليزيّة أو الهنديّة سوى القليل، لكنّها تنجح في إيصال فكرتها دائمًا، عبر ما تتلقّفه من كلمات وعبارات من هذه اللغة أو تلك. كانت سعيدة بوجودي معهم في البيت، ربما ملأ بعض غياب أبنائها عنها، أحدهم في مثل عمري، طالما تتذمّر من وحدتها، تكرّر قائلة:

«لقد تعبتُ على تربيتهم حتّى يكونوا قريبين منّي، لكنّهم تركوني وحيدة، غادروا إلى الدراسة في الهند، كما أنّ أباهم دائم السفر بسبب تجارته، وكأنّهم متوافقون أن أعيش عزلة مع نفسي في هذه المدينة الغريبة».

يعود الرئيس مايور من عمله مساءً، حاملاً معه بعض الطعام، كذلك صحف اليوم، بينها واحدة ناطقة باللغة الإنجليزيّة. أتلقّفها باهتمام شديد في اللحظة التي يدخل فيها المنزل، مهتمًا بمعرفة آخر الأخبار المتعلّقة بقضيّتي، إنْ كانوا قد عثروا على الشيخ القحطاني، أو فكّوا لغز اختفائه، أو أيّ شيء يُبيّن أنّه ما زال على قيد الحياة.

كنت مهتمًا أيضًا، بالأخبار القادمة من الهند المضطربة، بسبب تطوّر صراعها الدمويّ مع جماعات السيخ الانفصاليّة، ليُضاف إلى الصراع الطويل الأمد في ولاية كشمير، والذي تسبّب بثلاثة حروب بين الهند وباكستان.

بدأت متابعة الصحف وقراءتها بشكل يومي، وأنا في الثانية عشرة من عمري تقريبًا، بعد حدث تاريخيّ خطير هزّ المجتمع البحرينيّ البسيط الذي عشت وترعرعت فيه، وجدتُ نفسي أتابعه باهتمام كبير. الحدث هو اغتيال رئيس تحرير مجلّة

المواقف المحلّية الأستاذ عبدالله المدني في نوفمبر 1976، تبعه بعد أشهر تنفيذ حكم الإعدام في 3 أفراد أدانتهم المحكمة بتهمة قتله. كانت جريمة صادمة للمجتمع كله الذي لم يشهد حدثًا بفظاعة هذه الجريمة منذ أن وعيتُ في هذه الدنيا. حينها لم تكن هناك غير صحيفة محلّية واحدة صدرت قبل أشهر من عمليّة الاغتيال، إلّا أنّني كنت أتابع وقتها صحيفة الخليج التي تصدر بإمارة الشارقة، وتصل إلينا في اليوم التالي، كمعظم البحرينيين المهتمّين بالشأن العامّ.

أتلقّف بشكل يومي الصحيفة الإنجليزيّة التي يأتي بها الرئيس مايور، أقرأ كلّ ما فيها، وأستمع إلى ما يترجمه لي من الصحف الناطقة بالنيباليّة عن قصّتي والقحطاني. كان محزن لي أن أرصد كيف نُسجت حولنا القصص والحكايات في تلك الصحف. افترضت تلك الصحف تآمري مع الشيخ القحطاني، والتخطيط المسبق لعمليّة نصبٍ واحتيالٍ نستغل فيها فئة الفقراء المتطلّعين للعمل في الخارج. بل مضت الصحف إلى أبعد من ذلك، ربطتنا بجرائم حدثت في دول أخرى، أو قصص وأساطير وهميّة نابعة من الخيال، أو عمليّات إجراميّة حصلت فعلًا، لكن مرتكبيها آخرون. اتفقت جميع الصحف على إدانتنا

واتهامنا بالنصب والاحتيال، جازمة أنّنا توارينا عن الأنظار، أو غادرنا البلاد حاملين معنا الأموال المسروقة.

صرنا أنا والقحطاني حديث الساعة، والصحف المحلّية، كذلك الرأي العامّ. لم يطرح أحد فرْضيّة اختطاف الشيخ أو قتله، ولا فرْضيّة براءتي حتّى تثبت إدانتي، ضاعت هذه القاعدة القانونية وسط حجم الخسائر الفادحة وعدد الضحايا الكبير.

أشعر بألم نفسي لا يوصف، كلما قرأت تجريمي في تلك الصحف ونعتهم لي بالمحتال، أنا الذي سعيت نحو خدمة الفقراء والشيخ القحطاني من أجل خير الجميع، أخّرت عودتي لدراستي كي أساعد كل هؤلاء بقدر ما أستطيع. لكن هكذا جرت الأمور التي يستحيل مواجهتها أو تفنيدها، سيما وأنا متخفٍّ عن الجميع، بعيد عن وطني، تائه الفكر، لا أعرف كيف أتدبّر أمري دون مال ولا وثيقة سفر، مثل لاجئ تتلاطم سفينته أمواج المحيط، ولا مصير محتوم أمامه سوى الغرق.

تشغلني الأخبار التي تأتي عبر الحدود، خصوصًا المتعلّق منها بالصراع مع بعض الجماعات السيخيّة، وتداعيات هجوم القوات الهنديّة على المعبد الذهبيّ (هارميندر صاحب) في إقليم البنجاب أثناء وجودي هناك. هذه الأحداث هيمنت

على محطّات تلفزيون وصحف العالم وقتها وصارت حديث الساعة، وكنت أتوقّع أن يقوم السيخ بعمليّات انتقام بعد اقتحام معبدهم، لكنّ لا أعلم متى ولا حجم ذلك.

يأتي اهتمامي بتلك الأحداث؛ لأنّها تهزّ البلاد التي أقيم فيها وأدرس، وبمثابة وطن آخر يعنيني فيه الاستقرار والسلام. كذلك شغفي بالحريّات وحقوق الإنسان وحركات التحرّر والصراع من أجل الاستقلال، منذ كنت فتى يافعًا في مدرسة الحورة الثانويّة، ما دفعني للتخصّص في العلوم السياسيّة، رغم إدراكي أنه لن يخدمني مهنيًا، بل ربّما جلب لي المتاعب في حياتي المستقبليّة.

أجلس مساءً مع الرئيس مايور، نتبادل الأفكار التي لدينا، والمستجدّات المعنيّة بقضيّتي، كذلك الخيارات المتاحة أمام خروجي من البلاد. ناقشنا الفرص والخيارات المتاحة، وإمكانيّة مواجهة المزاعم ضدّي في المحاكم المحلّيّة، لكنّه ترك لي القرار النهائيّ في الخيارات التي أجدها مناسبة لخروجي من البلاد، بما فيها تهريبي بطريقة غير مشروعة عبر وثائق مزوّرة، خصوصًا مع عدم جدوى اللجوء للإجراءات القانونيّة المحلّيّة، في ظلّ وجود إدانة مجتمعيّة مسبقة صنعتها الصحافة.

كانت لديّ شكوك في إمكانيّة نجاح أيّ عمليّة للهروب، مُفترضًا أن يكون اسمي وصورتي عُمّمتا على المنافذ الحدوديّة، وجارٍ البحث عنّي بعد أن صدرت الأوامر باعتقالي. كما لا أملك المال الذي يتطلّبه السفر إلى الهند أو البحرين، وإن كنت متأكّدًا أنّ الرئيس لن يبخل عليّ بالمال من أجل تخليصي ممّا أنا فيه، إلّا أنّ ذلك سيشكّل لي مزيدًا من الإحراج، سيّما بعد كلّ الخسائر التي تكبدها.

أسأله بعد كل جلسة نقاش عمّا يجول في باله، أو يفضّله من رأي حول خطط العودة، لكنّه يطلب منّي التريّث وعدم الاستعجال، خصوصًا أنّ القصّة ما زالت تشغل الصحافة والرأي العام، والأوضاع ساخنة، لكنّ يتّفق كلانا أنّ الخروج من البلاد بطريقة أو أخرى هو الخيار الأسلم الذي سيحميني من نقمة الفقراء، وملاحقات رجال الشرطة، سيّما في ظلّ غياب السبل الطبيعيّة الأخرى، أو أيّ تمثيل دبلوماسيّ لبلد خليجيّ يمكن اللجوء إليه.

أمر آخر يشغل بال الرئيس من اعتقالي أو محاكمتي، لم يبده صراحة، لكنّي أدركته من سياق حديثي معه منذ كنّا في سورو، عرفتُه أيضًا من سيّدة البيت التي لا تكتم سرًّا. كان

قلقًا من التبعات التي يمكن أن تترتّب عليه في حال اعتقلت، أن يجد نفسه متورّطًا في القضيّة نفسها عبر ما حدث لي، ابتداء من اختطافي من كونتيبور إفرست، ونقلي إلى سورو، وحتّى عودتي واختبائي في بيته، جميعها أفعال غير قانونيّة أمر بارتكابها بمساعدة رجاله. كنت متيقّنًا أنّ نفوذه الواسع، وعلاقاته الممتدة ستخرجه من القضيّة بسهولة، إلّا أنّها تبقى شائبة سلبيّة تلازم صورته في المجتمع الذي بنى لنفسه فيه سمعة طيبة.

رغم الظروف الظالمة التي واجهتها، والمخاطر التي وقعتُ فيها، والحالة النفسيّة المتردّية التي أعيش وطأتها، فقد كان يشغلني السؤال الذي لم أجد له جوابًا: أين الشيخ القحطاني؟ صرت أكثر ميلاً للاعتقاد أنه قتل، وألقيت جثته في مكان بعيد، وأنه ضحيّة جريمة استهدفته من أجل المال، خصوصًا بعد أن تحدّث لي عن ملاحقته أكثر من مرّة، ورصدتُ ملاحقتي أيضًا. كانت مجرّد فرضية، لكنها مؤلمة ومحزنة، سيّما أنّ لي معه ذاكرة طيبة وأوقات قضيتها مستأنسًا بحضوره حتّى بتنا صديقين، رغم الفوارق العمريّة بيننا والمستوى الاجتماعيّ والاقتصاديّ.

كان يزعجني سماع من يسيء له، هؤلاء الذين يتّهمونه ويُجرِّمونه في الصحافة المحلّيّة، وينعتونه بالنصب والاحتيال. وإذا كنت حينها لا أملك تأكيدًا بخصوص موته أو حياته، فإنني متأكد من استحالة مغادرته البلاد دون جواز السفر.

كعادته، عاد الرئيس مايور من مكتبه في ذلك المساء، متأبّطًا مجموعة من الصحف في يد، ورافعًا إحداها في اليد الأخرى. الصحيفة الحكوميّة الناطقة بالإنجليزيّة تحديدًا، كأنّه يحاول لفت نظري لأمر مكتوب فيها، وقبل أن يناولني إياها، سألني:

- «هـل سمعت برجل أعمال من البحرين اسمه حسن البوراشد؟»

لم أستوعب سؤاله من الوهلة الأولى، ولا الاسم الذي سأل عنه، وقبل أن أنطق مجيبًا أضاف موضّحًا:

- «صحف اليوم تتحدّث عن زيارة السيد حسن البوراشد، ومجموعة من رجـال الأعمال الأجانب إلـى مملكة النيبال، سيبقون فيها عدّة أيام»

لا أعلم لماذا تنفّستُ الصعداء، حينما سمعت اسم ذلك الرجل القادم من البحرين، والخبر الذي حمله لي، لكنّي شعرت بانفراجه قادمة، ربّما تطوي صفحة محنتي التي أقف عاجزًا أمامها، كدتُ أن أطير فرحًا لهذه المفاجأة السارّة،

مددت يدي متلهفًا لالتقاط الصحيفة، وأنا أردّ على استفساره حول الرجل:

- «هذا الرجل من أسرة تجاريّة معروفة، سمعت به كثيرًا، لكن لا صلة شخصية بيننا ولا قرابة عائليّة، ولا شكّ أنّه يكبرني سنًا ويأتي من جيل مختلف»

تصفحت الصحيفة حتّى وصلتُ إلى الصفحة التي أشار إليها، وقرأتُ الخبر: «يزور البلاد رجل الأعمال البحريني حسن البوراشد، ضمن وفد من المستثمرين، ورجال الأعمال الأجانب، للمشاركة في مؤتمر الاستثمار بمملكة النيبال «بين التحدّيات والفرص المتاحة»، افتتح صباح اليوم في فندق بوخارا انتركونتيننتال، وتستمرّ فعاليّاته على مدى ثلاثة أيام، ومن المتوقّع أن يلتقي البوراشد مجموعة من رجال الأعمال النيباليّين لبحث بعض المشاريع الاستثماريّة، قبل عودته للعاصمة كاتمندو، ولقاء بعض المسؤولين الحكوميين».

التفتَ إليّ الرئيس منتظرًا رؤية ردّ فعلي، سألته على الفور:

- «كيف يمكنني الوصول إلى هذا الرجل قبل مغادرته البلاد؟ إنّها فرصة وعلينا اغتنامها بترتيب لقاء معه في أسرع وقت ممكن. أعتقد أنّه لن يتردّد في مساعدتي، والوقوف معي متى ما عرفني وعرف عائلتي وسمع قضيّتي»

كلا عائلتينا معروفتين في البحرين، تعرف كل واحدة الأخرى حقّ المعرفة، وبشكل عام، كون البحرين صغيرة لا يتجاوز عدد مواطنيها ربع مليون نسمة آنذاك، جعل العوائل يعرفون بعضهم بعضًا وإن لم يلتقوا. كما أن لدى البحرينيين من الأخلاق والشهامة وتحمّل المسؤوليّة، ما يؤكد لي أن الرجل لن يتخلّى عني وسيبذل ما في وسعه لمساعدتي.

فاجأني الرئيس مايور باستعداداته المسبقة حين قال:

- «لقد استبقت استفسارك، وحصلت على رقم هاتفه في الفندق الذي يقيم فيه، من أحد أصدقائي، أحد رجال الأعمال النيباليّين الذين يفترض أن يلتقيهم البوراشد في برنامج زيارته، لكنّه في مدينة بوخارا، وهي بعيدة عن العاصمة التي نقيم فيها، ويستغرق الوقت إلى هناك بين ست إلى سبع ساعات، أي أنّنا لا نستطيع زيارته، لكنّنا قادرون على التواصل معه هاتفيًا»

أنهى عبارته، وهو يُخرج قصاصة ورق من جيبه كُتب عليها رقم هاتف الفندق، التقطت القصاصة متلهّفًا، لا أكاد أصدق أنّني سأتحدّث إلى شخص قادم من بلدي البحرين، لا بدّ أنّه سيستمع لي ويفهمني أكثر من أيّ فرد آخر.

يعقد الاجتماع في مدينة (بوكارا) أو (بوخارا)، ثاني أكبر مدن النيبال بعد العاصمة كاتمندو، واحـدة من الوجهات السياحيّة المهمّة والأكثر شعبيّة، يزورها معظم السيّاح الأجانب من أجل الاستمتاع بمشاهدة سلسلة جبال الهملايا المحيطة بها أو تسلّقها، إلى جانب البحيرات المنتشرة حولها، وركوب القوارب النهريّة لمصارعة المياه الجارفة المنحدرة بسرعة من أعالي الجبال.

20
السيد البوراشد

كانت الساعة الثامنة مساءً عندما تحدّثتُ إلى موظف الفندق بصوت مرتبك، ونبرات مرتجفة تعكس الترقّب والاضطراب الذي كنتُ عليه. طلبتُ تحويلي إلى غرفة رجل الأعمال البحريني حسن البوراشد. لم يكن هناك. يحضر مأدبة عشاء أقامها بعض المسؤولين خارج الفندق. تركت رسالة ترحيبية لدى موظف الاستقبال، مُعرّفًا باسمي وعائلتي، ثمّ تركت رقم هاتف منزل الرئيس، طالبًا منه ضرورة الاتصال نظرًا لخطورة الأمر.

تدور الافتراضات في مخيّلتي حول ردّ فعل الرجل، فهو لا يعرفني على المستوى الشخصيّ. أسأل نفسي كيف سيتعاطى معي وحكايتي، هل سيصدقني، أم سيدينني مثل هؤلاء الذي سبق حكمهم معرفتهم. ساعتان طويلتان من الانتظار القلق، حتّى رنّ جرس الهاتف، أسمع صوته للمرة الأولى في ذلك البيت، رمقني كل من الرئيس وزوجته لأجيب، رفعت السماعة قبل أن يكمل رنّته الثانية، كان البوراشد نفسه متّصلاً.

رحّبت به بلهجتي البحرينيّة قبل أن أبدأ بتعريف نفسي وعائلتي، محاولًا استكشاف إنْ كان يعرفها أو له صلة مع أحد أفرادها:

- «نعم لقد عرفت اسمك من موظّف الاستقبال، وعلى معرفة تامّة بعائلة (الفرج) التي يعرفها الجميع في البحرين، كما أنّي أعرف والدك، كان يعمل في إدارة الزراعة وأحد مؤسّسيها، وكذلك أتعامل مع عمّك المستشار العقاري الذي لي معه الكثير من الأعمال، وأعتمد عليه كثيرًا في تقييم أسعار العقارات عند شرائها أو بيعها، وأعدّه من أفضل المستشارين العقاريين، وأكثرهم مصداقيّة».

أشعرتني هذه الافتتاحية بكثير من الطمأنينة والارتياح، أدركتُ أنّه لن يتركني أصارع مشاكلي وحيدًا بعد اليوم. واصل حديثه متسائلًا:

- «أخبرني ماذا تفعل في هذه البلاد؟ وما سبب اتصالك؟ وما الأمر المستعجل الذي طلبتني من أجله».
- «أعتذر على الإزعاج، لكني واقع في أزمة كبيرة تفوق قدرتي على التعامل معها، بل تهدّد مستقبلي، لا أعرف كيف أتصرّف أو أخرج من هذا المستنقع الذي وجدت نفسي فيه»

- «خيرًا.. أخبرني ما الأمر؟»

أخبرته كل ما حدث معي منذ قررت السفر إلى النيبال، حتى ساعة مكالمتي إياه. أطلعته على حكايتي كلها مع الشيخ القحطاني والظروف التي مررت بها، كذلك علاقتي مع الرئيس مايور التي بدأت باختطافي حتّى انتهى بي الحال ضيفًا في بيته، وجدت نفسي أشرح له كلّ التفاصيل والحيثيّات والتعقيدات، وأجيب عن أسئلته التي راح يطرحها مثل مُحقّق يريد التأكّد من مصداقيّة القضيّة والمتهم الذي أمامه. كانت دهشته واضحة من خلال نبرة صوته وتكرار أسئلته. علّق قائلًا:

- «أنا في غاية الذهول مما سمعت. يا لها من حكاية غريبة. ظننت للحظات وكأنّك تنقل لي مشاهد تمثيليّة مقتطعة من فيلم سينمائي، لا قصّة واقعية لإنسان يتحدّث معي».

بعد برهة، قال متسائلًا: «لكن أخبرني الآن، كيف أستطيع مساعدتك؟»

- «سيّدي الكريم. إنْ كان أحد في هذه البلاد يهمّه أمري (غير الرئيس الـذي أقطن بيته)، ويمكن أن يساعدني لأخرج من هذا المستنقع، فلن يكون سواك؛ لأننا أبناء بلد واحد، وعوائلنا قريبة من بعضها البعض، وهو ما دفعني للاتصال بك حالما قرأتُ عن وجودك في هذه البلاد».

- «وما المساعدة التي أستطيع تقديمها؟ هل تحتاج للمال مثلًا لتدبّر به أمرك؟»
- «لست مهتمًّا بالمال سيّدي الكريم، ولا أعرف كيف أتدبّر به أمري، أو أخدم قضيّتي في هذه المرحلة الخطرة، أجد نفسي عاجزًا، لا أملك حيلةً للخلاص من ورطتي، ومن البلاد التي ستكون مقبرتي إنْ لم أفرّ منها سريعًا».

أوضحت:

- «كلّ ما أحتاج إليه الآن أن ألتقيك في أقرب فرصة ممكنة، وأطلعك على القضيّة كلها والعراقيل التي أمامي، وعندها نستطيع أن نبحث في كيفيّة الخلاص من هذه المشكلة، وما أنت قادر على تقديمه في سبيل ذلك».

أضفت:

- «من الجيدّ أن تتعرّف على الصورة كاملة، والاستماع إلى الرئيس مايور، كي تعرف جانبه من القصّة التي بات ضحاياها كثيرين، ومنهم هو نفسه، كما أنّه واحد من تجاّر المدينة المعروفين بسمعته الطيّبة، وأعماله الخيريّة والاجتماعيّة».
- قال البوراشد متعجّبًا:

- «لا أفهم كيف تقيم بإرادتك، وإدراكك العقلي في منزل من أدار عمليّة اختطافك، أرى في هذا أمرًا مثيرًا للاستغراب، وربّما عليّ أن أستمع له مباشرة، وأعرف منه وجهة نظره».
- «أتفهم استغرابك للأمر، لكنّه موضوع شائك لا أستطيع شرحه في مكالمة هاتفيّة سريعة. لكنه رجل يستحقّ التقدير والاحترام، ولولاه لكان الأمر أكثر سوءًا، وسأحدّثك بتفاصيل أكثر متى ما سنحت لنا فرصة اللقاء».
- «في الحقيقة هذه قضيّة غريبة، لم يسبق لي التعامل مع شيء على شاكلتها، مع أنّني سمعت من بعض الحاضرين شذرات يتناقلونها، لكن لم أُبد اهتمامًا».

أضاف:

- «سأعمل كلّ ما في وسعي لمساعدتك، لكن بعد أن أتأكّد من عدّة أمور حول القضيّة نفسها، ومن أطراف أخرى، سيّما أنّها تتضمّن الكثير من التعقيدات والتساؤلات لم أستوعبها بعد. أرجو أن تمنحني بعض الوقت لأجري بعض الاتصالات، وأقوم ببعض المشاورات مع أحد

أصدقائي المقرّبين في هذه البلاد، بعدها يمكنني إطلاعك بما أنا قادر على فعله، وسأبقى على تواصل مع رفيقك الرئيس مايور لأناقش معه الموضوع وتفاصيله، بعد التأكّد من مصداقيّته وعلاقته بالأمر، خصوصًا أنّني لا أريد أن أجد نفسي واقعًا في الورطة نفسها التي جئتُ لمساعدتك فيها».

قبل أن ينهي مكالمته طلب أن يتحدّث مع الرئيس مايور. ابتدأ مايور بمقدّمته المعروفة عن حياته العسكريّة، ورجال الگوركا الذين ينتمي لهم حتّى ختام القصّة التي انتهت بي لاجئًا في بيته متواريًا عن الأنظار. ثمّ عن الخيارات التي لدينا، فيما راح السيّد البوراشد يستمع أحيانًا، ويستفسر أحيانًا أخرى.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة ليلًا، عندما انتهى الاتصال الذي زرع في داخلي بعض الأمل، متغلّبًا على حالة اليأس التي وصلتُ إليها، وشعرت أنّ الفرج بات ممكنًا، وربّما في وقت ليس ببعيد. بعد الانتهاء من المكالمة التفت لي الرئيس مايور يسألني قائلًا:

- «ما رأيك في السيّد البوراشد؟ وما هو انطباعك عنه بعد المكالمة؟»

تذكّرت كلمات من القرآن الكريم، كان أبي يردّدها دائمًا عندما تُفرج أمامه الصعاب بعد عسر شديد، حتّى حفظتُها عن ظهر قلب: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقلت:

- «كأنّ الله أراد أن يكون لي مع هذا الرجل مخرجًا».

جلست مع الزوجين نتحدّث عن السيّد البوراشد، وظهوره المفاجئ على المشهد، ودخوله على خطّ سير القضيّة، وعمّا يمكن تحقيقه من وراء وجوده. أجمعا أنّ وجود هذا الرجل سيساهم في إيجاد حلّ للموضوع، تمامًا كما كنت أشعر، وجدت الرئيس متفائلًا بشكل كبير، وسعيد بوجود رجل مهمّ بحجم البوراشد يشاركنا النقاش، والقرارات التي نحتاج لها.

استأذنتنا سيّدة البيت، وذهبت لتخلد إلى النوم بعد أن غارت عينيها – الغائرتين أصلًا – من شدّة النعاس، لحقها زوجها بعد قليل، وهو مشغول البال كما يبدو، في حين بقيتُ بعض الوقت أفكّر فيما يمكن له أن يحدث في الأيام القادمة، أعتقد أنّها ستكون حاسمة في تحديد مصيري. وكلّ ما كنت أخشاه لحظتها، أن يغيّر السيّد البوراشد رأيه في مساعدتي، بعد أن يراجع نفسه، ويشاور أصدقاءه، ويدرك أنّه قد يكون لقضيّتي

تبعات سلبيّة تقع عليه أو تسيء إلى صورته، أو يرى فيها عبئًا ثقيلًا يُمكن أن يُدخله في ورطة، لم يحسب لها بصورة جيّدة. بقيت مشغول البال حتّى غلبني النوم على الأريكة المجاورة للهاتف، متوسّدًا مخدّتها المخمليّة الخضراء.

استيقظت الساعة الثامنة صباحًا على صوت الهاتف، ومجيء الزوجين في ترقّب، كانت المكالمة من رجل الأعمال النيبالي صديق السيد حسن البوراشد، إلى الرئيس مايور، تبيّن من خلال أحاديثهما الترحيبيّة المتبادلة، وعبارات التبجيل والتوقير بأنّهما على معرفة سابقة ببعضهما البعض. تبادلا الحديث حول قضيتي، لم أستوعب معظم ما دار بينهما؛ لأنهما يتحدثان بلغتهما، رغم أنّهما طعّما عباراتهما ببعض الكلمات الإنجليزيّة. أخبرني الرئيس أن الغرض من اتصاله الاستفسار عن القضية ومدى مصداقية المعلومات التي ذكرتها، وإنْ كنتُ متورّطًا فيما أنا مُتهم فيه بأيّ شكل من الأشكال. لم تختلف إجابة الرئيس عن تلك التي قلتها للسيّد البوراشد، لكن الأهمّ في ذلك الاتصال هو أنّه كان مؤشّرًا إيجابيًا يُبيّن جدّيّة السيّد البوراشد، واهتمامه بقضيّتي، وأنّه قد بدأ بالتحرّك من أجل مساعدتي.

توالت الاتصالات إلى الرئيس خلال ذلك اليوم، إلى جانب ما أجراه بنفسه من مكالمات لم يُطلعني عليها، وحين سألته عنها أجاب:

- «لا تستعجل الأمـور، أنـا على تواصل مع صديقك البحريني البوراشد، يبدو أنّه رجل طيّب، ويـودّ لك الخير، ويعمل بجدّ على مساعدتك، وأنا سعيد بوجوده واهتمامه الواضح بالقضيّة، وقد صرنا الآن نعمل معًا لوضع تصوّر عن خطّة خروجك من النيبال».

وأضاف:

- «سيطلعك البوراشد على كل شيء متى ما اكتمل التصوّر عندنا، وكنّا على استعداد للمضي إلى الأمام».

بعد مرور ليلتين على مكالمته الأولى، تلقيت صباحًا اتصالاً من السيد البوراشد:

- «أعتذر عن تأخري في الاتصال بسبب تعقيدات قضيّتك، كذلك محدوديّة الإمكانيّات العمليّة، وهي عناصر علينا أخذها في الاعتبار، لكنّني قضيت معظم اليومين الفائتين أتشاور مع رفيقي والرئيس حول ما يمكننا عمله، تداولنا بعض الأفكار والخيارات التي يمكننا الحديث عنها».

أضاف معتذرًا:

- «أرجو ألّا تلومني إنْ قمت ببعض الاتصالات كي أتحقّق من شخصيّتك، وقصّتك المتشعّبة، وهو أمر بديهي كان لا بدّ منه مقابل قضيتك الكبيرة، واعذرني على ذلك».
- «أتفهّم ذلك تمامًا وأراه أمرًا طبيعيًا، الأهم أنّك عدت وفي جعبتك ما تقوله لي، والأكيد أنّي أشعر براحة بال، وبعض الطمأنينة التي أحياها اتصالك الأوّل، أوجدَ عندي أملاً كنت فقدته. أرجو من الله أن تنجح في تحريري من قيود هذه القضيّة».
- «لا شك أنّ وضعك أفضل مني، على الأقل استطعت أنت النوم، أما أنا فكنت مشغولًا بين أروقة المؤتمر، ومتابعة الاتصالات بخصوص قضيّتك التي حالت بيني والراحة».

ثمّ أضاف:

- «على كلّ حال، سأتحدّث لك بالتفصيل عن كلّ ذلك عندما نلتقي في الاجتماع الذي أعددت له على عجالة مساء هـذا اليـوم، في مطعم گازيبو وسـط العاصمة كاتماندو. المكان يملكه صديقي، هو ذاته من تواصل

مع رفيقك الرئيس بالأمس، طلبت منه التأكّد من خلو المطعم من الزبائن وقت لقائنا حماية لنا جميعًا».

- «وكيف ستحضر الاجتماع، وأنت في بوخارا؟»
- «سأنام قليلًا، ولو لساعة من الوقت، ثمّ أتحرّك نحو كاتمندو، هي مسافة قصيرة لا تتعدّى مائتي كيلومتر، إلّا أنّ تضاريس البلاد ووعورة طرقها، تجعل الانتقال إليها بالسيارة يستغرق وقتًا أطول، لكن تأكّد بأنّني سأكون في انتظاركم في المطعم، في الوقت المحدّد».
- «أقدر كثيرًا اهتمامك الذي أبديته منذ اللحظة التي طلبتك فيها، وتجاوبك السريع مع قضيّتي، وهذا يجعلني لا أنسى فضلك طوال حياتي».

جلست أحسبُ الساعات والدقائق حتّى المساء، اللقاء الذي سيُحدّد فيه المسار والمصير. السادسة مساء، أقلّتني سيارة سوداء يقودها سائق البوراشد إلى مطعم گازيبو، انطلقت بي مسرعة في شوارع العاصمة التي أراها لأوّل مرّة منذ عدّة أيام. سبقني الرئيس بساعتين أو أكثر ضمن ترتيبات مسبقة مع السيّد البوراشد ورفيقه النيبالي. بدا المطعم النيبالي التقليديّ من فئة النجوم الخمس، يفصح عن هذا المستوى فخامة المبنى

الحديث المبنيّ على الطريقة النيباليّة التقليديّة، والمطلي بلون ماروني غير لامع، وسقفه القرميدي الأزرق الفاخر، ونوافذه الخشبيّة المزخرفة بأجمل المنحوتات اليدويّة.

استقبلني اثنان من موظّفي المطعم استحسنت مظهرهما، يرتديان ملابس نيباليّة تقليديّة. يقف أحدهما أمام بوّابة المطعم مراقبًا، في حين تقدّمني الآخر ليدلّني إلى مكان الاجتماع. في الداخل طاولات خشبيّة خالية من الزبائن، عدا واحدة كبيرة، جلس حولها أربعة أفراد، جلس الرئيس مايور على طرف، والسيّد حسن البوراشد على الطرف المقابل له، عرفته سريعًا من ملامحه الخليجية وبشرته السمراء. وقف حالما رآني مقبلًا وتقدّم خطوات نحوي، مادًا يده لمصافحتي مرحبًا مبتسمًا.

بدا رجلًا قويّ البنية، طويل القامة، مليح الوجه، أنيق المظهر، في منتصف الثلاثينيّات من العمر، يرتدي بدلة غربيّة زرقاء، وربطة عنق حمراء مرقّطة بدوائر زرقاء. يجلس على الطاولة ذاتها رجلان غريبان، فزّا من مكانهما بدورهما مرحبين ومصافحين، في حين بقي الرئيس جالسًا مكانه، مبتسمًا، ملوّحًا بيده ترحيبًا بي.

كان واضحًا على أحد الرجلين الثراء، من خلال الملابس

الغربية الفاخرة التي يرتديها، والساعة الرولكس ذهبية اللون، كذلك الإكسسوارات الذهبيّة التي تزين يده وملابسه. رحّب الرجل بي باللغة الإنجليزيّة. عرفت من السيّد البوراشد أنّه رجل الأعمال النيباليّ المعروف پرساد گوبتا صاحب المطعم الذي نجلس فيه، كذلك سلسلة من المطاعم الأخرى المتوزّعة بين النيبال والهند المجاورة، وهو صديق السيّد البوراشد منذ أن كانا طالبين يدرسان التجارة الدوليّة لدى إحدى الجامعات البريطانيّة في مدينة نيوكاسل، شمال شرق إنجلترا بداية السبعينيّات من القرن المنصرم.

كان جليًّا أنّه الشخص الذي يثق به البوراشد في هذه البلاد، ويشترك معه في بعض المشاريع التجارية. أمّا الرجل الآخر، فهو السيد كرشنا بالا، هندي الأصـل، أسمر نحيف، قصير القامة، بدا كبائعي العربات، جاء به الرئيس مايور إلى الاجتماع الذي سبقوني إليه بوقت قصير. لفتني في هذا الرجل حمرة أسنانُه، بدت كمصباح نوم أحمر أو أن فمه ينزف دمًا. سريعًا ما أدركت أنّه يمضغ الپان النباتي، وهو مُستحضر يجمع أوراق التنبول وشرائح من جوز الأريكا، يُستعمل على نطاق واسع في شبه القارة الهنديّة. الكثير من الدول منعت استعماله لضرره

على البيئة والمظهر العام، يقوم مستعملو البان عادة ببصق عصارته على الجدران أو في الأماكن العامّة، ما يشوّه صورة المباني السفلية في الكثير من مدن العالم.

عرفت من الرئيس مايور أنّ هذا الرجل، هو رجل المهمّات الصعبة، ستُوكل إليه مهمّة تهريبي خارج البلاد، بعد أن تمّ الاتفاق على التفاصيل في هذا الاجتماع. سيخبرني السيّد كرشنا بالا عن مهنته لاحقًا:

- «تخصّصت في تهريب الأجهزة الإلكترونيّة كالتلفزيونات والفيديوهات والمسجّلات اليابانيّة والصينيّة إلى الهند، تحديدًا إلى سوق شعبي على الجانب الهنديّ من نقطة سنوالي الحدوديّة. أمّا تهريب البشر فهي مهمّة أقوم بها لأوّل مرّة».

ما إن جلست إلى الطاولة حتى كـرّرت اعتذاري للسيد البوراشد على ما سبّبته له من إرباك في برنامج عمله، ورحلته كلها. ردّ قائلًا:

- «لا عليك من ذلك، فأنا قادر على التعامل مع المستجدّات، وإعادة جدولة برامجي، الأهمّ هو ضمان سلامتك الآن وإيجاد مخرجٍ لك من هذه المشكلة الكبيرة التي وقعت فيها».

ثم بدأ مذكّرًا ببعض الأمور التي وجد ضرورةً في إخباري بها:

- «قبل أن أشرع في الحديث حول الموضوع الرئيس، سأطلعك بـدايـةً على بعض المحاذير التي أخشى خطورتها، وأرى من الضروريّ الحصول على تعهّدات جدّيّة منك قبل انخراطي في تقديم أيّ شكل من أشكال الدعم».
- «أكيد سيّدي. أنا على استعداد لأيّ شيء يساعد على خلاصي من هذه الورطة، وهذه البلاد».
- «هناك أمر يعنيني بشكل كبير، سيّما صورتي في المجتمع الذي جئت منه في البحرين، أو أمام القانون وحاكميّته، فكما تعلم أنا رجل أعمال لي سمعة طيّبة هناك ومن أسرة تجارية معروفة، ولي علاقات واسعة مع جميع القطاعات التجاريّة الخاصّة أو العامّة، ومـع أطـراف المجتمع ومؤثريه، كذلك أشترك مع بعضهم في علاقات ومشاريع تجاريّة، كما أنّ أخي الأصغر يشغل مركزًا حكوميًّا رفيعًا، ومعروف عنا انضباطنا واحترامنا للقانون والنظام العامّ».

ثمّ أضاف مبرّرًا تلك المقدّمة التي لم أعرف سبب ذكرها لي قائلًا:

- «ألفت نظرك إلى هذه الحقيقة؛ لأنّي غير متأكّد من صوابيّة فعلي هذا الذي أنوي القيام به في مساعدتك وإخراجك من هذه البلاد، أخشى أن يتعارض هذا الفعل مع الانضباط القانوني الذي عُرفت به، لكن الله يعلم بأنّني أقوم بذلك مدفوعًا بقيمي الإنسانيّة البحتة، واحترامي لعائلتك ذات السمعة الطيّبة، ومن أجل تخليصك من هذا الجحيم الذي وقعتَ فيه دون ذنب اقترفته».
- «أعلم ذلك سيّدي، وأنا مقدّر لك هذه الوقفة التي لن أنساها طوال حياتي».
- «أرجو ألّا تفهم قولي هذا، وكأنّني أطلب منك عبارات الشكر والثناء، إنّما أقول ذلك لأمرين مهمّين أطلبهما منك، وأرجو الالتزام بهما بعد لقائنا في هذا اليوم».
- «بالتأكيد سيّدي، وهذا وعد منّي إليك».
- «أوّلًا أناشدك ألّا تتحدّث لأحد عن قصّة مساعدتي لك على الإطلاق، ولا حتّى عن معرفتك بي، أو الإشارة لأيّ لقاء قد تمّ بيننا تحت أيّ ظرف من الظروف، والأمر الآخر هو ألّا تتواصل معي بعد عودتك إلى البلاد مطلقًا حرصًا منّي على ألّا أتورّط في قضيّتك، أو أُتهم بتهريبك

أو تشجيعك على كسر القانون ومخالفته، ولو أنّ هذا يحصل في بلاد بعيدة عنا».

- «هذا وعد منّي، ولن يتمّ الإخلال به خاصّة بعد كلّ هذا الجهد الذي تقوم به من أجلي».

كان القلق واضحًا عليه من أن يتعرّض اسمه وسمعته لأيّ ملاحقات قانونيّة، في المستقبل، وهي حالة الحذر التي سيشعر بها أيّ رجل أعمال في حجمه وموقعه. لكن التأكيدات بالالتزام التي أعطيتها له أشعرته بشيء من الطمأنينة والارتياح، فانتقل للحديث حول الشقّ العمليّ المعني بخروجي من البلاد، وهو الذي اجتمعنا من أجله قائلًا:

- «أعتقد أنّ لديك خيارين للخروج من هذه الأزمة، ناقشناهما أنا والرئيس وبعض الزملاء قبل لقائنا هذا، عليك أن تختار أحدهما بنفسك، بعد أن نطلعك على تفاصيلهما، وتأكّد أنّني سأكون معك في أيّ من خيار تختاره حتّى تخرج من هذه البلاد سالمًا، كما هو الرئيس أيضًا».
- «وما الخياران اللذان تتحدّث عنها سيد حسن؟».

- «الخيار الأوّل هو أن تُسلّم نفسك للسلطات الأمنيّة بصورة طوعيّة، وتتبع الإجـراءات القانونيّة الطبيعيّة أيّ تـروي للشرطة والجهات المسؤولة القصّة كلها وتفاصيلها، كما حصلت لك، وعند موافقتك سأتكفّل شخصيًا بتوكيل أفضل المحامين في هذه البلاد، وأكثرهم حرفيّة لمتابعة قضيّتك، والترافع عنك في جميع مراحل القضيّة، ودرجات التقاضي، والتأكّد من أن يتمّ تمثيلك بصورة صحيحة، ولن أتركك وحيدًا طوال فترة التقاضي، وهي إجراءات ربّما تستغرق وقتًا قد تصل لبضعة أشهر أو أكثر، لكنّها ستفضي في النهاية إلى براءتك، وتبييض ملفّك، وذلك حسب اعتقادي الذي بنيته على أقوالك، وعلى أقوال الآخرين الذين استمعت لهم خلال اليومين الماضيين، وعليك أن تتأكّد أنّني سأتكفّل بالمصاريف كلها، وأتعاب دفاعك القانونيّ، وكلّ ما يترتّب على إقامتك في هذه البلاد، كما أنّك لن تكون وحيدًا خلال هذه الفترة، بل سيتابعك رفاقي بعد مغادرتي خلال اليومين أو الثلاثة القادمين، إلى أن تبرئ نفسك وتغادر البلاد».

بعد أن أنهى خياره الأول راح ينظر لي، كما فعل بقيّة الحضور، منتظرين مني إشارة تدلّ على موافقتي من عدمه، إلّا أنّني أجبت قائلًا:

- «شكرا لك سيّدي، من الأفضل أن أعرف الخيار الآخر قبل أن أبدي رأيي في أيّ منهما».

قلت ذلك وفي نفسي عدم تقبّل هذا الخيار، ولا تصوّر بقائي هنا مزيدًا من الوقت، لكنّني تريّثتُ في الردّ حتّى أعرف كلّ ما تمّ مناقشته من خيارات، تابع السيّد البوراشد حديثه قائلًا:

- «نعم صحيح. لكن عليك أن تعلم أنّ الخيار الثاني غير تقليدي، أي الخروج من هذه البلاد بصورة غير مشروعة، وهو أمر سيتكفّل الرئيس مايور برعايته، خاصّة أنّه مقترحه. لكن فيه بعض التفاصيل التي سيتحدّث عنها السيد كرشنا بالا، والذي جاء ليطلعنا عليها، حيث إنّه هو الذي سيتحمّل مسؤوليّة تنفيذ تلك الخطّة، والتعامل مع صعوباتها. الأهم عندي هو التأكّد أنّك على استعداد لتسلك هذا المسار، رغم مّا فيه من مغامرات خطيرة، ومفاجآت ربّما تظهر لاحقًا، وتـؤدّي إلى انهيار كلّ شيء».

كنت أستمع للسيد البوراشد باهتمام كبير؛ محاولًا اكتشاف المزيد عن هذه الخطّة التي لا يمكن التحدّث حولها، قبل معرفة ما تخبّئه من تفاصيل، لكن الخيار الأوّل بالنسبة لي يعدّ ضربًا من الجنون الذي لا يمكنني المضي فيه بأيّ حال من الأحوال، وهو الأمر الذي أبديته للسيد البوراشد:

- «سيدي الكريم. لا يمكنني البقاء في هذه البلاد إلى ما لا نهاية، أو إلى نهاية مجهولة الوقت والعواقب من أجل إثبات براءتي بين أروقة المحاكم، لا أعتقد بأنّها ستنصفني تحت ضغط الصحافة وتأثير الضحايا الذين أدانوني مجتمعيًا قبل أن يعرفوني، كما أنّ تأخّري في العودة سيدفع عائلتي إلى الانهيار النفسيّ خشية ما ستؤول إليه القضيّة، سيّما لو علموا بما أمرّ به من ظروف». أضفت: «وكلّ ما أطلبه في هذه المرحلة مغادرة هذه البلاد في أسرع وقت ممكن، وأنا على استعداد تامّ لتحمّل تبعات هذا القرار كافّة»

قاطعني السيد البوراشد موضّحًا:

- «عليك أن تعلم أن خيار الخروج لا يعني أن تغادر إلى البحرين، ذلك مستحيل لأنّك لا تملك وثائق ثبوتيّة. نتحدّث الآن عن نقلك برًّا عبر الحدود إلى الأراضي الهنديّة، ومن هناك ستكون مسؤولًا عن نفسك، وتتكفّل بأمورك من دون تدخّل أيّ منّا، وهو الذي طلبته بنفسك».
- «نعم. كلّ ما أطمح إليه في هذه المرحلة هو مغادرة هذه البلاد إلى الهند، ومن هناك يمكنني تدبّر أمري وحلّ مشاكلي، ستكون هناك سفارة لبلادي يمكنها أن تقدّم لي الدعم وهو العنصر المفقود في هذه البلاد، بل يمكنني متابعة موضوع فقدان جواز السفر من هناك، بينما أتابع دراستيّ الجامعيّة، وحياتي الاجتماعيّة متفاعلًا مع زملاء الدراسة، كذلك سأكون على تواصل مع أسرتي في البحرين التي لا تعلم عنّي شيئًا، والأهمّ من كلّ ذلك أنّي سأكون بعيدًا عن دائرة الخطر التي تشلّ تفكيري».

تدخل الرئيس متحدّثًا عن الخيار الآخر، وهو الشقّ الذي يتفق معي في ترجيحه قائلًا:

- «كنت متيقّنًا أنّ هذا سيكون اختيارك، وهو ما أطلعت عليه السيد البوراشد، وكذلك السيد پرساد گوبتا عندما

ناقشنا الأمر، لكن علينا توضيح الصورة كلها، والخيارات المتاحة، حتّى لو كنّا متيقّنين من تفضيلك السبيل الأسرع إلى الخلاص، وهو الذي سيتولّاه السيد كرشنا بالا، إنْ تمّ التوافق بيننا في هذا الاجتماع، وسيكشف الآن لنا تفاصيل خطّته، والتهديدات أو المعوّقات المتوقّع حدوثها في أسوأ الظروف».

أنهى حديثه، وهو يشير إلى السيد كرشنا بالا الذي وجّه حديثه لي بابتسامته الحمراء:

- «نعم سيد نادر. أنا من سيتولّى مهمّة العبور بك الحدود إلى الطرف الهنديّ، كما سأكون المسؤول عن أمنك وسلامتك طوال الرحلة إلى أن نصل وجهتنا المفترضة التي سنتفق عليها، وتأكّد أنّي سأكون ملازمًا لك طوال الرحلة التي ستتمّ بيسر وسلاسة، ولا داعي للخوف من شيء».

ثم راح يفصّل قائلًا:

- «سيكون لدينا طريقان لعبور الحدود إلى الهند، أفضّل أن نسلك الطريق الثاني الأكثر تعقيدًا، لكنّه في الوقت نفسه أكثر أمانًا، خصوصًا أنّك ملاحق من قبل الشرطة

التي يتوقّع منها أن تبحث عنك في كلّ مكان، ما يدفعنا للاحتياط بشكل جيّد، والتأكّد من سلامة الطريق الذي نسلكه».

وعن مقترحه الأوّل تحدّث قائلًا:

- «خطّتنا الأولى هي عبور النقطة الحدوديّة بين البلدين بشكل عادي، من دون أن نلفت نظر أحد لوجودك كأجنبي بيننا، بل ستكون مواطنًا هنديًّا، متى ما اضطررنا لتعريفك عند المعابر الحدوديّة، وفي الظروف العادية لن يُوقفنا أحد أو يسأل عن هويّاتنا؛ لأنّ مواطني كلا البلدين لا يحملون وثائق السفر أثناء تنقلهم بينهما، لكن احتياطًا سنَشْغل رجال الأمن عند مرورك المعبر، وهو ما نفعله عادة عند تهريبنا الأجهزة الإلكترونيّة، ولو أنّهم لا يسألوننا في الغالب، فهم واقفون لضمان انسيابيّة مرور الناس والسيارات عند المعبر دون أن يتدخّلوا في شيء، إلّا في حالات نادرة، لكن وبما أنّ هناك مخاوف من عمليّة واسعة للبحث عنك، واحتماليّة أن يكون اسمك، وربّما صورتك قد تمّ تعميمها على النقاط الحدوديّة، فقد وضعنا خطّة بديلة، أنصح باعتمادها».

انتقل بعد ذلك لشرح خطّته الثانية، كان واضحًا أنّه والرئيس يدفعان باتجاه تبنّيها، قائلًا:

- «خطّتنا الثانية تتمثّل في عبور النقطة الحدوديّة نفسها الواقعة في منطقة سنوالي، لكن في حافلة خاصّة أُعدّت للرهبان وكهنة المعابد البوذيّة الذين تنطلق بهم من كاتمندو إلى العاصمة الهنديّة نيودلهي».

ثمّ أضاف:

- «وعـادة ما تمرّ هـذه الحافلة على الحدود بكلّ يسر وسلاسة، دون أن تتعرّض للتفتيش أو مراجعة هويّات الركّاب. يحظى الرهبان باهتمام كبير نظرًا لقدسيّتهم في مجتمعاتنا المتديّنة. ولكلّ خطّة متطلّباتها التي سنتحدّث عنها في حينها».

مرّة أخرى راح الجميع ينظرون لي مترقّبين رأيي في تلك الخطّة، رغم غرابتها لكني وجدت نفسي أكثر تقبّلًا لها من الخيارات الأخرى. وفي سبيل ذلك رحت أسأل حول مدى تعقيدات الخطّة:

- «وكيف سيقتنع رجال الأمن والمسافرون بأنّي ضمن هؤلاء الرهبان، وأنا عربيّ ذو شكل ومظهر مختلف، وهو ما لا يمكن تغييره؟»
- «لا عليك من هذا الأمر الآن، جميع هذه الملاحظات محلّ اهتمامنا، وسأتعامل معها بشكل كامل في حينه، وتأكّد أنّك لن تختلف عن الكهنة لا في شكلك، ولا مظهرك الخارجيّ، وكذلك اسمك الذي سيتغيّر إلى نارين، وهو الاسـم الأكثر قربًا لاسمك الحقيقيّ، ما يسهل عليك حفظه ونطقه دون تكلّف أينما تَطلَّب ذلك».

ختم حديثه قائلًا:

- «طبعا هناك مزيد من التفاصيل ستدركها في حينها، كما عليك أن تعلم أنّ كلّ شيء قابل للتغير في أيّ وقت، وحسب التطوّرات التي نواجهها».

كنتُ أستمع إليه باهتمام شديد وهو يتحدّث عن تفاصيل خطّته، مثل مخرج سينمائيّ يتحدّث إلى ممثليه حول سيناريو الفيلم الذي يعمل على إخراجه، غير مدركٍ أنّ ذلك الحديث الذي بدا سينمائيًا سيتحوّل إلى قصّة حقيقيّة أكون أنا بطلها الرئيس، بعد يومين من ذلك الاجتماع.

21
نارين البوذيّ

الأربعاء 31 أكتوبر 1984، من أشدّ أيّام العام حزنًا وكآبة، لا يمكن للعالم أن ينساه لما حمله من أحداث مأساويّة ستبقى حاضرة في تاريخ ومستقبل تلك المنطقة الآسيويّة، كما لن أنساه لما تركه على رحلة عودتي إلى الهند. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا، عندما تحرّكتْ بنا الحافلة (تاتا) من وسط كاتمندو، مدشّنة رحلة العودة أو خطّة الفرار المجنونة من مملكة النيبال إلى الأراضي الهنديّة.

لا أحمل معي في تلك الرحلة سوى حقيبة صغيرة تضمّ بعض الملابس الجديدة التي أهدتها لي السيّدة چانتن، كي أرتديها بعد عبوري الحدود بين البلدين، وخلع الملابس الكهنوتيّة التي كنت أرتديها مُسيّرًا لا مُخيّرًا. نسير في الحافلة ببطء تفرضه تضاريس الطريق، المليئة بتجاعيد الزمن وحفريّاته، متجّهين إلى منطقة شيتوان التي تضمّ أوّل حديقة وطنيّة في البلاد، وهي المنطقة التي تقع في منتصف طريقنا إلى المعبر الحدوديّ.

من شيتوان، كان مقررًا تغيير الحافلة بأخرى، تتجه بنا إلى الأراضي الهندية عبر منطقة (سنوالي)، عليها المعبر الحدوديّ بين البلدين، ومنه نسافر إلى مدينة (كَوراكبور) في ولاية (أوترا براديش) الهنديّة، ومنها سنركب القطار إلى العاصمة الهنديّة نيودلهي. هناك سيكون البوراشد في انتظاري.

كانت زيارتي إلى منطقة شيتوان هي الأولى والأخيرة، لم أمكث فيها سوى ساعة أو أكثر قليلًا، لكنّ يبدو أن طالعي كان جيدًا على المنطقة وأهلها، فبعد أيام قلائل سجلتْ منظمة اليونسكو هذه المنطقة كواحدة من مواقع التراث العالمي.

للوصول إلى شيتوان، كان علينا السير بالحافلة المليئة بالكهنة والرهبان مسافة مائة وخمسين كيلومتر أو أكثر قليلًا، قطعناها في ستّ ساعات، تارة صاعدين السهول والهضاب بصعوبة، وبكلّ ما يمتلكه محرّك الحافلة من قوّة، وتارة أخرى سالكين طرقًا سيّئة التعبيد أو حادّة المنعطفات، يتراقص على أثرها الجسم ويقفز من مكانه، نخترق الجبال أحيانًا، ونختفي في أنفاق مظلمة وخانقة من دخان عوادم الشاحنات، ثمّ نظهر على الجانب الآخر لمواصلة الطريق.

كنت أشعر بالخوف كلما مررت بواحد من هذه الأنفاق

في النيبال والهند. أخشى الحوادث المميتة في تلك الممرات الضيقة ذات الظلام الدامس، أو أن تتعطّل الحافلة، ولا يمكن البقاء على قيد الحياة طويلًا في ظلّ أجواء خانقة، وانعدام أيّ نظام مركزيّ للتهوية.

أكثر الطرق رعباً، تلك الشوارع الضيّقة التي نُحتت على أطراف الجبال، تطلّ على أودية ومنحدرات عميقة لا يفصلنا عنها سوى جدران إسمنتيّة شيّدت على ارتفاع قدم أو اثنين لحماية السيارات والحافلات، وصدّها عن الانزلاق والتدحرج إلى قعر الأوديـة. يضاعف رعبها انفلات سائقي الشاحنات والحافلات الكبيرة، ومحاولاتهم تجاوز بعضهم بعضًا، في طرق لا تتّسع إلّا لسيّارة واحدة في كلّ اتجاه، ما يجعل ذلك خطرًا دائمًا يهدّد حياة المسافرين عليها. كنت أرى بعض الشاحنات المنقلبة على أعقابها، طريحة أسفل المنحدرات التي تدحرجت عليها في فترات زمنيّة سابقة، ولا أعلم كم من الضحايا قدّمته هذه الطرقات المُميتة.

كلّ ذلك لا ينفي، أنّنا نمرّ في الوقت ذاتـه، على مناظر طبيعيّة خلّابة، ومساحات خضراء يغلب عليها حقول الشاي، وأنواع الحبوب كالأرز، يعتاش عليها معظم الناس، ويعتمدون

عليها كمادّة غذائيّة رئيسة في معظم أطباقهم. في ذلك الوقت كانت تلك النباتات قد مالت ألوانها إلى الذهبيّة، معلنة وقت حصادها.

جلست في مؤخّرة الحافلة منفصلاً عن بقيّة الكهنة من ركّاب الحافلة، وفق ما أمر السيد بالا مدبّر الخطّة ومنفّذها. يجلس مرافقي إلى يميني والنافذة إلى يساري. يراقبني السيد بالا وهو جالس إلى جانب سائق الحافلة، يرتدي ثيابه العاديّة وينتحل شخصيّة مساعد السائق، في تفاهم مدفوع الأجر بين الاثنين.

يرصد من موقعه كلّ ما يجري في الحافلة، ويصدر توجيهاته بغمزات من عينيه، أو إشارات بهزّ رأسه، اللغة التي أتقنتُ بعض أسرارها جرّاء إقامتي في الهند. أما مرافقي الذي يجلس معي على المقعد ذاته، فقد انتحل شخصيّة كاهن بوذيّ مرتديًا الأغطية الكهنوتيّة نفسها. ورغم وجوده إلى جانبي فإنّه لم ينطق بكلمة واحدة، والتزم بواجباته في توفير كلّ متطلّباتي، ومراقبة تحرّكات المسافرين على الحافلة، والتأكّد من الفصل بيني وبينهم تجنّبًا لأيّ أحاديث يمكن أن تنشأ بشكل عفويّ، وتؤدّي إلى افتضاح أمرنا، وإعاقة خطّتنا.

ساء مزاجي منذ الصباح الباكر في ذلك اليوم، بعد أن فُرض عليّ حلق شعر رأسي بشكل كامل، حتى أبدو مثل كهنة المعابد البوذيّة المسافرين في الحافلة. أكره كثيرًا حلْقُ شعر رأسي كاملاً، كذلك أيّ شاب في عمري يهمّه مظهره الخارجيّ في تلك الحقبة الزمنيّة، سيّما كوني طالب يحضر صفوفه الجامعيّة بانتظام، ويتفاعل مع الطلبة بشكل مستمرّ، ولديَه حياة اجتماعيّة مفعمة بالنشاط. لكن هكذا كانت متطلّبات الخطّة التي عليّ استيفاؤها، والشرط الرئيسي لانتحال شخصية الكاهن نارين البوذيّ، وإن كنت لا أفقه من حياة الكهنوتيّة غير ملابسها التي أرتديها.

يعدّ حلق شعر الرأس عند الكهنة البوذيين، والتخلّي عن الأزياء الحديثة، ونبذ الرغبة الدنيويّة وملذّاتها، من أكثر الأمور شيوعًا في الحياة الكهنوتيّة. لذلك تحثّ المبادئ البوذيّة على حلق الشعر مرّة كلّ شهرين على الأقلّ، أو عندما ينمو ويصل إلى عرض إصبعين، ووفق ذلك تتراوح الفترات بين الحلاقتين بين بلاد وأخرى، يحلق الرهبان الصينيّون رؤوسهم مرّة كلّ ثلاثة أيّام بسبب اعتدال الجو. في حين نجد الرهبان التبيتيّين أو المنغوليّين يحلقون مرّة كلّ ثلاثة أو أربعة أسابيع بسبب برودة

الطقس. وهكذا تتغيّر الفترات بين حلاقة وأخرى عند كلّ قوم، لكنّها تبقى ضمن الإطار الزمني المشار إليه، والحدود التي نادى بها المعلّم بوذا.

كلّ ما كنت أفكّر فيه حول حلاقة شعريّ، هو كيف سأواجه زملائي في الجامعة، عند عودتي أصلع الرأس، سأكون مرمى سهامهم الساخرة، وتعليقاتهم اللّاذعة، وهو آخر ما أرغب في مواجهته بعد كلّ هذه التجربة المريرة، يحتاج شعري إلى أسابيع حتى يعود إلى حالته الطبيعيّة.

تركتُ معظم ملابسي ومقتنياتي التي جئت بها من الهند في كونتيبور إيفرست، بما فيها جهاز المذياع، والساعة اليدويّة، وهما أغلى ما كنت أملك من أشياء، ولم يتسنّ لي حمل أيّ منها ساعة اختطافي، لكنّني غير آسف على تركها هناك، ولعلّ قيمتها تسدّد بعض ما كان مُستحقًّا من متأخّرات للرجل صاحب النزل الذي أحسن لي، حتّى آخر يوم من وجودي في نزله.

أتعثّر بملابسي البرتقاليّة اللون كلّما حاولت المشي، بسبب غرابة تلك الأرديّة، رحت أمشي بحذر شديد متجنّبًا السقوط أرضًا. تتكوّن تلك الملابس الكهنوتيّة من قميص يغطّي الجزء العلوي من الجسم، وتنّورة تستر العورة والجزء السفليّ منه،

وفوق ذلك يأتي الرداء الخارجيّ الذي يغطّي الجسم كاملًا، والشبيه في قماشه القطني وطيّاته المتعدّدة بالرداء اليوناني القديم الذي رأيته في رسومات وتماثيل الفلاسفة، أو رجال الحكم في دولة اليونان القديمة. ارتـداء الأردية والملابس الصفراء، البرتقاليّة أو المارونيّة عند الرهبان والكهنة البوذيّين يرمز إلى البساطة، والانفصال عن الذاتيّات والماديّات والرغبة الدنيويّة؛ نظرًا لأنّها الألـوان التي كانت متوافرة في العهود القديمة، وبقيت تُستعمل حتّى عصرنا الحاضر.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، حين وصلنا وجهتنا في منطقة شيتوان بعد ساعات سفر متعبة، كنت خلالها يقظًا ينتابني قلق حصول أيّ أمرٍ طارئ أو غير متوقّع يؤدّي لانكشافي. سنغيّر الحافلة الآن، ونستقلّ أخرى الى المعبر الحدوديّ في سنوالي، وهو واحد من عدّة معابر حدوديّة رسميّة بين البلدين، لكنّه الأقرب إلى مدينة (گوراكبور) الهنديّة التي سنقصدها في طريقنا إلى العاصمة الهندية نيودلهي.

وجدنا فرصة للراحة قليلًا خـارج الحافلة التي أنهكت أجسادنا، كذلك تناول بعض الطعام الطريّ من بائعي العربات نسدّ به رمقنا، ونحمل بعضه لبقيّة الدرب الذي أمامنا. نزلتُ من

الحافلة ورحت أمشي جارًّا ردائي، رافعًا إيّاه عن الأرض، مثل عروس ترفع فستانها في ليلة زفافها، كما قمتُ ببعض التمارين الروتينيّة السريعة لأحرّك أطراف جسدي وأعيد له الحياة، بعد التيبس الذي تسبّبتْ به المقاعد الحديديّة.

الأكيد أنّه كان لافتًا لروّاد المحطّة عدم انضباط خطواتي، والصراع في التعامل مع تلك الأردية، حتّى راح بعضهم ينظرون إليّ والابتسامات الساخرة تعلو وجوههم، ربّما مستغربين أيضًا رؤية كاهن غريب المظهر، مختلف عن الملامح التي آلفوها، والمنحدرة في معظمها من السلالة المنغوليّة، أو من تلك المناطق الجنوب والشرق آسيويّة. ولا أعلم في الحقيقة إنْ كانوا مصدقين كهنوتيّتي واعتناقي البوذيّة، أم أنّهم مدركون من تصرّفاتي أنّني لست إلّا منتحلًا هذا الدور، لكن كلّ ذلك لا يعنيني بقدر ما يهمّني ألّا يعرفوا حقيقة من أكون، أو يبلّغوا عنّي رجال الأمن. جلست ومرافقي بعيدَين عن مكان توقّف الحافلات وتجمعات الناس، احتمينا بشجرة تبعد قليلاً عن مركز المحطّة، محاولَين النأي بنفسينا عن أيّ تواصل مباشر يمكنه أن يحدث، ويلفت لنا أنظار الموجودين.

نزل بعدنا السيد بالا من الحافلة بعد جميع الركّاب، وراح

يبحث عن باعة عربات الطعام الموجودين في تلك المحطّة أو حولها، فهو مدبّر الرحلة ويحمل مصاريفها التي أعطاها إياه السيد البوراشد قبل سفرنا، إلى جانب تلقّيه نصف المبلغ المالي المتفق عليه نظير أتعابه في عمليّة تهريبي إلى خارج البلاد، على أن يستلم النصف المتبقي بعد أن يوصلني للسيد البوراشد في العاصمة الهنديّة نيودلهي بعد يومين.

أما أنا فلم أكن أحمل معي أيّ نقود. كان البوراشد قد أعطاني مبلغًا من المال، لكني طلبت من الرئيس أن يوصله إلى عائلة گيان التي تعاطفت معها كثيرًا، وهو مبلغ من المال بسيط بالنسبة لي، لكنّه كبير بعملتهم الرخيصة وحالتهم الفقيرة، سيعوّض بعض خسائرهم المادّيّة، أمّا الخسارة الأكبر والمتمثّلة بفقدهم ربّ الأسـرة، فلن يستطيع تعويضها أحد سوى ربّ العالمين. وقد قمت بذلك في محاولة للتقليل من أضرار ما حدث، وبقدر ما أتيح لي قبل مغادرتي المدينة، إلى جانب رجائي من السيد البوراشد بأن يستعين بمجموعة من العمّال الأكثر تضرّرًا، للعمل ضمن شركة المقاولات التي يملكها، وتوصية أصدقائه من رجال الأعمال بأن يحذوا حذوه في ذلك.

بينما نحن جالسون في انتظار عودة السيد بالا حاملًا معه الطعام، رصدنا حركة غير طبيعيّة تجري في المحطّة وإرباكًا

واضحًا على العاملين وسائقي الحافلات الذين احتدمت بينهم والركاب النقاشات وارتفعت الأصوات. ورأينا رجالًا آخرين يطلبون من المسافرين النزول من حافلاتهم، وقد انقسم المسافرون بين رافضين لشيء ما غير واضح، أو مستهجنين ومستغربين مِمَّا يجري. كانت عيناي تلاحقان السيد بالا خشية أن يغيب عن ناظري، وهو الذي يقف إلى جانب سائق الحافلة مستمعًا لمن يتحدّث لهم، أو يعطيهم التعليمات حول أمر ما دون أن أعرف شيئًا ممّا كان يجري.

بدأت حينها أشعر بالقلق من تلك الأجواء التي يكتنفها الغموض، وأدركت أنّ الأمور لن تسير بشكل طبيعيّ بسبب شيء ما قد طرأ على المشهد، وربّما يعرقل خطّة الفرار أو رحلة الحافلة التي يفترض أن تنطلق بنا بعد قليل، وهو الأمر الذي حصل فعلًا، وجاء يحمله السيد بالا، كما يحمل بعض الطعام في يده قائلًا:

- «هناك أخبار غير سارّة قادمة من الحدود مع الهند، وأخشى أن تعوق عملنا أو تغيّر مساره، لكن لحسم الموضوع علينا اتّخاذ قرارات مناسبة وسريعة».

بهذه العبارات أكّد ما كنت أشعر به من خوف، بل زاد من جرعته، ثمّ أضاف مواصلًا حديثه وشارحًا ما كان يعنيه:

- «هناك أوامر أمنيّة عُمّمت على جميع محطّات الحافلات تدعو لإلغاء الرحلات المتّجهة إلى الحدود مع الهند، وتأجيلها حتّى إشعار آخر. وتشير الأنباء الواردة أيضًا أنّه قد تمّ إغلاق كلّ المعابر الحدوديّة مع الهند أمام المسافرين القادمين أو المغادرين، لأسباب غير معروفة حتّى الآن».

كانت عباراته كافية لتقنعني بأنّني الشخص المستهدف من كلّ هذه الإجـراءات التي فاجأت الجميع، أي أنّ السلطات الأمنيّة على علم بنية فراري من البلاد، وإغلاق الحدود لا بدّ أن يكون نتيجة لذلك، لكنّني مضيت أستمع للسيد بالا الذي بدا مصدومًا من القرار:

- «علمت من عمّال المحطّة أنّ هذه الإجراءات تمّ اتّخاذها منذ الساعة العاشرة صباحًا، أي بينما نسير في الحافلة قادمين إلى هنا، كما رصد بعض المسافرين القادمين من معبر سنوالي تحرّكات أمنيّة غير اعتياديّة عند المعبر الحدوديّ، مصحوبة بحملات تفتيش وتدقيق شديدين غير مسبوقين للمسافرين وهويّاتهم، ثمّ لحق ذلك صدور الأوامـر بإغلاق المعابر الحدوديّة مع الهند، وإرجاع

المسافرين من هناك من دون معرفة الأسباب وراء ذلك».

اللافت من تلك الإجراءات أنّها لم تشمل المعابر الحدوديّة مع الصين التي تحدّها من الجانب الآخر، وهو ما يُعزّز الاعتقاد أنّني الشخص المستهدف من وراء كلّ هذه التحرّكات الأمنيّة المفاجئة. أضاف السيد بالا ناقلًا ما يدور من لغطٍ بين روّاد المحطّة: «والمتداول بين القادمين أنّ هناك مراقبة جوّيّة حثيثة تقوم بها مروحيّات البلدين، على حدودهما».

نزل الخبر على نفسيّتي - المدمّرة أصلًا - كالصاعقة ليزيد من همّي، ويضاعف من قلقي الذي كان ينهك عقلي وأعصابي، سيّما أنّني بتُّ شبه مقتنعٍ أنّ تلك الإجراءات كانت تستهدف تضييق الخناق حولي ومحاصرتي، كي لا أهرب من البلاد، وهي الخطوة التي يُراد من ورائها اعتقالي. وعرفت أنّ رحلتنا إلى الهند لن تكون باليُسر والسلاسة التي خطّطنا لها، إنّما نحن ماضون في نفق مظلم، لا أعلم إنْ كنت سأرى وميض ضوء في نهايته.

قلت: «من الواضح أنّ هذه الإجراءات المفاجئة تستهدف البحث عنّي والشيخ القحطاني، أو منعي من مغادرة البلاد على أقلّ تقدير، كما يبدو أنّ الشرطة على علم بعمليّة فراري التي

ربّما وشى بها أحد، وهو ما يُفسّر كلّ هذه الإجراءات التي تتمّ على الحدود».

لكن على الرغم من القناعة التي تولّدت عندي حينها، فإنّي كنت مستغربًا من حجم الإجراءات المبالغ فيها، وهو ما عبّرت عنه للسيد بالا:

- «وهل يستحقّ القبض على رجلين كلّ هذا الاستنفار الأمنيّ الواسع الذي وصل لإغلاق الحدود الحيويّة بين البلدين؟ أجد أنّه أمر غريب حقًّا، كما أنّها تكلفة باهظة تدفعها البلاد من أجل القبض علينا».
- «نعم سيكون أمرًا غريبًا لو كنت المستهدف فعلًا، لم يسبق للبلاد أن أغلقت حدودها الدوليّة من أجل القبض على شخص في قضيّة نصب واحتيال، لكن يبقى أن علينا الحذر وافتراض صحّة مخاوفك هذه، بل نعمل على أساسها إلى أن تتضّح لنا الصورة كاملة».

ساورني الخوف أن يتخلّى عني السيد بالا ورفيقه في منتصف الطريق، خوفًا من الإجـراءات الأمنيّة التي يمكن أن توقعه ورفيقه في شباك وتعقيدات قضيّتي، وهو ما رحت أستفسر عنه بشكل غير مباشر:

- «ما العمل الآن؟ وهل سنواصل الدرب معًا؟ لأنّ علينا اتّخاذ القرار السريع قبل أن تتداعى الأمـور وتتدهور بشكل أكبر، أو ينتبه لأمر وجودي أحد في هذه المحطّة».

وكان واضحًا أنّني أوصلت الرسالة، حيث ردّ عليها السيد بالا قائلًا:

- «لا تخشَ شيئًا على الإطلاق. أنا لست من الذين يتخلّون عن هدفهم، أو رفاقهم في منتصف الطريق مهما صعبت الظروف أو تعقّدت».

وهناك شيء مهمّ آخر لن يجعله يتخلّى عنّي أيضًا، لم يأت على ذكره، وهي مستحقّاته الماليّة التي تلقّى جزءًا منها والباقي عند الوصول.

قال مشيرًا إلى التعديل على الخطّة المبدئيّة:

- «الأهـم الآن هو أن نغادر من هنا قبل أن يلتفت أحد لوجودنا أو يبلغوا عنا. فلنذهب كخطوة أولى إلى إحدى المناطق السكنيّة القريبة من المعبر الحدوديّ، ونمكث في ذلك المحيط الجغرافي بعض الوقت حتّى نتعرّف على حقيقة الأمر، وكيف يمكننا عبور الحدود من دون أيّ تهديدات تعوق رحلتنا».

انطلقنا في سيارة أجرة خاصّة إلى أقرب مكان للمعبر الحدوديّ الذي كنا نقصده في سنوالي، سالكين طرقًا داخليّة ملتوية، تمرّ عبر القرى والحقول الزراعيّة، متجنّبين الطرق العامّة والشوارع الرئيسة، خشية أيّة ملاحقات أمنيّة يمكن أن ترصدنا في الطريق، خصوصًا بعد أن علمنا أنّه قد تمّ استحداث نقاطٍ للتفتيش في الشوارع الرئيسة القريبة من المعابر الحدوديّة مع الهند.

وصلنا القرية الصغيرة القريبة من الحدود مع الهند حوالي الساعة السادسة مساءً، ساعات متعبة أمضيناها في الطريق، انتابني خلالها القلق على مصيري الذي ستحدّده الساعات القليلة القادمة، اللحظات الأهـمّ في حياتي. لا تبعد هذه القرية كثيرًا عن معبر سنوالي الحدوديّ، وفيها قرّر السيد بالا أن نجري تحرّياتنا حول ما يجري، ونستكشف السبل الأقلّ خطورة لعبور الحدود، ونأخذ قسطًا من الراحة، ونقضي ليلتنا.

عند وصولنا القرية وجدنا مجموعة من الرجال مختلفي الأعمار، متجمّهرين بالقرب من بوابة النزل الذي قصدناه، بيت صغير مكوّن من غرفتين. يحيط هؤلاء الرجال برجل مسنّ واقف وسطهم، ينصت باهتمام إلى جهاز مذياع قديم يحمله

بحزام جلديّ على كتفه، راح جميع الواقفين حوله يستمعون مشدودي الانتباه، بشكل يُبيّن أنّ هناك حدثًا مهمًّا يجري، ويتابعونه على نشرة الأخبار. ذكّرني مشهد تجمّع الرجال حول المذياع بلحظات من طفولتي، حين يتجمّع الرجال والشباب في المقاهي والأندية حول أجهزة المذياع، يستمعون الأخبار الواردة من الجبهة في حرب أكتوبر 1973، كما كنّا نتجمّع حول والدي وهو يتابع البيانات الواردة عنها ليلًا، بينما نحن مستلقون في الهواء الطلق على سطح منزلنا في فريق الحطب.

أدركتُ أنّ تجمّع رجال تلك القرية حول المذياع لا بدّ أن يكون مرتبطًا بإغلاق الحدود بين البلدين، والإجراءات الأمنيّة المصاحبة لذلك. اقترب السيد بالا من المجموعة، إلى أن صار واحدًا من أفرادها، لا يُميزه عنهم سوى أسنانه الحمراء. في حين وقفنا نحن الاثنين المتظاهرَين بالكهنوتية بعيدًا عنهم، نتصنّع الانشغال مع بعضنا، ومتجنّبين حتّى النظر نحوهم كي لا نلفت انتباههم، وخصوصًا أنّني لا أعلم إن كانوا على علم بقضيّتي.

بعد لحظات، عاد السيد بالا حاملًا الخبر اليقين. الخبر الذي أحدث عندي مشاعر متضاربة بصورة لم أعهدها من قبل، فبقدر

ما أسعدني أني لست المستهدف من هذه الإجـراءات، لكن الخبر سبب لي حزنًا شديدًا، كما فعل بالهند كلها وبقيّة دول العالم، حتى شعرت بالخوف على السلام والأمن الأهليين في الهند.

كان الخبر هو اغتيال رئيسة وزراء الهند السيّدة أنديرا غاندي في مقرّ إقامتها بالعاصمة الهنديّة نيودلهي على يد اثنين من حرّاسها السيخ. حدث ذلك بعد أكثر من ساعتين من مغادرتنا العاصمة كاتمندو. وجاء الاغتيال انتقامًا منهما على عمليّة (النجم الأزرق) التي نفّذتها القوات الهنديّة في الأسبوع الأوّل من شهر يونيو من العام نفسه، وهي العمليّة العسكريّة التي تمّت بأوامر منها.

ضاعف حزني لاحقًا، ما ترتّب على عمليّة الاغتيال من اندلاع موجة واسعة من أعمال العنف في جميع أنحاء الهند، أكثرها دمويّة تلك التي حدثت في العاصمة نيودلهي التي كنتُ مسافرًا لملاقاة السيد البوراشد فيها، قُتل أكثر من ثلاثة آلاف فرد، معظمهم من الأبرياء المنتمين لطائفة السيخ، وأكثر من عشرة آلاف قتيل آخر في جميع أنحاء المدن الهنديّة.

كـان ذلـك العام هو الأحلك في تاريخ الهند الحديث وصراعاتها الداخليّة، لِما واجهته من أحداث دمويّة خطيرة

بقيت آثارها وتداعياتها عالقة لأعـوام، وهو العام الأصعب في حياتي، لما شهدتُه من أحـداث خطيرة هـدّدت وجودي حتّى ظلّت محفورة في ذاكرتي إلى هذا اليوم. لكن يبقى الأمر المهمّ الذي تأكّدتُ منه هو أنّ غلق الحدود والإجراءات الأمنيّة المصاحبة لم تكن بسببي، بل ردّ فعل طبيعيّ على اغتيال رئيس وزراء دولة مجاورة بحجم جمهوريّة الهند، والخشية من هروب الجناة للدولة المُحاذية، أو أيّ قلاقل يمكن لها أن تحصل.

فُتحت الحدود في وقت لاحق من اليوم نفسه، وعادت الحياة والحركة عند المعابر الحدوديّة، مع بقاء القيود الأمنيّة المشدّدة على حالها، بسبب المخاوف من أيّ تداعيات يمكن أن تحدث بعد عمليّة الاغتيال، ولذا تواصلت عمليّات التدقيق في هويّات المسافرين وتفتيشهم جميعًا، وهو ما جعلنا ندرك أنّ هذه الإجـراءات لن تستثني الحافلة المخصّصة للرهبان، التي كنت مسافرًا عليها.

وبناءً على المعطيات الطارئة، كذلك نزولًا عند التوصيات التي تلقّاها السيد بـالا، من خـلال اتصالاته الاستشاريّة والاستقصائيّة التي أجراها بشكل سريع مع بعض رفاق مهنته،

فقد تَقرّر أن نغيّر خطّة الرحلة وطبيعة السفر، بدءًا من التنازل عن نارين البوذيّ، وما ترتب عن تلك الشخصيّة من هويّة مُنتحلة وأردية كهنوتيّة، لأعود فردًا عاديًا مرتديًا الملابس التي أهدتني إيّاها السيّدة زوجة الرئيس استعدادًا للمرحلة الجديدة من العمليّة. تمثّلت الخطّة الجديدة بالتخلّي عن استعمال الحافلات فيما تبقّى لنا من الرحلة، حتّى نعبر إلى الأراضي الهنديّة، وعوضًا عن ذلك نواصل دربنا سيرًا على الأقدام، وهي الخطّة التي لم أكن أتوقّعها، أو أحسب لها أيّ حساب. ومن أجل ذلك قام رفيقا الدرب ببعض التحضيرات السريعة التي منها الإعداد لحمل ما خفّ وزنه من الطعام والأغطية التي سنحتاج إليها في مواجهة الطقس البارد في أثناء الطريق.

مساء اليوم الثاني الأوّل من نوفمبر 1984 بدأنا رحلتنا مشيًا على الأقدام، رحنا نسير ببطء متوجّهين نحو الحدود الهنديّة، في المهمّة التي لم أتخيل يومًا بأنّني سأقدم على شيء من قبيلها. نمشي مختبئين تحت ظلام الليل الحالك عن أنظار الناس ورجال الأمن الذين كنّا نخشى وجودهم في الطرقات والشوارع الرئيسة، نظرًا لما استجد من إجراءات أمنيّة على الحدود، أو ربّما بحثًا عنّي والشيخ القحطاني. ولكيلا نضيع

دربنا كنّا نسير بمحاذاة الطرقات المعروفة، تاركين مسافة معتبرة بيننا خوفًا من التيه في تلك البراري الشاسعة، أو بين الحقول الزراعيّة. وقد تكفّل مرافقنا الصامت بحمل معظم مؤونتنا الغذائيّة، وما نحتاج إليه من متطلّبات الرحلة كالأردية والأغطية التي حملناها معنا، ومثل المزارعين وضعَها جميعها في السلّة المصنوعة من سيقان البامبو، وحملها على ظهره، ثمّ شدّ حزامها برأسه ليتقاسم طرفا الجسم عبء حملها.

كان هدفنا عبور الحدود إلى الهند، لكن ليس من المعبر الرسمي المعروف في سنوالي، والـذي يمرّ مـن خلاله المسافرون عادة، إنّما من منطقة قريبة منه متجنّبين أن يرانا أحد. ومن الأراضي الهنديّة سنستقل سيّارة أو حافلة، ونواصل دربنا إلى مدينة گوراكبور في ولاية أوتار براديش الهنديّة، وهي المدينة الهنديّة الكبيرة الأقرب إلى منطقة عبورنا، والتي منها سنستقل القطار إلى العاصمة نيودلهي، حيث ينتظرنا السيد البوراشد حسب ما تمّ التوافق عليه قبل فراقنا، وذلك على الرغم من أنّ المستجدّ الجديد المتمثّل في اغتيال رئيسة الوزراء سيعطّل وصولنا إلى هناك، عن الموعد الذي حدّدناه في الاجتماع، وبمقدار من الزمن الذي لم يكن واضحًا.

رحنا نمشي لنقطع البرّيّة الواسعة، جزءٌ كبير منها عبارة عن أراضٍ زراعيّة، يمثّل معظمها حقول الأرزّ. في أثناء مرورنا بتلك الأراضي شاهدنا بعض التجمّعات السكانيّة الريفيّة الصغيرة التي عادة ما تكون بيوتًا للفلاحين العاملين في زراعة تلك الأراضي، والمشيّد معظمها من حجارة مطليّة بالطين، تغطّى سقوفها بالخشب ورزم القشّ النهريّ، أو بما تلفظه الطبيعة من مخلّفات.

كان السير صعودًا في المناطق المرتفعة أو الطرقات ذات التضاريس الجبليّة، هو الأصعب في رحلتنا. أصارعها بصعوبة نتيجة لوعورتها وقلّة لياقتي الجسديّة. كذلك تدنّي مستوى الرؤية جراء الظلام وكثافة الضباب الذي يهيمن على تلك المناطق، حتّى ساعات متأخّرة من النهار؛ جعل من السير أمرًا غير يسير.

نلجأ كلّ بضع ساعات إلى مكانٍ نستريح فيه، ونتناول بعض الطعام ممّا حملناه أو حصلنا عليه من المزارعين الذين مررنا بحقولهم، مقابل قليل من المال، ثمّ ننام بالقرب من بيوتهم فيما تيسر لنا من الوقت، وفي أماكن متواضعة أُعدت لاستراحة المزارعين، وفيها نخفي أنفسنا متجنّبين لفت الأنظار وافتضاح أمرنا.

كنت في قلقي وخشيتي ممّا يمكن أن يحدث لي في أيّ

وقت، وما ينتظرني من مصير، أشعر بالتعب جرّاء سيري على الأقدام في تلك الظروف الصعبة والطقس البارد، ورغم ذلك، بقيت مشدودًا أعاين حياة القرويّين الذين كنّا نمرّ بمناطقهم. أتحدّث مع بعضهم حول طبيعة حياتهم الريفيّة، والأعمال الزراعيّة التي يقومون بها، أتعرّف إلى كيفيّة تفاعل هؤلاء الناس مع بعضهم في ظلّ ظروفهم وطبيعة حياتهم البعيدة عن المدينة والمدنيّة.

كـان غالبيّة هـؤلاء يشتغلون فـي حقول زراعـة الأرزّ. توافقَ مرورنا مع موسم الحصاد الذي يزداد فيه النشاط عند المزارعين، وينشغل فيه جميع أفـراد أسرهم من شيوخ، ونساء، وأطفال، وهي المرّة الأولى التي أشهد فيها الحصاد. كلٌّ يقوم بدوره المكمّل للآخر في حركة آليّة متجانسة. وفي حين ينشغل بعضهم في عمليّة الحصاد اليدويّ، أجد آخرين يعملون في غربلة المحاصيل، ونفضها من الشوائب، أو نشرها على الأرض وتجفيفها أو تجهيزها استعدادًا لنقلها وبيعها في الأسواق. مهنة متعبة؛ لأنّ جميع من يعملون فيها محنيّو الظهور على مدار الساعة، وفي كل مراحل الإنتاج من زراعة وحصاد.

لم تكن المناطق البرّيّة التي قطعناها مأهولة بالسكان، كما

المناطق القريبة المعابر الحدوديّة، لكنّها ليست خالية مثل صحاري بلداننا القاحلة. نمرّ بتجمّعات سكانيّة متفرّقة عن بعضها البعض، وعدد بيوت لا يتجاوز عشرة، تكون إمّا مملوكة لأصحاب الأراضي الزراعيّة، ويقطنها مزارعون عاملون في تلك الحقول، أو للفلاحين أنفسهم الذين ورثوها أبًا عن جدّ.

في تلك الطبيعة البرّيّة القاسية اضطررت ومن معي أن نمشي ونخوض مستنقعات حقول الأرزّ الغارقة بالمياه، حتّى غرست أرجلنا في الطين والرمال المتحرّكة، ما جعل من ملابسي مبللة طوال الطريق، لذا ظللتُ أعاني من تلك الرطوبة التي ضاعف أثرَها الطقسُ البارد الذي لم أتعوّد عليه، وأنا القادم من صحراء الخليج الحارة.

جعلتني هذه الظروف البيئيّة غير الاعتياديّة عرضة للبرد ولسعات الحشرات وهجمات الديدان المنتشرة بين تلك المستنقعات والحقول الزراعيّة، وكـان أسوأها العلقات اللاصقة، أو التي تسمّى مصاصة الدماء، وقد اكتشفتها صدفة مُطبقة على جلد ساقي بعد أن أحدثتْ فيه ثقوب صغيرة لا تُرى بالعين المجرّدة. تقوم بذلك لتملأ جوفها من دم الإنسان؛ حتّى تسقط بعد أن ينتفخ جسمها ويتضاعف حجمها. هي دورتها

الطبيعيّة المقزّزة. وعندما اكتشفتها ملتصقةً بساق رجلي لم انتظر لدورتها أن تكتمل، دخلت في حالة من الهياج والصراخ الهستيريّ، والقفز في كلّ اتّجاه محاولًا نفضها عن جسميّ، ورميها بعيدًا من دون أن ألمسها بيدي خوفًا من لسعاتها المفترضة. وبينما كنتُ في تلك الحالة المجنونة وجدت السيد بالا ورفيقه الصامت يتابعان تصرّفي بدهشة بادية على وجهيهما، ثمّ دخلا في نوبة من الضحك سخريةً من سلوكي تجاه أمر ألفا رؤيته، وكيفيّة التعامل معه. وعنه تحدّث السيّد بالا:

- «لا تخف منها فهي غير ضـارّة على الإطـلاق. نحن نستعملها أحيانًا في بعض العلاجات الشعبيّة التقليديّة».

وقد تأكّدَ لي صحّة قوله حين رأيتُ كيف كانوا يتعاملون معها.

في اليوم التالي من انطلاق مسيرتنا بدأت أعراض التعب والإرهـاق تظهر لـديّ، إذ تورّمت قدماي وانتفختا بشكل تدريجي حتّى ضـاق عليهما الـحـذاء، وتحوّلتا إلـى اللون الأزرق، وأصبحت أتألّم منهما كثيرًا، حتّى صرت أخطو خطواتي بصعوبة، الأمر الذي ضاعف الجهد المبذول والوقت

المستغرق في سيرنا. كما أصبت ببعض الالتهابات الجلديّة التي راحت تطفو على الجزء السفلي من جسمي، نتيجة تلك الظروف البيئيّة القاسية، حتّى تحوّلت لاحقًا إلى أمراض صاحبتني فترة طويلة من الزمن.

ورغم أنّي كنت أصغرهم سنًّا، ويفترض أن أكون أنشطهم، وأكثرهم همّةً وتحمّلًا للتعب، فإنّني بدوت أقلّهم قدرة على مواجهة تلك الظروف. ويبدو أنّ حياة هؤلاء الناس القاسيّة قد صنعت منهم رجالًا صلبين، ومكنتهم من التعامل مع هكذا ظروف.

حرص مرافقي الثاني على التعامل معي بلغة الإشارة في معظم الوقت، ومساعدتي بجدّ وأمانة متى ما تطلّب ذلك، وكان يسعى جاهدًا إلى تخفيف العبء عن كاهلي بحمل كل الأشياء عنّي، حتّى راح يمسك يدي ويسندني عند المشي صعودًا، ويدلّك جسمي وأطرافي، ويجري بعض التمارين المساعِدة كلّما توقّفنا لنأخذ قسطًا من الراحة. في الحقيقة أحسست أنّ الرجلين كانا قلقين على صحّتي، ويخشيان ألّا أتمكن من إكمال رحلة السير إلى الأراضي الهنديّة، وتلك هزيمة لا أقبل الرضوخ لها، والتراجع لم يعد خيارًا مطروحًا، خصوصًا

بعد هذا الطريق الطويل المنهك الذي سلكته والمخاطر التي واجهتها. أي تراجع سيكون له عواقب على مصيري لا تُحمد عقباها، وعليه مضيت متحمّلًا الألم، متحدّيًا الصعوبات حتّى اليوم الثالث والأخير، أضحيت فيه أتكئ على عصا تشاركني حمل جسمي الذي أنهكه الطريق، حتّى فقد الكثير من وزنه وقوّته.

لم تكن المسافة التي قطعناها من القرية الحدوديّة إلى أقرب منطقة على الأراضي الهنديّة بعيدة جدًّا، كان يمكن إنهاؤها في يوم واحد، كما أخبرني السيد بالا، لكن بسبب قلّة تجربتي وشـدّة تعبي، والتضاريس الصعبة التي كان علينا عبورها، والحذر الشديد، استغرقنا أيام ثلاثة.

صحتُ كالمجنون من وقع الخبر الـذي لم أصدّقه في البداية، ورحـت أبكي بلوعة ومـرارة، عندما أخبروني أنّنا وصلنا الأراضي الهنديّة. راح السيد بالا يؤكد لي نجاح عمليّة الفرار من النيبال، مستعينًا ببعض القرويّين كي يقنعوني بتلك الحقيقة التي صعُب عليّ استيعابها في بادئ الأمر. وبهدف إقناعي ركبت والسيد بالا الدرّاجة الهوائيّة ثلاثيّة العجلات، مع صاحبها القروي الذي أخذنا إلى الجانب الهندي من معبر

سنوالي الحدوديّ، كي يؤكّد لي الحقيقة مقابل روبيّة هنديّة أو أكثر قليلًا.

ومن بعيد راح صاحب الدرّاجة يطلعنا على بوّابة المعبر الحدودي بين البلدين، لا يبعد عن النقطة التي عبرنا منها مسافة ثلاث كيلومترات. تنفّست الصعداء حينها، وشعرت بالفرج حتّى أخذت أحضن السيد بالا بدموع الفرح المنهمرة، بعد أن تأكّد لي حقيقة وصولنا الأراضي الهنديّة.

رأيت من موقعي بوّابة المعبر الهنديّ المقوّسة التي تبدو مثل بوّابات المدن القديمة، أو البوّابات الخشبيّة التي تُثبت في الأعياد أو الاحتفالات الوطنيّة في الهند، أو عند استقبال المسؤولين الكبار، عدا أنّها بُنيت من الطابوق والإسمنت، وطُليت باللون البرتقالي المائل للبنّي، كما نُحتت على أعمدة تلك البوابة صورة إحدى الآلهة الهندوسيّة.

ومن خلف تلك البوّابة الهنديّة، وعلى مسافة لا تتجاوز مائتي متر تقريبًا، بُنيت بوّابة مملكة النيبال المطليّة باللون الأصفر. يتوسّط مبناها من الأعلى قبّة رباعيّة الأوجه مثل تلك الموجودة في المعابد الهندوسيّة.

وكان الشارع الذي تقع عليه البوّابتان مكتظًا بالقادمين

والمغادرين والمتسوّقين من كلا البلدين، يتنقل غالبيتهم مشيًا على الأقدام، وبعضهم على درّاجاتهم الناريّة والهوائيّة المزيّنة بالصور والأعـلام الملوّنة، وقلّة منهم يستقلّون الحافلات والسـيارات. أمّـا أنـا فقد وقفت مشدوهًا أعاين كـلّ ذلك النشاط والازدحام الذي يصنعه العابرون، والباعة المتجوّلون، ودرّاجات النقل الهوائيّة، والعربات المزيّنة، كلّ على شاكلة ولـون مختلف. وعلى جانبي الطريق تصطفّ الدكاكين والمحلّات التجاريّة ومكاتب السفر التي تخدم القادمين والمغادرين. ظهر الشارع مثل أيّ سوق عادي مزدحم في وسط البلدة.

لكن ما كان لافتًا بشكل كبير هو انتقال المسافرين بين البوّابتين بأريحيّة واضحة من دون أن يسألهم أحد، أو يدقّق في هويّاتهم، أو يطلب جوازات سفرهم، عدا القلّة من العابرين الذين كانوا يبادرون بأنفسهم بالذهاب لمكتب الشرطة على جانب الطريق للاستفسار عن أمر ما. أدركت بأنّه كان بإمكاني المرور بهدوء وشكل اعتياديّ كبقيّة العابرين من دون أن يلتفت لي أحد، لا يبدو أنّ هناك أيّ تشدّد أو تدقيق يستحقّ الحذر الشديد الذي اتّبعناه، والمعاناة التي مررت بها، وتسبّبت بكلّ

هذا الإرهاق الجسديّ والضغط النفسيّ اللذين كنت فيهما.

بنجاح عمليّة الفرار من النيبال، وعبورنا الحدود الدوليّة إلى الهند، اقتربت من طيّ صفحة مظلمة، ومرحلة من أخطر مراحل حياتي، أو هكذا كنت أعتقد حينها.

22
فندق أشوك

جلست مرتاحًا فوق إحدى الأرائك الخشبيّة الفاخرة ذات المقاعد الثلاثة، المغلّفة بقماش حريريّ. تحتشد صالة الاستقبال بالزائرين في فندق أشوك، ذي الخمس نجوم، وخمسمائة وخمسين غرفة. هو الفندق الحكومي الكبير الذي تمّ بناؤه على أرض تبرع بها مهراجا كشميريّ، وبمساحة قدرها خمسة وعشرون فدانًا من الأراضي الزراعيّة الخضراء الواقعة في الحيّ الدبلوماسيّ في العاصمة الهنديّة نيودلهي. سُمّي هذا الفندق باسم الإمبراطور أشوكا الذي حكم الهند ووحّدها قبل أكثر من مائتي عام من الميلاد، بُني عام 1956 في عهد رئيس وزراء الهند الأوّل جواهر لآل نهرو، والد رئيسة الوزراء المغدورة أنديرا غاندي، كما صُمم على الطراز المعماريّ الهندي القديم؛ حتى صار اليوم صرحًا تاريخيًّا مهمًّا من صروح العاصمة الهنديّة.

وصلتُ إلى مدينة نيودلهي بعد ليلتين هانئتين قضيتهما مع السيّد بالا في گوراكبور، شعرت بأنّي بحاجة إليهما للراحة،

ومعالجة بعض آثار السفر على قدميّ إثر رحلتنا المجهدة. في گوراكبور أقمنا في نزل متواضع، في أحد أحياء المدينة الواقعة على ضفاف نهر رابتي في ولاية أوتار براديش، وصلنا إليها في حافلة أقلتنا من المحطّة في منطقة سنوالي الحدوديّة. وفي تلك المنطقة ودّعنا مرافقنا الصامت الذي كان لنا خير مُعِين أثناء رحلة العودة، بعد أن تلقّى مقابل أتعابه من الروبيّات المتفق عليها.

في صباح اليوم الثالث، ركبت والسيّد بالا القطار إلى نيودلهي، في رحلة استغرقت ستّ ساعات، لم أشعر خلالها بالطمأنينة، كنت مشغول البال متسائلًا كيف سيكون الحال في عاصمة الهند المضطربة، التي شهدت منذ أيام قليلة اغتيال رئيسة الوزراء، أعمال عنف دمويّة راح ضحيّتها مئات الأبرياء، لا سيّما أبناء الأقلّية السيخيّة الذين كانوا هدفًا للانتقام وعنف الغوغاء. وعند مرورنا بشوارعها متوجّهين إلى الفندق، بدت العاصمة هادئة على غير نشاطها المعتاد، فيما لا زالت روائح الأدخنة وأنقاض الحرائق منتشرة في بعض الأحياء والمحلّات التجاريّة الخاصّة بأبناء الطائفة السيخيّة. عادت الحياة إلى طبيعتها بعد أيام.

كان لا بدّ لي من زيارة المدينة رغم هذه الأوضاع؛ لأعبر عن شكري وامتناني للمعروف الذي أسداه لي السيّد حسن البوراشد، وكلّ ما فعله من أجل إنقاذي، فلولاه لما خرجت من النيبال بهذه السرعة، وهو التقدير نفسه الذي أكنّه للرئيس مايور وزوجته بعد أن قدّما لي كلّ أنواع الدعم في أثناء وجودي هناك، وكان لا بدّ من القدوم لطمأنته على نجاح العمليّة، وخروجي سالمًا، وهو العهد الذي قطعته على نفسي عندما تفارقنا في مطعم گازيبو، سيّما وهو ينتظرني في هذه المدينة.

جلست منبهرًا بالمكان، أنظر إلى زواره القادمين من الطبقات المخمليّة، معاينًا زهو هذا الصرح التاريخيّ الملكيّ الذي أجلس في بهوه، متأمّلًا أروقته الفاخرة وأعمدته الطويلة المغطّاة بحجر المرمر، نحتت عليها أجمل النقوش القديمة، إلى جانب ثريّاته المصنوعة من الكريستال الفاخر، وسجّادته الكبيرة المحاكة يدويًّا من الحرير الكشميريّ. الأكيد أنّ المكان يختلف عن كلّ ما شاهدته قبل ذلك، بما فيه فندق هملايا شيراتون الذي كان يقطنه الشيخ القحطاني. شبهته بالقصور المغوليّة أو تلك التي يمتلكها مهراجات أو ملوك الهند الأوّلون، وكنت قد شاهدتها في أفلام السينما الهنديّة.

انشغل نظري بمتابعة كلّ حركة هناك، بين زوّار الفندق من دبلوماسيّين ورجـال أعمال وسـوّاح قادمين من جميع أنحاء العالم، وكذلك رجال السياسة الذين صادف وجودي حضورهم أحد المؤتمرات الدوليّة التي شهدها ذلك الفندق، حتّى اكتظّ محيطه بقوّات الأمن العاملين على تيسير حركة المرور خارجه أو تنظيم المؤتمر والمشاركين فيه. وقد عُرف عن هذا الفندق أنّه المكان الذي أقامتْ فيه رئيسة وزراء الهند المغدورة حفل زفاف نجلها الأكبر السيّد راجيف غاندي عام 1968 على المواطنة الإيطاليّة سونيا ماينو، وهو الابن الذي خلفها في رئاسة الوزراء بعد اغتيالها، كما أنّه رئيس الوزراء الثالث من العائلة نفسها، والثاني الذي يتمّ اغتياله في تفجير انتحاريّ قام به أحد أعضاء جماعة نمور التاميل السريلانكيّة الانفصاليّة في عام 1991. كان الاغتيال انتقاميًا أيضًا لتدخّل حكومته وإرسالها قوّات حفظ السلام في الصراع الدائر بينها والحكومة السريلانكيّة.

شهد هذا الفندق أحداثًا كثيرة وكبيرة، واستقبل أشهر وأهم شخصيّات العالم السياسيّة والاقتصاديّة. بل لا يقيم في هذا الفندق الفخم إلّا كبار الشخصيّات الزائرة للبلاد ورجال

الأعمال القادرون على تحمل تكاليفه الباهظة. ولا أعتقد أنّني كنت سأزور هذا الفندق أو أمرّ عليه يوما ما في حياتي، لولا أنّه الفندق الذي يقيم فيه السيد البوراشد. وعد أن يلتقيني فيه ليطمئنّ على وصولي سالمًا، ويستكمل دفع مستحقّات السيّد بالا.

بعد خروجه من المصعد راح السيّد البوراشد يتلفت يمينًا ويسارًا؛ بحثًا عنّي ثمّ نظر نحوي ومجموعة الرجال الذين أجلس وسطهم في بهو الفندق، محاولًا أن يلمحني أو يميّزني من بين الجالسين في المكان، لكن لم يتمكن من ذلك، خصوصًا أنّ ما عانيته في الأيام الأخيرة قد فعل في شكلي وهيئتي ما فعل. اضطررت أن أقف ملوّحاً بيدي، مناديًا إيّاه بصوت مرتفع، لعلّه يلتفت لي في خضم الضوضاء التي يشهدها المكان. وبعد أن شاهدني رحبت به قائلًا:

- «مرحبا بك سيّد حسن البوراشد. ها أنا هنا أمامك امتثالًا للوعد».

وفي اللحظة التي سمع فيها صوتي وشاهدني قادمًا نحوه، ابتسم وعلى وجهه علامات الدهشة والاستغراب، للحال الذي رآني عليه، استقبلني معانقًا ومصافحًا بحرارة، وكأنّها اللحظة

التي فقد الأمل بحصولها بعد تأخّري عن الوصول عدّة أيام، وهو يقول:

- «مـاذا جرى لك وغيّر هيئتك بهذه الصورة؟! ولماذا تأخّر وصولك عن الوقت المتفق عليه؟ لقد ألغيت رحلة عودتي عدّة مرّات بسبب تأخّر وصولك، وهو ما أقلقني كثيرًا دون أن أعرف كيف أتصرّف في ظلّ هذه الظروف، لكن الحمد الله الـذي أخرجك من هناك وأوصلك سالمًا».

ثمّ أضاف متسائلًا عن مظهري:

- «لم أتمكّن من التعرّف إليك للوهلة الأولى لولا نبرة صوتك وأنت تناديني، تغيّر مظهرك كثيرًا في أيام قلائل، فقدت الكثير من الوزن، وها أنت تعرج في مشيك، أصلع الرأس! أخبرني ماذا حصل؟ وهل تعرّضت لإيذاء من أحد؟ أو تعاني من أيّ مرض؟».

مجموعة من الأسئلة تبيّن حجم الصدمة لما وجد عليه حالي في ذلك اللقاء، لكنّني أجبته قائلًا:

- «القصة طويلة سيدي، مررنا بأوقات خطيرة وظروف صعبة ما زلتُ أشعر بآلامها حتّى تركتْ آثارًا جسديّة،

تشاهد بعضها والآخر منها مخفي، لا أعتقد أنّها ستبرأ في وقت قريب».

أضفتُ موضّحًا الأسباب وراء ذلك قائلًا:

- «تعقّدت الأمور بينما نحن في منتصف الطريق، نتيجة اغتيال الرئيسة غاندي، ما دفعنا إلى تغيير الخطّة التي وضعناها معًا، لكن أحمد الله أنّني ما زلت على قيد الحياة أقف أمامك مرّة أخرى، واضعًا نهاية للكابوس الذي عشته في الأيام والأسابيع الماضية».
- «واضح أنّك لا تبدو بخير ولا بحالة جيّدة على الإطلاق، وأرجو أن تطلعني على تفاصيل أكثر أو كيف حصل كلّ ذلك؟ لم أكن لأوافق على رحلتك لو علمتُ أنّك ستواجه هذه المخاطر الحقيقيّة والظروف الصعبة، إلّا أنّني سعيد أنّك تجاوزت مرحلة الخطر أخيرًا، والأكيد أنّك تجاوزتها باقتدار حين استطعت الوصول إلى الهند بسلام».

دعاني لأجلس معه في أحد أروقة الفندق الأكثر هدوءًا، وهناك رحت أسرد عليه تفاصيل ما مررت به كله، وقد صدمه ما شاهده من التورّمات البارزة على قدمي، كذلك البقع

والتقرّحات التي تركتها الحشرات والديدان، والعوامل البيئيّة التي ما زالت آثارها باقية على جسمي. وطوال حديثي معه كان يتابعني جامد الجسد، فاغر الفم، فاتح العينين إلى أقصاها، مصدومًا ممّا يسمعه منّي، ومُنشدّ البال لكلّ كلمة كنت أتفوّه بها، غير مستوعب كلّ الذي مررت به.

وبعد انتهائي من سرد قصّتي علّق قائلًا:

- «في الحقيقة أستغرب ابتسامتك الدائمة بعد كلّ ما حدث لك، أو مررت به من ظروف قاسية وأحداث مأساويّة، ولا أعرف كيف تستطيع أن تحافظ على هذه الابتسامة دائمًا وفي أسوأ الظروف!».

ضحكتُ لملاحظته رغم تعبي. قلت: «لا أعلم ما أقول عدا أنّها قد تكون طبيعة فطريّة».

- «صدّقني كنت سأطلب منك أن تكتب قصّتك هذه كلها، وترويها للعالم، لولا خوفي من افتضاح أمري في مساعدتك. ما حصل لك يكاد لا يصدّقه عقل، كما لو أنّه يحدث في قصص وأفلام الخيال السينمائيّة!»
- «ربّما يحصل ذلك في يوم من الأيام».

سألني مازحًا حول المستقبل:

- «أخبرني يا نارين البوذيّ، ما الذي تخطّط لفعله وبرنامجك بعد العودة؟».
- «نارين البوذيّ أمسى من الماضي الأليم، والآن أنا نادر البحريني الحاضر والمستقبل، لا أفكر سوى في العودة إلى مدينة بونا، واللحاق بدراستي الجامعيّة، ومن هناك سأتواصل على وجه السرعة مع أسرتي في البحرين لأطمئنهم على حالي وسلامتي، أنا متأكّد أنّ حالتهم النفسيّة ليست على ما يرام بعد هذا الغياب الطويل وانقطاع اتصالي بهم، كما سأعمل بهدوء على إصدار جواز سفر جديد عوضًا عن ذلك الذي فقدته من خلال مراجعة القنصليّة البحرينيّة في مدينة بومباي».
- «أرجو منك أن تكون أكثر حذرًا في المستقبل، وألّا تورّط نفسك في قضايا أنت في غنى عنها»
- «أعاهدك على ذلك سيّدي»
- «عليك العودة سريعًا، وترتيب أوضاعك واستعادة عافيتك وصحّتك -التي لا تبدو بخير- حتّى ترجع إلى حياتك الطبيعيّة ودراستك الجامعيّة من جديد، لكن أخبرني قبل سفري الليلة إنْ كنت في حاجة إلى المال لعودتك وترتيب أوضاعك؟»

- «كلّ الفضل في نجاتي يرجع لك سيّدي، ولولاك لكانت الأمور مختلفة تمامًا، ولا أعلم على أيّ شاكلة أو مصيبة ستكون نهايتها، والأكيد أنّني لن أنسى لك هذا الفضل طوال حياتي، لكن يبقى لي طلبٌ آخر أكـرّره عليك، وأناشدك تحقيقه بقدر ما تستطيع، وهو استقدام عدد من العمّال الفقراء الأكثر تضرّرًا، من الذين فقدوا أموالهم في القضيّة التي تورّطت فيها، ومتى ما احتجتَ في أيّ من مؤسّساتك».
- «نعم هذا وعد قطعته على نفسي، وشرعت في تنفيذه خصوصًا أنّنا نستقدم العمّال الآسيويّين بشكل مستمرّ، وبعد سفرك من كاتمندو تواصلتُ من أجل هذا الغرض مع رفيقك الرئيس مايور الذي كان سعيدًا بذلك، فلا عليك من هذا الأمر، سأعمل على المساعدة فيه بقدر ما أستطيع، لكن يبقى سؤالي الأخير قبل أن أسافر عنك، هل لديك ما يكفي من المال من أجل عودتك ودراستك؟»
- «لا سيّدي. أحتاج من المال ما يكفي لتذكرة العودة على القطار؛ لأنّني قد أعطيت كلّ ما عندي من المال لأسرة أحد العمّال فقد ربّ أسرته، وكنت قد تحدّثت لك عنه».

- «خيرًا فعلت يا نادر. أسال الله لك التوفيق والسداد في حياتك».

غادرنا السيد بالا لاحقًا بعد أن تلقى مستحقّاته وزيادة، بسبب تغيّر الخطّة إلى جانب عبارات الشكر والثناء منّي والسيّد البوراشد. بقينا نحن الاثنين بعض الوقت نتبادل الحديث، ونتناول الطعام في ذلك المطعم الضخم، ذي الطابع المغولي في الفندق، وعند المغرب ودّعنا بعضنا ليغادر هو إلى المطار عائدًا إلى بلاده، في حين أتوجه أنا إلى المحطّة لأستقلّ القطار إلى مدينة بونا في رحلة اليوم الواحد.

كان لقائي بالسيّد البوراشد في فندق أشوك هو الأخير، لم أره بعدها أبدًا، التزمت بما طلبه منّي، وإنْ كنتُ أتابع أخباره من بعيد. وبعد مرور أكثر من عشرين عامًا على ذلك اللقاء بعثت له التحيّات مع بعض الأصدقاء، كانوا قد التقوه في مناسبات مختلفة، ولا أعلم إن كان يتذكّرني أم لا.

كان لمساعدة السيّد البوراشد الأثر الإيجابيّ الكبير على نفسي ونظرتي للكثير من الأمور، بيّن لي أنّ هناك في عالمنا الواسع من يفعلون الخير ويخدمون البشريّة، ثمّ يرحلون بهدوء دون أن يطلبوا إقرارًا بدورهم الأخلاقي، ولا مردودًا لفعلهم الخير، إنّما يقومون بذلك إيمانًا منهم بالقيم الإنسانيّة.

21
مستشفى جهنگير

بإلحاح شديد، طلبتُ من الأطباء المشرفين على علاجي أن يسمحوا لي بمغادرة المستشفى، قضيت فيه ثمانية أيام طريح الفراش. شعرت بملل شديد، واشتياق كبير لعودتي إلى حياتي الجامعيّة ونشاطاتي الاجتماعيّة التي أحنّ إليها. إلّا أنّ الأطباء ارتـأوا ضرورة بقائي مزيدًا من الوقت من أجل تضميد آثار العمليّتين الجراحيتين اللتين أجريتهما، لإزالة وتنظيف بعض الطفوح والالتهابات الجلديّة التي صنعها الطريق وظروفه البيئيّة التي تكبّدتها، كذلك لمتابعة اختصاصيّ العظام الذي أجرى عمليّة معقّدة لتعديل وضع كاحلي، كان قد تعرّض لبعض الرضوض والالتواءات الناتجة عن تعثّري أثناء السير لأكثر من مرّة في المستنقعات المائيّة، أو على الطرقات الوعرة التي سلكناها راجلين على الأقدام إلى الأراضي الهنديّة.

لجأت إلى مستشفى جهنگير المعروف في مدينة بونا، بعد يومين من وصولي، وبعد إلحاح أصدقائي الذين راحوا يضغطون كي أعرض نفسي على الأطباء، بعد أن أدركوا حالتي

الصحّيّة والجسديّة المتردية، والاضطرابات النفسيّة التي عانيت منها، كانت واضحة على سلوكي العامّ، وصلتْ لدرجة تستدعي التدخّل الطبّيّ والعلاج في المستشفى.

كان أول من استقبلني هو صديقي رازق. ذهبت إلى شقّته المجاورة لمحطّة القطار فور وصولي، وقبل عودتي لغرفتي، وهو أوّل من أبدى لي ملاحظاته حول بعض تصرّفاتي التي تبيّن أنّني مصاب بحالة نفسيّة غير طبيعيّة. رضخت إلى ضغوط الأصدقاء، وعرضت نفسي على أطباء ذلك المستشفى، بعد أن حملني إلى هناك زميلا الدراسة ماهر وأمير اللذان كانا يتابعان حالتي الصحّيّة عن قرب.

بعد بضعة أيام قضيتها في المستشفى، وبفضل المتابعة العلاجيّة الحثيثة من الأطباء، ودعم الأصدقاء لي، بدأتْ حالتي الصحيّة والنفسيّة تشهد بعض التحسن، حتّى وعد الأطباء بخروجي من هناك خلال أسبوع، على أن أمكث فترة نقاهة في المنزل، وأتابع المستشفى بشكل دوري حتّى أشفى تمامًا من آثار العمليّات التي أجريتها. كما أخبرني الطبيب النفسيّ الذي يتابع حالتي أنّه لا يرى ضرورة لبقائي في المستشفى لفترة أطول، إذ باستطاعتي مراجعته في عيادته الكائنة وسط المدينة بشكل أسبوعي، حتّى تتحسّن حالتي.

لم تكن أحداث النيبال التي مررت بها، وظروفها القاسية وحدها السبب في تردّي حالتي النفسيّة، إنّما القلق والتفكير المستمرّ والخشية ممّا يمكن أن يحدث في المستقبل من تداعيات، ستبقى تلاحقني إلى مدى غير معلوم، في ظلّ غياب السبل حول كيفيّة التعامل مع هذه التبعات التي لا أعرف ما سيكون وقعها. بينها فقد جواز سفري، وما ترتّب عليه من خروجي من النيبال بطريقة غير مشروعة، ودخولي الهند متسلّلًا، وإقامتي غير المشروعة، والخشية من أن يتمّ اعتقالي في أيّ مكان ما من الهند، أو أنْ تُصدر ضدّي مذكّرة اعتقال – بطلب رسميّ – من السلطات النيباليّة بعد أن تُدرك حقيقة مغادرتي إلى الهند.

كما كنتُ قلقًا من أن ينمو لعلم السلطات البحرينيّة خبر فراري غير المشروع من النيبال إلى الهند، ويترتّب على ذلك تبعات قانونيّة تنتهي بي إلى السجن. والأكثر من كلّ ذلك خوفي من ملاحقة عائلة الشيخ القحطاني لي بعد أن تعجز عن العثور عليه، فقد كنتُ آخر من التقاه قبل غيبته الغامضة التي لم يخرج منها حتّى وقت مغادرتي الأراضي النيباليّة، أو ربّما اتهامات في غير محلّها تربطني باختفاء الشيخ أو تحمّلني مسؤوليّته، أو

يُوجّه لي اللوم بسبب فراري من النيبال دون أن أنتظر وأعرف شيئًا عما آل إليه مصيره، وما إلى ذلك من تداعيات قانونيّة أدفع ضريبتها. كما كنت أخشى أن أبدو أمام أسرته والجميع كمن تخلّى عنه في أحلك الظروف التي يحتاج إليّ فيها، وهو أمر لا يحاكي واقع الحال؛ حيث إنّ الأمر أكثر تعقيدًا ممّا يمكن أن يراه الناس البعيدون عن الحدث، غير أنّه سيكون من الصعب عليّ إقناعهم.

كما أنّ هناك توجّسًا آخر يقلقني وهو خشيتي أن يعلم أفراد أسرتي بما حصل لي في النيبال، وقد كتمته عنهم حتّى بعد عودتي، كي لا يتمّ حرماني من العودة مرّة أخرى لإتمام دراستي في الهند خوفًا على حياتي، وهو آخر ما كنت أرجو حصوله.

كلّ هذه الأفكار السوداويّة والافتراضات السلبيّة سببّتْ لي حالة من الأرق والتوتّر النفسيّ، حتّى وصلت حالتي إلى درجة من التدهور، أحتاج فيها إلى مساعدة طبيب نفسيّ متخصّص، وهو ما أدركه بعض أصدقائي قبل أن أكتشفه بنفسي.

لجأت إلى اختصاصيّ أمراض نفسيّة، ونصحني أن أترك مقرّ سكني وغرفتي التي كنت أقطنها، وانتقل لأقيم مع أيّ من

أصدقائي في سكن مشترك عوضًا عن البقاء وحيدًا. أخذتُ هذه الخطوة مرغمًا بعد أن طردتني مدام فريدة من غرفتي المطلّة على النهر، أعطتها لمستأجرين آخرين ردًّا على التأخّر في دفع الإيجار المستحقّ بسبب غيابي، لكن الدافع الأكبر لطردي هو حصولها على من أعطاها إيجارًا أكثر.

أدركتُ عمليّة الطرد في اليوم الذي وصلت فيه إلى مدينة بونا قادمًا من العاصمة نيودلهي، رأيتُ أغراض غرفتي وحقيبتي ملقين على الأرض في ممرّ المبنى، وقد لعبت فيها الفئران والديدان. عرفت لحظتها أنّ هناك أناسًا آخرين يقيمون في الغرفة نفسها، أخلتها العجوز لهم، دون أن تطلعهم بحقيقة أنّي المستأجر الشرعي لتلك الغرفة. وما إن رأتني حتى أخبرتني أنّي مطرود من الغرفة، وأنّها قامت بتأجيرها لغيري، الأمر الذي صدمني وزاد من ضغوطي النفسيّة. لم أتوقّع حدوث ذلك منها على الرغم من سوء شخصيتها وتصرّفاتها. لم يكن أمامي سوى الانتقال لأقيم مع بدر، رفيقي الذي أقنعني بالمجيء إلى الهند وجامعة بونا للدراسة.

بعد عدّة أشهر عدتُ لزيارة العجوز مرّة أخرى، لا للسؤال عنها، إنّما لأستفسر إنْ كانت تسلمت أيّ رسائل بريديّة مرسلة

لي على العنوان السابق، خصوصًا من السيدة ماريا سلادينو وعائلتها، انقطعت اتصالاتي بهم منذ اليوم الذي اختُطفت فيه من كونتيبور إفرست. ومن وقتها لم أعرف عنهم شيئًا كما لا أعتقد بأنّهم قد علموا بما جرى لي من أحداث مريرة، طوال الأسابيع التي تلت آخر اتصال جرى بيننا. في الحقيقة كنت أشعر بالأسى لانتهاء علاقتنا الوطيدة بهذه الصورة المأساويّة. حاولتُ الاتصال بهم هاتفيًا من محطّة البريد بعد خروجي من المستشفى والتعافيّ من آثار ما حلّ بي، لكن أشخاصًا أخرين كانوا قد حلّوا في المكان نفسه، ولا يعلم أيّ منهم عن أسرة ماريا شيئًا، كما بعثتُ رسالة بريديّة على العنوان نفسه، لكن الرسالة عادت لي بعد عدّة أشهر مختومة بعبارة: (يُعاد للمرسل بسبب خطأ في العنوان).

فتحتْ لي العجوز الباب بنفسها بعد أن طرقته مرّتين، وراحت تطلّ بوجهها ذي الملامح الجامدة، والشعر الأبيض غير المسرّح، والمشدود بخيط مطّاطيّ، وقد صار وجهها بعد عدّة أشهر من الفراق أكثر عبوسًا، سيّما بعد أن أدركت أنّني الزائر الذي كان يطرق بابها. حالما رأتني علّقت قائلة:

- «ها أنت هنا مرّة أخرى! لا أعلم ماذا تريد منّي؟».

- «جئت لأسألك سيّدتي إنْ كنتِ قد تلقّيت أيّ رسائل تخصّني من النيبال...». وقبل أن أكمل حديثي جاءني الردّ الأسوأ في حياتي:
- «نعم لقد تلقيت رسالتين لكنّني أعدتهما لساعي البريد كي يرجعهما للمصدر؛ حيث إنّك لم تعد تقيم في هذا المكان، ولا يمكن أن أكون صندوقًا لبريدك إلى ما لا نهاية».

لا أعتقد أنّني قد امتلأتُ غيظًا في حياتي أكثر من تلك اللحظة وذلك اليوم جرّاء ما فعلته الشمطاء، لم تترك عندي أي ذكرى طيبة تجاهها على الإطلاق.

راح رفاقي يتناوبون على زيارتي في مستشفى جهنگير؛ حتّى تحوّل المكان طوال الخمسة عشر يومًا التي قضيتها هناك إلى ملتقى يتجمّع فيه الرفاق والأصدقاء من جميع الجنسيّات، يتحاورون حول أمورهم الحياتيّة، والأوضاع السياسيّة في الهند أو حول العالم، وراحت غرفتي هناك تأخذ مكان الشرفة المطلّة على النهر طوال فترة وجودي في المستشفى. كان لدى زملاء الدراسة الكثير من التساؤلات راحوا يكرّرونها عن أسباب الأمراض المفاجئة التي ألمّت بي، وفقداني الكثير

من الوزن، أو لماذا بتّ حليق الشعر فجأة، إلّا أنّي كنت أُوهم الجميع بأنّها ترجع إلى إرهاق السفر برًّا بين قطار وحافلة، ورحلات تسلّق الجبال التي قمت بها في كشمير.

لم أخش افتضاح أمري إذ ليس لأصدقائي علاقة بالطلاب الأجانب الذين نظموا رحلة كشمير ثمّ ألغوها، لكنّني أطلعت القلّة من أصدقائي المقرّبين على القصّة كلها، وارتأيت إخبارهم بكل ما جرى، لكي يخبروا بها المعنيين في حال بروز أيّ حدث طارئ يؤدّي إلى تغيّبي عن المشهد بصورة مفاجئة، كما كان مهمًّا عندي أن أسمع رأي أو نصيحة أحد غيري يدلّني على الطريق الصحيح الذي عليّ سلوكه، في ظلّ ذلك التشويش الفكريّ والضغط النفسيّ. وفي اليوم قبل الأخير لي في المستشفى جاء صديقي جعفر يحمل صحيفة (ذي تايمز أوف إنديا) وهي الصحيفة الأكثر انتشارًا في الهند، وهو يقول لي:

- «اسمع هذه القصّة الغريبة عن مواطن بحريني في مملكة النيبال».

لم أعلم ما كان يرمي إليه من إثارة هذه القصّة التي فاجأني بها، لكنّني تعاملتُ معه بشكل يخفي مشاعر الارتباك، قال ملوّحاً بالصحيفة في يده:

- «الصحيفة تتحدّث عن رجلين أحدهما بحريني والآخر سعودي، قاما بعمليّة نصب وسرقة أموال كبيرة، واحتالا على الفقراء، بعد أن زعما أنّهما ينويان نقل أعداد كبيرة من العمالة النيباليّة للعمل في دول الخليج، وتعتقد السلطات هناك أنّهما فرّا هاربين بعد أن نهبا أموال الناس، وهي تبحث عنهم في كلّ مكان من دون جدوى».

كنت أصغي لكلّ كلمة من كلماته باهتمام كبير، وفي الوقت عينه متصنّعًا اللّا مبالاة حيال ما يقوله، وإنْ كنتُ أشعر بالتوتّر الشديد والخوف من أن ينكشف أمري، خصوصًا الآن بعد أن عبرتْ قصّتي حدود النيبال، وصارت مُتداولةً في الصحافة الهنديّة وربّما العالميّة أيضًا، وهو الأمر الـذي دفع بعض أصدقائي من الذين صارحتهم بالأمر لنصيحتي بالعودة إلى البلاد من أجل سلامتي، لكنّني رفضت الأمر تمامًا، بما فيه مناقشة هذا المقترح.

طوال فترة مكوثي مريضًا في المستشفى تجنبت أن أطلع أسرتي على حالتي المرضيّة، ووجـودي في المستشفى، وكذلك طلبت من أصدقائي أن يكتموا الأمر عن أهلي في البحرين؛ كي لا يُدخلوا الخوف إلى قلب أمّي وأبي، خاصّة

بعد كلّ الذي تسبّبته لأسرتي من قلق وخوف، عاشوا عذاباته طوال فترة غيابي في النيبال.

عند عودتي إلى مدينة بونا تواصلت هاتفيًا مع أسرتي في البحرين، وسعدت حين تحدّثت إليهم وطمأنتهم على حالي، وتأثّرت لأمّي حين راحت تبكي في أوّل اتصال وتنتحب لفراقي الطويل، مُعاتبة تجاهلي إيّاهم وتوقّفي عن الاتصال بهم، فهمت الحالة النفسيّة السيّئة التي كانت عليها هي وأبي وكلّ أفراد أسرتي الذين تجمّعوا حول الهاتف، وكنت أسمعهم يعبّرون لبعضهم بعضًا عن سعادتهم بالاتصال الذي كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. حمدت ربّي أنّني قمت بذلك في اللحظة الأخيرة.

جاء اتصالي لعائلتي، قبل بضع ساعات فقط من سفر أخي الأكبر إلى الهند للبحث عنّي، بعد أن فشلت كلّ مساعي العائلة في الحصول على معلومات حول مكان وجودي، أو فكّ لغز اختفائي، وتوقّف اتصالاتي الهاتفيّة. وقد سعى والدي وبقيّة أفراد أسرتي للبحث عنّي بشتّى الطرق الطبيعيّة، وأجروا الاتصالات ببعض أصدقائي في الهند، ممّن تمكّنوا من الوصول إليهم، كما تمّ التواصل مع إدارة جامعة بونا التي أنتظم في صفوف إحدى كلّيّاتها.

وفي البحرين راجعت عائلتي السفارة الهنديّة في المنامة، وهاتفوا قنصليّة البحرين في مدينة بومباي التي خاطبت – بدورها – الجهات الأمنيّة الهنديّة على المستوى المحلّي أو الوطني. لكن كلّ تلك التحرّيات التي قاموا بها لم تُجد نفعًا، سيّما أنّها بُنيت على افتراض خاطئ، هو أنّني مختفٍ في مكان ما داخل الأراضي الهنديّة أو في منطقة كشمير، ولم يخطر ببال أحد إمكانيّة وجودي في بلاد أخرى. وبعد أن فشلتْ كلّ محاولات أسرتي في الحصول على معلومات تدلّهم على مكان وجودي، قرّروا أن يبعثوا أخي الأكبر إلى الهند ليشارك أصدقائي والأجهزة الأمنيّة في عمليّة البحث عنّي، عوضًا عن اقتصار كلّ جهدهم على الإجراءات القنصليّة البيروقراطيّة التي لا يبدو أنّها كانت ستنفع في بلاد كبيرة بحجم الهند، غير أنّ ظهوري المفاجئ على المشهد وتواصلي مع أسرتي أعاد الأمور إلى طبيعتها مرّة أخرى.

في مطلع عـام 1985 كانت حالتي الصحيّة والنفسيّة تحسّنت كثيرًا، وعـادت إلى طبيعتها، كما تحسّن مظهري الخارجيّ وعاد وزني إلى وضعه السابق، ونبت شعري متحرّرًا من شخصيّة نارين البوذيّ. بدأتُ أستعيد حياتي الاجتماعيّة

ونشاطاتي الطلابيّة الاعتياديّة، وصفوفي الدراسيّة، وأعوّض ما فاتني في فترة غيابي.

رحت أتعامل بهدوء مع موضوع فقدان جواز السفر، استخرجت في نهاية يناير 1985 تقريرًا من مركز الشرطة الواقع في محطّة القطار الرئيسة للمدينة وبمساعدة صديقي عباس، بعد أن أخبرتهم أنّني فقدت الجواز داخل الهند، وهي الإفادة التي ضلّلت فيها الجهات الأمنيّة. أبقيت الحقيقة طيّ الكتمان خوفًا من أن أعاقب أو أطرد من هناك بسبب دخولي الأراضي الهنديّة متسلّلًا أو مقيمًا بطريقة غير مشروعة، كذلك رغبةً منّي في إبقاء القصّة بعيدًا عن علم الجميع في البحرين، متجنّبًا أيّ تداعيات قانونيّة يمكن لها أن تحدث هناك وتؤثّر على دراستي الجامعيّة.

لا أعلم إنْ كان قرار التكتّم وإخفاء الحقيقة عملًا صائبًا أم لا، لكنّه مثل الكثير من القرارات التي اتخذتها تلك الفترة، وتحت ظروف مختلفة، فقد كنت أعتقد بصحّتها، ولم أكن قد تجاوزت التاسعة عشر من عمري بعد.

كان تقرير الشرطة الهنديّة الذي استخرجته، يعد واحدًا من عدّة شروط تطلّبها إصدار جواز سفر جديد بديل، بدءًا بوثيقة

سفر مؤقّتة تؤهّلني لمغادرة الهند والعودة إلى البحرين، ومن ثمّ إصدار الجواز الجديد، وهو الإجراء الذي لا يمكن إتمامه من الخارج عادة، بل يتطلّب وجودي في البحرين شخصيًّا. وهذا ما أطلعني عليه موظفو قنصليّة بلادي في مدينة بومباي. تردّدت عليها عدّة مرّات من أجل هذا الأمر، على الرغم من نفوري من تلك المدينة التي تعدّ الأكثر تلوّثًا من بين جميع المدن الهنديّة التي زرتها، وهي الأكثر خصومةً مع معايير النظافة البيئيّة والنظام العامّ، ولو أنّني شهدت بعض التحسّن عند زياراتها، بعد أكثر من عشر سنوات من تلك الأحداث.

22
عالم يتغيّر

في الأسبوع الأوّل من شهر يوليو عام 1985، وبعد أن تلقيت وثيقة المرور من القنصلية البحرينية في مدينة بومباي، وصادقت عليها في إدارة الشرطة ووزارة الخارجيّة الهنديّة، عدت إلى البحرين على متن طائرة تابعة للطيران الهندي، كانت قد أقلعت من مطار بومباي الدوليّ، المطار الأكثر ازدحامًا في الهند، وأحد المطارين الدوليّين في البلاد.

هي رحلتي الأولى التي أعود فيها إلى البلاد منذ أن غادرتها قبل أكثر من عامين. جاءت في وقت تعصف بالعالم الكثير من الأحداث السياسيّة المهمّة التي أربكت حاضره، وغيّرت مجراه، وصنعت مستقبله. كنتُ قلقًا كثيرًا بسبب ما يحصل في الهند من أحداث كبيرة يمكن لها أن تؤثّر حتّى على رحلة عودتي إلى البحرين، أو تلغيها نظرًا لما تشكّله من تهديد على سلامتنا التي يمكن أن نتعرّض لها كمسافرين على تلك الرحلة. هذا الخوف جعلني ملازمًا الصمت طوال الرحلة، جالسًا في مكاني على مقعد الطائرة دون أن أحرّك ساكنًا، خوفًا ممّا يمكن

أن يحدث في أيّ لحظة، شعور ربّما كان مسيطرًا على غالبيّة ركاب الطائرة المتابعين للأحداث السياسيّة الأخيرة في بلدهم الهند، ولو بدرجات مختلفة من الاهتمام، وحسب استيعابهم بما كان يدور حولهم من أحداث.

سبب قلقي، أنه في الثالث والعشرين من شهر يونيو عام 1985، قبل عشرة أيام من رحلة عودتي تلك، حدث شيء كبير لم يكن في الحسبان. تمّ تفجير طائرة بوينغ تابعة للطيران الهندي على ارتفاع أكثر من ثلاثين ألف قدم، بواسطة قنبلة وُضعت على متنها وهي قادمة من كندا إلى الهند عن طريق المملكة المتّحدة، ما أدّى لتحطّمها في المجال الجويّ الإيرلندي، وموت جميع ركّابها الذين فاق عددهم ثلاثمائة راكب، تناثرت أشلاؤهم مع حطام الطائرة في المحيط الأطلسي.

كانت هذه الجريمة الإرهابيّة واحدة من عمليّتين مزدوجتين أُعدّ لهما بشكل متزامن، إلّا أنّ التفجير الثاني فشل بسبب انفجار القنبلة خطأً في مطار طوكيو، قبل تحميلها على الطائرة بوقت قصير، ولولا ذلك لكانت الخسائر البشريّة أكبر بكثير. وُجّه الاتّهام لاحقًا في العمليّتين الإرهابيّتين لإحدى جماعات السيخ المتمرّدة، يُعتقد أنّها قامت بذلك انتقامًا للهجوم

العسكريّ على المعبد الذهبيّ في عمليّة النجم الأزرق، قبل أكثر من عام. أي أنّها واحدة من سلسلة عمليّات انتقاميّة قامت بها الجماعات المتمرّدة نفسها، لم تتوقّف عند اغتيال رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي، ولا عند تفجير الطائرة في الأجواء الإيرلندية، بل استمرّت لسنوات لاحقة، حتّى وصلت إلى مدينة بونا حيث أدرس وأقيم.

في العاشر من أغسطس 1986، أي بعد أكثر من عامين من اقتحام المعبد اُغتيل القائد العسكريّ ورئيس أركان الجيش الهنديّ المتقاعد أرون كومار فيديا. وتمّت عمليّة الاغتيال في مكان لا يبعد سوى بضع كيلومترات من المنزل الذي كنت أقطنه في الشارع الشرقي مع صديقي بدر. اللافت في الأمر أنّ احتدام الصراع بين الحكومة الهنديّة والمتمرّدين السيخ، جاء في الوقت الذي يرأس فيه الجمهوريّة الهنديّة رجل من الطائفة نفسها، هو الرئيس السابع للهند جياني زيل سينغ من عام 1982 إلى 1987.

وسط المخاوف من تجدّد العمليّات الإرهابيّة، كنت مسافرًا إلى البحرين على متن طائرة تابعة لشركة طيران الهند، الشركة ذاتها التي استهدفتها العمليات الإرهابية. الأمر الذي تركني

في حالة من الرعب طوال الرحلة، حتّى رحت أقفز من مكاني مفزوعًا، ملتفتًا هنا وهناك عند كلّ حركة غير طبيعيّة كانت تحدث في الطائرة، أي حركة يقوم بها أحد الركاب، أو أيّ فرد من طاقم الضيافة لسبب أو آخر، أو حتى مطبّات هوائية. لكن فئة من الركاب كان واضحًا أنّهم لم يكونوا مكترثين ولا مبالين ممّا يمكن أن يحدث، هم غالبًا من فئة العمال المتوجهين للعمل إلى دول الخليج، أبناء الفئات المسحوقة التي لم يترك لها الفقر مجالًا لمعرفة ما كان يجري حولهم من أحداث.

في الأسبوع نفسه الذي تمّ فيه تفجير الطائرة الهنديّة كانت هناك أحداث أخرى مقلقة، سلسلة من التفجيرات المنسّقة تمّت في العاصمة النيباليّة كاتماندو، وعدد من المدن النيباليّة الأخرى، أدّت إلى مقتل ما لا يقلّ عن ثمانية أشخاص، وكان ممن قُتل اثنان من أعضاء مجلس النواب النيباليّ. والأكيد في الأمر أنّ هذه التفجيرات لم يكن لها علاقة بأحداث الهند، ولا بالصراع الدائر مع المتمرّدين السيخ، عدا أنّ حدوثها تزامن في الفترة نفسها، وقد أثارت اهتماميّ؛ لأنّها وقعت في البلد التي نجحتُ من الإفلات منه قبل بضعة أشهر، واختفى فيها رفيقي الشيخ القحطاني الذي لا زال أمر اختفائه يحيّرني ويشغل بالي.

الكثير من الأحداث السياسيّة حصلت في النصف الأوّل من عام 1985 خلال الأشهر التي تلت خروجي من النيبال. كانت مدعاة للقلق عند كلّ مراقب ومهتمّ بشؤون العالم السياسيّة، وكذلك باستقرار وأمن مجتمعاته، ليس في تلك المنطقة من القارة الآسيويّة فقط، إنّما في كلّ مكان من العالم، وخصوصًا منطقتنا الشرق الأوسط والخليج العربي، الذي كان وجهة سفري في رحلة العودة تلك.

من تلك الأحداث التي لا يمكن نسيانها ما حصل في صباح يوم 25 مايو عام 1985، أي قبل أسابيع فقط من رحلة عودتي تلك، حين تعرّض أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح لمحاولة اغتيال عن طريق سيّارة مفخّخة، رُكنت على جانب الطريق الذي يمرّ عليه موكبه، وهو في طريقه إلى مكتبه بقصر السيف. قُتل في تلك العمليّة اثنان من مرافقي الأمير، فيما نجا هو من محاولة الاغتيال، ويُعتقد بأنّ مجموعة من مناصري إيران كانت تقف وراءها انتقامًا لموقف حكومة دولة الكويت الداعم لنظام صدام حسين وحربه التي بدأها مع إيران، فيما سُمّي بحرب الخليج الأولى، وهي الحرب الدمويّة التي استمرّت لثماني سنوات، وانتهت من دون تحقيق

انتصار لأيّ من الطرفين، توقّفا بعد أن أنهكتهما الحرب التي راح ضحيّتها ما يقارب من مليون قتيل، وخسائر ماديّة ناهزت أربعمائة مليار دولار. تركت هذه الحرب أثارًا جانبيّةً سلبيّة على النسيج الاجتماعيّ والمذهبيّ لدول الخليج، انقسمت شعوبه بين مؤيّد ومعارض لأحد طرفيّ هذا الصراع الدمويّ، امتدّ هذا الانقسام إلى الساحات الطلابيّة العربيّة في المهجر، بمن فيهم طلبة البحرين في مدينة بونا فكان هذا الموضوع أحد شواغل منتدياتهم الثقافيّة والسياسيّة.

أمّا الحدث الآخر الذي هزّ عالمنا العربيّ، وكان له نصيب في الصراعات السياسيّة الطلابيّة في الهند، ولا سيّما الأفارقة منهم، فهو الانقلاب العسكريّ الذي قاده وزير الدفاع السوداني عبد الرحمن سوار الذهب على الرئيس السوداني جعفر النميري في أواخر شهر مارس 1985، حين كان في طائرته عائدًا من الولايات المتّحدة الأمريكيّة إلى العاصمة السودانيّة. وقد قام سوار الذهب بذلك الانقلاب تحت ضغط الشارع السوداني الغاضب الذي نزل مُنتفضًا في عموم البلاد، مطالبًا برحيل النظام القمعي لحكم النميري. وكان الرئيس جعفر النميري قد أمسك زمام الحكم المطلق بعد الانقلاب العسكري الذي

قاده في منتصف 1969. ومنذ ذلك الوقت بقي متربّعًا على السلطة، يحكم البلاد بقبضة من حديد، وسجلّ حافل بالفساد، وانتهاكات حقوق الإنسان.

كما كان هناك حدث مختلف على الجانب الآخر من العالم، قد فرض نفسه وغيّر مجرى السياسة العالميّة، ووضع بداية لنهاية ما سمّي بالحرب الباردة بين القطبين السوفييتي والأمريكيّ، كانا يحكمان العالم بشكل أو آخر، وهو ما حصل في الاتّحاد السوفيتي من انتخاب ميخائيل غورباتشوف أمينًا عامًا للحزب الشيوعي في مارس من عام 1985، بعد وفاة ثلاثة من القادة السوفييت المسنّين والمتعاقبين على حكم البلاد، وبعد ثلاث سنوات من وفاة زعيم البلاد ليونيد بريجنيف، وهو المنصب الذي جعل منه الشخص الأكثر تأثيرًا في الاتّحاد السوفييتي والأشهر في تاريخها، إذ إنّه جاء بنظريّة (البروسترايكا) أو الإصلاح وإعادة البناء التي أنهى من خلالها الحرب الباردة مع المعسكر الرأسماليّ الغربيّ، بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، كما أنهى السلطة والدور الأبويّ للحزب الشيوعيّ في تنظيم الدولة وكل البلاد، واتّبع سياسة انفتاحيّة إصلاحيّة أدّت - بغير قصد - إلى تفكّك الاتّحاد السوفييتي إلى جمهوريّات متعدّدة.

هذه التغييرات السريعة أربكت الحركة الشيوعيّة حول العالم، والتي يمثل الاتّحاد السوفيتي مرجعيّتها السياسيّة، لا سيّما في عالمنا العربيّ، حيث انقسم الشيوعيّون بين مؤيّد ومعارض لتلك الإصلاحات التي قوّضت دور أحزابهم، كعامل مؤثّر في أحداث المنطقة. ولم تخلُ ساحتنا الطلابيّة في الهند من تلك النقاشات التي أنهت دور الطلبة الشيوعيين تدريجيًا، وكذلك دور الاتّحاد الطلابي الذي كانوا يمثّلون أغلبيّة أعضائه.

أيضًا، شهدت بلادي البحرين، ومجتمعي الصغير الذي نشأت فيه بعض المتغيّرات التي أدركتها بعد عودتي من فترة غياب جاوزت عامين، من تلك المتغيّرات ما هو معنيٌّ بحياتنا كعائلة، انتقل أفراد أسرتي أثناء وجودي خارج البلاد من بيتنا الذي ورثه والدي عن أبيه في فريق الحطب بالمنامة، وهو البيت العتيق المجاور لحسينيّة بن رجب التي بُنيت قبل أكثر من مائتي عـامّ. كان ذلك البيت هو السكن والحاضنة التي وُلدت فيها وجميع إخوتي وأخواتي الأحد عشر فردًا، وعشت فيه مع أسرتي حتّى سافرت للدراسة في الثامنة عشر من العمر.

كان المنزل الجديد أكبر حجمًا ومساحة، بناه والدي على مدى عامين في قرية بني جمرة، أراد مجاورة أصدقائه ورفاق عمله في إدارة الزراعة، إذ يقيم معظمهم في هذه القرية أو القرى المحيطة جغرافيًا بالدائرة الحكومية نفسها التي عمل فيها، مثل منطقة الدراز والبديع.

كان الانتقال لذلك المنزل بمثابة حلم حققه والدي بعد تقاعده من العمل، وانخراطه في أعمال المقاولات الزراعيّة والبناء، أدّى إلى زيـادة مدخوله المالي. وقد كانت أسرتي المكوّنة من ثلاثة عشر فردًا، في حاجة ماسّة إلى مكان يتّسع لنا جميعًا، عوضًا عن ذلك المنزل الصغير الذي ضاق بنا بعد أن كبرنا، سيّما أنّ ثلاثة من إخوتي قد عادوا إلى البلاد بعد أن أتمّوا دراستهم الجامعيّة في جمهوريّة العراق.

كانت المرّة الأولـى التي ننتقل إلى منطقة تختلف عن حاضنتنا الاجتماعيّة، العاصمة المنامة التي قضيت فيها طفولتي، ومغامراتها الحميدة منها والشيطانيّة، وهي نقلة اجتماعيّة ونفسيّة كبيرة بالنسبة لي، انتقلنا من مدينة ذات كثافة سكانيّة وحيويّة اجتماعيّة، ونسيج دينيّ وعرقيّ متنوّع إلى منطقة لا يجاورنا فيها إلّا بعض الأراضي الزراعيّة، ومشاغل النسيج، أو مساحات فضاء تفصل بيننا وبين مركز القرية ومقبرتها التاريخيّة.

إلّا أنّه ومع تقدم الزمن تمدّدت حدود القرية، لتستوعب الزيادة السكانيّة، وانتقال الناس من العاصمة إليها، حتّى إنّ موقع منزلنا لم يبقَ على أطراف القرية كما كان، بل بتنا نشكل حيًّا رئيسًا من أحياء القرية، خصوصًا بعد أن زحف التطوّر العمرانيّ، وقضى على معظم الأراضي الزراعيّة التي كانت تحيط بنا، كما زحف على أغلب الأراضي الزراعيّة في البلاد.

من الأمور التي أحزنتني إلى حدّ كبير بعد عودتي إلى المنزل، التغيّرات التي طرأت على مظهر أبي، حيث فقد نصف وزنه، وشحب وجهه حتّى بات يمشي بصعوبة وتثاقل، بسبب المرض الذي أعياه أثناء غيابي، وكاد يُفقده حياته لولا نقله خارج البلاد من أجل إجراء عمليّة جراحيّة له في القلب. في ذلك الوقت لم تكن عمليّات جراحة القلب متاحة في البلاد؛ لذلك يضطر معظم الناس للسفر لإجراء هذا النوع من العمليّات في الخارج. حصل ذلك لأبي من دون أن يخبرني أحد مراعاة لمشاعري وأنا بعيد عنهم، لكنّني حمدت ربّي على أيّ حال، خصوصًا أنّه تحسّن بعد إجراء العمليّة الجراحيّة، وفي طريقه إلى التعافي التامّ عندما رأيته.

كما أنّ جدتّي معصومة التي كانت تقيم في بيتنا، أو ابنة الحكّام كما تطلق على نفسها قد فقدت جزءًا كبيرًا من ذاكرتها، صارت تتعرّف على أحفادها بصعوبة، سيّما أنّها بلغت من العمر عتيًا، وباتت من ضحايا الشيخوخة.

أدركـت في هـذه الـزيـارة أنّ التغيّرات التي طـرأت لم تكن متعلّقة بالمكان والزمان فقط، أو الأحـداث السياسيّة والاجتماعيّة، بل طالت بنية عقلي وفهمي وتأويلي للأمور، مقارنة بما كانت عليه قبل السفر. أدركـت حينها أنّ عامين من المهجر، وما ترتّب عنهما من تراكمات اجتماعيّة وثقافيّة وإنسانيّة مهمّة قد تركت تأثيراتها على شخصيتي، بحيث لم أعد أرى الأشياء كما كانت عليه في الماضي، أو أحكم عليها بقوالب تقليديّة جاهزة كما كنت أفعل سابقًا في حياتي.

عزّز ذلك التغيير تفاعلي مع مجتمعات ذات خلفيّات عرقيّة ودينيّة وثقافيّة متعدّدة، ومع طبقات اجتماعيّة معدومة تعيش تحت خطّ الفقر، جعلني أفهم الآخر المختلف عنّي بشكل أكبر، وأقبله كإنسان لا يقلّ شأنًا عن غيره بسبب أيّ من تلك العناصر والخلفيّات المشار إليها. ومن حينها فهمت معاناة العمّال الضعفاء العاملين في بـلادي، وشتّى دول المنطقة بصورة أوضح ممّا كنتُ أراهم عليه قبل سفري.

صرت أشعر بآلامهم، وأيقنت أنّ ما يتعرّض له هؤلاء العمّال القادمون من الدول الفقيرة من استغلال وانتهاكات إنسانيّة لا يقتصر فقط على دولهم التي قدموا منها، إنّما هي حلقة مستمرّة إلى ما بعد وصولهم لأماكن عملهم في الدول المستقبلة. يأتي ذلك في ظلّ غياب التشريعات التي تحفظ حقوقهم وكرامتهم الإنسانيّة، حيث يحصل غالبيّة هؤلاء العمّال على أجور متدنّية جدًّا لا يكاد الفرد منهم يعتاش بها، أو يسدّد ديونه التي اقترضها من أجل ما كان يتصوّر أنّها فرصة العمر. كما يقيم هؤلاء في أماكن سكن مكتظّة بقاطنيها، لا يراعى فيها معايير الصحّة والسلامة، بصورة تجعلها لا تليق بالاستعمال الآدمي، ولم تكن ظروف عملهم أو إقامتهم هي المشكلة الوحيدة، بل النظرة الدونيّة لهم من قبل بعض المجتمعات التي يعملون فيها، إذ يعاملون بصورة سيّئة، سيّما عند بعض الناس الذين صاروا يرونهم كمنافس رئيس للأيدي العاملة المحلّيّة، وراحوا يحمّلونهم كلّ مشاكل وإخفاقات الحكومات في ملفّ البطالة.

سبب هذه النظرة السلبيّة هو غياب الوعي المجتمعي والتشريعات القانونيّة التي تحمي هذه الفئات الضعيفة من الناس في البلدان المستقبلة لهم، وإن تحسّنت تدريجيًّا في

السنوات اللاحقة مع انتشار الوعي بقيم حقوق الإنسان، وتطوّر النظم والتشريعات المحلّيّة والدوليّة الضامنة لحقوق العمّال في أغلب دول العالم.

أدركت بعد وصولي أيضًا تبدل العلاقات والأمزجة بين الناس، حين اغتنمت فرصة وجودي في البلاد، ورحت ألتقي أصدقاء الأمس، وأجدّد العلاقات الاجتماعيّة التي صرت أفتقدها كثيرًا، خصوصًا مع رفاق المدرسة الذين اشتقت لهم، وصار بعضهم يدرسون في الخارج، وقد عادوا للبلاد مثلي لقضاء عطلهم الدراسيّة مع أسرهم. لكن كان واضحًا حينها أنّ علاقات الأمس اختلفت بحكم البعد والزمن الذي فرض قواعده وصار لكلّ واحد منّا اهتماماته وقناعاته ومحيطه الاجتماعيّ الجديد والمختلف عن سابقه. كذلك لكل منا وطن آخر هو المكان الذي نتعلّم في جامعاته ونشتاق للعودة إليه، هكذا بقيتْ العلاقات السابقة خلال الأعوام الجامعيّة في أدنى مستوياتها، ولو أنّ بعضها قد عاد في السنوات اللاحقة بعد أن تخرّجنا جميعًا، واجتزنا سنوات الشباب، وأصبحنا راشدين نتقبّل بعضنا بعضًا على اختلاف توجّهاتنا الفكريّة.

الأمر المهمّ الذي خفّف عن كاهلي شيئًا من العبء النفسيّ

بعد عودتي للبلاد، هو عدم ورود اسم الشيخ حمد القحطاني أو أحداث النيبال طوال وجودي في البلاد، لم يأتِ أحد على ذكرهم، ولم يتواصل أحد مع أسرتي في البحرين مستفسرًا أو سائلًا عنه، كما كنت أخشى كثيرًا قبل عودتي، ولا أحد من أفراد أسرته أو من موظّفي سفارة بلاده قد حاول التواصل معي، ولا مع أسرتي من أجل معرفة مصير الشيخ، لا قبل عودتي إلى البلاد، ولا بعد وصولي إليها.

وفي الوقت الذي منحني فيه ذلك بعض الارتياح، إلّا أنّه كان يعني لي واحدًا من فرضيّتين، إمّا أن يكون الشيخ القحطاني قد عاد لأهله وبلاده سالمًا بطريقة أو أخرى، وهو الذي أرجو حصوله، أو أنّه لم يُطلع أفراد أسرته ولا موظفيه عنّي بشكل كامل، وإلّا جاؤوا للاستفسار عنه بعد هذا الغياب الطويل.

بعد عدّة أسابيع من وجودي في البحرين، وتردّدي على الدوائر الحكوميّة، وقيامي بإجراءات بيروقراطيّة طويلة، تمكّنت بمساعدة والدي وعلاقاته الاجتماعيّة الواسعة من تسريع استصدار جواز سفر بدل المفقود، وبذلك أزحت أكبر همّ لاحقني منذ فقدت الجواز. اعتقدت عندها أنّني بذلك قد طويت صفحة متعبة من حياتي، لكن الأمور لا تجري كما نتمنّى.

عـدت إلـى الهند لأتابع دراستي نظيف السجل، راميًا الماضي الأليم خلفي، ومصرًّا أن أكمل مشواري الدراسيّ، وأمارس حياتي الطلابيّة الطبيعيّة دون خوف من ملاحقات قانونيّة أو غيرها، تجاوزتُ الماضي ومضت السنوات سريعًا في تلك البلاد، إلى أن انتهيت من دراستي الجامعيّة عام 1987، وبتخرّجي واجهتُ فصلًا جديدًا لم يكن في الحسبان.

23
بعد التخرّج

نهاية أبريل 1987، على رحلة طيران الخليج القادمة من مدينة بومباي عدت أخيرًا، وبشكل نهائيّ، إلى أرض الوطن. توافق مع الأوّل من شهر رمضان حسب التقويم العربيّ الهجريّ. رجعت حاملًا شهادة تخرّجي الجامعيّة بكلّ فخر واعتزاز، محقّقًا طموحي الذي انتظرته طويلًا، وتغرّبت بعيدًا عن أهلي من أجله، وحلم والـديّ اللذَيْن تعبا من أجل هذه اللحظة المهمّة من حياتهما، سيّما أمّي التي يعني لها تخرّج أحد أبنائها الشيء الكثير، يخفّف عنها وطأة الذكرى السيّئة التي تمثّلت في حرمانها من تعليمها عندما كانت طفلة.

خرجتُ من الطائرة حاملًا شنّطة السفر في يدي، متقدّمًا بقية المسافرين، توجهت على عجالة نحو مكتب الجوازات كي أنهي إجراءات السفر، قبل الانتقال لصالة القادمين لجمع أمتعتي والخروج. ينتظرني بعض أفراد أسرتي الذين جاؤوا لاستقبالي في المطار، في حين بقي والدايّ في المنزل يُهيّئان المكان لاستقبالي والضيوف الذين سيقدِمون مهنّئين بعودتي

وتخرّجي من الجامعة.

كنت أوّل الواصلين إلى كابينة الجوازات الخشبيّة، واحدة من ثلاث كابينات أعدّت لاستقبال المسافرين القادمين وختم جوازاتهم، متقدّمًا بذلك بقيّة الركّاب الذين اصطفّوا في طابور بدأ يتشكّل خلفي، ويزداد عدد من فيه من المسافرين القادمين. بروح منشرحة ووجه مبتسم فرحًا بالعودة وقرب لقاء الأهل والأحبّة، ناولت جواز السفر لموظّف الجوازات الجالس داخل الكابينة، يفصلني عنه حاجز زجاجيّ فيه فتحة صغيرة يمكننا مخاطبة بعضنا من خلالها. بدأت بتحيّته وجاء ردّه عليّ دون أن ينظر إلى وجهي، كان مشغولاً بشاشة الحاسوب، والحديث مع زميله في الكابينة المجاورة، لا يفصل بينهما إلّا الحاجز الزجاجيّ، وفيها يجلس عادة أحد رجال الأمن ذوي اللباس المدني، ومنها يقوم بدوره في متابعة الإجراءات، والتدقيق في جوازات المسافرين وسجلاتهم الأمنيّة، وهو إجراء يأتي بعد أن ينتهي موظّف الجوازات من ختم الجواز وتمريره من خلال الفتحة الصغيرة.

راح موظّف الجوازات يتصفّح جواز السفر، ورقة تلو الأخرى، ويسألني من دون أن ينظر في وجهي:

- «من أيّ بلد قادم، وعلى أيّ رحلة طيران؟»

- «قادم من الهند، وعلى رحلة طيران الخليج القادمة من بومباي»
- «وماذا كنت تفعل هناك طوال هذه المدّة؟»

كانت تلك أسئلة اعتياديّة تُوجّه إلى الطلبة العائدين للبلاد، بعد مدّة طويلة مثل حالتي.

- «أنا طالب أدرس في جامعة بونا، وللتوّ أنهيت تعليمي الجامعي، وأنا عائد بعد تخرّجي».

لم يبد لي طبيعيًا استغراق الموظّف وقتًا أطول من العادة في تدقيق الجواز، أو أطول ممّا كنت أراه مع المسافرين الواقفين أمام الكبائن المجاورة، تتمّ إنهاء إجراءاتهم في أقلّ من دقيقة. بقيت واقفًا أمام الكابينة أعاين الموظّف، فيما بدأ تذمّر الواقفين خلفي، صرت أسمع تأفّفهم استنكارًا لجمود الصفّ، ثمّ راح بعض الواقفين ينظر لي بانزعاج، وكأنّهم يحمّلونني مسؤوليّة تأخّرهم، في حين انتقل بعضهم إلى الصفّ الموازي لإنهاء إجراءاتهم مع موظّف الكابينة المجاورة بعد أن أصابهم اليأس من طول مدّة وقوفي متقدّمًا الركب.

أمّا الموظّف الجالس أمامي فلم يبد مباليًا بانزعاجي من ذلك التأخير، ولا بردود أفعال الواقفين أو استهجانهم،

كان منهمكًا في تصفّح وتدقيق جواز السفر بعناية، ومرّة تلو الأخرى، ومقارنة المعلومات الموجودة على صفحاته، وتلك التي تظهر على شاشة الحاسوب أمامه، كما كان يقارن صورتي الشمسيّة في جواز السفر ووجهي الذي اُضطر للنظر إليه أخيرًا، قبل أن يسألني ما يُفترض أن يكون مسلّمًا لديه قائلًا:

- «هل أنت نادر الفرج؟»
- «نعم سيدي. أنا أمامك».
- «هل سبق لك وسافرت إلى بلاد أخرى غير الهند؟».
- «نعم سافرت إلى العراق، وكذلك إلى جزيرة قبرص قبل ذلك، إلى جانب الهند التي تردّدت عليها بسبب دراستي، كما أشرت إلى ذلك في بطاقة الوصول».
- «أمتأكّد من دقّة ما تقول؟»

سأل وهو ينظر في عيني، ويعاين ردّة فعلي وكأنّه يبحث عن معلومات أخرى، ربّما تكشفها عينايَ أو تعابير وجهي. حينها أخذ الخوف منّي مأخذه، جرّاء نبرة صوته التي بدا فيها حازمًا ومشكّكًا فيما كنت أقوله، كذلك نظرته الحادّة، وتعابير وجهه الجافّة صعبة الفهم، حتّى شعرت وكأنّي في غرفة تحقيق، وأمام محقّق يقوم بعمله في البحث والتدقيق معي.

شعرت بقلق حقيقيّ، تعطيل إجـراءات طالب عائد من

الخارج أمام مكتب جوازات المطار ليس مؤشّر جيّد في عالمنا العربيّ، وعادة ما يكون لهذا الإجراء الأمنيّ تبعات أخرى، أقلّها التحقيق السريع في المطار، والذي لا يستغرق عادة أكثر من ساعة أو اثنتين، لكن أسوأها اقتياد القادم إلى مبنى المخابرات الرئيس أينما كان موقعه. طبعًا لم يكن من الوارد عندي حينها أن أُطلع موظّف الجوازات على زيارتي إلى مملكة النيبال، ولم أرَ داعيًا لذلك ما دام لا يعلم عن تلك الرحلة أحد، ولا وثيقة تبيّن ذلك بعد أن فقدت ذلك الجواز الذي سافرت به للنيبال.

بعد قليل من الصمت والتدقيق عاد موظّف الجوازات ليكرّر السؤال نفسه، بعد إعادة صياغته ليبدو مختلفًا لعلّه يصل إلى إجابة أخرى، عن تلك التي لا يبدو أنّها قد أقنعته:

- «أمتأكّد ممّا تقول؟ أي أنّك لم تزر بلدانًا أخرى غير التي ذكرتها؟»
- «نعم سيّدي كما ذكرت لك»
- «أقصد بلدانًا مثل باكستان والفلبين أو أيّ مكان آخر، ربّما نسيت تدوينه في ورقة القادمين؟»
- «لا على الإطلاق سيّدي، ولم يسبق لي أن زرت أيًّا من هذه البلدان».

لم تكن هذه الأسئلة روتينيّة على الإطـلاق، ولا أعتقد أنّها خالية من الدوافع والأسباب، وتأكّد لي ذلك بعد أن مرّر الجواز من الفتحة الجانبية إلى الكابينة المجاورة، وهو يهمس لموظّف الأمن الجالس داخلها، وهو مؤشّر آخر لا ينبئ بخير ولا بقرب نهاية سعيدة، حتّى وصل الخوف إلى قدميّ اللتين أخذتا ترتعشان وتصفِقان بعضها بعضًا، وجسمي الذي أخذ يتصبّب عرقًا معبّرًا عن حالتي النفسيّة.

أخذ رجل الأمـن الـذي يرتدي الثوب الأبيض والشماغ الأبيض والأحمر يتصفّح أوراق الجواز، ويدقّق في محتوياته، ثمّ ينظر إلى وجهي مكرّرًا التصرّف والسلوك والأسئلة التي سمعتها من موظّف الجوازات، ويطلب منّي المعلومات نفسها التي سبق وأدليت بها لـلأوّل، لكني نزولًا عند طلبه أعدتها وكررتها عليه هو الآخر. وبعد قليل من الأسئلة والاستفسارات قام بالاتصال بأحد ما يبدو أنّه يعلوه مرتبة، وبدأ ينقل له هاتفيًا تفاصيل الجواز وما دونته بنفسي في بطاقة الوصول، والواضح أنّه كان يطلب من أحد أو جهة مراجعة سجلّي الأمني في مكان لم أتمكّن من معرفته، ولا الشخص الذي كان يتواصل معه على الطرف الآخر من المكالمة.

بعد دقائق من المداولات الخافتة أنهى المكالمة ثمّ وقف على رجليه طاويًا طرفي شماغه، واحدًا على الآخر، ثمّ محركًا عقاله الصوفي الأسود من مكانه يمينًا لمزيد من الميلان، قبل أن يحمل جواز السفر وينطلق به متوجّهًا إلى المكتب المقابل لكابينات الجوازات، كُتب عليه شعبة الأمن المركزيّ، بعد أن طلب منّي الانتظار على الكرسيّ الخشبيّ المركون إلى جانب بوّابة المكتب. سريعًا ما خرج من المكتب رجُلا أمن بلباس مدنيّ كي يحرساني، وقف كلّ واحد منهما على جانب منّي من دون أن يتحدّثا معي، أو ينطقا بحرف مع بعضهما بعضًا، بقيا طوال الوقت صامتين. وكان واضحًا أن المكتب تابع لوزارة الأمن الداخلي، وهي الجهة الأمنيّة التي لا يرغب أيّ من الطلبة العائدين من الخارج في زيارة مكاتبهم، خوفًا ممّا يترتّب عليها من تحقيق ونهايات غير حميدة تربطهم وتنظيمات سياسيّة أو غيرها. حينها كان المسافرون الواقفون في الطابور خلفي قد انتقلوا جميعًا للخطّ الموازي الذي يخدمه موظفون آخرون، بعد أن أغلقت نافذة الكابينة التي كنت واقفًا أمامها، بسبب مغادرة موظّف الأمن واصطحابه إياي إلى المكتب؛ حيث يعمل الاثنان معًا بشكل متوازٍ، وقد تبدّل هذا النظام في

السنوات اللاحقة مع تطوّر الأجهزة الأمنيّة وأدواتها.

كنت أشعر بالتوتّر والخوف وأنا جالس على الكرسيّ الخشبيّ، جاهلًا السبب الذي أدّى لتوقيفي من قبل شعبة الأمن المركزيّ، وقلقًا ممّا يمكن أن يكون مصيري في أيّ لحظة، متابعًا الخارج من المكتب والداخل إليه معتقدًا أنّ كلّ حركة تجري هنا وهناك بسببي، أو أنّني المقصود بها، وأنّ كلّ قادم قد يحمل خبرًا حول مصيري، أو ما سيُتّخذ لي من إجراء أو لشرح سبب تعطيلي الذي لم أعرف له مبرّرًا، وهو ما ضاعف درجة قلقي وضغطي النفسيّ.

كنت أراقب بعين الغبطة المسافرين الذين يمرّون إلى جانبي، بعد أن أنهوا إجراءات سفرهم بيسر وسهولة، وهم في طريقهم لاستلام أمتعتهم والخروج بها من المطار. ساور القلق أفراد أسرتي بعد أن تأخّر خروجي، شعروا بالارتياب أنْ أكون موجودًا في عهدة مكتب الأمن، وهو أمر دارج في تلك السنوات مع الطلبة الذين يدرسون في الخارج لسنوات طويلة ويتأخّرون في العودة، حتّى بات الخوف يهيمن على نفوسهم، فراحوا يستفسرون عنّي من مكتب الاستعلامات والأمن، للتأكّد من وصولي إلى أرض البلاد، وقد عرفتُ ذلك من أحد

رجال الاستعلامات الذي جاء يسأل عن اسمي ويستفسر من موظّفي مكتب الأمن.

توقيف طالب جامعي عائد من الخارج لم يكن بالأمر الإيجابيّ، ولا بالمؤشّر الجيّد على الإطلاق، ينتهي أحيانًا بسحب جواز الطالب، ومنعه من السفر لفترة من الزمن قد تصل لسنوات، كما حصل مع أخي الأكبر الذي كان يدرس في جمهورية العراق في النصف الثاني من سبعينيّات القرن المنصرم، وذلك عندما سُحب جواز سفره، وحُرم من مواصلة تعليمه، وهو في عامه الجامعي الأخير. لكن ذلك لا يحدث عادة إلّا للطلبة المنخرطين في أنشطة سياسيّة معارضة للدولة، أو حين تحوم شكوك حولهم في هذا الإطار، وكان يحدث عادة للطلبة الشيوعيين القادمين من الاتّحاد السوفيتيّ أو دول المعسكر الشرقيّ، إبّان الحقبة الشيوعيّة أو للقوميّين التابعين لحزب البعث العربي الاشتراكي بفرعيه السوري والعراقي.

فتح توقيفي من قبل الأمـن في المطار بـاب التكهنات والافتراضات لديّ، حول الأسباب التي يمكن أن تقف وراء ذلـك، رغم أنّني لم أكن منخرطًا في أيّ تنظيم مع أيّ من الجماعات والأحزاب السياسيّة المعارضة، وهي السمة التي

بقيتْ ملازمة لي طوال حياتي قبل وبعد سفري إلى الهند من دون أن أكون عضوًا في أيّ من الحركات السياسيّة. وقد انشغل فكري في استدعاء أحداث الماضي البعيد والقريب بدءًا من أنشطة الشباب المزعجة للحكومة في المدرسة، ومـرورًا بالفعّاليّات التي شاركت فيها أو نظمتها في أثناء وجودي في الهند أو قبل ذلك.

كنت أشكّ بصورة أكبر بحادثة جرت في مدرسة الحورة الثانويّة قبل سفري إلى الهند، وإمكانيّة أن تكون الدافع وراء توقيفي، افترضتُ خطأ أو تحت ضغط الموقف وشحّة التكهّنات علم الجهات الأمنيّة بتفاصيل تلك الحادثة التي كنت أنهيتها بهدوء وتوافق مع إدارة المدرسة منذ زمن طويل. وهي القضيّة التي رضختُ فيها لطلب إدارة المدرسة بالانتقال طوعًا إلى مدرسة الشيخ عبد العزيز في منطقة العدلية، مقابل أن تتكتم الإدارة وتتنازل عن تقديم بلاغ للجهات الأمنيّة ضدّي، والأصدقاء الذين كانوا معي. يأتي هذا الاتفاق بعد أن ضُبطتُ متلبسًا مع مجموعة من الطلبة نخطّ الشعارات المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين، ونعلّق صورهم على جدران المدرسة، سيّما بعد اعتقال الأستاذ خالد مدرس التربية الرياضية، الذي أصبح

صديقي في السنوات اللاحقة، وكذلك زميل المدرسة جاسم الذي كان معي في الفصل نفسه، وهو الذي تمّت ملاحقته داخل المدرسة، بعد أن قفز من نافذة الطابق الثاني في أوّل يوم من امتحانات منتصف العام، حين كنّا في الصفّ الأوّل الثانويّ، ولم تكن أعمارنا آنذاك تتجاوز الستة عشر.

بينما كنت منهمكًا في تلك التكهّنات خرج من المكتب رجل أسمر، طويل القامة، مفتول العضلات، عريض المنكبين يرتدي اللباس العربيّ التقليديّ، يبدو من تحيات رجال الأمن له والحارسَيْن اللذَيْن كانا يحرسانني أنّه ضابط كبير الرتبة والمنصب، أو المسؤول عن أمن المطار. نظر قائلًا:

- «أرجو أن تتفضل معنا من هنا». قال ذلك وهو يمدّ يده طالبًا منّي أن أتقدّمه مشيًا من دون أيّ مقدّمات، دفعني ذلك لأستفسر منه:
- «نعم يا حضرة الضابط، لكن إلى أين نحن ذاهبون؟ كما تعلم أنّي حتّى الآن لا أعلم سبب ما يحصل لي، وأرجو منك أن تطلعني على سبب توقيفي هنا».
- «لا عليك. إجراءات روتينيّة سننتهي منها سريعًا، وسنذهب الآن لتسلّم أمتعتك من صالة القادمين وتفتيشها، ليتسنّى

لك تسليمها لأفراد أسرتك الذين ينتظرونك خارجًا، وليتأكّدوا من وصولك بسلامة ويطمئنوا عليك».

أثارت عبارته استغرابي، وبيّنت أنّني لن أنتهي منهم سريعًا إنّما أكّدت لي أنّني مقبل على إجراءات إضافيّة، ربّما تكون أكثر تعقيدًا. رحت أسأله مستفسرًا:

- «لماذا عليّ أن أعطي أمتعتي لأسرتي يا حضرة الضابط؟ ألستُ خارجًا إليهم على أية حال؟!».
- «ربّما تتأخّر معنا قليلًا، إذ إنّ إجراءاتنا بطيئة أحيانًا، ولا نودّ تعطيل أسرتك خارجًا بسبب أمور بسيطة يمكن أن تأخذ منّا بعض الوقت، لكن سنقوم بتوصيلك إلى بيتك بعد الانتهاء من هذه الإجراءات».

بهذه العبارات التي حاول الضابط تبسيطها تيقّنت ممّا كنت أخشاه، وهو أنّ هناك أمرًا خطيرًا ينتظرني، وهو التوقيف الأمني الأوّل الذي يحصل لي في حياتي، والكفيل بأن يشعرني بمزيد من الخوف والريبة ممّا يحدث لي

- «لماذا كلّ هذا يا حضرة الضابط؟ هل فعلتُ ما يخالف القانون؟»

قلت ذلك وأنا أعرف أنّ كلّ عبارات الترجّي والاستعطاف

لا تجدي نفعًا مع الجهات الأمنيّة، التي لا تتصرّف إلّا بأوامر صادرة عن صاحب قرار.

- «لا. لا تقلق فأمورك طيبة هنا، وكلّها إجراءات اعتياديّة، وربّما نتيجة تشابه أسماء ولا أعتقد أنّها ستستغرق منك وقتًا طويلًا؛ إنّما ستنتهي منها سريعًا وتعود لأسرتك وحياتك الطبيعيّة».

أعرف أنّ كلامه لا يعبّر عن الواقع والحقيقة، فقد كانت محاولة منه لتبسيط الأمر، والتخفيف من روعي، سيّما أنّني سألتقي بأفراد من أسرتي، كي أسلّمهم أمتعة السفر الخاصّة بي. لم أملك خيارًا آخر عدا مسايرة الإجراءات، والأمر الواقع الذي فرض نفسه رغمًا عنّي، ومن دون علم منّي بالأسباب التي تقف وراء ذلك، والتي ما زالت لا تتعدّى أن تكون مجموعة من الافتراضات والتكهّنات التي ستتّضح خلال الساعات القادمة. وعلى هذا الاعتبار رحت أمشي مع الضابط إلى صالة القادمين، استلمت أمتعتي، ثمّ عرضتها على رجال الجمارك الذين راحوا يفتشونها بدقّة مرورًا بكلّ قطعة احتوتها، بما فيها ملابسي الداخليّة التي لعب الزمن بها حتّى جعل فيها من الثقوب ما يفوق الغربال، وأدركوا بعد تفتيشها أنّها لا تحتوي على أيّ ممّا

يمكن أن يلفت انتباههم. وتبع ذلك إدخالي التفتيش الجسديّ الدقيق الذي أجري لي في الغرفة الجانبية بصالة الأمتعة، وهو الإجراء الذي نفذته صاغرًا مطيعًا، ما عدا نزع القطعة الأخيرة التي تستر عورتي، رفضت ذلك بشكل مطلق، كما لم يصرّ المفتش على ذلك.

خرجت من صالة القادمين مع الرجال الثلاثة يتقدّمنا الضابط، التقيت خارجًا بأفراد أسرتي في صالة الانتظار، اختلطت لديهم مشاعر السعادة مع القلق، وكانت المشاعر نفسها لديّ. جاؤوا لاستقبالي واصطحابي إلى منزل الأسرة الذي ينتظرني فيه أبي وأمّي المشتاقان لرؤيتي، إلى جانب بعض الأهل والأصدقاء، إلّا أنّهم أدركوا أنّهم لن يعودوا إلى المنزل إلّا بأمتعتي. وقد شاهدوا كيف يحيط بي رجال الأمن، ويتحرّكون معي خطوة خطوة، في مشهد يبيّن لهم أنّ الذي ينتظرني ليس بالأمر العادي، حتّى راحوا يتساءلون عمّا كان يجري لي، وأسباب توقيفي؟! وكيف سينقلون الخبر لوالديّ وبقيّة من ينتظرني في المنزل، أو كيف سيقنعونهم بسلامتي، وهم الذين من المفترض أن يكونوا واقفين أمام بوّابة المنزل في انتظاري.

ودعتهم بعد أن طلبت من أخي الأكبر أن يُخفي الأمر عن

أمّي وأبي، ويبلغهما أنّ رحلة العودة تأجّلت إلى أن تتضّح الصورة. بحزن كبير وقلق، غادر المطار أفراد الأسرة بعد ما شاهدوه من إجراءات أمنيّة متّخذة تجاهي.

أُخـذتُ إلى مكتب خلفي يقع في مبنى المطار، وهناك أُجلست على الكرسيّ الخشبيّ، بعد أن قُيّدت يدايَ بأصفاد حديديّة، في حين غادر الضابط المسؤول، قال لي وهو يهمّ بالخروج:

- «سيتمّ نقلك بعد قليل إلى مبنى الشعبة في وزارة الأمن الداخلي، وقد كلفت أحد المناوبين ترتيب ذلك، ولا تقلق؛ لأنّ أمورك طيّبة».

هذه العبارة الأخيرة سمعتها كثيرًا في ذلك اليوم، وفي سنوات لاحقة، وهي حمّالة أوجه، ومهما بدت كلماتها إيجابيّة إلّا أنّني في كلّ مرّة أسمعها لا تنتهي عندي الأمور بسلام!

24
مُدان حتّى أثبت براءتي

منذ أن وصلت إلى مبنى شعبة الأمن المركزي في وزارة الأمن الداخلي قبل ثلاث ساعات أو أكثر، وأنا جالس مقيّد اليدين مكاني على الكرسيّ الحديديّ في غرفة الانتظار. أرتعد من البرد جرّاء المكيّف الذي شُغّل على أقصى طاقته التبريديّة، كنت أشعر بالنعاس الشديد يثقل رأسي حتّى راح يترنّح بين الأمام والخلف، فقد بقيت يقظًا من الساعة التي غادرتُ فيها مدينة بونا بالقطار صباح أمس، متوجّهًا إلى بومباي ثم البحرين.

تمنّيت لو أستطيع النوم بعض الشيء في مكاني ولو لقيلولة أو دقائق معدودات، لكن الكرسي الحديديّ الذي أجلس عليه أصبح كقطعة جليد يصعب الارتماء عليها، في الوقت الذي أبحث فيه مستميتًا عن ما يوفّر لجسمي الدفء الذي يحتاج إليه. هذا إلى جانب القيود الحديديّة في يدي تحدّ من حركتي وقدرتي على النوم أو الاسترخاء. وكلّما ناديت بصوت عالٍ أو شكوت أحدًا مناشدًا أحد المارّة من العاملين ليفتح الباب أو يطفئ المكيّف الهوائي، تلقيت الردّ الزاجر نفسه أن ألزم

الصمت مكاني، وأتوقف عن شكواي، وطلبي الذي لا يستطيع أحد تحقيقه إلى أن يأتي الضابط المسؤول عنّي، دون أن أعلم متى سيأتي ذلك الوقت، ويخلّصني من هذه المعاناة.

ما زلت لا أعرف لِمَ أنا هنا أصلًا، أفكّر في والديّ، وبقية أفراد أسرتي الذين يعلمون بوجودي في عهدة هذه الجهة الأمنيّة، دون معرفة السبب وراء ذلك. ولم يكن من خيار سوى الانتظار في هذه الغرفة/ الثلاجة حتّى يأتي الفرج.

عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا جاءني رجل أمن بلباس عسكريّ، طلب منّي أن أتبعه إلى إحدى غرف الطابق الثاني، كي ألتقي الضابط المسؤول، وهو يوجّهني لأمشي أمامه دون أن التفت إلى المكاتب على جانبي الممرّ، الأمر الذي نفذته بصمت ووجل شديدَيْن حتّى صرت أشعر برجفة تهزّ جسدي كله، وتضاعف ضربات قلبي التي صارت مثل طبل، وهو ردّ فعل طبيعيّ يصيب أيّ إنسان في ضيافة هذه الجهة الأمنيّة، سيّما والغموض يلفّ الأسباب التي أدّت لوجودي هنا.

طلب منّي العسكريّ العشريني الجلوس على الكرسي أمام طاولة المكتب الصغير، بعد أن أزال الأصفاد الحديديّة من يدي، مؤكدًا تعليماته مرّة أخرى بعدم التلفّت إلى أيّ مكان

حتّى يأتي الضابط المسؤول. غادر المكتب بعد أن أوصد الباب وأدار القفل من الخارج، في حين جلست وحيدًا أنتظر القادم وما يحمله في جعبته، وأنا في حالة من القلق والترقّب، لكن الأهمّ أنّني صرت في أجواء معتدلة البرودة، وأفضل من سابقتها.

بعد مُضي ما يقارب نصف ساعة دخل ضابط مدنيّ طويل القامة، أسمر البشرة، حاملًا في يده ملفًّا سميكًا محمّلًا بالأوراق والوثائق، عرّف عن نفسه بالرائد عيسى الرشيد المسؤول عن ملفّي الأمنيّ الذي لم أعرف له وجودًا إلّا في ذلك اليوم. وسريعًا ما أخذ مكانه وجلس أمامي على الجانب الآخر من الطاولة دون أن أستطيع تخمين ما ستكون عليه معاملتي سلبيّةً أم إيجابيّة، لم أجد في تعابير وجهه ما يمكنني قراءته بيسر.

بدأ ببعض الأسئلة التقليديّة والابتدائيّة، غرضها التأكّد من صحّة ما لديهم من معلومات حول هويّتي وعملي، ومطابقة ما أدلي به من معلومات، بما هو موجود في الملفّ الذي تركه مفتوحًا أمامه، وراح يتصفّحه بين الفينة والأخرى. تعاطيت مع أسئلته جميعها بأمانة وصدق دون أن أخفي شيئًا، بدت طبيعيّة ولا يوجد فيها ما يدعوني للقلق، أو على الأقلّ هكذا كانت في

بدايتها. طلبت منه أن يبيّن لي أسباب إيقافي في المطار، ونقلي إلى مبناهم، وهو ما أجاب عنه قائلًا:

- «ستعرف كلّ شيء عندما يحين الوقت». لم أعرف ما يقصد بهذه العبارات الفضفاضة، لكنّني بقيت صامتًا أنتظر أن يفصح بنفسه عن المزيد ممّا في جعبته، ولكيلا تسبّب استفساراتي الإزعاج أو تأتي بمردود معاكس.

وبينما كنّا نتحدّث رفع الضابط الرشيد من نبرة صوته، وبدا أكثر حدّة وحزمًا، وبلغة حملت بين ثناياها تحذيرًا مبطّنًا قائلًا:

- «عليك أن تعيَ شيئًا مهمًّا وهو أنّنا كنّا ولا زلنا نتابع كلّ تحركاتك، وفي كلّ مكان تذهب إليه ونعرف عنك أكثر ممّا تتصوّر، فلا داعي لأن تستغفلنا أو تخفي عنّا أيّ شيء من الحقيقة، إنْ أردت العودة لأهلك الذين ينتظرونك في البيت؛ لأنّ ذلك سيضرّ بك كثيرًا لا سيّما ونحن في بداية المشوار، وعليه أطلب منك أن تتعاون معنا كي ننهي تحقيقنا في أسرع وقت».
- «نعم يا حضرة الضابط. أعدك أن أكون صريحًا معك بشكل كامل، وليس لديّ ما أخفيه، لكنّني وإلى الآن غير مدرك ما سبب توقيفي، أو ما المعلومات المطلوبة؟»

- «لقد جئنا بك للتحقيق معك حول بعض المعلومات التي لدينا، وأردنا سماع ملاحظاتك حولها؛ لأنّك المعنيّ الأوّل فيها، وإنّ شفافيتك ستحدّد طبيعة علاقتنا بك، والمدى الزمنيّ الذي سيستغرقه التحقيق».

هززت رأسي دون أن أنطق بكلمة، مبديًا إدراكي لما يقوله وموافقتي عليه، ولو أنّني لم أطمئن لحديثه ووعيده الذي بيّن أنّ هناك شيئًا أكبر، ولا يعلم مدى خطورته إلّا الله. في حين استمرّ في طرح أسئلته حول موضوعات بدت تتعمّق تدريجيًا، وبصورة تستدعي التريّث أحيانًا قبل التعاطي معها، قائلًا:

- «إلى أيّ جماعة سياسيّة طلابيّة تنتمي أو تنشط في الهند؟»
- «أنا لست منتميًا لأيّة جماعة سياسيّة يا حضرة الضابط»
- «هل لك عضويّة في اتّحاد الطلبة البحرينيين في الخارج؟»
- «أنا لست عضوًا في اتّحاد الطلبة، لكنّني أشاركهم أحياناً في بعض فعّاليّاتهم أو أنشطتهم الترفيهيّة، كما كنت أزور مقرّهم بين فترة وأخرى؛ لأنّ بينهم بعض أصدقائي».

وهكذا استمرّ الضابط في طرح أسئلته حول حياتي ونشاطي في الهند، أجيب عليها بالقدر الذي لا يسبّب لي والآخرين أذى، في حين كان يستمع لي دون أن يشكّك

أو يتحقّق من صدقيّة إجابتي، أدركت لاحقًا أنّها لم تكن السبب وراء توقيفي، إنّما كانت مدخلًا لغرض آخر وأهم، وهو الذي بدأه قائلًا:

- «اسمع يا نـادر. نحن نعرف أنّك تعيش في الهند منذ بضع سنوات للدراسة الجامعيّة، وأنّك للتوّ عدت بعد أن تخرّجت، ونلت شهادتك الجامعيّة، كما نعلم أنّك في أثناء وجودك في الهند قد سافرت إلى دول أخرى، إلّا أنّك لم تشر إليها في بطاقة القادمين، كما أنّك أنكرت زيارتك لها عند سؤالك من قبل موظّف الجوازات في المطار، نافيًا معلوماتنا التي جمعناها حول سفرك وتنقلك بين عدّة بلدان في السنتين الأخيرتين، مثل: باكستان، وتايلند، والسودان، والفلبين، وغيرها من الدول التي تجاهلت ذكرها في بطاقة الوصول».
- «أنا كنت صادقًا فيما قلته يا حضرة الضابط ومنذ اللحظة الأولى؛ فلم يسبق لي أن زرت أيًّا من هذه الدول التي جئت على ذكرها».

واصل الضابط طرح أسئلته بشكل مختلف، مكرّرًا إيّاها، ومتظاهرًا بعدم سماع ما سبق وأدليت به:

- «وماذا عن سفرك إلى دولة باكستان؛ حيث تبيّن سجلّاتنا والأوراق في ملفّك هذا أنّك زرتها؟»
- «لا على الإطلاق. لم يسبق لي زيارة باكستان يا حضرة الضابط، كما سبق وأكّدت لكم ذلك».

على الرغم من وجود حدود بريّة بين الهند وباكستان، فإنّها غالبًا ما تكون مغلقة أمام المسافرين من كلا البلدين نتيجة التوتّرات المستمرّة في العلاقات بينهما منذ انفصال دولة باكستان عن الهند، والتي تأخذ أحيانًا منحى عنيفًا يتمثّل في مناوشات حدوديّة، تتطوّر إلى حروب واسعة النطاق. وهي الحقيقة التي جعلت من هذه الحدود مغلقة أو عديمة الفائدة في معظم أوقاتها، وصار من شبه المستحيل العبور من خلالها نتيجة كلّ هذه التعقيدات التي فرضتها العلاقة السيّئة بين البلدين. والأهم من كلّ ذلك أنّه لا توجد أيّ من الأسباب التي تدفعني إلى زيارة هذه البلاد، في حين كنت منهمكًا في دراستي الجامعيّة هناك، وهو ما كررته على مسامع الضابط الذي يبدو أنّه كان مقتنعًا بأنّني أخفي عنه شيئًا حول السفر إلى باكستان.

- «أكرّر عليك مرّة أخرى وأدعوك لتتعاون وتكون صريحًا معنا، وألّا تستمرّ في إنكار ما هو ثابت لدينا، ولا تظن

أنّنا غافلون، أو سنأخذ كلامك هذا من دون غربلة أو تمحيص، لذا لا تضطرّني لتحويل التحقيق إلى شخص أو فريق آخر، حيث المعاملة مختلفة عن هذه الأريحيّة التي أبديها لك».

كلمات كانت كفيلة بترويعي وزرع الخوف في نفسي، أعادت لي ما سمعته حول ما يحدث مع السجناء السياسيّين في غرف التحقيق لدى عالمنا العربي.

- «لا حاجة لكلّ ذلك يا حضرة الضابط ما دمت متعاونًا معك، وكما سبق وعاهدتك أن أقول الصدق ولن أنفي شيئًا إلّا ما كنت متأكّدًا من عدم حدوثه فعلًا».

لكنّه عاد لمحور حديثه متجاهلًا ما قلته، مبديًا بعض التشدّد في سؤاله التالي الذي فاجأني بحيثيّاته:

- «ماذا تعرف عن الرئيس الباكستاني ضياء الحقّ؟ وما هي علاقتك به؟».

طرح سؤاله الذي بدا عندي غريبًا وهو يتفحّص في عيني محاولًا تأكيد ما يعتقد أنّني كنت أخفيه عنه، أو ربّما يحاول استدراجي لأمر ليس لي به علم حتّى لحظتها، لكنّني أجبته قائلًا:

- «لا أفهم سيّدي ماذا كنت تقصد بإشارتك لاسم ضياء الحقّ زعيم دولـة باكستان، فمن أنا لتكون لي علاقة برئيس دولـة؟ أو كيف لطالب جامعي بسيط مثلي أن تكون له علاقة برجل في حجم رئيس دولة؟! وحقيقة لا يمكنني تصوّر أيّ سبب يدعو للاعتقاد بأنّ هناك علاقة بيننا!».

ومرّة أخرى لا يبدو أنّ إجابتي قد أقنعته، وهو ما كان واضحًا في ردّه وتهديده لي مرّة أخرى:

- «ها أنت تستمرّ في تضليلك لي رغم معاملتي الطيّبة لك، كما تخالف ما ألزمت به نفسك من وعود كنتَ أطلقتها حول الشفافيّة والتعاون معنا، وكأنّك لا تودّ العودة إلى بيتك وأسرتك قريبًا».

في الواقع كنت صادقًا معه، ولا أعلم ماذا كان يقصد من الإشـارة لاسم دولـة باكستان مـرارًا، ثمّ اسم الرئيس ضياء الحقّ، وعلاقة كلّ ذلك بتوقيفي منذ عودتي أو التحقيق معي في هذا المكان! الجنرال محمّد ضياء الحقّ هو رئيس وزراء جمهوريّة باكستان، جاء بعد انقلاب عسكريّ قام به عام 1977 على الرئيس الشرعي ذو الفقار علي بوتو الذي قام بتعيينه

كوزير للدفاع، ومن ثمّ قدّمه لمحاكمة مثيرة للجدل أدّت إلى إعدامه بعد أقلّ من عامين من الانقلاب عليه. ومن حينها شغل ضياء الحقّ منصب رئيس البلاد حتّى مقتله في حادث تحطّم للطائرة بعد أشهر من هذا التحقيق عام 1988 مع مجموعة من كبار العسكريين الباكستانيّين والأمريكيّين. المعروف عن هذا الرئيس أنّه مَنْ أعلن الأحكام العرفيّة في باكستان منذ توليه زمام الأمور، وقمعه الحرّيّات وتقييده أنشطة مؤسّسات المجتمع المدنيّ، ونشر التشدّد الديني في المجتمع ضدّ الدولة العلمانيّة، من خلال دعم الجماعات الإسلاميّة المتشدّدة في باكستان وأفغانستان التي لعب فيها وبدعم أمريكيّ دورًا رئيسًا في تقويتهم ضدّ الاحتلال السوفيتيّ لبلادهم، للحدّ من تمدّد النظام الشيوعي هناك.

اتهمت الهند مرارًا ضياء الحق (كان ضابطًا في جيشها قبل انفصال باكستان)، أنّه وحكومته يدعمان الانفصاليين الكشميريين، الذين يقاومون من أجل حقّ تقرير المصير وتوحيد شطري كشمير التي ضمّت الهند الجزء الأكبر منه بعد الاستقلال عن الحكم البريطاني.

تعرّفت إلى كلّ هذه المعلومات المفصّلة عن الرئيس ضياء

الحقّ، وتاريخ باكستان من السيّدة رفيقة چـاودري، العاملة المنزليّة في بيتنا، التي اضطرت أسرتها إلى النزوح من الحيّ الواقع في ضواحي العاصمة الهنديّة دلهي إلى باكستان بعد انفصالها عن الهند، وتهجير المسلمين والهندوس قسرًا في كلا البلدين نتيجة النزاع الطائفي الذي أفضى إلى ذلك الانفصال.

لكن ما لم أستوعبه هو لماذا أقحم اسم الرئيس الباكستاني في هذا التحقيق؟ وما الذي جعل الضابط الرشيد يعتقد بأنّي على علاقة به، وهو أمر استمررت في نكرانه بشدّة، حتّى ردّ الضابط قائلًا:

- «وماذا لو أتيت لك بما يثبت عدم صدق كلامك هذا، ويؤكّد ما كنتُ أقوله حول تنقلاتك في دول متعدّدة؟»
- «أنا متأكد من صدق أقوالي يا حضرة الضابط، ولا يمكن أن يكون لديك ما يغيّر هذه الحقيقة، أو أن تأتي بما لم يحدث على أرض الواقع».

صمت الضابط للحظات مدركًا أنّه وصل معي إلى طريق مسدود حول مزاعمه تلك، حتّى وجدته يمعن النظر في وجهي، وكأنّه يهيّئ نفسه لقول شيء ما، إلّا أنّه عوضًا عن ذلك قام من كرسيّه بشكل مفاجئ، وغادر المكان دون أن ينطق بكلمة!

وبخروجه هذا تركني أسبح في افتراضاتي السوداويّة، أكثرها رعبًا لي هو إحالتي إلى محقّق آخر يسيء معاملتي أو يستعمل العنف لانتزاع أقوال لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة.

رحت أستدعي ذاكرتي البعيدة والمتوسّطة محاولًا إيجاد شيء يربطني مع كلّ ما جاء على لسان الضابط، أو ما يمكنه أن يفيدني ويوصلني لأسباب تلك الاتهامات، ويكشف الستار عن الأسباب الحقيقيّة التي أدّت إلى توقيفي واستجوابي!

ومن طبيعة الأسئلة وسياق التحقيق اتّضح لي تدريجيًا، أنّ الأسباب التي جاءت بي إلى هنا ليس لها علاقة بأحداث أو نشاطات سياسيّة قمت بها قبل أو بعد سفري إلى الهند، كما ظننت بدايةً، وما طرحه الضابط واستفسر عنه حول توجّهاتي السياسيّة وانتماءاتي الحزبيّة وأنشطتي الطلابيّة لا يعدو كونه أسئلة روتينيّة تُلقى على كلّ زائر لذلك المبنى؛ سعيًا نحو تجميع ومراكمة أكبر قدر ممكن من المعلومات حول أكبر عدد من الأفراد، لعلّهم أو جهة أمنيّة أخرى يحتاجون إليها في يوم من الأيام.

عاد الضابط الرشيد حاملًا معه رزمة من الأوراق المنسوخة ضوئيًا أو صورًا لبعض الوثائق التي لم تبدُ واضحة المعالم،

ورماها على الطاولة أمامي، بعد أن أخذ مكانه وجلس على الجانب المقابل، وهو ينظر لي ويراقب ردّ فعلي متبجّحًا بابتسامة مصطنعة وهو يقول:

- «تفضل.. ها هي الأوراق التي تثبت ما كنت تنفيه طوال الوقت، والحقيقة التي حاولت تضليلنا حيالها، في حين أنّها وكما ترى أمامك أدلّة دامغة صارخة الوضوح، ولا تقبل التشكيك».

نظرت إلى ما كان يتحدّث عنه من أوراق مصوّرة أمامنا، وهي نسخ ضوئيّة لا أكاد أرى ما فيها من محتوى نظرًا لسوء عمليّة النسخ أو التصوير المرسل فيما يظهر على جهاز الفاكس الضوئيّ، كما لم أتجرأ على الاقتراب والتأكّد من مصداقيّة ما فيها؛ لأنّ ذلك سيكون تصرّفًا غير صائب ما لم يعطِني إيّاها بنفسه. راح يشرح لي في حديثه الموجود في تلك الأوراق قائلًا:

- «هذه مجموعة من النسخ لجواز سفرك الذي يُبيّن أنّك زرت مجموعة من الدول في أثناء السنتين الماضيتين، منها ما أتيت على ذكرها، ومنها ما لم أشر إليه».

ثمّ أضاف متسائلًا وهو ينظر بإمعان في عيني، معتقدًا أنّ

سهمه قد أصاب الهدف:

- «لا أعلم كيف ستفسّر لي ذلك؟! وماذا سيكون ردّك أمام هذه الإثباتات الواضحة؟»

لم تبد لي مزاعمه واقعيّة ولا صحيحة، فلا يمكن تصوّر أن تكون لديه إثباتات لأشياء لم تحصل أبدًا! لكن ثقته الزائدة فيما يزعم تُبيّن أنّ هناك حلقة مفقودة في الأمر، وهو الذي دفعني لأستأذنه بأن أطّلع بنفسي على تلك الأوراق، وأتأكّد من صحّتها أو عدمه، وهو الذي فعلته بعد أن ناولني إيّاها بنفسه.

لقد صُدمت حين اكتشفت أنّ تلك النسخ كانت صحيحة، وتبيّن فيها أختام دخول وخروج حقيقيّة لمجموعة من الدول الآسيويّة والأفريقيّة التي أشار لبعضها في سياق أسئلته، كما كانت هناك أسماء دول أخرى لم يذكرها، مثل ختم دخول مملكة النيبال، وهي الحقيقة التي أخفيتها طوال الوقت حتّى تلك الساعة. لكن المفاجأة في الأمر أنّ تلك النسخ التي أعطاني إيّاها هي لجواز السفر الذي فقدته في النيبال، وليس الجديد الذي أستعمله. كما وجدت في أثناء تدقيقي السريع في تلك الأوراق أنّه تمّ التلاعب ببعض محتويات ذلك الجواز؛ حيث تبدل اسم أبي من أحمد إلى محمّد، واستُبدل بصورتي

الشخصيّة أخرى لم أتمكّن من التعرّف إلى صاحبها؛ نظرًا لرداءة النسخة وسوداويّة الصورة، لكن الأكيد أنّها لم تكن صورتي إنّما لشخص آخر.

راح الضابط الرشيد ينظر إلى وجهي ويتابع ردّ فعلي وأنا أتصفّح الأوراق، منتظرًا أن يعرف كيف سيكون موقفي بعد أن رمى جميع وثائقه وإثباتاته التي كان يتشدّق بها أمامي، أو يتصنّع إظهارها كدليل مهمّ يدعم مزاعمه. وفي الوقت الذي كان ينتظرني أن أتحدّث حول ما أراه انشغل تفكيري في الماضي القريب، والأحداث الأليمة التي أخذت تستعيد زخمها في مخيّلتي، والتي يبدو أنّها لن تنفكّ عنّي إنّما ستلاحقني أينما ولّيت، أو مهما مرّ من الزمن على تلك الواقعة التي واجهتها في النيبال. حينها أدركت أنّه جاء الوقت الذي يجب أن أعترف فيه بالحقيقة، وبما كنت قد أخفيته منذ ذلك الوقت، أو ضللت به الجميع؛ خوفًا ممّا يمكن أن يحدث لي من تداعيات على حياتي ومستقبلي. وجدتُ أنّه لا حكمة في الاستمرار بإخفاء موضوع زيارتي إلى النيبال وفقداني الجواز هناك؛ لأنّ ذلك سيسبّب لي الكثير من المتاعب التي ربّما تهدّد مستقبلي، وأنا للتوّ عائد لبداية جديدة وحياة عمليّة بعد نيل شهادتي الجامعيّة.

منذ لحظتها قرّرت أن أعيد النظر في قراري السابق بكتمان الأمر، وأزيح كلّ ذلك الهمّ الثقيل عن كاهلي، والإفصاح عن تلك الزيارة التي قمت بها من دون علم أحد، وكلّ ما شابها من أحداث خطيرة واجهتها. أدركت أنّه جاءت اللحظة التي عليّ أن أتحمّل كلّ ما يترتّب عن ذلك من تداعيات قانونيّة أو غيرها، والتي مهما كان حجمها إلّا أنّها ستريح نفسي، وتزيل همًّا جاثمًا على صدري. وبناء على هذه الخلاصة باشرت أتحدّث للضابط بما لم يكن يتوقّع سماعه.

- «نعم يا حضرة الضابط هذا الجواز خاص بي، والأختام الموجودة فيه لا بدّ أن تكون صحيحة أيضًا، لكن بتركيز قليل ومرور سريع على هذه النسخ تبيّن لي أن الصورة ليست لي، إنّما تمّ استبدالها، كما أن اسم والدي مختلف».

قبل أن أكمل حديثي أخذ الضابط الأوراق منّي، وراح يقارن بينها وما هو في الجواز الحقيقيّ الذي كان في يده من دون أن يبيّن موافقته مع ما ذكرته من عدمه، لكنّني واصلت حديثي قائلًا:

- «والأهم من كلّ ذلك هو أنّني فقدت هذا الجواز الذي

تحمل نسخًا منه يا حضرة الضابط قبل أكثر من عامين، بل أبلغتُ حينها الجهات الأمنيّة في البحرين والهند عن فقدانه».

- «نحن نعلم عن البلاغ الـذي تقدّمت به حول فقدان الجواز، لكن ذلك جاء لاحقًا بعد دخولك بعض الدول مثل الفلبين أو تايلند كما تشير أختام الدخول والخروج، في النسخة التي أمامنا».
- «ربّما لأنّني أبلغتُ عن فقدانه في وقت متأخّر من تاريخ الواقعة، أي بعد فترة زمنيّة ليست بالقليلة من وصولي الهند، وخروجي من المستشفى الذي مكثت فيه ما يزيد قليلًا على الأسبوعين، وكانت قد مضت عدّة أسابيع على التاريخ الحقيقي لفقدان الجواز، والذنب الذي اقترفته هو الزعم بفقدان الجواز في الهند، والحقيقة هي أنّني فقدته في النيبال قبل شهرين أو أكثر من تقديمي البلاغ. فعلت ذلك خوفًا من أن أحاسب قانونيًّا، نتيجة فراري من النيبال بطريقة غير مشروعة، ودخولي إلى الهند متسللًا، سيّما أنّني لم أطلع عائلتي حتّى هذه اللحظة عن تلك الرحلة، وهي الخطيئة التي أدفع ضريبتها اليوم».

كان الضابط يستمع لي باهتمام مُبديًا بعض الاستغراب من

تلك المعلومات التي يسمعها لأوّل مرّة. واصلت قائلًا:

- «إنّني منذ سنتين أستعمل جواز سفر مختلفًا عن هذا الذي تحمل نسخة مُصوّرة منه، كما أنّ معظم الزيارات التي تحدّثتَ عنها، وأختام دخـول وخـروج بلدانها حصلت بعد فقداني الجواز وإبلاغي عن ذلك الجهات الرسميّة، كما كنتُ في أثناء ذلك الوقت منتظمًا في صفوفي الجامعيّة، ولي أنشطة اجتماعيّة وطلابيّة تشهد بها الجامعة، وزملائي البحرينيون في مدينة بونا».

هنا استند الضابط الرشيد إلى ظهر كرسيّه متابعًا ومُفكّرًا في ما كنت قد أدليت به من معلومات جديدة، وبدا لي أنّه كان مستعجلًا لمعرفة المزيد، قائلًا:

- «تحدّث وأعطني تفاصيل أكثر عن كيفية حصول ذلك في النيبال، فأنا لك صاغٍ».
- «كما سبق وأطلعتك يا حضرة الضابط، إنّني لم أزر أيًّا من هذه البلدان التي أشرت إليها عدا مملكة النيبال التي لم تأت على ذكرها ضمن أسئلتك في البداية، رغم أنّ ختم دخولها واضح في النسخ التي أمامنا، وهي البلاد التي فقدت فيها الجواز، وحصل كلّ ما حصل من مآسٍ كادت

تنهي حياتي، والتي سأتحدّث لك عنها بالتفصيل».

ثمّ رحت أسترجع ذاكرتي وأفرغ كلّ ما في جعبتي حول القصّة التي حدثت لي في النيبال منذ ساعة وصولي هناك، وكل تفاصيلها التي أخـذت أتحدّث عنها لأوّل مـرّة بهذه الشفافيّة والصراحة، في حين كان يستمع لي بدهشة واستغراب بادٍ على وجهه. راح يثير مزيدًا من الأسئلة والاستفسارات حول بعض الوقائع والأحداث التي لم يفهمها بشكل صحيح، أو بسبب تجاوزي إيّاها غفلةً بسبب حالة الإرباك التي كنت فيها. لاحظت أن الضابط كان يخرج بشكل متكرّر من المكتب أثناء التحقيق، حاملًا معه الإفادة وأوراق التحقيق، ليعود بعد لحظات بمزيد من الأسئلة، أو طالبًا بعض التوضيحات حول نقاط أدليت بها، أو وقائع لم أفصّل في شرحها، أو مرحلة زمانيّة تجاوزتُها عنها من دون قصد.

كان واضحًا أنّ الضابط الرشيد ينقل ما دوّن من إفادتي، إلى أشخاص يتابعون مجريات التحقيق من غرفة مجاورة، أو مكان آخر في المبنى نفسه، فكانوا يثيرون الأسئلة، ويطلبون توضيحات يعود بها لي. ومع استرسالي في الحديث، وإدلائي بشهادتي والتعاطي مع جميع الأسئلة والاستفسارات، وجدت

هدوءًا في نبرة الضابط الرشيد غاب عنها التصنّع بالتصلب وحدّة الحديث، ورأيت على وجهه علامات تصديقي، دون إقرار بذلك، عدا تعليقه الذي بيّن دهشته حيال ما كنت أدلي به من وقائع وأحداث، قائلًا:

- «قصّتك هذه تكاد أن تكون فيلمًا سينمائيًا».

وبتلك الاعترافات أزلت همًا ثقيلًا جاثمًا على صدري، وشعرت براحة نفسيّة وانفراج روحي لم أشعر به منذ سنوات، لقناعتي بأنّني صحّحت خطيئة كنت قد اقترفتها.

حتّى مساء ذلك اليوم، وهو الثاني منذ أن وصلت إلى البحرين، لم يكن من الواضح ما سيكون عليه مصيري في الساعات والأيام القادمة، بعد كلّ الاعترافات التي أدليت بها حول الزيارة التي أخفيتها. لاحظت من أسئلة الضابط الرشيد ونقاط القصّة التي كان يركّز عليها أنّه لم يكن مهتمًا كثيرًا بالمكان الذي أبلغت فيه عن فقدان الجواز، ولا هروبي من النيبال، أو دخولي متسلّلًا الهند بقدر ما كان مهتمًا للوصول إلى الشخص الذي استعمل جواز السفر، وانتحل شخصيّتي في كثير من البلدان. ومع تطوّر التحقيق، وتبادل الأحاديث التي بدا بعضها لا علاقة له بصلب التحقيق، شعرت أنّ الضابط

عيسى الرشيد بدأ يتعاطف معي، وذلك من خلال بعض عباراته وتعليقاته، وهو ما شجّعني لأسأله مرّة أخرى:

- «الآن وقد حدثتك بالقصّة الكاملة يا حضرة الضابط، وبكلّ صدق وأمانة، وأرجو أن أكون قد وُفقت في إيضاح الصورة وتصحيح ما لزم، يبقى لدي سؤال مهمّ، ويمكنك أن تعدّه مناشدة إنسانيّة: متى ستطلقون سراحي؟ ومتى سيتسنّى لي العودة والانضمام إلى أفراد أسرتي».

كان الضابط يستمع لي باهتمام ونصف ابتسامة من دون أن يتحدّث بشيء، أو أن يبدي رأيًا، ولا أيّ ردّ فعل يمكن أن يُفهم منه شيء، وأعتقد أنّ سبب صمته هو إدراكه وجود من يتابع حديثنا في الغرفة أو الغرف المجاورة.

هكذا بقيت جالسًا وحيدًا في المكتب بعد انتهاء التحقيق، غادر الضابط الغرفة دون أن يطلعني على شيء عن سير الأمور، أو إنْ كانت اعترافاتي ساعدت أم أضرّت، أو إنْ كانت ستؤدّي إلى حرّيّتي أو ستأخذني إلى الجحيم، أمّا الملاحظة اللّافتة التي وجدتها في ذلك التحقيق فهو الاسم الذي صار يتردّد على مسامعي من جديد، حتّى بدأت أخشى أن أحمل مسؤوليّة اختفائه المفاجئ، وهو الشيخ حمد القحطاني الذي عاد اسمه

إلى صدارة المشهد من خلال الأسئلة والاستفسارات التي تدور حوله، وموضوع اختفائه الغامض، بل عزّز ذلك الخوف بشكل أكبر ما حمله لي الضابط الرشيد من قرار صادم بعد عودته، قائلًا:

- «في الحقيقة لم يكن لدينا نيّة لاستدعائك من الأصل، لولا صدور مذكّرة اعتقال دوليّة بحقّك، وقد تلقينا نسخة منها من (الإنتربول)، وفيها أمر صادر باعتقالك في أي بلد توجد فيه، ومن ثمّ تسليمك بعد التحقيق المبدئي إلى السلطات السعوديّة التي هي واحدة من عدّة دول تطالب بالتحقيق معك، في جرائم عديدة وقعت في مناطق مختلفة حول العالم، وقد قام بها من انتحل شخصيّتك، أو جواز سفرك الذي أبلغتَ عن فقدانه. كما تشير المذكّرة بأنّ التهم في غالبيّتها متعلّقة بقضايا نصب واحتيال أو اتّجار بالأشخاص، وفي عدّة دول أشرت إليها في سياق حديثي أو الأسئلة التي طرحتها عليك، وهذه جميعها تهم خطيرة كان لا بدّ من التحقيق معك فيها، سيّما أنّك مواطن تحمل هويّة هذه البلاد، بل أكاد أن أقول لك إنّك محظوظ بأن يتمّ توقيفك في بلدك هذا، وليس في مكان

آخر وإلّا كان وضعك أسوأ بكثير، وإجراءاتك ستأخذ شهورًا، أو ربّما سنوات بين أروقة الأجهزة الأمنيّة، أو تصبح ضحيّة بيروقراطيّة إجراءاتهم القضائيّة».

ثمّ أضاف خاتمًا حديثه:

- «تبقى تحقيقاتنا هذه أوّليّة، وقد أجريناها بطلب من شرطة الإنتربول، وكذلك السلطات السعودية التي أرسلنا إليها الملف الذي ستتولى مسؤوليته بعد الآن».
- «ماذا يعني ذلك لي يا حضرة الضابط؟!»
- «لا عليك أمورك طيّبة حتى الآن، وسنجري الترتيبات على عجل من أجل نقلك صباح الغد إلى العاصمة السعودية، تلبية للطلب الدولي بتسليمك».

25
بين مملكتين

كنت في تعب السفر، وإرهاق التوقيف، وإنهاك التحقيق، والإجهاد النفسي، والحرمان من النوم ليليتين متتاليتين، عدا قيلولة على الكرسي الحديديّ. رغم ذلك، كنت مستمتعًا بمشاهدة الطبيعة البحريّة، تزيّن جانبي الجسر الضخم الذي أراه لأوّل مرّة في حياتي، منذ افتتاحه قبل بضعة أشهر من عودتي.

كان قد بدأ العمل على بناء جسر الملك فهد في منتصف العام 1981. إنها المرّة الأولى التي ترتبط بها بلادي بالعالم الخارجيّ بـرّاً، من خـلال جارتها الأكبر المملكة العربيّة السعوديّة. ينتهي الجسر بمنطقتها الشرقيّة في مدينة الخبر. كان أشبه بحلم، أن يكون للجزيرة التي ولدت فيها وترعرعت على أرضها، خطّ برّيّ ينهي كونها جزيرة معزولة. شعرت بروعة إنجاز هذا الحلم، وأنا أدقّق النظر في تفاصيل هذا العمل الهنّدسيّ الجبّار، الذي استغرق بناؤه أكثر من خمس سنوات، ليربط البلاد الأصغر مساحة في منطقة الشرق الأوسط بجارتها الأكبر في المنطقة نفسها.

كنت مبهورًا بكلّ شيء أراه في طريقي على الجسر متوجّهًا إلى السعوديّة، على الرغم من أنّ تلك الرحلة ليست نزهة ولا استجماماً، بل لتسليمي للسلطات الأمنيّة في المملكة العربيّة السعوديّة، تلبية لمذكّرة الاعتقال الدوليّة الصادرة بحقّي.

عند الساعة الثانية عشرة ظـهـراً، وصلت إلـى النقطة الحدوديّة على الجسر البالغ طوله خمسة وعشرين كيلومترًا. محاطًا بمجموعة من الرجال يشكّلون الفريق الأمني البحريني المسؤول عن تسليمي إلى السلطات السعوديّة. اثنا عشر رجل أمن موزعين على أربع سيّارات، اثنتان عسكريتان واثنتان مدنيتان. مهمّة أمنيّة بدت من إجراءاتها الحذرة والصارمة أنّها بالغة السرّيّة والخطورة. كان واضحًا من حالة التوتّر التي عليها الرجال داخل السيّارة، لم يسمح لي ولا لهم بالنزول منها طوال الرحلة، ولا بفتح نوافذها المظلّلة بالسواد الحاجب للرؤية. لكنّني تنفّست الصعداء حين توقّف موكب السيّارات، بإيعاز من سائق السيّارة الكرسيدا تويوتا البيضاء التي كانت تقلّني وتتوسّط الركب، خرج منها الشخصان البدينان الجالسان إلى جواري على المقعد الخلفي، بعد أن شكوتُ من ضيق المكان، وحالة الاختناق التي صرت فيها بسبب حجميهما الكبيرين،

ورائحة دخان السجائر المنبعثة من ملابسهما في ذلك النهار من شهر رمضان.

على الجانب السعوديّ من الجسر، ينتظرني الفريق الأمنيّ القادم من السعوديّة، ومكوّن من سيارتين وستّة أشخاص – جميعهم من الشباب– يقودهم ضابط متوسّط الرتبة، يحمل في يده برقية، يُطلع من خلالها رؤسائه على تفاصيل تحرّكاتنا لحظة بلحظة. سريعًا ما تمّت عمليّة التسليم دون أيّ صعوبات، وهذا ليس ناتجًا عن الاحترازات الأمنيّة المتّخذة من قبلهم، إنّما لأنّ الشاب الذي في عهدتهم ليس بالرجل الخطير كما كانوا يعتقدون، ولا هو من يقف وراء كلّ تلك الجرائم المبلَّغ عنها، إنّما هو الشخص الخطأ الذي ساقه حظّه العاثر إلى هذا الحال والمآل، أي أنّني لست صاحب جريمة كما تشير سجلّاتهم، إنّما عليهم أن يبحثوا عن المجرم الحقيقيّ، عوضًا عن تضييع أوقاتهم مع فرد بريء مثلي.

انطلقت بنا السيّارة من نقطة الجمارك في منتصف جسر الملك فهد، مسرعة إلى مطار الدمّام الدوليّ، في رحلة لاذ فيها جميع ركّاب السيّارة بالصمت، دون أن يتحدّث أحدهم معي أو حتّى يستفسر عن قضيّتي، كأنّه مطلوب منهم عدم التفاعل

معي بشكل مطلق، طوال الرحلة التي استغرقت أكثر من ثلاثين دقيقة حتّى وصلنا إلى مطار الدمّام. هناك انسحب ثلاثة من أفراد الفريق، في حين واصل الثلاثة الآخرون رحلة السفر معي جوًّا إلى العاصمة السعودية الرياض، في رحلة استغرقت أقلّ من ساعة، وفي طائرة شبه خالية إلّا من عائلتين وأطفالهما، راحوا يلعبون على متن الطائرة غير مكترثين بهبوطها وإقلاعها، حتّى حوّلوها لصالة ألعاب لا يديرها أحد.

في مطار الرياض كان في استقبالنا فريق أمنيّ مشكّل من ثلاثة أفـراد، يبدو عليهم من الوهلة الأولـى ومن ملابسهم العربيّة الأنيقة، والحراس الذين معهم، أنّهم شخصيّات أمنيّة كبيرة. يقودهم ضابط كبير، وسيم الوجه اسمه سعود، يتقدّمهم رتبة ومنصبًا، وهو الضابط المسؤول عن ملفّي منذ عدّة شهور حسب ما أخبرني لاحقًا. رحّب بي وعرّفني بنفسه مبتسمًا، ثمّ برفيقيه.

انتقلتُ إلى عهدة أجهزة أمن الرياض، ممثلة بالضابط سعود، ومساعده جمال، وكذلك ضابط تونسي الجنسيّة، لم يتسنّ لي معرفة اسمه ولا مرتبته الوظيفيّة، كان مندوبًا عن (الإنتربول). راح جميع هؤلاء منذ اللحظة الأولى يتعاملون معي بشكل

جيّد، بخلاف ما بنيته من تصوّر قائم على ما سمعته ورأيته أثناء التحقيق معي في البحرين، إذ لم يتعاملوا معي كمطلوب أمنيّ خطير متّهم بجرائم عديدة مثلما قيل لي قبل سفري.

في السيّارة بـدأوا يتحدّثون معي بشكل ودّي، محاولين التخفيف من روعي ودرجـة توتّري التي كانت واضحة من نظراتي التائهة حول كلّ شـيء، ونبرات صوتي المتذبذبة الفاضحة لحالتي النفسيّة. أخذوا يطرحون الأسئلة الودودة بدءًا بانطباعي عن الرحلة الأولى التي أقوم بها على الجسر الجديد الذي مررت عبره، ورؤيتي للبحرين بعد افتتاح الجسر، وتدفّق بعض الشباب السعودي الباحث عن الترفيه والمتعة في الحانات والأندية الليليّة المنتشرة في العاصمة المنامة، والتي توفّر شتّى أنواع المشروبات الكحوليّة التي تمنعها السلطات السعوديّة، كما كانت تفعل معظم دول الخليج العربيّة حينها. وهي الميزة التي تنفرد بها البحرين عن معظم دول الخليج؛ حتّى جعلتْ منها محلّ استقطاب رئيس لهذه الفئة العمريّة والاجتماعيّة من المواطنين الخليجيّين، قبل أن تأخذ إمارة دبي الريادة في السياحة الترفيهيّة والليليّة، وتتفوّق فيها على بقية دول الخليج منذ أوائل تسعينيّات القرن الماضي.

سألني الضابط سعود:

- «هل سبق لك أنْ زرت السعوديّة قبل هذه الرحلة؟»
- «نعم يا حضرة الضابط. لكنّني زرت المنطقة الشرقيّة فقط، وذلك عام 1981، حين تجمّعنا أنا وبعض الأصدقاء لنسافر برّاً إلى العراق مع صديقنا السعوديّ القاطن في منطقة سيهات مرورًا بدولة الكويت. كانت رحلة عبور فقط لم يتسنّ لي فيها التعرّف إلى البلاد، ولا إلى طبيعتها أو شعبها، ولم يكن هناك جسر يربط بين البلدين حينها إنّما جئت مسافرًا على متن الطائرة».
- «هل لك علاقة بأحد هنا في مدينة الرياض، أو تودّ زيارة صديق وتناول الإفطار الرمضانيّ بصحبته؟ لديك متّسع من الوقت في أثناء النهار للقيام بذلك، فنحن لا نعمل في أثناء هذا الشهر إلّا ليلًا، حيث يصوم الناس وينامون معظم أوقات النهار».

في الحقيقة أدهشتني الأريحيّة التي كان يتحدّث بها، وعباراته التي لا توحي بـأيّ تشدّد تجاهي أو كواحد من المطلوبين الدوليّين، وهو الافتراض الذي أعددت له نفسي، لذا حاولت الاستفسار عن ذلك:

- «لا يا حضرة الضابط. لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، لكنّني ممتنٌّ لك على هذا العرض الذي فاجأتني به، وبإمكانيّة منحي الفرصة لأقوم بذلك، وأنتم للتوّ قد تسلمتموني كمطلوب دوليّ خطير، أو متّهم بجرائم عابرة للحدود حسب ما عرفت قبل مغادرتي البحرين».
- «لا أنت لست متّهمًا الآن، ولم يزعم أحد ذلك، ولك مطلق الحرّيّة في التحرّك وفعل ما تشاء في أثناء النهار، لكن برفقة رجالنا في هذه المرحلة حتّى يكتمل التحقيق معك».

ثمّ أضاف شارحًا:

- «نعم كنتَ مشتبهًا به عندنا في السابق، ومطلوبًا لدى شرطة الإنتربول الدوليّ، لكن الجديد هو تبدّل تصنيفك لدينا إلى شاهد، لا سيّما بعد أن أدركنا أنّ من قام بتلك الجرائم هو شخص آخر ينتحل شخصيّتك، ويستعمل جواز السفر الذي أبلغت عن فقدانه منذ وقت طويل، ونحن شبه متأكّدين من ذلك، حيث أجرينا تحقيقاتنا كما تمكّنّا من الاطلاع على التحقيقات التي أُجريت معك يوم أمس، والنتائج التي خلصوا إليها كانت لصالحك،

لكن هذا لا يغيّر حقيقة أنّك ما زلت مطلوبًا على لوائح الشرطة الدوليّة حتّى نعود إليهم بخلاصة تحقيقاتنا معك، ومنها نتمكّن من إزالة اسمك من قوائمهم».

كنت مشكّكًا في قوله بداية، لكن تأكّد لي صدق مزاعمه حين أطلعني على مكان إقامتي قائلًا:

- «على أيّ حال، سنقوم بتوصيلك إلى مكان إقامتك الآن ليكون عندك متّسع من الوقت لتدوّن فيه إفادتك الكاملة حول كلّ ما حصل لك في النيبال، قبل أن تذهب إلى النوم، وإلى أن نلتقي بك في ليلة الغد بعد صلاة التراويح، وسيكون هناك من ينتظرك لتلبية احتياجاتك في صالة الفندق».
- «أيّ فندق؟ لا أفهم ماذا يعني ذلك؟»

سألته مستغربًا إقامتي في الفندق، بعد كلّ ما شاهدته من إجراءات أمنيّة مشدّدة، منذ لحظة وصولي إلى مطار البحرين.

- «نعم نحن متوجّهون إلى فندق قصر الرياض الذي ستقيم فيه تحت ضيافتنا، حتّى ننتهي معك من عمليّة التحقيق، وسيكون رجالنا موجودين هناك، لكنّهم بعيدون عنك، وهو إجراء روتينيّ».

قوله هذا أكّد لي بشكل جليّ أنّهم لا يتعاملون معي كفرد خطير على لائحة المطلوبين، أو كمتّهم متورّط في قضايا نصب واحتيال. وأضاف مازحًا:

- «كما أنّني متأكّد أنّك لا تودّ أن تكون في عهدتنا، أو تقيم في أيّ من سجوننا، ولا أرى أنّك ستتحمّل ذلك».
- «هذا من المؤكّد يا حضرة الضابط، وأنا سعيد بالإقامة في الفندق الذي هو خيار أفضل من سجن مقيّد للحرّيّة»

قلت ذلك مشاطرًا إيّاه الأجواء الإيجابيّة التي كان يحاول إضفاءها على اللقاء، وأضاف قائلًا:

- «أعلم أنّك مستغرب من معاملتنا لك بهذه الأريحيّة، بعد أن كان الوضع مختلفًا قبل قدومك، لكن ما شهدته في البحرين من تحقيق كان إجراء أمنيًّا روتينيًّا اتخذته الجهات الأمنيّة في بلادك، بعد مطالبتنا لها بالتحقيق معك، ومن ثمّ تسليمك إلينا بناء على المذكّرة الدوليّة، وهذا لا يعني أنّك مدان ولا متّهم، إنّما كانت عمليّة جمع أكبر قدر من المعلومات، ومشاركتنا إيّاها قبل وصولك إلى هنا، كما أنّنا لا نخشى هروبك ولا نعتقد بأنّك ستقوم بذلك، والأهمّ الآن هو أنّه قد حان الوقت لتنسى كلّ ما

حصل لك قبل وصولك إلى مدينة الرياض، أصبحت فيها ضيفًا، وهذا كلّ ما أستطيع قوله لك الآن، إلى أن نلتقي بك ليلة الغد، وهناك سنتحدّث عن كلّ شيء، وستعرف الكثير من الأمور التي كانت غامضة عندك».

عبارته الأخيرة أثارت الكثير من التساؤلات حول ما يعني من وراء ذلك، وقبل أن أطلب منه توضيح الأمر، انتقل سريعًا لشأن آخر محذّرًا ومازحًا في آن واحد:

- «انتبه هنا؛ لأنّ حرّيّتك لا تعني تناول الطعام في وضح النهار، وإلّا مصيرك سيكون ضيفًا حقيقيًّا في سجوننا».
- «أعرف أنّ تناول الطعام علنًا ممنوع في أثناء النهار، وهو كذلك في البحرين».

لكنّني عدت لأسأله محاولًا جرّه للحديث حول الموضوع الأهمّ:

- «ما المرجوّ من إحضاري كلّ هذه المسافة؟»

إلّا أنّه بدا مُصرًّا على تأجيل الحديث في الأمر، لافتًا نظري إلى جانب آخر دفعني للتفكير بمسار مختلف وتأويل آخر، قائلًا:

- «سنتحدّث في ذلك لاحقًا عندما نلتقي في مكاتبنا، بعد أن تدلي بكل ما عندك من أقوال وشهادات حول ما يحيط برحلتك إلى مملكة النيبال، وفقدان جواز سفرك هناك، والأهمّ عندي هو موضوع اختفاء الشيخ القحطاني، وهو الشخصيّة الغامضة التي تحدّثت عنها في إفادة البحرين».

وأضاف قائلًا:

- «مشكلتنا تكمن أنّ ما نملكه من معلومات حيال قضيّتك هو مجموعة من المقاطع غير المكتملة، وفيها من الثغرات التي تحتاج إلى أن تُملأ بمساعدتك، وهو سبب وجودك هنا».
- «لكنّني أدليت بكل ما عندي من معلومات، في التحقيق الذي أجري معي قبل سفري إلى هنا، ألا يكفي ذلك؟».
- «نعم لقد اطّلعت على ذلك قبل وصولك، كما اطّلعت على جميع أوراق التحقيق الـذي أجـري معك، وفيه معلومات قيّمة لا شكّ أنّها ستفيدنا كثيرًا، لكن ما زلنا نحتاج إلى أن نسمع منك المزيد عن تلك الرحلة التي قمت بها إلى النيبال، والأيـام التي قضيتها مع الشيخ القحطاني، وكلّ ما حصل بعد اختفائه، أو ما تعرفه حول شخصيّته أو أسرته في السعوديّة».

وهكذا أخذنا نتحدّث عن رحلة سفري إلى مملكة النيبال، وعن أمور تتعلّق بالشيخ القحطاني، واختفائه المفاجئ، وما ترتّب على ذلك من أحداث مأساويّة واجهتها وتحمّلت وزرها. وفي أثناء حديثي مع الضابط سعود سألته عن أمر كان يحيّرني في أثناء عمليّة التحقيق التي أجريت معي في البحرين، وهو ذكر باكستان، ورئيسها ضياء الحقّ الذي اعتقدوا أنّ لي علاقة به بشكل أو آخر، وهي الملاحظة التي راح يتحدّث عن خلفيّتها قائلًا:

- «هذا لأنّ معلومات قد وردت، وكانت وراء المذكّرة الدوليّة لاعتقالك تشير إلى أنّك أو في الحقيقة الرجل الذي كان ينتحل شخصيّتك، قام بزيارة إلى باكستان زاعمًا عند وصوله، بأنّه مبعوث خاصّ مرسل إلى رئيس الوزراء الباكستانيّ من قبل إحدى الجهات الدوليّة، وقد تمكّن بشكل أو آخر من تضليل العاملين في مكتب رئيس الوزراء، وإقناعهم بمزاعمه، وإنْ كنّا لا نعلم حتّى اليوم كيف تمكّن من ذلك، لكنّنا عرفنا أنّه استغل وجوده في باكستان، والحصانة الدبلوماسيّة التي حصل عليها نتيجة مزاعمه ليرتكب عدّة عمليّات نصب واحتيال».

وأضاف:

- «وعندما شعر بقرب افتضاح أمره عند العاملين في مكتب رئيس الوزراء فرّ هاربًا، وقام بذلك قبل لحظات من اقتحام الشرطة مقرّ إقامته، تاركًا خلفه أثرًا واحدًا فقط هو جواز سفرك، متصنّعًا نسيانه، وبسببه اعتقدوا أنّك وراء تلك الواقعة، أي السيناريو نفسه الذي حاول تعزيزه، ومنذ ذلك الحادث تبيّن أنّ لمنتحل هذا الاسم والشخصيّة قضايا عديدة في أكثر من دولة، وأنّه انتحل أكثر من شخصيّة».
- «هل تعتقد أنّه ما زال مستمرًا في ارتكاب جرائمه، منتحلًا شخصيّتي؟».
- «لا يمكن أن يكرّر ذلك بعد أن ترك جوازك هناك، وصار اسمك في قوائم المطلوبين الدوليّين، والأكيد أنّها كانت مهمّته الأخيرة، مستعملًا هذه الهويّة والشخصيّة، هذا إنْ كان ما زال حرًا يقترف أفعاله، ولم يكن في السجن أصلًا».

ثمّ أضاف:

- «هذا الرجل ارتكب عمليّات نصب واحتيال كثيرة، منتحلًا اسمك وشخصيّتك وجواز سفرك في عدّة دول، لكنّه في باكستان قام بشيء مختلف عَمَّا درج عليه، وهو أنّه استغلّ الحلقة المحيطة بالرجل الأكبر في الدولة، ورئيسها العسكري الذي يتربّع على أعلى قمّة هرم السلطة السياسيّة والعسكريّة، وهو عمل جريء لا يستطيع كلّ محتال القيام به».
- «لكن كيف وإلى أين تعتقدون أنّه هرب؟»
- «هذا ما سنتعرّف إليه بشكل أكبر عندما نلتقي ليلة الغد، بعد أن تأخذ وقتك لترتاح اليوم بما فيه الكفاية؛ كي تكون مستعدًّا لجلسة طويلة ليلة غدٍ».

أخيرًا وصلنا إلى فندق قصر الرياض ذي الخمس نجوم، يقع في إحدى ضواحي الرياض، المكان الذي سأقيم فيه ضيفًا على نفقة الحكومة السعوديّة حتّى تنتهي إجراءات التحقيق معي حسب ما أطلعني الضابط سعود. كان واضحًا أنّه فندق راقٍ وفخم، لا يشبه ما تعوّدت الإقامة فيه في أثناء وجودي في الهند والنيبال، إنّما هو أقرب ما يكون إلى فندق هملايا شيراتون الذي أقام فيه الشيخ القحطاني. وقد كان شعورًا

رائعًا لشاب مثلي، لم يسكن في حياته في الفنادق الفخمة ذات التصنيفات النجوميّة.

عند دخولنا الفندق كان المكان هادئًا شبه خالٍ من الزوار، عدا بضع رجال غربيّين يتناولون الطعام في المقهى المفتوح على صالة الفندق، ولا يبدو أنّ منع تناول الطعام في أثناء النهار في رمضان يشمل هذا الفندق، أو الفنادق الكبيرة التي يقيم فيها عادة الزوّار الأجانب. وكما هو متوقّع كان الفندق خاليًا من الحانات والمطاعم التي تقدّم المشروبات الكحوليّة، وهو حال جميع الفنادق في السعوديّة التي تعمل وفق الشريعة الإسلاميّة، ولا تسمح ببيع المشروبات الكحوليّة على أراضيها.

وبينما انشغل مرافقي الضابط بإنهاء إجراءات الدخول مع موظّفي مكتب الاستقبال، رحت أعاين المقهى وأطباق الطعام الشهي المصفوفة على طاولة البوفيه التي تأخذ مكانها في جانب من المقهى، وكالمتسوّل الذي يتضور جوعًا وقفتُ على باب المقهى أتابع بحسرة الجالسين وهم يتناولون الطعام، متمنّيًا أن أكون معهم، حيث لم أتناول الطعام منذ الليلة التي قبلها. وهنا تحدّث الضابط سعود الذي وجدني أحدق في الطعام قائلًا:

- «لا عليك من صوم رمضان في هذا الفندق الذي يقدّم جميع الأطباق العربيّة وغيرها على مدار الساعة، كما أنّك لست في حاجة لانتظار أذان المغرب وساعة الإفطار ما دمت على سفر، لذا استمتع بتناول طعامك دون خوف من أحد».
- «نعم سيّدي. أنا أشعر بالجوع، خصوصًا أنّي لم أتناول الطعام منذ ساعات طويلة؛ جرّاء حالة القلق التي عشتها».

قبل مغادرة الضابط ورفاقه الفندق ناولني بطاقة عمله التي تحتوي على عنوانه وأرقام هواتفه، كما أعطاني دفتر رسائل كبير الحجم كالذي كنت أستعمل أوراقه في مراسلة أسرتي، وأنا طالب في الهند، وهو يقول:

- «هـذه البطاقة فيها أرقـام هواتفي جميعها، ويمكنك الاتصال بي على هاتف المكتب أو المنزل متى ما شئت، كما سيكون بعض رجالنا موجودين طوال الوقت في بهو الفندق، حيث يمكنك طلب المساعدة منهم عندما تكون في حاجة لذلك».

ثم أشار إلى الدفتر الكبير الذي أعطاني إيّاه قائلًا:

- «هذا الدفتر هو الأهمّ عندي من كلّ شيء، وأريدك أن

تـدوّن فيه إفادتك كلها، وتفاصيل قصّتك منذ لحظة وصولك إلى النيبال حتّى خروجك منها، دون تجاهل أيّ جزء من القصّة، وإنْ ارتأيت ذلك غير ضروريّ، مع أسماء جميع الشخصيّات التي التقيتها هناك، وجنسيّاتهم وكلّ ما تعرفه عنهم. إنّنا مهتمّون بشكل أكبر بمعرفة المزيد عن شخصيّة الشيخ حمد القحطانيّ، وكلّ ما لديك حول هذا الرجل، وموضوع اختفائه المفاجئ، كما نودّ أن نتعرّف إلى تقييمك كلّ ما حدث».

ثمّ ختم حديثه قائلًا:

- «سأرسل من يتسلّم هذه الإفادة منك صباح يوم الغد، لكي يتسنّى لنا الاطلاع عليها، وتكوين بعض الأفكار قبل اجتماعنا المطوّل معك في المساء».

الأمـر الـذي فاجأني حقيقةً وأثـار استغرابي هو جهلهم بشخصيّة الشيخ القحطاني الذي بدا غامضًا عندهم، في حين اعتقدتُ أنّهم ربّما يحمّلونني مسؤوليّة اختفائه، بل كنت أخشى أن يزور البحرين أحد من أهله، أو يُحقَق معي في موضوع اختفائه، وتَركي إيّاه هناك، بل اعتقدت بداية أنّه ربّما يكون وراء عمليّة تسليمي إلى السلطات السعوديّة، لكن ما سمعته

من الضابط حول الغموض الذي يكتنف شخصيّة هذا الرجل، بدأ يزرع عندي الشكوك ببعض مسلّماتي وتصوّراتي السابقة، حول الواقعة والقضيّة نفسها.

وهكذا قضيت ليلتي في غرفة الفندق منهمكًا أكتب في دفتر الرسائل - الذي أعطاني إياه الضابط سعود - كلّ ما جرى أو واجهته من أحداث في مملكة النيبال أو كنتُ شاهدًا عليها، مـرورًا بأسماء جميع من التقيتهم بمن فيهم السيدة ماريا وأسرتها، حيث انقطعت كلّ أشكال التواصل معها بعد اختطافي، وفشلت محاولاتي في العثور عليها لاحقًا، وكذلك أصحاب ومـدراء وكـالات الاستقدام أو الوسطاء الذين ما زلت أتذكّر بعض أسمائهم، وما كانوا يقومون به من استغلال لضحاياهم العمّال، وعلاقة هؤلاء بالشيخ القحطاني.

كتبت عمليّة اختطافي منذ اللحظة التي أُخرجت فيها قسرًا من الغرفة في كونتيبور أفرست حتّى نقلي إلى سورو، وانتهاءً بإقامتي في منزل الرئيس مايور. إلّا أنّه وعلى الرغم من إفادتي المفصّلة فإنّني كنت حريصًا على الالتزام بوعد قطعته على نفسي، ألّا أشير إلى اسم السيد حسن البوراشد أو أقحمه في التحقيق، وهو الذي أنقذني ووفّر لي الدعم المادّيّ والمعنويّ

كله حتّى وصلت إلى الهند، ولا يمكنني نسيان فضله الكبير، أو دعمه لي في وقت المحنة.

وبينما كنت منشغلًا أُفـرغ مخزون ذاكـرتي من خلال استحضار كلّ شاردة وواردة من أحداث الماضي الأليم في النيبال، وأملأ بها تلك الأوراق التي أمامي، وبعد كلّ ما سمعته من ملاحظات منذ عودتي أو أدركته حينها، تنبّهت لبعض العلامات المهمّة والمؤشّرات الخطيرة التي كان عليها أن تستوقفني لحظة حدوثها، أو تدقّ عندي ناقوس الخطر لتنبّهني إلى حقيقتها، لكنّني تجاهلتها عن غير قصد، ولم أعطها حقّها في التمحيص المطلوب، أو أضعها في مكانها وسياقها الصحيحين، وهو الأمر الذي حدث بسذاجة أو حسن ظنّ منّي نظرًا لحداثة تجربتي. لكنّه القلم وما أدراك ما القلم! الذي أنعش عندي الذاكرة، وأبرز مجموعة من التساؤلات المهمّة التي لم أكن سألتفت إليها لولا الكتابة، إذ لا أستطيع ترك مشاهد غير كاملة، أو فراغات غير مكتملة دون تفسير يمكنه أن يقنع قُراءها من المحقّقين. وجميع هذه المؤشّرات كانت تتعلّق ببعض سلوكيّات وتصرّفات الشيخ القحطاني، الذي وجدت أنّ معظم إفادتي كانت تتركّز حول الفترة التي قضيتها معه.

رحت أعيد مراجعة كلّ شيء دار بيننا في أثناء وجودنا في النيبال، وأُسائل نفسيّ لأوّل مرّة عن حقيقة شخصيّته التي وصفها الضابط سعود بالغامضة، وعن صدق مزاعم ثرائه أو كونه رجل أعمال يملك من الشركات والمشاريع ما تحدّث لي عنها، أو إنْ كان قادمًا حقيقة لاستقدام عمالة من هناك. وجدت نفسي أربط بين الملاحظات التي أثارها الضابط سعود حول غموض شخصيّة الشيخ القحطاني، وما استعادته الذاكرة من بعض سلوكيّاته الغريبة بعض الشيء، ولو أنّ غرابتها لم تصل عندي إلى درجة التشكيك في شخصيّته، ولا نواياه في ذلك الوقت كما هي عليه الآن، بل كلّما أسهبت وفصّلت في تدوين شهادتي على تلك الأوراق، تكشّف لي المزيد من الملاحظات ما ضاعف شكوكي، حتّى أخذت أعيد قراءتي لبعض التصرّفات التي بدرت منه وفقًا لما استجدّ من معطيات وتجربة راكمتها التحدّيات والزمن من حينها.

أسئلة كثيرة راحت تطرح نفسها داخلي منذ فترة، لكن أكثرها خطورة هو: هل يمكن أن يقف الشيخ حمد القحطاني وراء كلّ الذي مررت به من مصائب؟ وهل يمكن أن يكون هو الذي سرق جواز السفر، وتركني تائهًا في تلك البلاد الغريبة؟ أيعقل

أن يكون هو الذي احتال على الجميع واستغلّ الفقراء ليسرق أموالهم؟! أسئلة افتراضيّة صنعتها المستجدّات، وكتابتي القصّة بنفسي لأوّل مرّة منذ حدوثها، إلّا أنّها صارت تفرض وجودها على تفكيري كحقيقة لا لبس فيها. هذه النتيجة التي أكاد أصل إليها أمست تعذّب نفسي وتجعلني أشعر بكثير من الامتعاض، بعد أن تحوّل الضحيّة الذي طالما تعاطفت معه، وشعرت بالحزن حياله إلى مجرم محتال تنبذه النفس البشريّة، ولم يكن من السهل على العقل تقبّل هذا التغيّر الدراماتيكي السريع الذي يتحوّل فيه المجني عليه إلى الجاني، وما يترتّب على ذلك من تبدّل سريع وصادم في المشاعر.

رحت أراجع بعض تصرّفات الشيخ القحطاني، وأجدّد فهمي السابق لها وفقًا لما استحضرته من أحداث، بدءًا من إصـراره على تعريفي للجميع في النيبال كمدير لأعماله، والإيحاء لزوّاره أنّنا كنّا نعمل معًا رغم حداثة علاقتنا، وإدراكه أنّ ذلك يزعجني. صرت أرى الآن أنّه لم يقم بذلك التصرّف ببراءة، أو نتيجة سذاجته كما اعتقدت دائمًا، إنّما في الحقيقة تصرّفَ بدهاء ومكر الثعالب. أخذتُ أعيد من جديد أسباب تهرّبه المستمرّ، وتجنّبه لقاء وزيـر العمل النيباليّ، رغم

محاولاتي حثّه لتلبية دعوة الوزير إلى مكتبه. تذكّرت كيف كان يرتعب عند مرور الشرطة راجلين كانوا أم في سيّاراتهم، حتّى وجدته يتلفّت حول نفسه كلّ حين، ويعاين من يقف أو يمشي خلفه، كأنّه يخشى أو يترقّب من يتبعه أو يراقبه. تذكّرتُ حين كنّا جالسين نتحدّث في غرفته بهملايا شيراتون، وسمعنا صوت صافرة سيّارة نجدة. لم أعرف إنْ كانت سيّارة شرطة أو حريق أو إسعاف، وهو صوت مألوف يتكرّر سماعه في المدن المكتظّة بالسّكان عادة، حتّى إنّني لم أنتبه له لولا ارتباك الشيخ القحطاني بشكل مفاجئ، وردّ فعله اللّافت والسريع حين قفز من مكانه، وهو يتلفّت في كلّ زاوية من زوايا الغرفة أو نحو بابها مسرعًا نحو النافذة، ليتأكّد ممّا كان يحصل خارج الفندق، لكنّه وبعد إطلالة سريعة عاد بهدوء لمتابعة حديثه من جديد، والارتياح بادٍ على وجهه. وقد سألته عن سبب الحالة التي بدا عليها بعد سماعه صافرة سيّارة النجدة، فعلّلها قائلًا:

- «لا شيء على الإطلاق ولا داعي للقلق. كنت أتأكّد من عدم وجود حريق، أو أيّ خطر حول الفندق، وعرفت أنّها صافرة لسيّارة إسعاف صادف مرورها أمام الفندق، لكن اعذرني لأنّني كنت خائفًا من أيّ شيء يهدّد حياتنا».

ثمّ أضاف وهو يشير إلى صور أطفاله على خزانة الملابس، محاولًا تعزيز تبريره:

- «لو كان لديك أطفال مثلي لانتابك الشعور نفسه بالخوف وأكثر، لكنّك لن تفهم تلك المشاعر حتّى تتزوّج ويصير لديك أطفال».

الآن أصبحت أفهم ذلك اليوم بشكل مختلف، فلا بدّ أنّه كان يعتقدها سيّارة شرطة قادمة للقبض عليه، وتصرّفه السريع تعبير عفويّ دافعه الخوف والحذر، وإنْ حاول تبريره بشكل مغاير للحقيقة. كان يُعزّي توتّره أو قلقه بأنّه نابع عن تهديد جادّ، بوصفه رجل أعمال يملك ثروة كبيرة، وهو الموضوع الذي أحتاج للتأكّد من مصداقيّته إلى جانب الكثير من مزاعمه. وهناك أمر سخيف آخر لم أتوقّف عنده حينها وهو طلبه الأموال التي تلقيتها في مناسبتين ومكانين مختلفين بحجّة مساعدتي في تحويلها إلى العملة الصعبة، وفي سبيل تسهيل إخراجها من البلاد، وهي الأموال التي لم تعد لي مرّة أخرى، على الرغم من مرور أيام على تسلّمها، حتّى إنّه لم يكن لها أثر يُذكر في حديثه لاحقًا إلى أن اختفى من المشهد بشكل كامل، وأضحى عندي محلّ شكّ أنّه احتال ونصب عليّ تحت ذريعة ظاهرها صحيح، وباطنها عمليّة لصوصيّة بحتة!

كما أنّ الأمر الأهمّ الذي وجدت من الضروريّ التوقّف عنده ومراجعته، هو موضوع الاختفاء برمّته، إذ لم أجد من يسأل عن اختفاء الشيخ القحطاني طوال السنتين الماضيتين، فلم يتواصل معي ولا مع أيّ من أفراد أسرتي أحدٌ من طرفه، ولا من الأجهزة الأمنيّة في أيّ من البلدين، وقد سبق له أن أبلغني أنّه أطلع زوجته وموظّفي مكتبه الخاصّ في السعوديّة على علاقته بي، كما أخبرهم أنّني كنت أعمل على مساعدته، حتّى إنّه ينقل لي أحيانًا تحيّات زوجته بعد اتصاله هاتفيًا، لذا لم يعد من المنطقي ولا الواقعي ألّا يسأل عنه أحد على الإطلاق طوال الأشهر الماضية.

وجدت نفسي أسبح في أفكار كثيرة، وافتراضات متعدّدة، وأربـط أحـداث الماضي البعيد بما استوعبته من حاضر المعلومات، حتّى تولّدت عندي صورة مختلفة عن ذلك الذي بُني في مخيّلتي وكان من مسلّماتي، غير أنّني لا زلت مشوّش الفكر، حيث إنّ تلك التصوّرات الجديدة تتعارض بشكل كبير مع معتقداتي السابقة حول الشيخ القحطاني، كنت أجده رجلَ أعمال شريفًا منزّهًا عن كلّ الاتهامات التي ساقها ضدّه الناس في النيبال، إلى درجة كنتُ أجزم فيها للجميع بأنّه رجل نظيف

تعرّض لعمليّة اختطاف أو اغتيال، من أجل سرقة أمواله أو ابتزازه في ثروته. يبقى أنّ جميع هذه التأويلات ليست سوى افتراضات وتوقّعات تحتمل الصحّة كما تحتمل الخطأ، وعليه قرّرت أن أحتفظ بها لنفسي دون تدوينها على الأوراق، وأن أترك الاستنتاجات لما ستسفر عنه تحقيقات الأجهزة الأمنيّة.

26
الرفيقان مرة أخرى

بدأت جلسة التحقيق معي الساعة الحادية عشرة ليلًا، في المجمّع الأمنيّ شديد الحراسة الواقع وسط العاصمة السعودية الرياض، يضمّ مجموعة من المباني، يتكوّن كلّ واحد منها من طابق أو اثنين. يعزل هذا المجمّع عن العالم الخارجيّ جدارٌ إسمنتيّ رفيع يحجب الرؤية عن داخله وخارجه، ويقصيه تمامًا عن حياة المدينة وحركتها النشطة. يعلو هذا الجدار حزام من الأسلاك الشائكة الممتدّة على طوله بارتفاع متر تقريبًا، هذا إلى جانب قطع الزجاج المغروس في الطرف العلويّ من الجدار، يجعل تسلّقه أو القفز عليه مهمّة شبه مستحيلة أو خطيرة.

في إحدى قاعات الطابق الثاني من المبنى الأكبر، أخذت مكاني وجلست على رأس طاولة الاجتماعات البيضاويّة الشكل، أجيب على أسئلة المحقّقين. تولّى عمليّة التحقيق بشكل رئيس الضابط المساعد جمال، في حين جلس على الرأس الآخر من الطاولة أمامي مباشرة، الضابط سعود مستمعًا ومتابعًا كلّ ما يجري، وعلى طرفي الطاولة مجموعة من

الضباط ذوي الرتب الرفيعة، أخذ كلّ اثنين منهم جانبًا منها، وبقي ضابطان صغيرا السنّ والرتبة واقفين يتابعان التحقيق، ويوفّران كلّ ما يتطلّبه من مستندات أو صور، عرفت لاحقًا أنّهما قادمان من قسم البحث والتحرّي.

كان التحقيق في الرياض، بمثابة جلسة تكميليّة للتحقيق الذي أُجري معي في البحرين، أو هكذا قالوا لي، وجّهت لي أسئلة بناء على ما تمّ تدوينه في إفادتي التي كتبتها بعد وصولي الفندق. كان واضحًا الاهتمام الكبير الذي توليه الجهات الأمنيّة لجلسة التحقيق، وهو ما يمكن إدراكه من حجم التمثيل، حيث إنّ معظمهم من ذوي الرتب الرفيعة.

في الوقت الذي انشغل اثنان من هؤلاء الضباط في تدوين أقوالي، وجدت آخرين صامتين لا يتدخّلون في سير التحقيق، بل يدوّنون ملاحظاتهم، ثمّ يمرّرونها بين الفينة والأخرى إلى بعضهم بعضًا، أو إلى الضابط جمال، كي يأخذ ملاحظاتهم عند التحقيق، أو يرفعها ضمن الأسئلة المقدّمة لي، أو يطلبون توضيحًا بخصوص ما أدليتُ به من معلومات في سياق التحقيق. وكان تفاعلي مع التحقيق إيجابيًا وشفّافًا، ولم أجد فيه صعوبة أو ما يبعث على الخوف، كما لم يتبّق عندي ما

أخفيه أو أخشاه، ما جعلني أتحدّث باطمئنان الواثق من موقفه وموقعه.

بعد الانتهاء من الأسئلة، وجدت سياق التحقيق يعود مرّة أخرى حول شخصيّة الشيخ القحطانيّ، شكله، سلوكه، تصرّفاته، علاقتنا ببعض وظروف اختفائه الغامضة في النيبال، كذلك حول الأعمال التي انشغل فيها هناك بحجّة استقدام الأيدي العاملة، والعلاقة مع وكالات الاستقدام، ولقاءاته التي رصدتها أو أخبرني عنها، وكلّ ما أعرفه حول هذه الشخصيّة التي كان الجميع مهتمًا بمعرفتها. شعرت بأنّهم وصلوا إلى الاستنتاج نفسه الذي وصلت إليه في الليلة الماضية، دون أن يصارحوني بذلك، كما فعلت أنا في انتظار نتيجة تحقيقاتهم. وهكذا استمرّ التحقيق ما يفوق ساعة كاملة، أفرغت فيها كل ما في جعبتي، أو ما استحضرته من ذاكرتي.

بعد انتهاء التحقيق، غادر أغلب الحضور تدريجيًّا في فسحة قصيرة، على أن يُستأنف الجزء الثاني بعد الاستراحة. أعطاني الضابط سعود مهمة قبل خروجه:

- «سنخرج في استراحة قصيرة. أثناء ذلك سيعرض عليك زملاء البحث والتحرّي مجموعة صور شخصيّة لأفراد مشتبه بهم في قضايا مختلفة، وهو إجراء روتيني في سياق البحث عن المتّهمين، لعلّك تتعرّف من بين هذه الصور إلى أيّ من الأفراد الذين التقيتهم في النيبال بمن فيهم الشيخ القحطانيّ، هذا إنْ كانت صورته ما زالت محفوظة في ذهنك أو موجودة ضمن تلك الصور».

إنّ صورة الشيخ القحطانيّ من الصور التي لا يمكنني نسيانها على الإطلاق، رغم الأيام القصيرة التي قضيناها معًا، والشهور الطويلة التي مضت على ذلك الحدث، وهو ما بيّنته للضابط قائلًا:

- «بالتأكيد يا حضرة الضابط. إنّ هناك وجوهًا لا يمكن نسيانها أبدًا، خصوصًا إذا كان أصحابها مرتبطين بحدثٍ قاس أو وقع كبير! هؤلاء تُحفر صورهم في الذاكرة، والشيخ القحطانيّ واحد من هؤلاء الذين تركوا في حياتي أثراً لا يُنسى، وصورة في الذاكرة لا تمحى، تجلب لي الحزن والأسى، بسبب تركي تلك البلاد دون أن أعرف مصيره، وهو ما لم يكن متاحًا لي على أيّ حال».

كان الضابط يستمع لي مبتسمًا بصورة غريبة، جعلتني أشعر أنّه يملك معلومات قد يفاجئني بها، لكنّه تعمّد التريّث والإفصاح عنها بشكل تدريجيّ في سياق التحقيق.

بعد لحظات من خروج الضابط سعود خلف رفاقه الذين تقدّموه للاستراحة، عاد الضابطان الشابان التابعان لقسم البحث والتحرّي، يحملان مجموعة من ألبومات الصور، قدّرتُ عددها 20 أو أكثر قليلًا، ووضعاها أمامي على الطاولة. قال أحدهما:

- «نرجو منك الاطلاع على هذه الصور، والبحث بتأنٍّ عَمَّن يمكن التعرّف إليه من الشخصيّات التي التقيتها في النيبال، كالشيخ القحطانيّ أو أيّ صورة أخرى يمكن أن تقرّبك إلى الحقيقة، أو تذكّرك بأمر مهمّ في سياق القضيّة».

نزلت عند رغبة المحقّقين راجيًا أن أجد ما يمكن أن يساعد في عمليّة التحقيق، وكشف الحقيقة ومعرفة ما كنت ضحيّته فترة طويلة. أخذت أتصفّح الألبومات الموضوعة أمامي واحدًا تلو الآخر، وأمرر نظري على كلّ صورة فيها، في حين جلس الرجلان إلى جانبيّ، أحدهما مسؤول عن أرشيف صور المشتبه

بهم، وطوابير التعرّف إلى المتهمّين. المئات من صور المشتبه بهم في قضايا عديدة، والملاحقين والمطلوبين الذين يجري البحث عنهم، كذلك صور لبعض السجناء المُدانين في جرائم مختلفة. جميع من في الصور مواطنون خليجيون، من خلفيّات اجتماعيّة واقتصاديّة وأعمار مختلفة، حسب ما أطلعني عليه المحقّقان. أدركت أنّ المهمّة لن تكون سهلة كما توقّعتها؛ لأنّ معظمها التُقطت في فترات زمنيّة بعيدة، تغيّرت معها ملامحهم أو تقدّموا في السنّ، ما يجعل عمليّة البحث والتعرّف صعبة جدًّا، هذا إنْ افترضنا وجود من يبحثون عنه بين تلك الصور.

لكنّني أخذت الأمر بجدّيّة، ورحت أتصفّح ذلك العدد الكبير من الألبومات، محاولًا المرور على الصور بشكل سريع. استغرقتُ ساعتين حتّى انتهيت من العمليّة معلنًا فشلي في التعرّف إلى أيّ من أصحاب هذه الصور. وبعد الانتهاء من تلك الحزمة من الألبومات، تمّ استبدالها بمجموعة أخرى أقلّ عددًا، تحتوي صورًا لمشتبه بهم من جنسيّات غير سعوديّة أو خليجيّة، كما كان واضحًا من ملامحهم، تغلب عليها الجنسيّات الآسيويّة والقليل من الأفريقيّة أو الغربيّة، إلّا أنّ محصّلة البحث والتدقيق كانت كسابقتها، أخفقت في التعرّف على أحد بين دفّتي تلك الألبومات.

استمرّ الحال حتّى جاءت المفاجأة الصاعقة، أُعطيتُ ألبومين أخيرين مختلفين عمّا سبقهما، وهي عبارة عن صور عائليّة، بعضها لزوجين معًا، أو زوجين برفقة أطفالهما أو صور نساء أو أطفال. لم أعرف لماذا أُعطيت تلك الألبومات، وما علاقة هؤلاء برحلة النيبال، لكنّه إجراء عليّ الرضوخ له واتّباع تعليماته، واصلت البحث بتململٍ شديد بعد أن هدّني التعب، محاولاً إنهاء المهمّة التي اعتقدتُ باستحالة نجاحها في وقت قصير.

بينما أتصفّح الألبوم قبل الأخير، استوقفتني بشكل غريب ومفاجئ صورة لامرأة في منتصف الأربعينيّات من العمر، تبدو عربيّة الهيئة، ترتدي العباءة أو الرداء العربيّ الأسود الذي يغطّي الجسم كله بما فيه الرأس، لكنّه يبقي دائرة الوجه مكشوفة. انتبه المحقّقان لتوقّفي المفاجئ، وإمعان النظر في تلك الصورة، اقتربا لمساعدتي في التعرّف إلى ما كنت أعاينه في صورة لم أتذكّر صاحبتها ولا علاقتها بقضيّتي، كما لم أعلم كيف وصلت إلى ملفّات وصور المشتبه بهم، غير أنّي كنت متيقنًا من مشاهدتي لها في مكان ووقت ما حتّى بقيت عالقة في ذهني. وهذا ما أخبرت به الضابطين الجالسين إلى

جواري، ففاجأني أحدهما بأنْ أزاح صورة السيّدة التي كنت أشير إليها من مكانها، وأخرج من خلفها صورة أخرى كانت مرفقة معها وملصقة على ظهرها، وهي لطفلين صغيرين من الواضح أنّهما طفلاها، فكانا السبب الذي جعلني أتعرّف إليهم جميعًا، وأستعيد ذكرى المكان والزمان اللذين شاهدتهم فيه لأوّل مرّة، عندما كانت صورهم معلّقة على خزانة ملابس غرفة الشيخ القحطانيّ في فندق هملايا شيراتون بالعاصمة النيباليّة كاتمندو. وهنا أعلنت عن الخيط الأهمّ الذي منه بدأتْ تتكشّف لي الأمور قائلًا:

- «نعم إنّها صورة زوجة الشيخ القحطانيّ، وهذان هما طفلاه خلود وراشد كما أخبرني عندما كنّا نتحدّث معًا في غرفته بالفندق».

بهذه العبارة، وضعت التحقيق في مساره الصحيح، وأكّدت ما وصل إليه التحقيق واستنتجته بنفسي مؤخّرًا. وبقدر ما أذهلتني تلك المفاجأة وسبّبت لي من صدمة، إلّا أنّ وجود صور الزوجة والأطفال في ملفّ أمنيّ لدى الجهات الأمنيّة أثار استغرابي بشكل كبير، ودفعني لأستفسر من الضابط سعود بعد أن عاد مع رفاقه من الاستراحة:

- «لا أفهم لماذا وضعتم صورة الطفلين وأمّهما ضمن المشتبه بهم أو المطلوبين للعدالة؟!».

أجاب موضّحًا:

- «هـؤلاء ليسوا مشتبهًا بهم على الإطـلاق، هم ضحايا مثلك، وضعنا صورهم من أجل تحفيز ذاكرتك وتقريبك للحقيقة، سيّما أنّك مررت على صورة المتّهم الرئيس دون أن تتعرّف إليه كما أطلعني الزملاء. الصور الأخيرة لأشخاص مرتبطين بشكل أو آخـر ببعض المتّهمين والضحايا».

فاجأني قوله بمروري على صورة المتّهم دون التعرّف إليها، وهو ما لم أكن أتوقّعه على الإطلاق، حيث إنّ صورته لم تفارق مخيّلتي منذ ذلك الوقت، ولا أعتقد أنّها ستزول منها. دفعني ذلك لطلب الصورة التي تحدّث عنها، عندها قام ضابط البحث والتحرّي بسحب أحد الألبومات التي انتهيت منها، ونزع منها إحدى الصور، ثمّ ناولني إيّاها قائلًا:

- «انظر إلى هذه الصورة مرّة ثانية بصورة جيّدة وبتركيز أكثر».

أمعنت النظر في الصورة مركزًا، حتّى تأكّدتُ أنّها صورة

الشيخ القحطانيّ نفسه، لكنّه بدا مختلفًا بشكل كبير، ولم يكن بمقدوري التعرّف إليه لو لم يلفتوا نظري إلى ذلك. يرتدي ملابس السجن المقلّمة، وقد نال البياض من شعره الطويل الأشعث ولحيته الكثيفة التي غطّت وجهه كله وملامحه، بدا كواحد من متسوّلي محطّات القطار في الهند. كانت صدمة حين رأيت صورته بهذه الهيئة، ولم أتخيّل أن أواجه هذا الرجل بهذه الصورة البائسة، وهو الذي بنيتُ حوله في ذاكرتي هالة من الرمزيّة والوقار. هأنذا أجد صورته تنهار كقطع الدومينو أمام عيني، وبشكل دراماتيكي يفوق قدرة العقل على استيعابه! صمَتُّ للحظات إلى أن سألني الضابط سعود عن صور أسرة القحطانيّ قائلًا:

«أخبرني ماذا تعرف عن هذه المرأة وطفليها؟ وأين رأيتهم؟ وكلّ ما يحيط بهم والصور التي رأيتها».

أخبرته كلّ ما عندي وما سمعته عنهم من الشيخ القحطاني، وعن حبّه الكبير وتعلّقه بهم، حتى عشت أكثر من سنتين في عذاب نفسي، معتقدًا أنّهم فقدوا الرجل الذي يمثّل كلّ شيء بالنسبة لهم. ثم وجدتُ نفسي أتعاطف مع أطفال القحطانيّ الذين نعتهم الضابط بالضحايا دون أن أعرف دوافع تسميته

لهم بذلك، لكنّه أعاد إلى ذاكرتي مشاهد الأسر الفقيرة التي فقدت أموالهما وتشتّتت وباتت من الضحايا العاجزين، بعد أن فقدت كلّ شيء نتيجة ما اقترفه آخرون من خطايا، وهو الأمر الذي دفعني لأخاطب الضابط سعود قائلًا:

- «حضرة الضابط، لا أعلم لماذا نَعتَّ هذين الطفلين وأمهما بالضحايا، لكنّي مهتمّ لأمرهم كثيرًا، وإني لا أرى من العدل أن يدفعوا ضريبة أخطاء غيرهم، ولذا سأكون على استعداد للطلب من أسرتي رعايتهم وأمهم أينما يقيمون، وأنا على يقين بأنّهم سيكونون سعداء بهذه الخطوة التي تتطلّب موافقة الوالدين أوّلًا».

نظر لي الضابط مستغربًا عرضي هذا موضّحًا ما كان يقصده قائلًا:

- «هذان الطفلان ضحايا أفعال والدهما، كما أنّك واحد من ضحاياه».
- «وإنْ يكن والدهما السبب، يجب عدم تحميلهما وزر أفعال الكبار».

نظر لي مبتسمًا دون أن ينطق بكلمة أو يردّ على ما كنت أقوله، بل أدار وجهه نحو مساعديه ليطلق مفاجأة أخرى قائلًا لهم:

● «أحضروا النزيل مازن رضوان من حبسه إلى هنا عاجلًا».

كانت هذه المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم، ولم أعلم ما علاقته بالقضيّة، كما لم يطلعني أيّ من المحقّقين الذين خرجوا خلف الضابط سعود لإحضار المدعو هذا!

وبعد أقلّ من نصف ساعة من الانتظار في القاعة التي تُركت فيها وحيدًا، دخل اثنان من المساعدين في فريق التحقيق، وأخذا يُعيدان تنظيم أماكن الجلوس في القاعة، حسب الترتيب الجديد الذي أطلعهما عليه الضابط سعود قبل خروجه، بحيث يجلس الحضور على جانبي الطاولة البيضاويّة، ويجلس هو على رأسها مترأسًا إيّاها، في حين يجلس المدعو مازن رضوان على الرأس الآخر من الطاولة مقابل الضابط سعود. طلب منّي أن أخفي نفسي عن النزيل القادم، بالابتعاد عن محيط الطاولة والانزواء في ركن خلف المكان الذي سيجلس عنده، وكذلك عدم الحديث أو إصدار أيّ إشارة تكشف عن وجودي، حتّى يُطلب منّي ذلك بشكل واضح، حيث من المتوقّع دخوله إلى القاعة موصّد العينين ومقيّد اليدين بعد لحظات.

سألت الضابط عن أسباب كلّ تلك الإجراءات الغريبة التي رد عليها قائلًا:

- «سيدخل بعد قليل المتّهم مازن رضوان الذي يقبع في السجن منذ أكثر من عام. لا نريد أن يعرف بوجودك إلّا في الوقت الذي نقرّر أن نواجهه بك، لنسمع منه ما سيقول حينها».

بدأت الصورة تتّضح لي بشكل تدريجيّ، بعد أن شرح لي الموضوع:

- «عليك أن تعرف أنّ السيد حمد القحطاني السعوديّ الجنسيّة رجل بريء من كلّ هذه الجرائم التي ارتكبها المدعو مازن رضـوان، انتحل شخصيّته بعد أن سرق جواز سفره في مدينة بومباي، كان هناك للعلاج فوضعه في ورطة كبيرة كما فعل معك في النيبال، وبجواز سفرك في دول أخرى».

جلست أستمع للضابط مذهولًا بما أسمعه أو أدركه من معلومات جديدة، كانت تأتيني تباعًا. ورحت أسأل:

- «وماذا عن الشركات التي يملكها أو مشاريعه في دول الخليج أو مشيخته والقبيلة؟ وهل كان كلّ ذلك كذبًا؟».

قلت ذلك محاولًا تفكيك ذلك التصوّر الذي بنيته حول هذا الرجل، بعد اتّضاح حقيقة كونه محتالًا دوليًا.

- «كلّ ما زعمه هذا الرجل كذب، أيّ أنّه ليس رجل أعمال ولا سعوديًا ولا شيخًا إنّما نصّاب يتنقل من دولة لأخرى، ليحتال على الناس البسطاء، وضحاياه كثيرون ومنتشرون في كلّ مكان».
- «لكن لهجته بدت كمواطن خليجيّ».
- «إنّه مقيم منذ زمن طويل في دولة الكويت، ويزور السعوديّة بشكل مستمرّ، ما جعله يتقن اللهجة المحلّيّة».

حينها بدأت تتّضح لي الأمور، وتَبيّن كم كنت مخطئًا في تقييمي السابق لهذا الرجل، الذي أعطيته ثقتي كلها واحترامي كله. عرفت من المحقّقين أنّ المدعو مازن رضوان مسجون في السعوديّة منذ أكثر من عام، بسبب جرائم عديدة ارتكبها داخل البلاد. ثم تبيّن لهم أنّ هذا الرجل أخطر ممّا كانوا يتصوّرون، وأنّ جرائمه تجاوزت الحدود السعوديّة والخليجيّة. وعرفت من المحقّقين في أثناء التحقيق أنّه كانت لدى الجهات الأمنيّة في البداية بعض الشكوك حول احتماليّة أن يكون للمدعو مازن رضوان علاقة بي، أو أنّني متورّط معه بشكل أو بآخر، بسبب اكتشافهم نسخًا من جواز سفري المفقود في حقيبته اليدويّة في أثناء تفتيشه في المطار، عند عودته من الخارج.

حدث هذا في الوقت الذي وُضع فيه اسمي والسيد حمد القحطاني على لوائح شرطة الإنتربول الدولي، ما عزّز تلك الشكوك لديهم في ارتباطي به، وخاصّة بعد أن علموا أنّه سرق جواز القحطاني وانتحل شخصيّته، لكنّهم لم يعرفوا أنّه استعمل الأسلوب نفسه معي أو أنّني كنت ضحيّته ولست شريكه، إلّا قبل يوم من تسليمي إليهم، أي بعد التحقيق السريع الذي أجري معي في البحرين عند وصولي إليها قادمًا من الهند.

لكنّني وحتّى تلك اللحظة ما زلت على قائمة المطلوبين الدوليّين لدى شرطة الإنتربول، ومن المتوقّع إعادة النظر في الأمر بعد الانتهاء من التحقيق الذي يجري معي في السعوديّة، وتعرّفي على المتّهم الرئيس في كلّ القضايا، ينتظرون اعترافه في سبيل تبييض ملفّي وملفّ المواطن السعوديّ حمد القحطانيّ، الذي تلطّخ اسمه من أفعال هذا الرجل. والأمر الإيجابيّ الأهمّ والكفيل بإنقاذي من تلك الملاحقات، وتداعيات الماضي الأليم، هو وجود المتّهم الحقيقي في السعوديّة التي استطاعت بتحقيقاتها الوصول إلى الحقيقة، وعلاقته بي وبالمواطن السعوديّ الضحيّة.

جلست مكاني على الكرسي أسفل المكيّف مقابل الجدار،

وظهري في مواجهة الحضور ملازمًا الصمت دون أن أحرّك ساكنًا استجابةً لطلب المحقّقين، ومحاولًا متابعة التحقيق الذي سيجرى مع المدعو مازن رضوان، ورصد التحرّكات الداخلة والخارجة من القاعة. وفجأة ارتفعت جلبة الحاضرين، وازدادت حركة الباب من القادمين من أفراد الأمن مصطحبين المتّهم، همس لي أحدهم معلنًا وصوله.

راح أحدهم يُوجّهه إلى مكان جلوسه على رأس الطاولة أمام الضابط سعود وجهًا لوجه، في حين يتقابل ظهرانا أنا وإيّـاه دون أن يعلم عن وجـودي خلفه. وبعد جلوسه أمر الضابط بإزالة الخرقة التي تعصب عينيه، وبدأ التحقيق. باغته المحقّقون بأسئلة متتالية لا أكاد أسمعها أو أفهم شيئًا منها، كانت أصواتهم غير واضحة رغم محاولتي الإصغاء جيّدًا، لم يكن السبب هو انخفاض أصواتهم ولا بعدهم عنّي، إنّما بسبب صوت المكيّف المجلجل الذي يصمّ الآذان ويحول دون سماعي أصواتهم بوضوح، ساقني حظّي العاثر لأجلس أسفله.

ومـن سياق الجلسة وبعض الأحـاديـث التي استطعت التقاطها، عرفتُ أنّ هذه ليست إلّا واحـدة من الكثير من

الجلسات التي سبقتها، وأنّ المتّهم يقضي عقوبات متعدّدة صادرة بحقّه، كما تنتظره أحكام أخرى داخل السعوديّة. ركّز التحقيق بداية على علاقة المتّهم بي، واتهامات بسرقة جواز سفري وانتحال شخصيّتي، وأفعاله في النيبال، وهي الأمور التي تفاجأ بسماعها، وبعلم الجهات الأمنيّة بها، حسب ما أطلعني الضابط لاحقًا.

الغريب أنّه نفى كلّ التهم التي كانت توجّه له، كما نفي أيّة صلة له بما حدث في النيبال، وأيّ معرفة بي. كل ذلك بشكل هادئ وبأريحيّة الواثق من نفسه وقوّة موقفه. استمرّ الحال على المنوال ذاته ما يقارب نصف ساعة، انقضت دون تحقيق أيّ شيء يفيد سير القضيّة، وفجأة سمعت صوت الضابط سعود يسأله بصوت عالٍ قائلًا:

- «للمرّة الأخيرة أكرّر عليك السؤال: هل زرت مملكة النيبال كما تشير سجلّاتنا يا مـازن؟ وما هي علاقتك بالمواطن البحريني نادر الفرج؟»

لقد أراد برفع صوته أن يوصل رسالة حازمة للمتّهم، وليخترق جلجلة المكيّف حتّى أسمعه، إلّا أنّ إجابة المتّهم لم تختلف وبقي على موقفه السابق مكرّرًا:

- «لا أعرف عن هذه البلاد شيئًا، ولم أسمع باسمها، كما لا أعرف هذا الرجل الذي سألتني عنه على الإطلاق، ولم يسبق لي أن سمعت باسمه، وكلّ ادعاء خلاف ما أقول يعدّ تلفيقًا».
- «لكن نادر الفرج يؤكّد في إفادته التي خطّها بيده أنّه على صلة بك، وأنّ بينكما صداقة في مملكة النيبال، قبل أن تفرّ هاربًا بالأموال التي اختلستها، وتضعه في ورطة مع الشرطة وضحاياك».
- «هذا كلام عار من الصحّة حضرة الضابط، ولا بدّ أن يكون كيديًا ممّن يودّ الإضرار بي».

حتّى تلك اللحظة لم يبد عليه أنّه مقتنع بمزاعمهم حول الإفادة التي كتبتها، وربّما اعتقد أنّ ذلك لا يعدو أن يكون كلامًا مرسلًا يُقال من أجل الضغط عليه ونيل اعترافاته، لكن ردّ الضابط ربّما قوّض تلك القناعة:

- «ماذا ستقول لو واجهناك به؟ وماذا لو تعرّف إليك بنفسه، وشهد خلاف ما تدّعيه؟»

صمت قليلًا وتلعثم بعد سماع ذلك، غير متصوّر إمكانيّة حصوله، لكنه استمرّ في مكابرته متظاهرًا بالثقة:

● «هذا لن يغيّر من أقوالي شيئًا؛ لأنّني متأكّد ممّا أقول»

هنا رفع الضابط سعود رأسه ليناديني بصوت عالٍ، طالبًا منّي أن أنضمّ إلى الحضور على الطاولة، وأعاين المتّهم مازن رضـوان الجالس على رأسها، وهي التعليمات التي قمت بتنفيذها مستعجلًا التعرّف إلى هذا الرجل بحلّته الجديدة التي لم أتخيّل رؤيته عليها. وهكذا وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام الرجل الذي كنت أعتقد قبل أيّام فقط أنّه ضحيّة تعرّض للخطف أو القتل طمعًا في أمواله، القصّة التي حبكها وزرعها في مخيّلتي بمكر ودهـاء، حتّى تعاطفت معه بسذاجة، إلى درجة الجزم ببراءته.

ها أنذا أجد نفسي أخيرًا أمام مَنْ نصب أموال الفقراء وكنت واحدًا من ضحاياه البارزين، الذين دفعوا ثمنًا باهظاً جرّاء رفقته المشؤومة، وغيري الكثير من أبناء الطبقات المسحوقة الذين وقعوا في شباكه، حوَّلهم من حالمين بمستقبل أفضل إلى ضحايا أو أسرى ديونهم. نعم هذا هو المجرم الجالس أمامي بعد أكثر من عامين، بملابس السجن وقد زاد وزنـه، مكبّل اليدين والرجلين بالأصفاد الحديديّة. حليق الرأس واللحية، وبهيئة أفضل من الصورة التي شاهدتها قبل قليل.

صدمتني رؤية هذا الرجل الذي عرفته شيخًا عربيًا كريمًا في مخيّلتي بهذا الانكسار المخزي والحال البائس، لكن وبقدر ما تسمرت عيناي لمشاهدته في هذا الوضع، وجدت أنّ ردّ فعله كان باردًا حيال الموقف نفسه، كذلك نظراته الخاطفة، أدار وجهه سريعًا دون أن تظهر عليه علامات الاستغراب أو الدهشة لرؤيتي في مواجهته بعد هذا الزمن الطويل، حتّى ظننت للحظات أنّه ربّما لم يعد يتذكّرني بسبب ما فعله في الكثيرين غيري.

وجدت نفسي عاجزًا عن التعبير أمام هذا المشهد، أو إبداء أيّ ردّ فعل، كان المحقّقون ينتظرون رؤية رد فعلي تجاهه ورد فعله تجاهي، والتأكّد من تعرّفي إليه في سبيل حسم القضيّة، وتوجيه إدانة أخرى تُضاف إلى سجله الحافل. في مقابل صدمتي ودهشتي، تجاهل المتهم وجودي بشكل تامّ، راح ينظر هنا وهناك متصنّعًا عدم معرفتي. لكن الضابط سعود كسر ذلك الصمت بسؤاله لي قائلًا:

- «هل هذا هو الشيخ حمد القحطانيّ الذي تقصده في إفادتك يا نادر؟»

وبصوت بدا فيه التعب النفسيّ من شدّة الصدمة أجبته:

● «نعم حضرة الضابط. هذا هو الـذي زعم أنّـه الشيخ القحطانيّ، وضلّلني طوال الوقت الذي كنت فيه معه، حتّى إنّني أجد نفسي الآن عاجزًا عن تصديق ما تراه عيني وتسمعه أذني!»

أطلقتُ تلك العبارات، وعيناي ما زالتا تحدقان فيه من هول الصدمة، في الوقت الذي بدا فيه جامد المشاعر، يتلفت متصنّعًا عدم المبالاة وجهله بي. شعرتُ بالامتعاض حيال ما أدركته من حقيقة كانت غائبة عنّي، مع ذلك فإنّي استيقظت من سبات عميق.

التفتَ الضابط سعود للمدعو مازن رضوان:

«ها أنت أمام الشاهد نادر الفرج الذي انتحلت شخصيّته، واستعملت جواز سفره. لقد دَوّن إفادته بكل تفاصيل علاقتك به منذ اليوم الأوّل الذي التقاك في النيبال، حتّى تواريت عن الأنظار وحمّلته تبعات أفعالك، لكن الآن وبعد التعرّف إليه أرجو منك الاطلاع على إفادته ثمّ بيّن لنا ملاحظاتك حولها، وأرجو أن تسهل الأمر، وتعترف بالحقيقة التي سنصل إليها على أيّ حال».

قال ذلك وهو يرفع بيده الدفتر الذي دونتُ فيه إفادتي،

ويدفعه نحو المتّهم الذي استمرّ في نكرانه، متجنّبًا النظر لي قائلًا:

- «كما أخبرتكم، لا أعرف هذا الرجل ولم ألتقه قطّ في حياتي، وكلّ ما يزعمه حول معرفته بي غير صحيح، وعليه لا حاجة لي للتعليق على إفادة لا أعرف أصلها ولا صاحبها».

عندها فاجأنا الضابط سعود بمنهج مختلف حين قال:

- «اسمع يا مازن، إنّ نادر الفرج هذا الذي تزعم أنّك لا تعرفه، قدّم لك عرضًا إنسانيًّا مهمًّا قبل دخولنا إلى القاعة، ثمّ طلب منّي أن أستشيرك فيه، وأطلعه إنْ كنت ستقبل به أم ترفضه، وإنْ شئت سأطلعك، ولو أنّ ذلك ليس ضمن اختصاصاتي».

عندها صمتَ جميع مَن في القاعة، غير مدركين ما ينوي الضابط عرضه على المتّهم الذي بقي صامتًا لبعض الوقت ينظر إلى أسفل رجليه شارد الذهن، ثمّ رفع رأسه وسأل:

- «وما العرض الذي تتحدّث عنه؟»

ردّه المقتضب هذا كان مؤشّرًا بأنّ الضابط نجح في استدراجه لشباك الاعتراف. قال الضابط:

- «أبلغني استعداده وعائلته في البحرين، لمساعدة أسرتك وأطفالك أينما كانوا، والتكفّل برعايتهم طوال فترة مكوثك في السجن، بل وجدته متأثّرًا على أطفالك الذين ما يزال يتذكّر صورهم التي وضعتها على خزانة الملابس في غرفتك بالفندق، كما أخبرني أنّه يتذكّر حديثك ومشاعرك عنهم، ويعلم درجة حبّك وتعلّقك بهم، وهو مستعدٌّ أن يتكفّل برعايتهم إنْ لم يكن لديك مانع».

عمّ الصمت القاعة بعد هذا العرض الذي اجتهد الضابط في تقديمه بصورته تلك، دون اتفاق مسبق معي، ولو أنّني كنتُ راضيًا عن محصّلته النهائيّة.

خيّم الوجوم على المتهم وبدا متأثرًا، ظهرت على وجهه علامات البؤس والجزع، وتلاشت حالة الواثق من نفسه التي كان عليها. وجدتهُ يرفع رأسه تدريجيًّا لينظر لي لأوّل مرّة منذ مواجهتي به، كما راح يلفّ رأسه ليعاين بقيّة من كان هناك مثل تائه باحث عن الطريق، ثمّ أنزل رأسه للأسفل مرّة أخرى، وأجهش بالبكاء وصار ينتحب في حالة من العجز والاستسلام. أدركت حينها أنّ حبّه لأسرته وأطفاله كان صادقًا، وربّما هو الحقيقة الوحيدة التي سمعتها منه.

لم يُمهله الضابط سعود، سارع بطرح سؤاله بعد إعادة صياغته، مستفيدًا من حالة الانكسار التي بدى عليها قائلًا:

- «ماذا لديك لتخبرنا به يا مازن حيال هذا العرض المقدّم لك؟»

بقي صامتًا لبرهة، ثمّ التفت لي والدموع تنهمر على خديه، وقال بشفتين ترتعشان:

- «أنا لم أهيّئ نفسي لهذا اليوم، وهذه اللحظة التي أراك فيها مرّة أخرى يا نادر، لكنّني أعتذر عن كلّ ما فعلته أو اقترفته بحقّك».

ثمّ أضاف:

- «أعرف أنّه لا معنى لطلب الصفح في هذه المرحلة، بعد كلّ ما فعلته بك، لكنّني عرفتك رحيم القلب أيضًا».

تدخل الضابط سعود مرّة أخرى محاولًا استنطاقه ونيل أكبر قدر من الاعترافات التي ستسهّل عليه مجريات التحقيق، قائلًا:

- «هل أفهم من عبارتك يا مازن أنّك على معرفة مسبقة بالسيد نادر الفرج؟»

- «نعم يا حضرة الضابط. أعترف لكم بجميع أفعالي التي جاءت في أقوال هذا الشاب الذي أعرف أنّه صادق، ولم يزعم كذبًا أو يفتري ضدّي شيئًا إلّا وحصل فعلًا».

شعرت بالارتياح لذلك الاعتراف المهمّ، لا شكّ أنّه بداية خلاصي من عبء الماضي والملاحقات الأمنيّة. تابع الضابط مكرّرًا طلبه قائلًا:

- «هذه إفادة كاملة كتبها نادر حول الأحداث التي جرت في النيبال، أرجو منك قراءتها بتأنٍّ، وأن تُطلعني إنْ كانت لديك أيّ اعتراضات حول ما جاء فيها من معلومات، قبل مغادرة نادر عائدًا إلى بلاده».

لكن قبل أن يتسلّمها منه سأل:

- «هل قام أحد بكتابتها عنه أم دوّنها بنفسه؟»
- «لا أحد كتبها نيابة عنه، إنّما كتبها بنفسه دون أيّ تدخل من أحد».
- «إذن ناولني إيّاها»

استلم الدفتر بعجالة وراح يمضي على كلّ ورقة فيه، في حين كان الضابط يؤكّد ويكرّر ضرورة مراجعتها قبل عمليّة الإمضاء، محذّرًا إيّاه:

- «في هذه الإفادة ما يمكن أن يشكّل إدانة لك، وأقترح أن تقرأها أولًا قبل أن تمضي عليها».
- «لا حاجة لذلك يا حضرة الضابط؛ لأنّني متأكّد من صحّة ما جاء فيها»

هكذا استمرّ في إمضاء الإفـادة ورقـة تلو الأخـرى دون قراءتها، ثمّ عاد ليبصم عليها بإصبعه تلبية لطلب الضابط الذي أراد التأكّد من سلامة إجراءاته.

بعد صلاة الفجر كنت للتوّ قد انتهيت من التحقيق، في الجزء المتعلّق بي، وجاءت السيّارة لتعود بي إلى فنّدق قصر الرياض، وقبل خروجي من القاعة التفت لي مازن وقال:

- «شكرًا لاهتمامك بأطفالي وحياة أسرتي. أدرك أنّ ذلك العرض صادر منك، ولم يبتدعه الضابط من نفسه، لكن أطفالي يلقون رعاية جيّدة عند زوجتي وأسرتها».

بتلك العبارة انتهت الليلة الأغرب والمليئة بالمفاجآت، ستبقى لي منها ذكرى لا تنسى، كما أنّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها مازن رضوان أو أسمع باسمه.

في مساء اليوم الثاني، وقبل رحلة العودة إلى البحرين، لبيت دعوة من الضابط سعود وأصدقائه على مائدة الإفطار

الرمضانيّ في منزله الكائن بأحد أحياء مدينة الرياض القديمة. حينها كان التحقيق قد انتهى، والصورة اتّضحت للجميع، حتّى عاد سجلّي الأمني نظيفًا دون أيّ شوائب أو اتّهامات، كالتي لاحقتني على مدى السنتين الماضيتين، وهـذا ما أكّـده لي المسؤولون هناك قبل مغادرتي مبناهم، حين أطلعوني على إرسالهم خطابات للشرطة الدوليّة والدول التي كانت تطالب بتسليمي إليها تتضمّن نتائج التحقيق التي تبرّئ ساحتي، وتزيل اسمي من قوائم المطلوبين لديها.

وفي الوقت الذي انهمك الجميع في الإفطار الرمضانيّ، وانشغلوا في تناول الكبسة والهريس والثريد والعصيدة، والزلابية كذلك، كنت منشغلًا مع الضابط سعود نتبادل الحديث حول القضيّة التي أسدل الستار عليها، والدروس والعبر المستقاة منها. وجـدت نفسي أطـرح السـؤال تلو الآخر محاولًا الاستفادة ممّا تيسّر لي من الوقت قبل السفر، والاستيضاح عن بعض الأمور التي بقيت غامضة دون أن أجد لها تفسيرًا حتّى لحظتها، وفي هذا السياق قلتُ للضابط سعود:

- «صحيح أنّنا انتهينا من القضيّة، وزال همّها عن كاهلي، لكن الغموض ما زال يكتنف بعض تفاصيلها، وما زالت

في مخيّلتي قصّة غير مكتملة الأركان والتفاصيل، وفيها ما أحتاج لمعرفته منك الآن بعد اكتمال التحقيق، وأطلب منك أن تطلعني عليها في سبيل معرفة مكامن أخطائي، وكيفيّة التعلّم منها، ولا سيّما أنّك الأكثر إلمامًا بالقصّة كلها».

أبدى الضابط سعود ملاحظاته قائلًا:

- «لقد كانت لديك الكثير من المؤشّرات التي تبيّن ما يضمره هذا الرجل المحتال، أو يخطّط له من جريمة، وكان عليك الالتفات لها ومراجعة علاقتك به في حينها، لكنّك لم تنتبه، وهو ما أعزيه إلى قلّة خبرتك وتسليمك الدائم بحسن نيّات الآخرين، ولا يمكنني الآن تحميلك أكثر ممّا كنت تحتمل في ذلك الزمان والمكان والظروف، إلّا أنّ عليك أن تتنبه دائمًا، وتحذر من منح ثقتك سريعًا لكلّ من تلتقيه من دون سابق معرفة؛ لأنّ ذلك قد يسبّب لك المزيد من المتاعب في الحياة».

ثمّ أضاف:

- «أنا أقول لك هذا؛ لأنّني وجدتُ أنّ خطأك الأكبر في هذه القضيّة هو منح ثقتك إلى من لا يستحقّها، مثل هذا

الرجل النصّاب الذي كنت تقدّم له المساعدة، وتعطيه كل وقتك وجهدك، في حين كان يخطّط لتوريطك في واحدة من عمليّاته الاحتياليّة التي أعدّها وخطّط لها بعناية، وليحمّلك لاحقًا تبعات أفعاله الإجراميّة، وأجدك دفعت تكلفتها الباهظة حتّى يومنا هذا».

وأضاف مسترسلًا:

- «إنّه ولغرضه الإجرامي الذي كان يضمره راح يُعرّفك منذ اليوم الأوّل كمسؤول عن أعماله وإدارة شؤونه، وكان ينوي تحميلك المسؤوليّة أمام ضحاياه الفقراء، أو أصحاب الوكالات الذين خسروا أموالهم، كما أنّه نجح في شلّ قدرتك على الهرب من خلال سرقة جواز سفرك، وفي اليوم نفسه غادر البلاد تاركًا لديك تصوّرًا زائفًا أنّه ضحيّة اختطاف أو قتل، وهي التمثيليّة التي نجح في إقناعك بها حتّى رحت تدافع عنها باستماتة».
- «لكن لماذا سرق جواز السفر، وكيف فعل ذلك؟»
- «بسرقة جواز سفرك حقّق غرضين إجراميّين، أوّلهما أن يملك هويّة أو شخصيّة جديدة يستعملها في عمليّاته القادمة، سيّما بعد التخلّص من هويّة القحطانيّ الذي

فعل به فعائله، والهدف الثاني تحميلك مسؤوليّات جرائمه وتبعاتها بعد فراره؛ لأنّه كان مدركًا أنّه باقتيادك إلى السجن وبقائك هناك خلف القضبان لسنوات طويلة يكون قد وضع نهاية لملاحقاته المحتملة، ونجح في إغلاق ملفّ القضيّة كما خطّط لها، وهذا كان يتطلّب شلّ قدرتك على مغادرة البلاد من خلال سرقة جواز سفرك، وهي الجريمة التي تمّت يوم زيارته الوحيدة لغرفتك، حين كنت مشغولًا في الحمام، وبذلك اعتقد أنّه قد نجح في التخلّص منك، وشطبك من المشهد تمامًا».

- «ألم يخشَ ملاحقتي له؟»
- «لا أبدًا فقد كان يعتقد أنّك لن تفلت حيّاً من شباكه التي نسجها لك بإحكام، أو على الأقلّ لن تظهر على الساحة في المستقبل المنظور، ما جعله ينتحل شخصيّتك في الكثير من عمليّاته اللاحقة، وفي أماكن مختلفة من العالم، لكن نجاحك بالفرار من النيبال كان أمرًا مفصلياً، ولولاه ما أدركنا الكثير من الأمور، ولكان نجح في الإفلات من العقاب في الكثير من القضايا المرتبطة بك».

- «كيف استطاع الإفلات من النيبال، وجواز السفر في حوزة إدارة الفندق؟ ما جعلني أعتقد طوال الوقت أنّه ما زال موجودًا في النيبال».
- «لقد ترك جواز سفر المواطن السعوديّ حمد القحطانيّ، لا جواز سفره الحقيقيّ الذي دخل به ثمّ غادر البلاد بصورة طبيعيّة. لقد زوّر جواز القحطاني للإيحاء بأنّه خاص به، كما فعل مع جواز سفرك في مناطق أخرى، التضليل الذي مارسه بدهاء تامّ، حتّى اقتنعتَ أنّه اُختطف أو قتل غدرًا، ورحتَ تدافع عن هذا الرأي بشدّة، غير مدرك أنّ الجواز الذي تركه في الفندق كان في الحقيقة مسروقًا من رجل بريء وقع في شباكه كما وقعتَ أنت، ولم يكن صاحب الجواز حمد القحطانيّ شيخًا أصلًا، وليست له علاقة بالمشيخة، إنّما هو مواطن عادي سقط ضحيّة دهاء ومكر هذا المجرم المحتال. وكما ترك جواز سفره في الفندق كي يضلّل به الجميع ويبعد الشكوك عن نفسه، كذلك فعل معك حين رمى جواز سفرك في مكان إقامته بباكستان قبل فراره من هناك، وهو السبب الأوّل والرئيس في وضع اسمك على قوائم المطلوبين للعدالة من قبل الشرطة الدوليّة».

- «الآن فهمت سبب تهرّبه من لقاء وزير العمل النيبالي».
- «نعم كان يجب أن تنتبه لنواياه في تلك اللحظة التي تهرّب فيها من لقاء الوزير؛ لأنّ ذلك اللقاء لو تمّ لكان سيكشف حيله، وربّما مخطّطه الإجرامي، لن يستطيع تمرير خداعه الذي أوهمك به على المسؤولين الكبار المتمرّسين في عملهم، بل كان واضحًا من تهرّبه منهم أنّه يخشى انكشاف أمره».
- «إذن كيف تفسّر لي تلك الملاحقات التي تعرضنا لها أنا وإيّاه؟ وهي التي شاهدتها بنفسي في إحدى الليالي».
- «لم تكن هناك أيّ ملاحقات إنّما هي عمليّة تمويه قام بها لتضليلك، فما شاهدته تلك الليلة كان بتدبير منه، وبتنفيذٍ من سائقه، لإيهامك أنّكما هدف لملاحقات بسبب ثرائه، وهو الوهم الذي نجح في زرعه في مخيّلتك؛ فصدّقته أنت والجميع!».

27
رسالة بأثر رجعي 2-2

عندما انتهيت من سرد الحكاية كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، غابت ابنتي مليكة في سبات عميق، بعد إصرارها على النوم في حضني، مستبدلة إيّاه بسرير نومها. فشلتْ في مقاومة النعاس ومواصلة الاستماع لي، سيّما بعد أن انتهينا من تناول وجبة العشاء، وجاء وقت نومها المعتاد قبل أن أنتهي من استكمال القصّة.

أمّا ابني آدم فقد بقى يصارع تعبه وحواسّه، كي يُبقي عينيه مفتوحتين حتّى أنتهي من سرد القصّة، بدا عليه وأخته القلق والتعاطف معي. كان الأكثر إلحاحًا بين المستمعين أن أنهي القصّة كلها قبل أن يخلد إلى النوم، شدّته أحداثها التي أُرغمتُ على سردها بعد ما يقارب ثلاثين عامًا من وقوعها.

كان الضيق والألم واضحًا على زوجتي، عبّرت عن ذلك بالقبض على كفّ يدي، محاولة أن تشعرني بالأمان الذي اعتقدتْ أنّني لا زلت أفتقده، بعد أن عاشت معي تلك المرحلة المريرة في ساعاتها الأخيرة، وربّما كان شيئًا ما في صورتي

وصوتي، وأنا أستعيد تلك الذكريات نقلَ لها هذا الشعور. من الواضح أنّ القصّة تركت فيهم أثرًا نفسيًا وإحساسًا بشيء من التهديد على أمني وحياتي، مشاعر توقّعت حدوثها، بل بسببها تلكّأت في سرد القصّة بداية، كما أنّها أحد أسباب صمتي سنوات طويلة.

أمّا أنا فرغم مرارة استعادة تلك الذكريات، وما تحمله من أحداث مؤلمة، فإنّني شعرت بالارتياح التامّ ما إنْ انتهيت من سردها، ومشاركة عائلتي ذلك الجزء المخفي من حياتي، وإزاحة همّ عن كاهلي.

في تعليقها الأوّل على ما سمعته زوجتي منّي قالت:

- «لا أعلم ماذا أقول أو كيف أعبّر عن مشاعري من هول ما سمعتُ من أحداث تكاد لا تصدق، سيّما أنّها حصلت للإنسان الأقرب إلى حياتي، عشتُ معه طوال تلك السنوات دون أن أعلم بشيء عن هذه القضيّة، ولولا الرسالة التي تلقيتَها ما عرفت شيئًا عنها مطلقًا»

ثمّ أضافت ما يُبيّن قلقها:

- «كلّ ما أخشاه الآن هو أن يكون لتلك الأحداث تداعيات ما زالت عالقة في نفسك دون أن تفصح عنها، كذلك

أجد نفسي قلقة على سلامتك من الأخطار التي يمكن أن تتعرّض لها، خاصّة أنّك كنت في يوم من الأيام مطاردًا في الكثير من دول العالم، حتّى مع علمي أنّها أحداث مرّ عليها زمن طويل».

كنتُ متفهمًا لأسباب قلقها الطبيعيّ، حاولت طمأنتها وابني الذي كان ينتظر بعينيه اللامعتين، كي يسمع ما يمكن أن يبدّد خوفه على سلامة أبيه:

- «عزيزتي سامية، اعلمي أنّ الزمن كان كفيلًا بمحو تلك الآثار النفسيّة والمرضيّة التي ترتّبتْ على تلك الأحداث، إلّا أنّها ستبقى ذكـرى محفورة في الذاكرة لا يمكن نسيانها، ولا داعي للقلق حول أيّ تداعيات أمنيّة أو شيء يهدّد سلامتي، فقد أُغلق ملفّ القضيّة منذ زمن طويل بعد آخر تحقيق أجري معي في السعوديّة عام 1987، كما أنّك تعلمين أنّني دائم السفر، وسبق لي أن زرتُ الكثير من دول العالم، وكنت سأعلم لو كان هناك شيء ما زال باقيًا ضدّي».

لكنّها راحت تُعيد السؤال بشكل مختلف يُبيّن عمق خوفها، قائلة:

- «ماذا لو أنّ اسمك ما يزال في قوائم الملاحقين؟ ماذا لو تعرّض لك أحد في حال سافرت إلى أيّ من الدول التي وقعت فيها الأحداث مثلًا؟».
- «لا تتركي الأوهـام تقلقك. تذكّري أنّني زرت الهند عدّة مرّات في السنوات الأخيرة، آخرها لحضور حفل زواج أحد أصدقائي في ولاية كيرلا عام 2008، كما زرت النيبال التي ترأستُ فيها مؤتمرًا آسيويًّا مهمًّا حول حقوق العمالة المهاجرة في دول مجموعة سارك، انعقد في العاصمة كاتمندو عام 2009، بل كانت لي لقاءات متعدّدة هناك مع جهات حكوميّة وأهليّة».
- «لم أكن في الحقيقة مهتمّة لزياراتك إلى أيّ من تلك الدول حينها، سيّما أنّك دائم السفر نتيجة عملك، لكن الأمر اختلف الآن خصوصًا بعد أن علمتُ بهذه القصّة المُؤَرِّقة».

وهنا سأل آدم بفضول:

- «هل التقيت في أثناء زيارتك بأيّ ممّن كانت لك بهم علاقة سابقة؟».

- «من المؤسف أنّني لم أستطع التعرّف إلى أيّ أحد منهم، ولا الأماكن التي جرت فيها الأحداث في أثناء زيارتي الأخيرة في عام 2009، بسبب تغيّر الكثير من معالم المدينة أو لصعوبة استعادتها من الذاكرة، عدا ذلك الفندق الكبير الذي كان يقطنه مازن رضوان منتحلًا اسم الشيخ القحطاني، عقدنا فيه اجتماعنا الآسيوي، ودعونا إليه نشطاء من مؤسّسات المجتمع المدنيّ في النيبال والهند وبقية دول مجموعة سارك على أمل لفت أنظار حكومات وشعوب هذه المنطقة لما تعانيه العمالة المهاجرة في الدول المصدرة والمستقبلة لها».

ثمّ أضفت:

- «للأسف وجدتُ أنّ النيبال ما زالت دولة شديدة الفقر، كما شاهدتها عند زيارتي لها أوّل مرّة، أمّا على المستوى السياسي فلم تعد مملكة كما كانت، شهدت عام 2001 مذبحة دمويّة سمّيت بمذبحة القصر الملكي، حين قام ولي العهد (ديابندرا) بإطلاق النار على والديه الملك (بيرندرا) والملكة (أيشواريا) وجميع أفراد العائلة قبل أن يُقدم على الانتحار، وتولّى بعد ذلك عمّه (جيناندرا)

الحكم، فكان آخر الملوك قبل أن تتحوّل إلى جمهوريّة اتحاديّة ديمقراطيّة في 2008».

كان آدم يشعر بالفضول لمعرفة المزيد:

- «وهل يعرف المسؤولون الذين التقيتهم ما سبق وحلّ بك هناك؟»
- «لا أحد يعرف ذلك، ولا خلفيّة علاقتي بالعمالة المهاجرة التي بدأتْ من هناك، أتجنّب دائمًا الخوض في هذا الموضوع الذي يستنهض ذكريات أليمة».

وهنا علقت زوجتي:

- «طوال هذه السنوات لا أتذكّر أنّك تحدّثت عن أو التقيت برجل الأعمال حسن البوراشد؟ وماذا عن مصير مازن رضوان؟»
- «لم ألتق السيّد البوراشد منذ ذلك الوقت، بل التزمت بما عاهدته عليه، لكنّني أتابعه من بعيد، وأعلم أنّه ما زال رجل أعمال ناجح وشريف كما عهدته دائمًا. أمّا مازن رضوان فلا أعلم شيئًا عنه عدا ما أخبرني به الضابط الذي نقلني إلى مطار الرياض، عند سفري إلى البحرين في ذلك اليوم الرمضاني عام 1987، أطلعني أنّه سيتمّ

تسليمه إلى باكستان أو أيّ من الدول التي تطالب به، بعد أن ينهي مجموع أحكامه في سجون السعوديّة، الأكيد أنّ حياته لن تكون مُرفّهة كأيام الشيخ القحطاني في النيبال».

أضاف آدم معلقًا:

- «لقد نال ما يستحقّ نتيجة ما اقترف بحقّ الناس الفقراء والعمال المهاجرين»
- «قضيّة العمّال المهاجرين تتجاوز ما اقترفه شخص واحد، وتتجاوز حدود تلك البلاد، كما أنّها أكبر من القصّة التي أطلعتكم عليها، تطورت هذه الانتهاكات وتعدّدت أساليبها وتوسّعت قاعدتها، وما شهدته في النيبال جانب يسير من قضيّة أكبر ممّا كنت أعتقده، أدركت ذلك مع مرور السنين، وتطوّر الوعي عندي حول هذا الموضوع.

أكملت:

- «الهجرة لا تقتصر على العمّال فقط، هناك الفارُّون من بلدانهم الفقيرة، وظروفهم المعيشيّة المتردّية، أو من ويلات الحروب والنزاعات المسلّحة، أو طغيان أنظمتهم الحاكمة. تزايدت أعدادهم في السنوات الأخيرة لتصل إلى ما يقارب من المائة وسبعين مليون إنسان حول

العالم في عام 2019، يشكّل حوالي خمسة بالمائة من القوى العاملة العالميّة التي أسهمت باجتهاد في المسيرة التنمويّة لكثير من دول العالم».

وأضفت:

- «رغـم إسهامات هـؤلاء، فـإنّ حقوقهم الإنسانيّة على المستوى التشريعيّ، وكذلك على مستوى الممارسة العمليّة، ظلّت مُنتقصة في معظم البلدان التي يصلون إليها، حتّى صاروا عرضة لخطاب الكراهية، يُنظر لهم أحيانا كمنافسين للعمالة الوطنيّة، أو من المتسبّبين لأزمة البطالة التي تعانيها الدول المستقبلة لهم».

هنا علّقت زوجتي:

- «بعد مرور كلّ هذا الوقت كيف ترى ما حصل لك هناك؟»
- «علّمتني جدّتي معصومة أن الغنيمة يجب أن تكون أكبر من الضريبة، وإلا فلا فائدة مما تقوم به. في هذه التجربة دفعت ضريبة كبيرة جدًا لم أتخيل أن أعيشها يومًا، لكن في الوقت نفسه، جنيت غنيمة عظيمة، إنها غنيمة التجربة. لقد حظيت بتجربة فريدة كانت بمثابة مصباح رؤية حملته معي في حياتي كلّها، ولولاها ما كنت أنا اليوم. أجد أنها

أول ما صقل شخصيتي الحقوقية، وسّعت مداركي، وفتحت عيني على خبايا واقع أليم، جعلتني متيقظًا، أعمق فهمًا وأكثر دراية بالواقع والناس والمجتمعات الأكثر بؤسًا. الإنسان الذي أحمله في داخلي الآن هو غنمية تلك التجربة. يكفيني ذلك كي أتجاوز مرارة ضريبتها».

وأضفت:

- «أنا لا أعتقد بصواب تقييم تلك المرحلة، ولا بعدالة محاكمتها بعقل اليوم الذي تقدّم كثيرًا بفضل التطوّر العلميّ والمعرفيّ وأدواتـه الجديدة، ولو عادت تلك الأحداث في هذا الزمن لكنتُ أجريت بحثًا سريعًا على الإنترنت حول شخصيّة الشيخ القحطانيّ، والتأكّد من مصداقيّة مزاعمه قبل أن أنخرط في أعماله، كما سأفعل الشيء نفسه قبل سفري إلى النيبال في سبيل معرفة الـدروب الأسهل والطرق الأيسر للوصول إلى هناك. هذا إلى جانب آخر وهو أنّ مستوى تفكير وعقل مَنْ هو في عمري ويحمل مقدار تجاربي اليوم يختلف عن ذلك الشاب ذي التاسعة عشر من العمر، كما تختلف المرحلة نفسها، ولو عدتُ إلى ذلك الزمن لفكّرت بعقل ذلك

الزمن لا اليوم، وهذا ما أقوله في كلّ مرّة أرى فيها من يسعى إلى تقييم حقب تاريخيّة أو محاكمتها».

هنا قال آدم وكأنّه قد تذكّر أمرًا:

- «وما علاقة الرسالة التي وصلتك بالأحداث التي قصصتها علينا»
- «نعم، وبعد أن استمعتم إلى القصّة كلها يمكنني إطلاعكم على فحوى هذه الرسالة كي تفهموا أسباب ردَّة فعلي».

الصديق العزيز نادر الفرج

لا أعرف كيف أعبّر لك عن مشاعري الجيّاشة. سعادتي لا توصف في هذه اللحظة التي أكتب فيها كلمات هذه الرسالة، متمنّية ألّا أكون قد أخطأت في حدسي الذي يؤكّد لي أنّك صديقنا نادر. الصديق الذي كنّا نبحث عنه منذ زمن طويل دون أن نعرف له أثرًا، حتّى اعتقد أغلب رفاقنا أنّك ربّما فارقت الحياة في مكان ما بالنيبال، وإن كنتُ الأقلّ تشاؤمًا وتبنيًا لهذه الفرضيّة السوداويّة، بل كان يحدوني الأمل دائما بأنّنا سنلتقي في يوم من الأيام، وسنعرف مبرّرات اختفائك.

صديقي العزيز..

لقد شاءت الأقدار بعد كلّ هذه السنوات الطويلة أن أشاهد مقابلة تلفزيونيّة كنتَ قد أجريتَها قبل بضع سنوات، في مقرّ إحدى المنظّمات الدوليّة بمدينة لندن، وفيها تتحدّث عن حقوق العمّال المهاجرين في منطقة الشرق الأوسط، وهي المفاجأة التي تلقيتها صباح هذا اليوم في رسالة إلكترونيّة بعثتها لي ابنتي أليكس، التي تعيش مع زوجها وطفليها في العاصمة البلجيكية بروكسل، بعد أن وجدتْ فيك الكثير من أوجه الشبه مع الصورة القديمة الراسخة في مخيلتها منذ طفولتها، وكذلك الاسم الذي يتطابق مع ذلك الذي طالما كرّرتُه على مسامعها، كلّما أتينا على ذكرى تلك الحقبة من حياتنا التي كنّا فيها معًا، انتهت باختفائك الغامض الذي جعلنا ولفترة زمنيّة طويلة نعيش حالة من الحزن والكآبة، لكنّي بعد هذه المقابلة رحت أبحث عنك في الإنترنت، حتّى تأكّد لي أنّك الرفيق المفقود لا محالة، الأمر الذي جعل من يومنا هذا الأكثر سعادة منذ سنوات طويلة، سعادة ستتضاعف عندما أتلقى اتصالًا هاتفيًا منّك بعد قراءتك الرسالة.

أمّا إنْ سألت عن أخباري فإنّني ومنذ أن فقدتُ زوجي قبل سنوات طويلة، التحقت بالجامعة مرّة أخرى، ودرست

علم الاجتماع حتّى نلت شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف. أعمل حاليًا أستاذة محاضرة في جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس، كما أنّ لي بعض الكتابات والندوات العديدة في مجال اختصاصيّ، وستجدها منشورة على الإنترنت. أمّا ابنتي التي كنتَ تلاعبها عندما كانت طفلة فهي تعمل في إخراج الأفلام الوثائقيّة في إحدى مؤسّسات الإنتاج المعروفة، وهذا ما قادنا لمشاهدة مقابلتك التلفزيونيّة التي أحيت عندنا الأمل بلقائك القريب مرّة أخرى.

وأخيرًا، أرجو منك أن تتواصل معي لحظة تلقيك هذه الرسالة، وتطمئنني عن أحوالك، وتطلعني على أخبارك، ثمّ نحدّد كيف لنا أن نلتقي مرّة أخرى.

كن بخير

السيّدة ماريا سلادينو

بعد أن انتهيت من قراءة الرسالة التفتت لي زوجتي بتأثّر واضح على وجهها، وتحدّثت بعبارات مفعمة بمشاعر الحبّ، وبعينين اغرورقتا بالدموع قائلة:

- «هـذه رسالة لطيفة جـدّاً، ومدهشة إلـى درجـة هزّت

أعماقي، وأرى لساني ينعقد في وصف ما تحمله من مشاعر وأسرار حقبة كانت مخفية، لكن ها هي معاناتك تنتهي بهذه المفاجأة السارّة التي لم تأتك من العدم، إنّما هي حصاد ما زرعته من أعمال طيبة».

دخل آدم على حديث والدته بسؤاله:

- «وماذا ستفعل يا أبي بعد هذه الرسالة؟»

لم يكن عندي ما أقوله عدا طلبي منه:

- «هيّا ناولني الهاتف لأجري الاتصال»

ملحق الصور

الشرفة المشتركة بين غرفتي المبنى المطل على النهر

السيدة مارينا التي تمثلها في الرواية السيدة ماريا سلادينو
وصورتين بين الماضي والحاضر

النيبال ١٩٨٤

النيبال ٢٠٠٨

زيارة لمدرسة تضم أبناء المهاجرين لأمريكا ٢٠٠٢

صورة حديثة للكاتب مع صديقة بدر الذي دعاه للدراسة الى الهند

كاتب القصة ورفاق الدراسة في الهند

حوارات الشرفة بين الكاتب ورفاق الدراسة

كاتب الرواية في حفل خيري لصالح ضحايا العمالة المهاجرة في ٢٠٠٥

الكاتب وكلب المبنى (الفانزو)، بونا الهند

النهاية